



W. Arthur Jeffery

GENERAL LIBRARY

William Lloyd Garrison

462573

تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِ

اصحاحي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

٧-٩

الجزء السابع

BP
130.4
.M372

v. 3

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

v. 3

حقوق الطبع محفوظة

189166

الجزء السابع

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ،
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ
مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ
رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ
الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا
قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ (٨٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

العداوة : البغضاء يظهر أثرها في القول والعمل ، والمودة : محبة يظهر أثرها في القول
والعمل ، والناس هم يهود الحجاز ومشركو العرب ونصارى الحبشة في عصر التنزيل ،

والقيسيون: واحد هم قسيس وقسوس واحد هم قسٌ ، وهو الرئيس الديني فوق الشمس ودون الأسقف ، والأصل في القيسيين أن يكونوا من أهل العلم بدينهم وكتبهم لأنهم رعاة، ومفتون ، والرهبان، واحد هم راهب، وهو المتبتل المنقطع في دير أو صومعة للعبادة وحرمان النفس من التمتع بالزوج والولد ولذات الطعام والزينة ، وذكر القيسيين والرهبان للجمع بين العباد والعلماء ، تفيض من الدمع أي تمتلئ دمعاً حتى يتدفق من جوانبها لكثرتة ، مع الشاهدين أي مع الذين يشهدون بحقية نبيك صلى الله عليه وسلم وكتابتك ، الإثابة: المجازاة ، وقوله بما قالوا أي بما قالوه عن اعتقاد .

المعنى الجملي

بعد أن حاج سبحانه وتعالى أهل الكتاب وذكر من مخازيهم أنهم اتخذوا الدين الإسلامي هزوا ولعباً وأن اليهود منهم قالوا يد الله مغلولة وأنهم قتلوا رسلهم تارة وكذبوهم أخرى ، وأن النصارى منهم اعتقدوا عقائد زائفة ، فنههم من قال المسيح ابن الله ، ومنهم من قال إن الله ثالث ثلاثة ، وقد عابهم على ذلك وكر عليهم بالحجة إثر الحجة لتنفيذ ما كانوا يعتقدون .

ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم للمؤمنين ومحبتهم لهم ومقدار تلك الحبة والعداوة ، وبين حال المشركين مع المؤمنين بالتبع لهم .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : « بعث النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر رجلاً سبعة قيسيين وخمسة رهبانا ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه قرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وآمنوا . وأنزل الله فيهم « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن أبي طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي ملك

الحبشة. فلما بلغ ذلك المشركين بعثوا عمرو بن العاص في رهط منهم ذكروا أنهم سبقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى فقالوا : إنه قد خرج فينا رجل سفه عمول قريش وأحلامها ، زعم أنه نبي وأنه بعث إليك رهطا ليفسدوا عليك قومك فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم ، قال إن جاءوني نظرت فيما يقولون ، فلما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتوا إلى باب النجاشى قالوا له استأذن لأولياء الله ، فقال أئذن لهم فرحبا بأولياء الله ، فلما دخلوا عليه سلموا ، فقال لهم ما يمنعكم أن تحيوني بتحيتي ، قالوا إنا حينئذ بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة ، فقال لهم ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قالوا : يقول عبد الله ورسوله وكلمة من الله وروح منه ألقاها إلى مريم ، ويقول في مريم إنها العذراء الطيبة البتول ، قال فأخذ عودا من الأرض فقال : ما زاد عيسى وأمه على ما قال صاحبكم هذا العود « أى مثله في صغره » فكره المشركون قوله وتغيرت له وجوههم فقال : هل تقرأون شيئا مما أنزل عليكم ؟ قالوا نعم . قال فاقروا فقرءوا وحوله التيسيون والرهبان وسائر النصارى فجعلت طائفة من التيسيين والرهبان كلما قرءوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق - وهذا ما أشار إليه بقوله « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

الإيضاح .

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) أى قسما لتجدن أيها الرسول أشد الناس عداوة للذين صدقوك واتبعوك وصدقوا بما جئتهم به اليهود والمشركين من عبدة الأوثان الذين اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله .
وأشد ما لاقى النبي صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء ، كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها ، ومن مشركى العرب ولا سيما مكة وما قرب منها .
وقد كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التى اقتضت عداوتهم الشديدة للمؤمنين كالكبر ، والعتو ، والبغى ، وغلبة الحياة المادية ، والأثرة

والقسوة ، وضعف عاطفة الحنان والرحمة ، والعصبية الجنسية ، والحمية القوية ، ولكن مشركي العرب على جاهليتهم كانوا أرق من اليهود قلوباً ، وأعظم سخاء وإيثاراً ، وأكثر حرية في الفكر واستقلالاً في الرأي .

وقدم سبحانه ذكر اليهود للإشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وصفوا به ، فضلاً عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض آخر ، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل .

ولم يكن ميلهم مع المسلمين في البلاد المقدسة والشام والأندلس إلا ميلاً وراء مصلحتهم الخاصة ، إذ هم تفيثوا ظلال عدلهم ، واستراحوا به من اضطهاد النصارى في تلك البلاد .

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) أى ولتجدن أقرب الناس محبة للذين آمنوا بك وصدقوك — الذين قالوا إنا نصارى ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة بمجاية المهاجرين الذين أرسلهم صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفاً عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم .

ولما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم رداً ، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع لجودهم على التقليد فاكتفى بالرد الحسن ، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه رداً ، وإن لم يكن أكثر منه ميلاً إلى الإسلام ، وأرسل للنبي صلى الله عليه وسلم هدية حسنة ، ثم لما فتحت مصر والشام وعرف أهلها ما للإسلام من مزايا أهرعوا إلى الدخول في الدين أفواجا وكان القبط أسرع إليه قبولاً .

والخلاصة — إن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة نصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين ، وأن من

توقف من ملوكهم عن الإسلام فما كان توقعه إلا ضنا بملكه ، وأن النجاشى أضحمة ملك الحبشة قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا ، ولكن الإسلام لم ينتشر فى الحبشة بعد موته ، ولم يهتم المسلمون بإقامة دينهم فى تلك البلاد كما فعلوا فى مصر والشام .

ثم بين الله تعالى سبب مودة النصارى للذين آمنوا فقال :
 (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) أى إن السبب فى هذه المودة أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم التعليم الدينى ويهذبون أخلاقهم ويربون فيهم الآداب والفضائل — ورهباناً يعودونهم الزهد والتقشف والإعراض عن زخرف الدنيا ونعيمها ، ويكبرون فى نفوسهم الخوف من الله والانتطاع لعبادته ، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر أنه الحق ، إذ من فضائل دينهم التواضع والتذلل والخضوع لكل حاكم ، بل إنهم أمروا بمحبة الأعداء ، وإدارة الخلد الأيسر لمن ضرب الخلد الأيمن . فكل أولئك يؤثر فى جمهور الأمة وسوادها الأعظم ، وقد عهد من النصارى قبول سلطة الخالف لهم طوعاً واختياراً ، بخلاف اليهود فإنهم إذا أظهروا الرضا اضطراراً أسروا الكيد وأضمرُوا المكر ، لأن الشريعة اليهودية تولد فى نفوسهم العصبية الجنسية والحمية القومية ، لأنها خاصة بشعب إسرائيل ، وأحكامها ونصوصها مبنية على ذلك .

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) أى وإذا سمع أولئك الذين قالوا إنا نصارى ما أنزل إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ترى أعينهم تفيض من الدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثيرته ، من أجل ما عرفوه من الحق الذى بينه لهم القرآن الكريم ولم يمنعهم ما يمنع غيرهم من عتو واستكبار .

ثم ذكر سبحانه ما يكون منهم من القول إثر بيان ما كان من حالهم فقال :
 (يقولون ربنا آمننا فآكتبنا مع الشاهدين) أى يقولون هذه المقالة قاصدين بها

إنشاء الإيمان والتضرع إلى الله والخضوع له بأن يتقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس ، لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم ومما يتناقلونه عن أسلافهم أن النبي الأخير الذى يكمل به الدين ويتم به التشريع العام يكون متبعوه شهداء على الناس ويكونون حجة على المشركين والمبطلين كما جاء فى الآية الأخرى « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » .

(وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) هذا من تمة كلامهم الذى قالوه ، والمعنى الذى أرادوه — أى أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو ، ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان هذا النبي الكريم ، بعد أن ظهر لنا أنه هو روح الحق الذى بشر به المسيح ؟ وإنا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة والفضائل والآداب الكاملة ، وهم أتباع هذا النبي الكريم الذين استبان لنا أثر صلاحهم وشاهدناه بأعيننا بعد ما كان منهم من فساد فى الأرض وعتو كبير فى جاهليتهم .

والخلاصة — إنه لا مانع لنا من هذا الإيمان بعد أن تظاهرت أسبابه وتحققت موجباته فوجب علينا الجرى على سننه واتباع نهجه وطريقه .

(فأنايبهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) أى فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب بما نظقت به أسنتهم معبراً عما فى قلوبهم من خالص الإيمان وصحيح الاعتقاد جنات وحدائق فى دار النعيم تجري من تحت أشجارها الوارفة الظلال ، الأنهار التى تسيل مياهها سلسبيلا ، يخلدون فيها أبداً فلا يسلبها منهم أحد ، ولا هم يرغبون عنها ويودون لو تركوها ، ومثل هذا الجزاء قد أعده الله لعباده الذين أخلصوا فى عقائدهم وأحسنوا أعمالهم ، وعلينا أن نقف فى وصف نعيم الآخرة على ما جاء به القرآن الكريم وصحت به السنة النبوية

ولا نعدو ذلك إلى ما وراءه ، فإن النعيم الروحاني والرضوان الإلهي لا يمكن أن يعبر عنه الكلام ولا يحيط به الوصف ، فنحن في عالم يخالف ذلك العالم في أوصافه وخواصه ، مهما أكثرنا من الوصف ، فلا نصل إلى شيء مما أعده الله لهم هناك « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

و بعد أن بين سبحانه ما أعد الله لعباده المحسنين من عظيم الثواب جزاء صادق إيمانهم ذكر هنا جزاء المسيئين إلى أنفسهم بالكفران والتكذيب جريا على سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد قال :

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) الجاحم والجحيم: ما اشتد حره من النار، أى وأما الذين جحدوا وتوحيد الله وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا بآيات كتابه فأولئك هم أصحاب النار وسكانها والمقيمون فيها لا يبرحونها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) .

المعنى الجملى

بعد أن مدح سبحانه النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً ، ظن المؤمنون أن في هذا ترغيباً في الرهبانية وظن الميالون للتشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله ، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء إما دائماً كما تمتنع الرهبان من الزواج ، وإما في أوقات معينة كأنواع الصيام التي ابتدعوها ، فأزال الله هذا الظن وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهى الصريح .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قال نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى ابن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبي حذيفة وقدامة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالاختصاص وأجمعوا على القيام بالليل وصيام النهار فنزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » الآية . فلما نزلت بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن لأنفسكم حقا ، وإن لأعينكم حقا ، وإن لأهلكم حقا ، فصلوا واناموا ، وصوموا وأفطروا فليس منا من ترك سنتنا » فقالوا اللهم صدقنا واتبعنا ما أنزلت مع الرسول .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الطيبات الأشياء التي تستلذها النفوس وتميل إليها القلوب أي لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات بأن تتركوا التمتع بها عمدا تنسكا وتقربا إلى الله ، ولا تعتدوا فيها وتجاوزوا حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد بأن تزيدوا على الشبع والرى ، أو تجعلوا التمتع بها أكبر همكم في الحياة ، أو تشغلكم عن الأمور النافعة من العلوم والأعمال المفيدة لكم ولبنى وطنكم ، والآية بمعنى قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » أو لا تعتدوها بتجاوزها إلى الخبائث المحرمة .

والخلاصة - إن الاعتداء يشمل أمرين الاعتداء فى الشئ نفسه بالإسراف فيه والاعتداء بتجاوزه إلى غيره مما ليس من جنسه وهو الخبائث .
(إن الله لا يحب المعتدين) أى لا يحب الله من يتجاوز حد شرائعه ولو بقصد عبادته وتحريم طبيياته التى أحلها ، سواء أكان التحريم من غير التزام بيمين أو نذر أو بالالتزام ، وكل منهما غير جائز .

والالتزام قد يكون لرياضة النفس وتهذيبها بالحرمان من الطيبات ، وقد يكون ناشئا عن بادرة غضب من زوجة أو ولد كمن يحلف بالله أو بالطلاق ألا يأكل من هذا الطعام أو نحوه من المباحات ، أو يقول إن فعل كذا فهو برىء من الإسلام أو من الله ورسوله أو نحو ذلك ؛ وكل هذا منهى عنه شرعا ولا يحرم على أحد شئ منها يحرمه على نفسه بهذه الأقوال ، ولا كفارة فى يمين يحلفه الخائف فى نحو ذلك عند الشافعى .

وتحريم الطيبات والزينة وتعذيب النفس من العبادات المأثورة عند قدماء اليهود واليونان قلدتهم فيها أهل الكتاب خصوصا النصارى فإنهم قد شددوا على أنفسهم وحرموا عليها ما لم تحرمه الكتب المقدسة على ما فيها من الشدة والصرامة والمبالغة فى الزهد .

ولما جاء الإسلام وأرسل الله نبيه محمدا خاتم النبيين بما فيه السعادة التامة للبشر فى دنياهم وآخرتهم أباح للبشر على لسانه الزينة والطيبات وأرشدهم إلى إعطاء البدن حقه والروح حقه ، فالإنسان ما هو إلا روح وجسد فيجب العدل بينهما ، وبذا كانت الأمة الإسلامية أمة وسطا تشهد على جميع الأمم وتكون حجة عليها يوم القيامة .

والحكمة فى ذلك النهى أن الله يجب أن يستعمل عباده نعمه فيما خلقت لأجله ويشكروه على ذلك ، ويكره لهم أن يحنوا على الشريعة التى شرعها لهم فيغلوا فيها بتحريم ما لم يحرمه ، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها بإباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه ،

وقد أشار إلى ذلك بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » وورد في الأثر « إن الله طيب لا يقبل
إلا طيباً » .

(وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) أى وكلوا مما رزقكم الله من الحلال
في نفسه لا من المحرمات كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ، ومن الحلال في كسبه
وتناوله بالألا يكون ربا ولا سجتا ولا سرقة ، مع كونه مستلزما غير مستقدر لذاته
أو لطارئ يطرأ عليه من فساد أو تغير لطول مكث ونحوه .

والأكل في الآية يراد به التمتع الشامل للشرب ونحوه من حلال غير مسكر
ولا ضار ، ومن كل طيب غير مستقدر في ذاته أو لطارئ يطرأ عليه .

والخلاصة - إنه ينبغي للمؤمن أن يتمتع بما تيسر له من الطيبات بلا تأثم ولا تخرج
ويحضر قلبه أنه عامل بشرع الله مقيم لسنة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، شاكر له
بالاعتراف والحمد والثناء عليه ، كما أن امتناعه عن الطيبات التي رزقه الله إياها مع
الداعية الفطرية إلى الاستمتاع بها ، إثم يجنيه على نفسه في الدنيا ويستحق به عقاب
الآخرة لزيادته في دين الله قربات لم يأذن بها ، ولإضاعة حقوق الله وحقوق عباده
كإضاعة حقوق امرأته وعبائه ، والتحرير والتحليل تشريع وهو من حقوق الله ،
فمن انتحلها لنفسه كان مدعيا الربوبية أو كالمدعى لها .

وعن الحسن البصرى : إن الله أدب عباده فأحسن أدبهم فقال : « لِيُنْفِقْ
ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ » ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر
قوما زواها عنهم فعصوه . وعنه أنه قيل له فلان لا يأكل الفالوذج ويقول لا أودى
شكره ، قال أفيشرب الماء البارد ؟ قالوا نعم ، قال إنه جاهل ، إن نعمة الله عليه في الماء
البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذج (البلوطة) .

(واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى اتقوه في الأكل واللباس والنساء
وغيرها ، فلا تفتاتوا عليه في تحليل ولا تحرير ، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل وما حرم

إذ من جعل شهوة بطنه أكبر همه كان من المسرفين، ومن بالغ في الشبع وعرض معدته وأمعاه للتخمة كان من المسرفين، ومن أنفق في ذلك أكثر من طاقته وعرض نفسه لنيل الدين أو أكل أموال الناس بالباطل فهو من المسرفين والله يقول « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

والخلاصة - أن هدى القرآن في الطيبات هو ما تقتضيه الفطرة السليمة المعتدلة من التمتع بها مع الاعتدال والتزام الحلال، والاعتدال هو الصراط المستقيم الذى يقل سالكه، فكثير من الناس يحميدون عنه ويميلون في التمتع إلى جانب الإفراط والإسراف، ويكونون كالأنعام بل أضل لأنهم يمجنون على أنفسهم حتى قال بعض الحكماء: إن أكثر الناس يحفرون قبورهم بأنسانهم .

وقليلون منهم ينحرفون إلى جانب التفريط والتقتير إما اضطرارا لبؤسهم وعدمهم، وإما اختيارا كالزهاد والمتقشفين .

وسبيل الاعتدال سبيل شاقة على النفوس عسرة على سالكها كلها تدل على فضيلة العقل ورجحانه .

والمعروف من سيرة الرسول أنه كان يأكل ما وجدته، فتارة يأكل أطيب الطعام كلحوم الأنعام والطيور والدجاج، وتارة يأكل أخشنه كخبز الشعير بالمالح أو الزيت أو النخل، وحينما يجوع وأخرى يشبع، فكان في كل ذلك قدوة للموسر والمعسر . وما كان يهمه أمر الطعام، لكنه كان يعنى بأمر الشراب ففي حديث عائشة « كان أحب الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلو البارد » قال المحدثون: ويدخل في ذلك الماء القراح والماء المحلى بالعسل أو نقيع التمر أو الزبيب .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ
بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ

مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ؛ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) .

تفسير المفردات

اللعو : فى اليمين قول الرجل فى الكلام من غير قصد لوالله و بلى والله ، بما عقدتم
الأيمان أى بما صمتم عليه منها وقصدتموه ، وأصل العقد نقيض الحل ، فعقد الأيمان
توكيدها بالقصد والغرض الصحيح ، وتعقيدها: المبالغة فى توكيدها، وأصل الكفارة من
الكفر ، وهو الستر والتغطية ثم صارت فى اصطلاح الشرع اسما لأعمال تكفر بعض
الذنوب والمؤاخذات أى تغطيتها وتخفيها حتى لا يكون لها أثر يؤاخذ به المرء لافى الدنيا
ولا فى الآخرة ، والأوسط أى الأغلب من الطعام فى البيوت لالدون الذى يتكشف به
أحيانا ولا الأعلى الذى يتوسع به أحيانا أخرى ، وتحرير الرقبة : هو إعتاق
الرقيق المملوك .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه وتعالى عن تحريم الطيبات وعن الاعتداء فيها وتجاوز
الحدود ، لأن قوما من المسلمين تنسكوا وحرموا على أنفسهم اللحم والنساء وغيرها
من الطيبات تقربا إلى الله - سألوا عما يصنعون بأيمانهم التى حلفوا عليها فأنزل الله تعالى
هذه الآية جوابا لهم عما سألوا .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت (بأيتها الذين آمنوا لا تحرموا
طيبات ما أحل الله لكم) فى القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم .
قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى : «لا يؤاخذكم

الله باللغو في أيمانكم)» وأخرج أبو الشيخ عن يعلى بن مسلم قال: سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية . . . قال اقرأ ما قبلها فقرأت (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم إلى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) .

الإيضاح

(لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) أي لا يؤاخذكم الله باللغو أي بالآيمان التي تخلفونها بلا قصد كما يقول الرجل في كلامه بدون قصد لا والله وبلى والله ، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة في الدنيا ولا إثم وعقوبة في الآخرة .
(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) أي ولكن يؤاخذكم بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أتم حنثكم فيه ، وهذه المؤاخذة بينها الله بعد بقوله :
(فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) أي فالذي يكفر عقد اليمين إذا نقض أو إذا أريد نقضه بالحنث به هو إحدى هذه المبرات الثلاث على سبيل التخيير :

(١) إطعام عشرة مساكين وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم لا من أردنه الذي يتقشفون به تارة ، ولا من أعلاه الذي يتوسعون به تارة أخرى كطعام العيد ونحوه مما تكرم به الأضياف فمن كان أكثر طعام أهله خبز البر وأكثر إدامه اللحم بالخضر أو بدونها فلا يجزئ ما دون ذلك مما يأكلونه إذا قرفت أنفسهم من كثرة أكل الدسم ليعود إليها نشاطها ، والأعلى مجزئ على كل حال لأنه من الوسط وزيادة، والثريد بالمرق وقليل من اللحم ، أو الخبز مع اللوخية ، أو الرز أو العدس ، من أوسط الطعام في مصر وكثير من الأقطار الشرقية الآن ، وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة في العصر الأول ، وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام .

(٢) كسوة عشرة مساكين ، وهي تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام فيجزئ في مصر القميص الطويل الذي يسمى (بالجلابية) مع السراويل أو بدونه ، وهذا يساوي الإزار والرداء أو العباءة في العصر الأول ولا يجزئ ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة ، ولا ما يلبس في الرجلين من الأحذية والجوارب ولا نحو منديل أو منشفة .

(٣) تحرير رقبة أى إعتاق رقيق ، وغلب استعمال الرقبة في المملوك والأسير ، وقد يعبر أحياناً عن ذلك بفك الرقبة كقوله تعالى : « فَكُّ رَقَبَةٍ » ولا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة فيجزئ عتق الكافرة عند أبي حنيفة ، واشترط الشافعي ومالك وأحمد إيمانها .

(فمن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام) أى فمن لم يستطع واحداً من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات ، فإن عجز عن ذلك لمرض ، صام عند القدرة ، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته .

والاستطاعة أن يجد ذلك القدر فاضلاً عن قوته وقوت عياله يومه وليلته وعن كسوته بقدر ما يطعم أو يكسو ، وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت آية الكفارة قال حذيفة يارسول الله نحن بالخيار فقال صلى الله عليه وسلم « أنت بالخيار إن شئت أعتقت ، وإن شئت كسوت وإن شئت أطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات » .

(ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) بالله أو بأحد أسمائه وحنثتم أو أردتم الحنث باليمين (واحفظوا أيمانكم) فلا تبدلوها في أنفس الأمور وأحقرها ، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلاً عن الأيمان الكاذبة قال تعالى : « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » وإذا حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ولا تحنثوا فيه إلا لضرورة تعرض أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً .

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) أى وعلى هذا النحو الشافى الوافى يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه ، ليعدكم ويؤهلكم بذلك

إلى شكر نعمه على الوجه الذى يحبه ويرضاه ويكون سببا فى المزيد من فضله وإحسانه .

وها هنا مسائل تتعلق بالإيمان يجمل بك أن تعرفها تكملة لدينك :

١ — لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته ؛ قال صلى الله عليه وسلم « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر ، ورويا أيضا عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وروى أحمد والبخارى عن ابن عمر قال : « كان أكثر ما يحلف به النبي صلى الله عليه وسلم لا ومقلب القلوب » والمحرم أن يحلف بغير الله حلفا يلتزم به ما حلف عليه والبر به فعلا أو تركا ، لأن الشارع جعل هذا خاصا بالحلف بالله وأسمائه وصفاته ، أما ما يجيء لتأكيد الكلام ويجرى على ألسنة الناس دون قصد لليمين فلا يدخل فى باب النهى نحو قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي « أفلح وأبيه إن صدق » .
ويدخل فى النهى الحلف بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به ، ولقد كان غلوّ الناس فى تعظيم أنبيائهم والصالحين منهم سببا فى هدم الدين واستبدال الوثنية به .

٢ — يجوز الحنث لمصلحة راجحة مع التكفير قبله لما رواه أحمد والشيخان فى صحيحيهما عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأتت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وفى لفظ عن أبى داود والنسائى « فكفر عن يمينك ثم أتت الذى هو خير » ودل اختلاف الرواية فى تقديم الأمر بالكفارة أو تأخيره على جواز الأمرين .
والحلف باعتبار المحلوف عليه أقسام :

(١) حلف على فعل واجب أو ترك حرام ، وهذا تأكيد لما كلف الله به فيحرم الحنث ويكون الإثم مضاعفا .

(ب) حلف على ترك واجب أو فعل محرم ، ويجب في هذا الحنث لأن اليمين معصية ، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما أو منع ذى حق حقه الواجب له ، والحلف على ترك المباح كالطيب من الطعام ، فإن في ذلك تشريعا بتحريم ما أحل الله كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات .

(ح) حلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، وهذا طاعة يندب له الوفاء به ويكره الحنث ، ومن ذلك الحلف على ترك طعام معين كالطعام الذى فى هذه الصفحة مثلا ، كما فعل عبد الله بن رواحة فى تحريمه الطعام على نفسه ثم أكله منه لأجل الضيف ، فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم « أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له فقال لامرأته حبست ضيفي من أجلى ؟ هو على حرام . فقالت امرأته هو على حرام ، قال الضيف هو على حرام ، فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا باسم الله ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد أصبت » فأنزل الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » .

٣ - الأيمان ثلاثة أقسام :

(١) ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم وهذه يمين غير منعقدة ، ولا كفارة فيها ، بل هى منهى عنها نهى تحريم لما تقدم من الأحاديث .

(ب) يمين بالله تعالى كقوله والله لأفعلن ، وهذه يمين منعقدة فيها الكفارة عند الحنث .

(ح) أيمان فى معنى الحلف بالله يريد بها الخالف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق كقوله إن فعلت كذا فعلى صيام شهر ، أو الحج إلى بيت الله ، أو الخل على حرام لا أفعل كذا ، أو الطلاق يلزمنى لأفعلن كذا ،

أو إن فعلته ففسأني طوائق أو عبيدي أحرار ، أو كل ما أملكه صدقة أو نحو ذلك .
والصحيح الموافق للأقوال الثابتة عن الصحابة ، وعليه يدل الكتاب والسنة أنه يجزئه
كفارة يمين في جميع ذلك كما قال تعالى : « ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ »
وقال : « قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِيلَةَ أَيْمَانِكُمْ » وثبت في الصحيح أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا فليأت الذي هو
خير وليكفر عن يمينه » .

٤ — الأيمان مبنية على العرف والنية لا على مدلولات اللغة واصطلاحات
الشرع ، فمن حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لا يحنث وإن سماه الله لحما طريا
إلا إن نواه أو كان يدخل في عموم اللحم في عرف قومه ، كما أن من يحلف غيره يمينا
على شيء فالعبرة بنية المحلف لا الحالف ، فقد روى مسلم وابن ماجه « اليمين على نية
المستحلف » .

واليمين الغموس التي يهضم بها الحق أو يقصد بها الخيانة والغش لا يكفرها عتق
ولا صدقة ولا صيام ، بل لا بد من التوبة وأداء الحق والاستقامة ؛ قال تعالى :
« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ
بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم :
« من حلف على يمين صبرٍ وهو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو
عليه غضبان » رواه البخاري ومسلم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ
رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا
 اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْمُوا أَمَّا عَلَيَّ رَسُولِنَا
 الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
 طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا
 وَأَحْسَنُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

شرح المفردات

الخمر : كل شراب مسكر ، والميسر : لغة القمار بالقداح في كل شيء ثم استعمل
 في كل مقامرة ، والأنصاب : حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وروى أنهم
 كانوا يعبدونها ويتقربون إليها ، والأزلام : قداح أى قطع رقيقة من الخشب بهيئة
 السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم ، والرجس : المستقذر
 حسا أو معنى ، يقال رجل رجس ورجال أرجاس ، والرجس على أوجه : إما من جهة
 الطبع ، وإما من جهة العقل ، وإما من جهة الشرع كالخمر والميسر ، وإما من كل
 ذلك كالميتة لأنها تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً ، والعداوة : تجاوز الحق إلى الإيذاء ، وطعم
 الشيء يطعمه : ذاق طعمه ، ثم استعمل في ذوق طعم الشيء من طعام وشراب ، ومن
 الأول « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى أكلتم ، ومن الثانى « فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ
 مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أى من لم يذق طعم مائه .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن تحريم ما أحل الله من الطيبات وأمر
 بأكل ما رزق الله من الحلال الطيب وكان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر ،
 لاجرم أن بين عز اسمه أنهما غير داخلين فيما يحل ، بل هما مما يحرم ؛ وقد روى

ابن جرير وابن مردويه في سبب نزول الآيات أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: « في نزل تحريم الخمر — صنع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر وذلك قبل تحريمها فتفاخروا فقالت الأنصار: الأنصار خير . وقالت قریش : قریش خير ، فأهوى رجل بلحى جزور (فك رأس جزور) فضرب على أنفي ففزره . قال فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فنزلت . »
وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته فيقول : صنع بي هذا أخى فلان والله لو كان رءوفا رحيا ما صنع بي هذا ، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم فأنزل الله هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر إلى قوله فهل أتم منتهون) فقال ناس من المتكافين : هي رجس وهي في بطن فلان قتل يوم بدر ، وفي بطن فلان قتل يوم أحد ، فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية .

وفي مسند أحمد ومسند أبي داود والترمذي « أن عمر كان يدعو الله تعالى : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فلما نزلت آية البقرة قرأها عليه النبي صلى الله عليه وسلم فظل على دعائه ، وكذلك لما نزلت آية النساء ، فلما نزلت آية المائدة دعى فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى (فهل أتم منتهون) قال اتهمنا اتهمنا . »

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مفرمين بحبها كافرين بها ، فلو حرمت في أول الإسلام لكان تحريمها صارفا لكثير من المدمنين لها عن الإسلام ومن ثم جاء تحريمها أولا في سورة البقرة على وجه فيه مجال للاجتهاد فيتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه ، ثم ذكرها في سورة النساء بما يقتضى تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، إذ نهى عن القرب من الصلاة في حال السكر فلم يبق لمن يصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء وضرره قليل ، والصبوح من بعد

صلاة الفجر لمن لا عمل له فلا يخشى أن يمتد سكره إلى وقت الظهر ، ثم تركهم الله على هذه الحال زمنا قويا فيه الدين وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثمها وضررها فحرمها تحريما باتا لا هوادة فيه .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت في البقرة « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعَ لِلنَّاسِ » شربها قوم لقوله (ومنافع للناس) وتركها قوم لقوله (إثم كبير) منهم عثمان بن مظعون حتى نزلت الآية التي في النساء « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فتركها قوم وشربها قوم يتركونها بالتمام حين الصلاة ويشربونها بالليل ، حتى نزلت الآية التي في المائدة (إنما الخمر والميسر) الآية قال عمر : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً لك وسحقاً . فتركها الناس ووقع في صدور أناس منها ، وقالوا ما حرم علينا شيء أشد من الخمر ، حتى جعل الرجل يلقي صاحبه فيقول إن في نفسي شيئا فيقول صاحبه لعلك تذكر الخمر ، فيقول نعم ، فيقول إن في نفسي مثل ما في نفسك حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه فقالوا : كيف نتكلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد (حاضر) وخافوا أن ينزل فيهم (أي قرآن) فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعدوا له حجة فقالوا : أرأيت حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش أليسوا في الجنة ؟ قال بلى ، قالوا أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر ؟ فحرم علينا شيء دخلوا الجنة وهم يشربونه ؟ فقال : (قد سمع الله ما قلتم ، فإن شاء أجبكم) فأنزل الله : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟) فقالوا انتهينا . ونزل في الذين ذكروا حمزة وأصحابه (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله إن الخمر التى تشربونها والميسر الذى تتيأسرونه والأنصاب التى تدبجون عندها والأزلام التى تستقسمون بها إثم سخطه الله وكرهه لكم ، وهو من عمل الشيطان وتحسينه لكم لامن الأعمال التى ندبكم إليها ربكم ولا مما يرضاه لكم .

(فاجتنبوه لعلكم تفلحون) أى فاتركوا هذا الرجس ولا تعملوه وكونوا فى جانب غير الجانب الذى هو فيه ، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم والتواد فيما بينكم .

وبعد أن أمر الله باجتنباب الخمر والميسر ذكر أن فيهما مفسدتين إحداهما دنيوية وثانيتها دينية وقد أشار إليهما بقوله :

(إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) أى إن الشيطان يريد لكم شرب الخمر ومياسرتكم بالقداح ليعادى بعضكم بعضا ويبغض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمياسرة ، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان وجمعه بينكم بأخوة الإسلام ، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذى به صلاح دنياكم وآخرتكم ، وعن الصلاة التى فرضها عليكم تزكية لنفوسكم وتطهيراً لقلوبكم؛ أما كون الخمر سبباً لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس حتى الأصدقاء منهم ، فلأن شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذى يمنع الإنسان من الأقوال والأعمال القبيحة التى تسوء الناس ، كما يستولى عليه حب الفخر الكاذب ويسرع إليه الغضب الباطل ، وكثيراً ما يجتمع الشرب على مائدة الشراب فيثير السكر كثيراً من ألوان البغضاء بينهم ، وقد ينشأ القتل والضرب والسلب والفسق والفجور وإفشاء الأسرار وهتك الأستار وخيانة الحكومات والأوطان .

وأما الميسر فهو مثار العداوة والبغضاء بين المتقامين ، فإن تعدهم فإلى الشامتين والعائنين ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين ، وكثيرا ما يفرط المقامر في حقوق الوالدين والزوج والأولاد حتى يوشك أن يمقته كل أحد .

والميسر مع ما فيه من التوسعة على المحتاجين ، فيه إجحاف بأرباب الأموال ، لأن من صار مغلوبا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه رجاء أن يغلب فيه مرة أخرى ، وقد يتفق ألا يحصل له ذلك إلى الأبقى له شيء من المال ، ولا شك أنه بعد ذلك سيصير فقيرا مسكينا ، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا له غالبين .

وأما صد الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة (وهما مفسدتهما الدينية) فذلك أظهر من كونهما ماثرا للعداوة والبغضاء (وهما مفسدتهما الاجتماعية) لأن كل سكرة من سكرات الخمر ، وكل مرة من لعب القمار تصد السكران واللاعب وتصرفه عن ذكر الله الذي هو روح الدين ، وعن الصلاة وهي عماد الدين إذ السكران لا عقل له يذكر به آلاء الله وآياته ويثنى عليه بأسمائه وصفاته ، أو يقيم الصلاة التي هي ذكر الله ، ولو ذكر السكران ربه وحاول الصلاة لم تصح له ، وكذلك المقامر تتوجه جميع قواه العقلية إلى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة فلا يتوجه همه إلى ذكر الله ولا يتذكر أوقات الصلاة وما يجب عليه من المحافظة عليها .

وقد دلت المشاهدة على أن القمار أكثر الأعمال التي تشغل القلب وتصرفه عن كل ما سواه بل يحدث الحريق في دار المقامر أو تحل المصائب بالأهل والولد ويستغاث به فلا يغيث ، بل يمضي في لعبه والنوادر في ذلك كثيرة .

إلى أن المقامر إذا تذكر الصلاة وترك اللعب لأجلها فإنه لا يؤدي منها إلا الحركات بدون أدنى تدبر أو خشوع ، لكنه على كل حال يفضل السكران إذ أنه لا يكاد يضبط أفعال الصلاة .

واللعب بالشطرنج أو بالنرد إذا كان على مال دخل في الميسر وكان حراما ، وإذا

لم يكن كذلك فلا وجه للقول بتحريمه إلا إذا تحقق كونه رجسا من عمل الشيطان موقعا في العداوة والبغضاء صادّا عن ذكر الله وعن الصلاة ، بأن كان من المكثرين اللعب أو ممن يداومون عليه ، والشافعي كرهه لما فيه من إضاعة الوقت بلا فائدة .

ولما بين جل اسمه علة تحريم الميسر وحكمته أكد ذلك التحريم فقال :

(فهل أتم منتهون) هذا أمر بالانتهاء جاء بأسلوب الاستفهام وكان ذلك غاية في البلاغة فكأنه قيل قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أتم مع كل هذا منتهون ؟ أو أتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا .
وقد أكد الله تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد :

(١) أنه سماها رجسا ، والرجس كلمة تدل على منتهى ما يكون من القبح والخبث ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « الخمر أم الخبائث » .

(٢) أنه قرنها بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك ، وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة قوله صلى الله عليه وسلم « مدمن الخمر كعابد وثن »
(٣) أنه جعلها من عمل الشيطان لما ينشأ عنهما من الشرور والظفیان

وسخط الرحمن .

(٤) أنه جعل اجتنابهما سبيلا للفلاح والفوز بالنجاة .

(٥ ، ٦) أنه جعلهما مثارا للعداوة والبغضاء ، وهما من أقبح المفاسد الدنيوية التي تولد كثيرا من المعاصي في الأموال والأعراض والأنفس .

(٧ ، ٨) أنهما جعلتا صادين عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهما روح الدين

وعماده وزاده وعتاده .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى وأطيعوا الله تعالى فيما أمركم به من اجتناب

الخمر والميسر وغيرهما من سائر المحرمات كالأزلام والأنصاب والأزلام ونحوهما وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم مما نزل عليكم من نحو قوله « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

(واحذروا) أى واحذروا ما يصيبكم إذا أتم خالتم أمرها من فتنة فى الدنيا وعذاب فى الآخرة فإنه سبحانه لم يحرم عليكم إلا ما فيه ضرر لكم فى دنياكم وآخرتكم كما قال : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى فإن توليتم وأعرضتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج من عهدة التبليغ والإعذار والإنذار ، وما فوق ذلك من عقاب للمخالف فأمره إلى الله كما قال عز اسمه « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » .

وفى هذا تهديد كثير ووعيد شديد لمن خالف أوامر الله وفعل نواهيه .

(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) أى ليس على الذين آمنوا وعملوا صالح الأعمال من الأحياء والأموات إثم ومواخذة فيما أكلوا من اليسر أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمها وتحريم غيرها مما لم يكن محرما ثم حرم ، إذا ما اتقوا الله وآمنوا بما كان قد نزل سبحانه من الأحكام وعملوا الصالحات التى كانت قد شرعت كالصلاة والصيام وغيرها ثم اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك عند العلم به ، وآمنوا بما نزل فيه وفى غيره ، ثم استمروا على التقوى وأحسنوا صالح أعمالهم فأتوا بها على وجه السكال وتمموا نقص فرائضها بنوافل الطاعات والله يحب المحسنين فلا يبقى فى قلوبهم أثرا من الآثار السيئة التى وصف بها الخمر واليسر من الإيقاع فى العداوة والصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

والخلاصة — إن من صح إيمانه وصلح عمله وعمل فى كل حين بنصوص الدين وما أداه إليه اجتهاده واستمر على ذلك حتى ارتقى إلى مقام الإحسان ، فلا يحول ما كان قد أكل أو شرب مما لم يكن محرما عليه على حسب اعتقاده — دون تزكية نفسه وتطهير قلبه .

روى أنه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر فنزلت الآية .

تمه - اختلف العلماء في التداوى بالخمر والنجاسات والسموم ، وأصح الآراء في ذلك أنه يجوز لما في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن للعربيين بالتداوى بأبوال الإبل ، بشرط الاضطرار الذي يبيح المحرم من طعام وشراب بدليل قوله تعالى : « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ » كمن غص بلقمة فكاد يخنق فلم يجد ما يسيغها به سوى الخمر ، وكمن أصابته نوبة ألم في القلب كادت تقضى عليه وقد أخبره الطبيب بأن لا سبيل لدفع الخطر سوى شرب مقدار من الخمر من النوع المعروف (باسم كونياك) فقد يرى الطبيب أنه يتعين في بعض الأحيان لعلاج ما يعرض من آلام القلب لدرء الخطر كما ثبت بالتجربة .

أما التداوى بالخمر لمن يظن نفعها ولو بإخبار الطبيب كتنقية المعدة أو الدم أو نحو ذلك مما سمعه من كثير من الناس فذلك منهي عنه للحديث « إنه ليس بدواء ولكنه داء » رواه أحمد ومسلم وأبو داود ، وكان سببه أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر وكان يصنعها فنهاه عنها فقال : إنما أصنعها للدواء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك .

وقوله : (ولكنه داء) هذا هو رأى الأطباء ، إذ أن المادة المسكرة من الخمر سم تتولد منها أمراض كثيرة يموت بها في كل عام عدد لا يحصى من الناس .

والذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوى يؤثر سهما في أعصابهم بكثرة التعاطى فتصير مطلوبة عندهم لذاتها فيضرم سهما ، فعلى المسلم الصادق الإيمان ألا يغتر برأى بعض الأطباء الذين يصفونها للتداوى لمثل الأمراض التي يصفونها لها عادة .

وقد دلت التجارب على أن الذين يتلون بشربها لا يقدمون على ذلك إلا باغراء المعاشرين من الأهل والأصحاب ، على استبشاعهم لها واعتقادهم ضررها ومخالفتهم

أوامر دينهم ، لكن الذى يسهل عليهم ذلك ظنهم أن الضرر المتيقن إنما يكون بالإسراف والانهماك فى الشراب ، وأن القليل منها إن لم يتفع فلا يضر ، فلا ينبغي تركه مع ما فيه من لذة النشوة والذهول عن هموم الدنيا والآمها .

إلى ما فى ذلك من مجاملة الإخوان ، لكنهم مخدوعون ؛ إذ هم لو سألوا من سبقهم إلى هذه البلوى وأسرف فى السكر حتى فسدت صحته ومروءته وضاعت ثروته ، هل كنت حين بدأت تفوى الإسراف والإدمان ؟ لأجابك بأنه ما كان يقصد إلا النذر القليل فى فترات متطاولة من الزمن ، وما كان يعلم أن القليل يجر إلى الكثير الذى يصيبه بالداء الدوى ولا يجد إلى الخلاص منه سبيلا .

وقد يعرض لبعض من يؤمن بجرمة الخمر شبهات فيقول إن الخمر المتخذة من العنب هى الحزمة لذاتها وأن ما عداها لا يحرم منه إلا المقدار المسكر فعلا ، لكنهم واهمون فيما فهموا ، إذ جاء فى الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

وآخر تعلق لهم الغرور بكرم الله وعفوه أو اعتمادهم على بعض الأعمال الصالحة - ولا سيما ما يسمونه بالمكفرات - أو على الشفاعات .

وهذا الجهل والغرور يصبح عقيدة فى نفوسهم بما يسمونه من كلام فساق الشعراء المدمنين كأبي نواس وأضرابه كقوله :

تكثر ما استطعت من المعاصى فإنك واجد ربا غفورا

وقوله : ورجوت عفو الله معتمدا على خير الأنام محمد المبعوث

ولو صح أمثال هذا الهديان لكان الدين لغوا وعبثا، ولكان المسلم يضرب بأوامر دينه عرض الحائط انتظارا لشفاعة ترجى أو غفور بما أتيج له من فضل ربه ، وكان التقى والفاجر سواء ؛ وقد ثبت فى صحيح الأحاديث « أنه كان يؤتى بالشارب فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيضرب بالأيدى والجريد وبالتياب والنعال » وفى حديث أنس : « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجزيرتين نحو أربعين »

قال وفعله أبو بكر ، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر ، وفي الصحيحين عن علي كرم الله وجهه : ما كنت لأقيم على أحد حدا فيموت وأجد في نفسي شيئا إلا صاحب الحجر فإنه لو مات وديته (أي دفعت ديته) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنه ، وفي صحيح مسلم « أن عثمان أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين ، وقال أزيدكم وشهد عليه الشهود أنه شرب الحجر ، فأمر بجلده وعلى كرم الله وجهه يعد حتى بلغ الأربعين فقال أمسك ، ثم قال جلد النبي وأبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة ، وهذا أحب إلي (يريد الأربعين) » وقوله كل سنة أي أنه جرى العمل به فعلا ، ولا يعارض ذلك قوله إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسن حد الحجر ، لأن ضربه أربعين مرة واحدة لا يعد سنة محددة له لأنه قد خالف ذلك في بعض الأحيان ، لكنه صار سنة يجزى أبي بكر عليه .

والخلاصة — إن العقاب المشروع على شرب الحجر هو الضرب الذي يراد منه إهانة الشارب وزجره وتنفير الناس منه ، وإن الضرب أربعين أو ثمانين كان اجتهادا من الخلفاء ، فاختار أبو بكر الأربعين وعمر الثمانين بموافقته لاجتهاد عبد الرحمن بن عوف بتشبيهه بحد قذف المحصنات ، وقد روى الدارقطني عن علي كرم الله وجهه قال : إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى وإذا هذى افتري ، وعلى المفتري ثمانون جلدة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُغْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ
قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ
مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ
صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ

مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا
لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

شرح المفردات

الابتلاء : الاختبار ، والصيد : ما صيد من حيوان البحر ومن حيوان البر
الوحشية للأكل ، وقوله تناله أيديكم ورماحكم : يراد به كثرته وسهولة أخذه ، وروى
عن ابن عباس أن ما يؤخذ بالأيدي صغاره وفراخه وما يؤخذ بالرماح كبارها ، ليعلم الله
أى ليعاملكم معاملة المختبر الذى يريد أن يعلم الشيء وإن كان علام الغيوب ،
والحرم : واحده حرام للذكر والأنثى ، تقول هو رجل حرام وامرأة حرام أى محرمة بحجج
أو عمرة ، والنعم والأنعام : من الإبل والبقر والضأن ، والعدل (بالفتح) المعادل للشيء
والمساوى له مما يدرك بالعقل (وبالكسر) المساوى له مما يدرك بالحس ، والوابل
من الوبل والوابل : وهو المطر الثقيل ، وطعام وبيل ثقيل ، ويقال للأمر الذى يخاف
ضرره هو وبال ، والبحر : المراد به الماء الكثير الذى يوجد فيه السمك كالأنهار
والآبار والبرك ونحوها ، وصيد البحر : ما يصاد منه مما يعيش فيه عادة ، وطعامه
ما قذف به إلى ساحله ، والسيارة : جماعة المسافرين يتزودون منه ، وتحشرون : تجتمعون
وتساقون إليه .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات ثم استثنى الخمر والميسر -
استثنى هنا مما لا يحل الصيد فى حال الإحرام وأوجب جزاء على قتله ، وبين أن
صيد البحر وطعامه حلال ، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية حيث ابتلاه الله بالصيد

وهم محرمون وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالمهم فيتمكنون من صيده أخذوا بأيديهم وطعنوا برماحهم .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم) أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ليختبرنكم الله بإرسال كثير من الصيد يسهل عليكم أخذ بعضه بأيديكم وبعضه برماحكم .

ووجه الابتلاء فى ذلك أن الصيد طعام لذيذ تشتد الحاجة إليه فى الأسفار الطويلة كالسفر إلى الجهات النائية ، إلى أن سهولة تناوله تغرى به ، إذ ترك ما لا ينال إلا بمشقة لا يدل على التقوى والخوف من الله كما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة . (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى يبتليكم الله حال إحرامكم ليعلم من يخافه غائبا عن نظر الناس غير مرأى ولا خائف من إنكارهم ، فيترك أخذ شيء من الصيد ويختار شطف العيش على لذة اللحم خوفا من الله تعالى وطاعة له فى خفيته .

والخلاصة — إنه تعالى يريد أن يعاملكم معاملة المختبر الذى يريد أن يعلم الشيء وإن كان هو علما به تربية لكم وتزكية لنفوسكم وتطهيرا لها .

(فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أى فمن اعتدى بأخذ شيء من ذلك الصيد بعد ذلك البيان الذى أخبركم الله تعالى به قبل حصوله ، فله عذاب شديد فى الآخرة ، إذ هو لم يبال باختبار الله له ، بل انتهك حرمة نواهيه ، وأبان أنه لا يخافه بالغيب ، بل يخاف لوم المؤمنين وتعذيرهم إذا هو أخذ شيئا من الصيد بمراى منهم ومسمع كما هو دأب المنافقين الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

(يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأتم حرم) أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تقتلوا الصيد الذى بينه لكم وهو صيد البر دون صيد البحر وأتم محرمون بحج أو عمرة .

(ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم) أى ومن قتل شيئا من الصيد وهو محرم قاصدا قتله فعليه جزاء من الأنعام مماثل لما قتله فى هيئته وصورته إن وجد ، فقد روى الدارقطنى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فى الضبع إذا أصابه المحرم كبش ، وفى الظبى شاة ، وفى الأرنب عناق » . (الأثنى من ولد المعز قبل أن تبلغ سنة) « وفى اليربوع جفرة » (الأثنى من ولد الضأن التى بلغت أربعة أشهر) وأخرج ابن أبى شيبه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الضبع صيد فإذا أصابه المحرم ففيه جزاء كبش مسنّ وتوكل » .

وإن لم يوجد المماثل من النعم فقيمته حيث صيد أو فى أقرب الأماكن إليه . وقتل المحرم بحج أو عمرة للصيد حرام بالإجماع لنفس الآية ، وأكل المحرم مما صاده من ليس بمحرم جائز ، لما روى : أن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلوا مما أهدى إليهم من لحم الحمار الوحشى .

والصيد الذى نهى عنه الآية هو كل حيوان وحشى يؤكل لحمه ، فلا جزاء فى قتل الأهلى ولا مالا يؤكل لحمه من السباع والحشرات ومنها الفواسق الخمس التى ورد الإذن بقتلها وهى الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور ، وألحق مالك بالكلب العقور الذئب والسميع والنمر والفهد لأنها أشد منه ضررا .

(يحكم به ذوا عدل منكم) أى يحكم بالجزاء من النعم وكونه مثل المقتول من الصيد رجلا من أهل العدالة والمعرفة من المؤمنين .

ووجه الحاجة إلى حكم العدلين أن المماثلة بين النعم والصيد مما يخفى على أكثر الناس ، ومالا مثل له بوجه من الوجوه يحكم فيه بالقيمة .

(هديا بالغ الكعبة) أى إن ذلك الجزاء يكون هديا يصل إلى الكعبة ويذبح فى جوارها حيث تؤدى المناسك ويفرق لحمه على مساكين الحرم :

(أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) أى فعلى من قتل الصيد وهو محرم متعمدا جزاء من النعم مماثل له ، أو كفارة طعام مساكين ، أو ما يعادل

ذلك الطعام من الصيام ، روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إذا قتل المحرم شيئا من الصيد فعليه فيه الجزاء ، فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل أيلًا (من بقر الوحش) فعليه بقرة ، فإن لم يجدها صام عشرين يوما ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحو ذلك فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينا ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوما والطعام مُدًّا مُدًّا يشبههم .

(ليذوق وبال أمره) أى أوجبنا ما أوجبنا من الحق أو الكفارة كي يذوق وبال أمره ، أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام أى فالزمناء الكفارة التى ألزمناه إياها ليكون ذلك عقوبة له إما بدفع الغرم وإما بالعمل ببدنه بما يتعبه ويشق عليه .
(عفا الله عما سلف) لكم من الصيد فى حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسالوه عن جوازه .

(ومن عاد فينتقم الله منه) أى ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم بعد ورود النهى فإن الله ينتقم ممن أصر على الذنب ، فهو ينكل به ويبالغ فى عقوبته وله العزة والمنعة .

(والله عزيز ذو انتقام) أى والله غالب على أمره فلا يغلبه العاصى ، ذو انتقام ومبالغة فى العقوبة ممن أصر على الذنب .

والآية صريحة فى أن الجزاء الدنيوى إنما يمنع عقاب الآخرة إذا لم يتكرر الذنب ، فإن تكرر استحق صاحبه الجزاء فى الدنيا والعقاب فى الآخرة .

(أحل لكم صيد البحر وطعامه) أى وأحل لكم ما صيد من البحر ثم مات وما قذفه البحر ميتا ، وروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وقتادة .

والخلاصة — إن المراد بطعامه عندهم مالا عمل الانسان فيه ولا كلفة فى اصطياده كالذى يطفو على وجهه والذى يقذف به إلى الساحل والذى ينحسر عنه الماء وقت الجزر ، ولا فرق بين حيه وميته .

(متاعا لكم وللسيارة) أى منفعة لمن كان منكم مقيا فى بلده يستمتع بأكله

وينتفع به ، ومنتعة للسائرين والمسافرين من أرض إلى أرض يتزودونه في سفرهم مليحا (سردين وفسيوخ) .

(وحرّم عليكم صيد البر مادتم حرمًا) أى وحرّم عليكم ما صدتم في البر وأنتم محرمون ، لا ما صاده غيركم ولا ما صدتموه قبل إحرامكم :
(واتقوا الله الذى إليه تحشرون) أى واحشوا الله واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما نهاكم عنه من جميع ما تقدم من الخمر واليسر والأنصاب والأزلام وإصابة صيد البر وقتله فى حال إحرامكم وفى نحو ذلك ، فإن إليه مصيركم ومرجعكم فيعاقبكم بمعصيتكم ويثيبكم على طاعتكم .

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ
وَالْهُدَى وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)

شرح المفردات

الكعبة فى اللغة : البيت المكعب أى المربع ، والقيام : ما يقوم به أمر الناس ويصلح ، والشهر الحرام : ذو الحجة ، والهدى : ما يهدى إلى الحرم من الأنعام توسعة على فقرائه ، والقلائد أى ذوات القلائد من الهدى ، وهى الأنعام التى كانوا يقلدونها إذا ساقوها هديا ، وخصها بالذكر لعظم شأنها .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فى الآية السالفة المحرم عن الاصطياد - بين هنا أن البيت الحرام كما أنه سبب لأمن الوحش والطير هو سبب لأمن الناس من الآفات والخاوف ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد)
 أى إن الله تعالى جعل الكعبة التى هى البيت الحرام قياما لمن يقيمون بجوارها ولن
 يحجون إليها - ذلك بأن مكة بلد لا ضرع فيه ولا زرع ، وكلما يوجد فيه ما يحتاج
 إليه أهله ، فجعل الله الكعبة معظمة فى القلوب يرغب الناس جميعا فى زيارتها
 والسفر إليها من كل فج ، وصار ذلك سببا فى إسباغ النعم على أهلها إجابة لدعاء
 إبراهيم صلوات الله عليه كما حكاه الله عنه بقوله : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي
 بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ
 النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

إلى أنها كانت قواما للناس فى دينهم بما جعل فيها من المناسك العظيمة
 والطاعات التى هى من أسباب حط خطيئاتهم ورفع درجاتهم .

إلى أن أهلها صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته والسادة المعظمين إلى يوم
 القيامة ، كما صاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، فقد كان العرب يتقاتلون ويغير
 بعضهم على بعض إلا فى الحرم حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم لم يتعرض
 له ، ولو جنى أعظم الجنایات لم يتعرض له كما قال تعالى : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا
 آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوِّهِمْ » .

وكذلك جعل الشهر الحرام سببا لقيام الناس ، لأن العرب كان يقتل بعضهم
 بعضا ، ويغير بعضهم على بعض فى سائر الأشهر حتى إذا دخل الشهر الحرام زال
 الخوف وقدروا على الأسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وكانوا
 يحصلون فيه من الأقوات ما يكفيهم طول العام ، ولولاها لتفانوا من الجوع والشدة .
 وكذلك جعل الهدى سببا لقيام الناس ، لأنه يهدى إلى البيت ويذبح ويفرق
 لحمه على الفقراء فيكون نسكا للمهدى وقواما لمعيشة الفقراء .

وكذلك جعل القلائد قياما للناس ، إذ أن من قصد البيت في الشهر الحرام لم يتعرض له أحد ، ومن قصده في غير الشهر الحرام ومعه هدى وقلده وقلده نفسه من لحاء شجر الحرم لم يتعرض له أحد ، لأن الله أوقع في قلوبهم تعظيم البيت ، فكل من قصده أو تقرب إليه صار آمنا من جميع الآفات والمخاوف .

(ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم) أى ذلك التدبير اللطيف لأجل أن تتفكروا في أنه تعالى يعلم ما في العالم العلوى والسفلى ، وأن علمه محيط بكل شيء .

والخلاصة — إن ذلك لم يكن إلا الحكمة بالغة صادرة عن علم بخفايا الأمور وغاياتها ، فكان دليلا على أنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض من أسباب الرزق ونظام الخلق وغير ذلك ، وأنه عليم بكل شيء فلا تخفى عليه خافية .

وقد عجزت جميع الأمم في القديم والحديث عن تأمين الناس في قطر من الأقطار في زمن معين من كل سنة بحيث لا يقع فيها قتل ولا قتال ولا عدوان .

اعلموا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُلْ
لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ (١٠٠)

المعنى الجملى

بعد أن أرشدنا في الآية السابقة إلى بعض آيات علمه في خلقه التى جعلها جعل البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد — نبهنا في هذه إلى أن العليم بكل شيء لا يمكن أن يترك الناس سدى ، فهو لم يخلفهم عبثا ، ومن ثم لا يليق

بحكمته وعدله أن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا أن يسوى بين الطيب والخبِيث فيجعل البر كالفاجر والمصلح كالمفسد ، بل لا بد من الجزاء بالحق ، لذلك جاءت هذه الآيات ترغيبا لعباده وترهيبا لهم ووعدا وووعيدا .

الإيضاح

(اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) أى اعلموا أن ربكم الذى لا يخفى عليه شىء من سرائر أعمالكم وعلايتها وهو محصيا عليكم ، شديد العقاب لمن دسّ نفسه بالشرك والفسوق والعصيان ، وغفار لذنوب من أطاعه وأتاب إليه ، رحيم به فلا يؤاخذ به بما فرط منه قبل الإيمان ، ولا بما عمله من سوء بجهالة إذا بادر إلى التوبة وأصلح عمله ، بل يستر ذنبه ويمحوه فلا يبقى له أثر مع إيمانه وعمله الصالح كما يستر الماء القدر القليل بما يغمره من الماء النقي الكثير .

وفى تقديم العقاب على المغفرة والرحمة إيماء إلى أن العقاب قد ينتهى بالمغفرة والرحمة ، لأن رحمته تعالى سبقت غضبه كما ورد فى صحيح الحديث ، ومن ثم يغفر كثيرا لمن ظلم نفسه ، قال تعالى : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

وبعد أن أبان سبحانه أن الجزاء بيد الله العليم بكل شىء ، ذكر وظيفة الرسول فقال :

(ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أى ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم بالإبذار بالعقاب بين يدي عذاب شديد ، والإعذار إليكم بما يقطع حججكم - إلا أن يؤدى الرسالة ثم إلينا الثواب على الطاعة وعلينا العقاب على المعصية ، ولا يخفى علينا المطيع لأوامرنا والعاصى التارك العمل بها إذ لا يغيب عنا شىء من ضمائر الصدور وظواهر أعمال النفوس ، فخلق بكم أن تتقونى ولا تعصوا أمرى .

وفى هذا وعيد شديد وتهديد لمن يخالف أوامر الله ويعصيه ، كما أن فيه إبطالا

لما عليه أهل الشرك والضلال من الخوف من معبوداتهم الباطلة والتماس الخلاص والنجاة من العذاب بشفاعتها .

وإخلاصة — إن الرسول ليس عليه إلا البلاغ لدين الله وشرعه ، وبعدهذ يكون المبلغون هم المسئولين عند الله ، والله الذي يعلم ما يبذون وما يكتمون من العقائد والأقوال والأفعال ، وهو الذي يجازيهم على حسب علمه المحيط بكل ذرة في الأرض والسموات ، ويكون جزاؤه حقا وعدلا ويزيد بعد ذلك من إحسانه عليه وفضله ، فاطلبوا سعادكم من أنفسكم وخافوا منها عليها .

وما ورد من الشفاعة في الآخرة فهو دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم يستجيبه الله فيظهر عقبه ما سبق به علمه واقتضته حكمته على حسب ما جاء في كتابه ، دون أن يكون مؤثرا في علم الله ولا في إرادته ، فالحدث لا يؤثر في القديم .

و بعد أن بين سبحانه أن الجزاء منوط بالأعمال أراد أن يبين ما يتعلق به الجزاء من صفات الأعمال والعاملين لها وأرشد إلى أن هناك حقيقتين مختلفتين يترتب على كل منهما ما يليق بها من الجزاء فقال

(قل لا يستوى الخبيث والطيب) أى قل أيها الرسول مخاطبا أمتك : لا يستوى الرديء والجيد من الأشياء والأعمال والأموال ، فلا يتساوى الضار والنافع ولا الفاسد والصالح ، ولا الحرام والحلال ، ولا الظالم والعاقل فلكل منها حكم يليق به عند الله الذي يضع كل شيء في موضعه على حسب علمه .

(ولو أعجبك كثرة الخبيث) أى ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الناس وجاههم ، أو من الأموال المحرمة لسهولة تناولها والتوسع في التمتع بها كأكل الربا والرشوة والخيانة .

وإخلاصة — أنهما لا يستويان لاني أنفسهما ولا عند الله ، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك وغرتك ، فصرت بعيدا عن إدراك تلك الحقيقة - وهي أن القليل

من الحلال خير من كثير الحرام حسن عاقبة فى الدنيا والآخرة ؛ ألا ترى أن القليل
الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الردى الذى لا يغنى غناه ولا يفيد فائدته
بل ربما يضر ويؤذى صاحبه .

فكذلك الحال بالنسبة إلى الناس ، فالقليل الطيب منهم خير من الكثير
الخبث ، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثيرة من الجبناء
المتخاذلين ، وجماعة قليلة من ذوى البصيرة والرأى تأتى من الأعمال ما يعجز عنه
الكثير من أهل الحق والبلاهة ، فالعبرة بالصفة لا بالعدد ، والكثرة لا تكون خيرا
إلا بعد التساوى فى الصفات الفاضلة .

(فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون) أى فاتقوا الله يا أرباب العقول
الراجحة ، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان ، فتفتروا بكثرة المال الخبيث وكثرة
أهل الباطل والفساد من الخبيثين ، فتقوى الله هى التى تجعلكم من الطيبين وبها
يرجى أن تكونوا من المفلحين الفائزين بخيرى الدنيا والآخرة ، وخص أولى الألباب
بالاعتبار لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التى ترشد إليها مقدماتها بعد
التأمل فى حقيقتها وصفاتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير
مذكر فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم ولا بما يسمعون بأذانهم ، كما يشاهد ويرى من
حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التى جمعت من الحرام ، وحال
الدول التى ذهب ريجها بخلوها من فضيلتى العلم والخلاق ، وورثها من كانوا أقل منهم
برجالا مالا إذ كانوا أفضل منهم أخلاقا وأعمالا .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ،
وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وظيفة الرسول وأنها تبليغ الرسالة وبيان شرع الله ودينه فحسب ، وبذا تبرأ ذمته - ناسب أن يصرح بأن الرسول قد أدى وظيفة البلاغ الذى كمل به الإسلام وأنه لا ينبغي للمؤمنين أن يكثروا عليه من السؤال لئلا يكون ذلك سببا لكثرة التكاليف التى يشق على الأمة احتمالها ، فيسرع إليها الفسوق عن أمر ربها .

روى أن هذه الآية نزلت من جرّاء أن قوما كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم امتحانا له أحيانا واستهزاء أحيانا أخرى ، فيقول له بعضهم من أبى ؟ ويقول بعضهم إذا ضلت ناقته أين ناقته ؟ ونحو ذلك .

روى أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وغيرهم عن أنس ابن مالك قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها وقال فيها : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، قال فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ، لهم حنين وبكاء مرتفع من الصدر ، فقال رجل من أبى ؟ قال فلان فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء) » وروى ابن جرير عن قتادة فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا) الآية ، قال : فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم ، فصعد المنبر فقال : (لا تسألونى اليوم عن شيء إلا بينته لكم) فأشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت لا ألثفت لا يميننا ولا شمالا إلا وجدت كل رجل لاقا رأسه فى ثوبه يبكى ، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله من أبى ؟ قال : (أبوك حذافة) قال ثم قام عمر فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد رسولا ، أعوذ بالله من شر الفتن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أرفى الخير والشر كالיום قط ، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » .

قال الزهرى : فقالت أم عبد الله بن حذافة : ما رأيت ولدا أعق منك ، أ كنت تأمن أن أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس ؟ فقال والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ، ثم قال : ذرونى ما تركتم ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) . »

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تسألوا عن أشياء من أمور الدين ودقائق التكليف ، أو من الأمور الغيبية أو الأسرار الخفية أو غير ذلك مما يحتمل أن يكون إظهارها سببا للمساءة ، إما بشدة التكليف وكثرتها ، وإما بظهور حقائق تفضح أهلها .

(وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التى من شأنها أن يكون إبدائها مما يسوءكم حين ينزل القرآن فى شأنها أو حكمها لأجل فهم ما نزل إليكم ، فإن الله يبدىه لكم على لسان رسوله .

قال الحافظ ابن كثير أى لا تستأنفوا السؤال عنها ، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق ، وقد ورد فى الحديث : « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يُحرّم فحرم من أجل مسألته » ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتهم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها .

وخلاصة ذلك — تحريم السؤال عن الأشياء التى من شأن إبدائها أن يسوء السائلين إلا فى حال واحدة وهى أن يكون قد نزل فى شأنها شيء من القرآن فيه

إجمال وأردتم السؤال عن بيانه ليظهر لكم ظهورا لا مراة فيه كما وقع في مسألة تحريم الخمر بعد نزول آية البقرة .

(عفا الله عنها والله غفور حلیم) أى إن هذه الأشياء مما نهيتم عن السؤال عنها لأنها مما عفا الله عنها بسكوته في كتابه وعدم تكليفكم إياها فاسكتوا عنها أيضا ، ومما يؤيد هذا حديث أبي ثعلبة الخشني قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

وقد يكون المعنى — عفا الله عما كان من مسألتكم قبل النهى فلا يعاقبكم عليها لسعة مغفرته وحلمه ، فيكون هذا كقوله في الآية الأخرى « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ » وقوله : « إِلَّا مَا سَلَفَ » .

(قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أى قد سأل هذه المسائل (أى أمثالها) قوم من قبلكم ثم أصبحوا بعد إبدائها كافرين بها ، فإن من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة لم يعملوا بما بين لهم منها ، بل فسقوا عن أمر ربهم وألقوا شرعهم وراءهم ظهريا استتقالا للعمل به ، وأدى ذلك إما إلى استنكاره ، وإما إلى جحود كونه من عند الله ، وسواء أكان هذا أم ذلك فهو كفران به ، انظر إلى قوم صالح فإنهم بعد أن سألوا الآيات وأجيبوا إلى ما طلبوا لم يؤمنوا بما أوتوا بل كفروا فاستحقوا الهلاك في الدنيا قبل عذاب الآخرة .

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ؟ (١٠٤)

شرح المفردات

البحيرة — الناقة التي يبحرون أذنبا أى يشقونها شقا واسعاً ، وكانوا يفعلون بها ذلك إذا نُتِجَت خمسة أبطن وكان الخلمس أنثى كما روى عن ابن عباس .

والسائبة — الناقة التي تسبب بنذرها لآلهمم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها شيء ، ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها إلا لضيف .

والوصيلة — الشاة التي تصل أخاها فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً كان لآلهمم ، وإذا ولدت أنثى كانت لهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبجوا الذكر لآلهمم .

والحامى — الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن ، فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

المعنى الجملى

بعد أن نهى فى الآية السابقة عن تحريم ما أحل الله بالنذر أو بالحلف باسم الله تنسكا وتعبدا مع اعتقاد إباحته فى نفسه ، وعن الاعتداء فيه ، ونهى أن يكون المؤمن سببا لتحريم شيء لم يكن الله قد حرمه أو شرع حكم لم يكن الله قد شرعه ، بأن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء مما سكت الله عنه عفوا وفضلا .

ناسب بعد هذا أن يبين ضلال أهل الجاهلية فيما حرموه على أنفسهم وما شرعوه لها بغير إذن من ربهم وما قلده فيه بعضهم بعضا على جهلهم ، كما بين بطلان التقليد ومنافاته للعلم والدين .

الإيضاح

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) أى ما بحر الله بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حاميا أى ما شرع ذلك ولا أمر به وما جعله ديننا لهم ، وهذا رد وإبطال لما كان يفعله أهل الجاهلية فى جاهليتهم .

(ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) إذ يفعلون ما يفعلون ويؤمنون أن الله يأمرهم بهذا ، وأول من سن لأهل الشرك تلك السنن الرديئة وغير دين الله دين الحق وأضاف إليه أنه هو الذى حرم ما حرموا وأحل ما أحلوا افتراء على الله الكذب واختلافا عليه -- هو عمرو بن لُحى الخزاعى ، فهو الذى غير دين إبراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى .

أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا أكنتم بن الجون « يا أكنتم عرُضت على النار ، فرأيت فيها عمرو بن لُحى ابن قعدة بن خندف يجر قُصبه (القصب المسمى وجمعه الأقباص) فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك ، فقال أكنتم أخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إسماعيل وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى .»

(وأكثرهم لا يعقلون) أنهم يفترون على الله الكذب بتحريم ما حرموا على أنفسهم ، وأن ذلك من أعمال الكفر ، بل يظنون أنهم يتقربون به إليه ولو بالوساطة لأن آلهتهم التى يسيبون باسمها السوائب ويتركون لها ما حرموه على أنفسهم ، ليست إلا وسطاء بينهم وبين الله بزعمهم ، تشفع لهم عندهم وتقربهم إليه زلفى .

والعبرة من هذا أن كل مبتدع فى الدين بتحريم طعام أو غيره ، وتسيب عجل للسيد البدوى أو سواه ، وسن ورد أو حزب يضاهى به المشروع من شعائر الدين ، أو نحو ذلك من العبادات التى لم تؤثر من الشارع ، زاعما أنه جاء بما يتقرب به الله تعالى

وينال به رضاه ، فقد ضاهى بعمله عمل عمرو بن لحي ، لأن الله لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فلا عبادة ولا تحريم إلا بنص ، وليس لأحد أن يزيد أو ينقص برأى ولا قياس .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أى وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله فى القرآن من الأحكام المؤيدة بالحجج والبراهين ، وإلى الرسول المبلغ لها والمبين لمجملها فاتبعوه فيها ، أجاوبوا من يدعونهم إلى ذلك حسبنا ما وجدنا آباءنا يعملون به ، ونحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة فرد الله عليهم قولهم :

(أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟) أى أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الشرائع ولا يهتدون سبيلاً إلى المصالح ، سواء أكانت دينية أم دنيوية ، ولا يعرف ما يكفى الأفراد والأمم إلا بالعلم الصحيح الذى يميز به بين الحق والباطل ، فأولئك قوم أميون يتخبطون فى ظلمات من الوثنية وخرافات من معتقدات الجاهلية ، فمن وأد للبنات إلى سلب ونهب وإغارات من بعضهم على بعض ، ومن قتال تُشْتَجِرُ فيه الرماح ، إلى عداوة و بغضاء تملأ السهول والبطاح ، ومن ظلم لليتامى والنساء إلى تفنن فى الشعوذة وضروب السحر والكهانة ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ آباءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَايِنُوا أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على المشركين ما هم عليه من جهل وعناد ، وطغيان وفساد ، وأنهم لم ينتفعوا بإعذار ولا إنذار ، بل بقوا مصرين على جهلهم سادرين فى ضلالهم .

أمر المؤمنين بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح ، وأبان لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وعمل وتعليم وإرشاد فلا يضيرهم بعد ذلك ضلال من ضل وحاد عن الصراط السوي ، وسار سادرا في غلواء الجهل والتقليد وتنكب عن جادة الحق .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) أى احفظوا أنفسكم من المعاصي وانظروا فيما يقربها من ربها ويخلصها من عقابه ، ولا يضركم ضلال غيركم إذا أنتم اهتديتم « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) أى إليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عما اهتديتم إليه فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون في الدنيا ويجزىكم به .

روى ابن كثير أن أبا بكر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وروى الترمذى عن أبي أمية الشيبانى قال : « أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت ما تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية ؟ قلت قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل أنتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الحجر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم » .

وروى ابن جرير عن ابن عقال قال : قيل لابن عمر لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ، فإن الله قال (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال ابن عمر : إنها ليست لي وللاصحابي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا ليبلغ الشاهد الغائب » فكنا نحن الشهود وأتم الغيب ، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم .

والمخالصة — إن الرواة من السلف متفقون على أن المؤمن لا يكون مهتديا إذا أصلح نفسه ولم يهتم بإصلاح غيره بأن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وأن ذلك فرض لا هوادة فيه .

ولكن هذه الفريضة تسقط إذا فسد الناس فسادا لا يرجي معه تأثير الوعظ والإرشاد ، أو فسادا يؤدي إلى إيذاء الواعظ للمرشد ، بأن يعلم أو يظن ظنا قويا بأن لا فائدة من نصحه ، أو بأنه سيؤذي إذا هو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، ويحرم عليه ذلك إذا أدى إلى الوقوع في التهلكة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ
الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ
فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا
نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا
إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ ،
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ، أَوْ يَخَافُوا أَنْ

ثُرْدًا أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

شرح المفردات

الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة ، وضربتم في الأرض:
سافرتهم ، وتجبسونهما: تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق والحرب ، وارتبتم: شككتم
في صدقتهما فيما يقران به ، ومن الآمنين: العاصين ، وعثر من العثر على الشيء: وهو
الاطلاع عليه من غير سبق طلب له ، وأعثره عليه: وقفه عليه وأعلمه به من حيث
لم يكن يتوقع ذلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه في الآية السالفة أن المرجع إليه بعد الموت ، وأنه لا بد
من الحساب والجزاء يوم القيامة — أرشدنا إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت وأنه
تجب العناية بالإشهاد عليها حتى لا تضيع على مستحقيها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: « كان تميم الدارى وعدى بن بداء
رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبي
صلى الله عليه وسلم حولا متجرهما إلى المدينة ، فخرج بديل مولى عمرو بن العاص
تاجرا حتى قدم المدينة ، فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام حتى إذا كانوا ببعض الطريق
اشتكى بديل ، فكتب وصية بيده ثم دسها في متاعه وأوصى إليهما ، فلما مات فتحا
متاعه فأخذوا منه شيئا ثم حجراه كما كان ، وقدما المدينة على أهله فدفعوا متاعه ، ففتح
أهله متاعه فوجدوا كتابه وعيده وما خرج به ، وفقدوا شيئا فسألوهما عنه فقالوا هذا
الذى قبضنا له ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا ما كتمنا له شيئا ، فترافعوا
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا

حضر أحدكم الموت - إلى قوله إنا إذا لمن الآثمين) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوها في دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا ، فكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموه بالذهب فقال أهله هذا من متاعه ، قالوا نعم ولكننا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (فإن عثر على أنهما استحقا إثما) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتبا وغيبا ويستحقانه .

ثم إن تيميا الدارى أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء ، ثم قال يا رسول الله إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لي قرية عبنون من بيت لحم وهي القرية التي ولد فيها عيسى ، فكتب له بها كتابا ، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر أنا حاضر ذلك فدفعها إليه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) أى الشهادة المشروعة بينكم فى ذلك هى شهادة اثنين من رجالكم من ذوى العدل والاستقامة يُشهدهما الموصى على وصيته ، فيشهدان بذلك عند الحاجة وقوله منكم أى من المؤمنين .

(أو آخران من غيركم إن أتم ضربتم فى الأرض فأصابكم مصيبة الموت) أى أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين ونزلت بكم مقدمات الموت وعلاماته وأردتم الإيضاء ، ولا يخفى ما فى الآية من تأكيد الوصية والإشهاد عليها . (تجبسونهما من بعد الصلاة) المراد بالصلاة صلاة العصر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلف عديا وتيميا بعدها ، ولأن العمل قد جرى عليه فكان التحليف فيه

هو المعروف ، ولأنه هو الوقت الذي يقعد فيه الحكام للفصل في المظالم والدعاوى ، إذ يكون الناس قد فرغوا من معظم أعمال النهار ، وروى عن ابن عباس أن الشهيدين إذا كانا غير مسلمين ، فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما .

(فيقسمان بالله إن ارتبتم) أى وتستقسمون الشاهدين وتطلبون حلفهما على الوصية ، إن شككتم في صدقهما فيقسمان ، أما الأمين فيصدق بلا يمين .
 (لانشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى) أى يقسمان بقولها لانشتري بيمين الله ثمنا ولو كان المقسم له من أقاربنا : أى لانجعل يمين الله كالسلعة التى تبذل لأجل ثمن ينتفع به فى الدنيا ، ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ » .

والخلاصة — أن يقول الحالف : إنه يشهد لله بالقسط ولا يصدده عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه ولا مراعاة قريب له إن فرض أن فى إقراره وقسمه نفعاله — أى ولو اجتمعت هاتان الفائدتان .

(ولا نكتم شهادة الله) أى ويقولان فى يمينهما أيضا : ولا نكتم الشهادة التى أوجبها الله وأمر أن تقام له كما قال : « وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » .
 (إنا إذا لمن الآئمين) أى إنا إذا فعلنا ذلك واشترينا بالقسم ثمنا أو راعينا به قريبا بأن كذبنا فيه لمنفعة لأنفسنا أو لذوى قرابتنا ، أو كتمنا شهادة الله كلا أو بعضا لكننا من المتحملين للإثم المستحقين للجزاء عليه .

(فإن عثر على أنهما استحقا إثما فأخراهم يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان) أى فإن اتفق وحصل الاطلاع على أن الشهيدين الحالفين استحقا إثما بكذب فى الشهادة أو بالخيانة ويكتمان شىء من التركة فى حال أيمانها عليهما أو كتمان فى الشهادة — فالواجب حينئذ أن ترد اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجالان

آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له ، وهذان الرجلان الوارثان ينبغى أن يكونا هما الأوليين بالميت أى الأقرب بين الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع .
وعلى هذا فالأوليان فاعل استحق ومفعوله محذوف يقدر بنحو قولنا ما أوصى به
أو ما تركه أى من الورثة الذين استحق الأوليان من بينهم ما أوصى به .

(فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا) المراد بالشهادة اليمين
كما فى قوله تعالى : « فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ » أى فيحلفان بالله
لأيماننا على خيانة الشهيدان اللذين حلفا على وصية ميتهما أحق وأصدق من أيمانهما ،
وأنتهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة .

(إنا إذا لمن الظالمين) أى ويقولان فى يمينهما إنا إذا اعتدينا الحق فحلفنا مبطلين
كاذبين — لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه .

ثم بين سبحانه الحكمة فى شرع هذه الشهادة وهذه الأيمان فقال :
(ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم)
أى ذلك الذى شرعناه من تكليف المؤمن على الوصية أن يقوم على رأى من الناس
ويشهد بعد الصلاة ويقسم الأيمان المغلظة ، أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدى الشهداء
الشهادة على وجهها بلا تبديل ولا تغيير ، تعظيماً لله ورهبة من عذابه ورغبة فى ثوابه ،
أو خوفاً من الفضيحة التى تعقب استحقاقهما الإثم فى الشهادة برد أيمان الورثة بعد
أيمانهم تكون مبطله لها ، إذ من لم يمنعه خوف الله وتعظيمه أن يكذب لضعف دينه
يمنعه خوف الخزي والفضيحة بين الناس .

(واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى واتقوا الله وراقبوه
فى أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة ، وأن تخونوا من أئمتكم ، واسمعوا ما يقال لكم
وما توعظون به سمع إجابة وقبول لهذه الأحكام وغيرها ، فإن لم تتقوا كنتم فاسقين
عن أمر الله مطرودين من هدايته مستحقين لعقابه .

وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين فوائد وأحكاماً نذكر أهمها فيما يلى :

- (١) الحث على الوصية وعدم التهاون في أمرها في سفر أو حضر .
- (٢) الإشهاد عليها لتثبيت أمرها والرجاء في تنفيذها .
- (٣) بيان أن الأصل في الشاهدين عليها أن يكونا مؤمنين موثوقا بعدالتهما .
- (٤) بيان أن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع ، لأن مقصد الشارع منها إذا لم يمكن أدائه على وجه الكمال فلا يترك البتة .
- (٥) شرعية اختيار الأوقات التي تؤثر في قلوب الشهود ومقسمى الأيمان رجاء أن يصدقوا ويبروا فيها .
- (٦) التغليظ على الخالف بصيغة اليمين بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعا للخالف عن الكذب .
- (٧) إن الأصل في أخبار الناس وشهاداتهم أن تكون مصدقة مقبولة ، ومن ثم شرط في تحليف الشاهدين الارتياح في خيرها .
- (٨) شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكم والخصوم في شهادتهم ، وهو الذي عليه العمل الآن في أكثر الأمم وقد حتمته القوانين الوضعية لكثرة ما يقع من شهادة الزور .
- (٩) شرعية رد اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق له بيمين صار حالفا خصما له .
- (١٠) إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة في أمر يتعلق بالتركة فأولاهم بذلك أقربهم إليه .

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ
 أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي
 عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ، إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

وَكَهَلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ،
وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ،
وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي
وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
يَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ
اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ
عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا
لِأَوْلَانَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ
إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ
أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) .

شرح المفردات

روح القدس : هو ملك الوحي الذى يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلهى والتثبيت
فى المواطن التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها ، والكتاب : كل ما يكتب ، والحكمة :
العلم الصحيح الذى يبعث الإنسان على نافع العمل مع الفقه لأسرار ما يعلم ، والتوراة :
ما أوحاه الله إلى موسى من الشرائع والأحكام ، والإنجيل : ما أوحاه إلى عيسى ،
والخلق : التقدير أى جعل الشيء بمقدار معين ، ويستعمل فى إيجاد الله الأشياء بتقدير

معين في علمه ، والأ كنه : من ولد أعمى ، وقد يطلق على من عمى بعد الولادة أيضا ،
والسحر : تمويه وتخيل به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته ، والحواريون : واحد
حواري ، وهو من أخلص سرا وجهرا في مودتك ، وحواريو الأنبياء : المخلصون لهم ،
والمائدة : الخوان الذي عليه الطعام أو الطعام نفسه ، ويستطيع أى يطيع ويرضى : والعيد ،
تارة يراد به الفرح والسرور ، وتارة يراد به الموسم الدينى أو المذنى الذى يجتمع له الناس
في يوم معين من السنة للعبادة أو لأمر من أمور الدنيا ، وآية منك : أى علامة على
صدقى فى دعوى نبوتى .

الإيضاح

(يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟) أى واذا كرأبها الرسول يوم يجمع الله
الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ أى أى إجابة أجبتم ؟ إجابة إيمان وإقرار ؟ أم إجابة إنكار
واستكبار ؟ فهو سؤال عن نوع الإجابة لا عن الجواب ماذا كان ، والمراد من السؤال
توبيخ أمهم وإقامة الحججة على الكافرين منهم .

وهذا السؤال للرسل من وادى سؤال الموءودة فى قوله تعالى : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ
سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » فى أن كلا منهما وجه فيه السؤال إلى الشاهد دون
المتهم للتوبيخ والإنكار على الفعل ، وليوم القيامة مواقف ، فى بعضها يشهد الرسل
على أمهم ، وفى بعض آخر يسأل الله الأمم كما يشاهد لدى قضاة التحقيق ، فقد يسأل
الخصم حينما والشهود حينما آخر ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » .

ومن قبل أن الله تعالى يسأل كلا من الفريقين عما هو أعلم به ، وكان الرسل
صلوات الله عليهم على علم يقينى بما سئلوا عنه — كان جوابهم الآتى الدال على نفى
العلم عن أنفسهم وتفويضه إلى علام الغيوب فى أول عهدهم بالسؤال — لأحد أمرين :
أولها ما اختاره ابن عباس من أنهم قالوا ذلك لنتقصان علمهم بالنسبة إلى علمه تعالى ،

فإن الله يعلم ما أظهروا وما أضمروا وهم لا يعلمون إلا ما أظهروا ، فعلمه أنفذ من علمهم .
وثانيهما أن ما يفاجئهم من هول ذلك اليوم وفزعهم يذهلهم عن الجواب إذ ينسون
أكثر الأمور ، وهناك يقولون لاعلم لنا ، فإذا عادت إليهم قلوبهم يشهدون لأمرهم
ونقل هذا عن الحسن ومجاهد والسدي ، وذلك في قوله تعالى : (قالوا لاعلم لنا إلا
ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب) .

فخلاصة هذا على رأى ابن عباس أن المراد نفي علم الإحاطة والشمول الخاص
بأن الله تعالى بدليل قولهم أنت علام الغيوب أى كثير العلم بكثرة المعلومات .

وبعد أن ذكر سؤال الرسل وجوابهم إجمالاً بين سؤال واحد منهم بالتفصيل
وجوابه لإقامة الحججة على من يدعون اتباعه ، ولكن قدم قبل هذا ما خاطب به
هذا الرسول من بداية نعمته عليه وآياته التي كانت سبباً في فتنه الناس به فقال :

(إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح
القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً) أى اذكر إنعامي عليك وعلى والدتك حين
تأييدى إياك بروح القدس وتكليمك الناس في المهد بما يبرى أمك من قول الأئمة
الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أباه ، وذلك قوله :
« إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا » وكهلاً حين بعثت
فيهم رسولا تقيم عليهم الحججة بما ضلوا فيه عن الصراط السوى .

وفائدة هذا القصص تنبيه النصارى الذين كانوا عصر التنزيل إلى قبح مقاتلتهم
وسوء معتقدتهم ، لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء وطعن هؤلاء تعدى
إلى جلال الله وكبريائه إذ وصفوه بما لا يليق به من اتخاذ الزوجة والولد .

(وإذ علمت الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) أى واذا ذكر نعمتى عليك
بتعليمك وتوفيقك لقراءة الكتب والعلم النافع لك في الدين والدنيا ولا سيما
التوراة والإنجيل .

(وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى)
 أى واذا ذكر نعمتى عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير فى شكلها ومقادير
 أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا بإذن الله وتكوينه ، فأنت تفعل التقدير
 والنفخ ، والله هو الذى يكون الطير .

وفى قوله بإذنى إشارة إلى أن المسيح لم يعط هذه القوة دائما بحيث جعل السبب
 الروحى مطردا كالأسباب الجسمانية ، بل كانت هذه الآيه كغيرها لاتقع إلا بإذن
 من الله وتأيدته .

(وتبرى الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى) جاء فى كتب العهد
 الجديد أنه أبرأ كثيرا من العمى والبرص وأحيا ثلاثة أموات :

(١) ابن أرملة وحيد كانوا يحملونه على النعش ، فلمس النعش وأمر الميت أن
 يقوم منه فقام ، فقال الشعب : قد قام فبنا نبى عظيم وافتقد الله شعبه من إنجيل لوقا .
 (٢) ابنة رئيس ماتت ودعاها لإحيائها فجاء بيته وقال للجمع تنحوا فإن
 الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه ، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت
 الصبية — إنجيل متى .

(٣) عازر الذى كان يحبه جدا ويحب أخته مريم ومرثا كما يحبونه ، وفى
 إنجيل يوحنا أنه كان مات ، فى بيت عنيا ووضع فى مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة
 أيام فرفع عينيه إلى فوق وقال : (أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لى ، وأنا علمت
 أنك فى كل حين تسمع لى ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك
 أرسلتنى) ولما قال هذا : صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجا ، فخرج الميت الحى .
 وتعيين كل فعل بالإذن للدلالة على أنه ما وقع شىء منها إلا بمشيئة الله
 وقدرته وتيسيره .

(وإذ كفت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم
 إن هذا إلا سحر مبين) أى واذا ذكر نعمتى عليك حين كفت عنك بنى إسرائيل

فلم يتمكنوا من قتلك وصلبك ، وقد كانوا أرادوا ذلك ، وقال الكافرون منهم ما هذا إلا ساحر ، وما جاء به من البيّنات لم يكن إلا سحرا ظاهرا ، وليس من جنس ما جاء به موسى ، على أنه مثله أو أظهر منه .

والخلاصة — إنهم لا يعتدّون بما جاء على يديه من الآيات وخوارق العادات ولا يؤمنون به وإن جاء بآيات أخرى إذ لم يكن طعنهم لشبهات تتصل بها بل كان عنادا ومكابرة ، ومن ثم ادعوا أن السحر صنعتهم ، والتمويه وقلب الحقائق دأبه وعادته . (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي و برسولي ، قالوا آمنا واشهد بأننا

مسلمون) الوحي في اللغة : الإشارة السريعة الخفية ، والإعلام بالشئ بسرعة وخفاء ، والمراد به هنا ما يليق الله في نفوس الأحياء من الإلهام كما في قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا » وقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » وهكذا ألقى الله في قلوب الحواريين الإيمان به و برسوله عيسى عليه السلام ، أي واذا كر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك وقد كذبك جمهور بني إسرائيل وجعلتهم أنصارا لك يؤيدون دعوتك وينشرون شريعتك ، وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا آمنا أي بالله و برسوله عيسى عليه السلام ، وأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون أي مخلصون في إيمانهم مذعنون لأوامره وتاركون لنواهيه .

ثم ذكر كلاما منقطعا عما قبله ليبين ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه عقب حكاية ما صدر من الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله عليه ، فقال :

(إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) أي اذكر للناس وقت قول الحواريين لعيسى : يا عيسى هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أن يسألته ذلك ؟

وفسر بعضهم الاستطاعة بمعنى القدرة وقالوا إن هذا السؤال لا يصدر عن مؤمن

صحيح الإيمان وأجابوا عن ذلك بعدة أجوبة :

(١) إن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان لا للشك في قدرة الله

على ذلك ، كما سأل إبراهيم صلى الله عليه وسلم رؤية كيفية إحياء الموتى

ليطمئن قلبه بإيمان الشهادة والعمارة مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب .

(٢) إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية أى هل ينطق الحكمة

أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فإن ما ينافى الحكمة لا يقع وإن كان

مما تتعلق به القدرة كعقاب المحسن على إحسانه وإثابة الظالم على ظلمه .

(٣) إن المراد هل تستطيع سؤال ربك .

(قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى قال لهم عيسى اتقوا الله أن تقترحوا عليه

أمثال هذه المقترحات التى كان سلفكم يقترحها على موسى لئلا تكون فتنة لكم ،

فإن من شأن المؤمن الصادق ألا يجرب ربه باقتراح الآيات .

وقد يكون المعنى — اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عليه

تعالى عسى أن يوفقكم إلى ذلك .

(قالوا نريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها

من الشاهدين) أى قالوا نطلبها لفوائد :

(١) إننا نريد أن نأكل منها لأننا محتاجون إلى الطعام ، فإن الجوع قد غلبنا

ولا نجد طعاما آخر .

(٢) إننا إذا شاهدنا نزولها ازداد اليقين وقويت الطمأنينة ، إذ ينضم علم

المشاهدة باللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال .

(٣) أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بنى إسرائيل الذين لم يحضروها

أو من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة ، وبذا يؤمن المستعد للإيمان

ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

(قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً

لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) أى إن عيسى عليه السلام

لما علم صحة قصدهم وأنهم لا يريدون تعجيزه ولا اقتراح آية — دعا الله بهذا الدعاء وناداه بالاسم الكريم الدال على الألوهية والقدرة والحكمة إلى نحو أولئك من صفات الكمال ، ثم باسم الرب الجامع لمعنى الملك والتدبير والتربية والإنعام .
 أى يا الله يا مالك أمرنا ومتولى تربيتنا أنزل علينا مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم وتتغذى بها أبدانهم ، وتكون عيداً خاصاً بنا معشر المؤمنين دون غيرنا ، بأول من آمن منا وآخر من آمن ، واجعلها علامة من لدنك ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق نبوتى ، وارزقنا منها ومن غيرها ما به تتغذى أجسامنا فانت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب .

ومن محاسن هذا الدعاء أنه آخر ذكر المائدة المادية للمائدة عن ذكر فائدتها الدينية الروحية ، بعكس ما فعله الحواريون ، إذ قدموا الأكل على غيره من الفوائد الأخرى .

(قال الله إني منزلها عليكم) أى وعد الله عيسى بإنزال المائدة مرة أو مرارا لكنه رتب شرطاً على هذا الوعد فقال :

(فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) أى إن من يكفر منكم بعد نزول هذه الآية التى اقترحتموها ، وجاءت بطريق لا لبس فيه ولا شك ، فإني أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثله أحداً من سائر كفار العالمين ، لأن عقاب الخطيئة أو الكافر يكون بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر فى نفسه ، والبعد فيه عن الشبهة والعذر ، وأى شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله تترى ، ثم يقترح آية خاصة تشترك فى العلم بها حواسه جميعاً وينتفع بها فى دنياه قبل آخرته ، فيعطى ما طلب ، ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبه ويكون من الكافرين .

وللعلماء فى الطعام الذى نزل فى المائدة آراء : فقيل هو خبز وسمك ، وقيل خبز ولحم ، وقيل كان ينزل عليهم طعاماً أبيضاً ذهبوا كما كان ينزل المن على بنى إسرائيل كما رواه ابن جرير عن ابن عباس .

وجاء في إنجيل يوحنا أنه كان يطعم الألف في عيد الفصح من خمسة أرغفة
وسمكتين — أكل منها أول ذلك الجمع كآخره

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ
الْهَيْمِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ،
إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمْتُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ
أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ
فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ
اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (١٢٠).

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذه الآيات في تعداد النعم التي أنعم الله بها على عيسى ،
والهام الله للحواريين الإيمان به ورسوله وطلب الحواريين من عيسى إنزال مائدة
من السماء ثم طلب عيسى من ربه إجابة مطالبهم ، وإخبار الله تعالى بأنه أجابهم
إلى ما طلبوا .

ولا يزال الكلام في هذه الآيات مع عيسى أيضا، ففيها سؤال من الله على مرأى من قومه توبيخا وتقريرا لهم على افتراءهم ، وإجابة من عيسى عن ذلك فيها تنصل من ذلك الذنب العظيم الذي اقترفوه بعده وهو القول بالثلاث ، ثم إخبار من الله بما ينجي الإنسان من عذاب يوم القيامة ، مع بيان أن مافي السموات والأرض كله مملوك لله وفي قبضته يتصرف فيه بعدله وحكمته وهو القادر على كل شيء لا شريك له يمنعه إن أعطى أو يلزمه بالإعطاء إن منع .

الإيضاح

(و إذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟) الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعا عما أجابت به أمهم ، حين يقول لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك . . . وحين يقول له بعد ذلك : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ؟ أي يسأله أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم؟

ومعنى قوله من دون الله أي متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وذلك إما أن يكون باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك ، إذ عبادة الشريك المتخذ غير عبادة الله خالق السموات والأرض ، سواء اعتقد المشرك أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالا ، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب ، أو بالوساطة عند الله أي بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر وهذا هو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة ، كما حكاه الله عنهم في قوله : « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَ يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » وقوله : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

وقل أن يوجد من المشركين من يتخذ إلها غير الله متجاوزا لعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره ، فالإيمان الفطري الذي غرس في نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد ، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقادا منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف ، وإن نسب الفعل إلى غيره فبإقدار الله إياه وتسخير له بمقتضى سننه في خلقه ، والمشركون يتوجهون إليه تارة وإلى بعض ما يستكبرون من خلقه تارة أخرى كالشمس والنجم والملائكة وبعض مخلوقات أخرى ، ويتوجهون أحيانا إليهما معا فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات .

والخلاصة — إن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء أكانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره ولو بدعاء هذا الغير والتوجه إليه ليكون واسطة عنده . وقد نعى الله عليهم اتخاذ المسيح إلها في مواضع عدة من هذه السورة ، وعبادة أمه كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانتس (إصلاح المسيحية) التي جاءت بعد الإسلام بزمن طويل .

وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود ، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع ، ومنها ما هو صيام ينسب إليها ويسمى بصيام العذراء ، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكورها ولصورها وتمائنها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمونها (والدة الإله) . والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هي وابنها إلهين (والاتخاذ غير التسمية) فيصدق بالعبادة وهي واقعة حتما .

(قال سبحانه) التسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وأصل الكلمة من السبح والسباحة ، وهي الذهب السريع البعيد في البحر أو البر ومنه فرس سبوح .

أى أنزهك يا الله عن أن يكون معك إله آخر ، وبذا أثبت له التنزيه عن المشاركة فى الذات والصفات .

ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق فقال :
(ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى ليس من شأنى ولا مما يصح أن يقع
امنى أن أقول قولاً لاحقاً لى أن أقوله ، لأنك أيدتنى بالعصمة عن مثل هذا
القول الباطل .

وهو بتنزيهه الله أولاً أثبت أن ذلك القول الذى نسب إليه قول لا شائبة فيه
من الحق وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله .

وقد أكد هذا النفي مرة أخرى بمجزة أخرى ارتقى فيها من برهان راجع إلى
نفسه وهو عصمته عليه السلام إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب فقال :

(إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) أى إن ذلك
القول إن كان قد صدر منى فقد علمته ، إذ علمك واسع محيط بكل شىء ، فانت
تعلم ما أسره وأخفيه فى نفسى فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه منى غيرى؟
كما أنى لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التى لا ترشدنى إليها بالكسب
والاستدلال ، لكننى أعلم ما تظهره لى بالوحى بواسطة ملائكتك المقربين إليك .

(إنك أنت علام الغيوب) أى لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك ،
ما كان منها وما سيكون وما هو كائن ، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته ،
فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل ، وإما أن يتلقاه هبة منك
بالوحى والإلهام .

وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك - بين حقيقة ما قاله
لقومه ، إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه
من أمر التوحيد بعد نفي ضده ، فقال :

(ما قلت لهم إلا ما أمرتني به - أن اعبدوا الله ربي وربكم) أى إنى ما قلت لهم فى شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقاداً وتبليغاً لهم بأنك ربي وربهم وأننى عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم .
 (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) أى وكنت قائماً عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون وما يفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة وجودى بينهم .
 (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) أى فلما قبضتني إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دونى ، لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم ، وأنت تشهد على كل شيء إذ لا يخفى عليك شيء ، وفى هذا إيماء إلى أن الله إنما عرفه أفعال القوم ومقاتلهم بعد ما قبضه إليه بقوله : (أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين) .

وقد تقدم فى هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة ، وذلك قوله : « أَتَدَّ كُفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

وجاء فى إنجيل يوحنا (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

ثم فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى فقال :

(إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أى إن عذب من أرسلتني إليهم فباعتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك فضل منهم من ضل وقالوا ما لم أقله ، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك ، فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم ، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم منك ، وإنما تجزيهم على حسب علمك بما يظهرون وما يبطنون ، فأنت العليم بالمؤمن المخلص فى إيمانه .

و بمن أشرك بك غيرك أو بمن أطاعك و بمن عصاك و أنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

و إن تغفر فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة ، و إنك أنت العزيز الغالب على أمره ، الحكيم في تصرفه و صنعه فيضع كل جزاء و كل فعل في موضعه .

و خلاصة المعنى — إنك إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب ، و إن تغفر فإنما تغفر لمن هو أهل لذلك ، و مهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك و مهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله و قوته ، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يُغلب ، و يمنع من شاء ما شاء ولا يمنع ، و أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه ، فلا يمكن أحدا غيرك أن يرجعك عنه .

و من هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه ، و مما يؤيد هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص « أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم صلى الله عليه وسلم : « رَبِّ إِنِّي نَسِيتُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي » الآية ، و قول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فرفع يديه إلى السماء و قال : (اللهم أمتي أمتي) و بكى ، فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد — و ربك أعلم — فسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال — و هو أعلم — فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك و لا نسوءك » ، و ما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات اليمين و ذات الشمال فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح (و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم — إلى قوله الحكيم) قال فيقال إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم » و ما رواه أحمد و النسائي و ابن مردويه « أنه صلى الله عليه وسلم قام بهذه الآية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك ... الخ) حتى أصبح يركع بها و يسجد فسأله أبو ذر عن ذلك

فقال : إني سألت ربي الشفاعة فأعطينيها وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا .

فهذه الأحاديث صريحة في أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك بالله شيئا .

(قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أى قال الله تعالى : إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقهم فى إيمانهم وفى شهاداتهم وفى سائر أقوالهم وأحوالهم .

ثم بين هذا النفع فقال :

(لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) أى للصادقين جنات تجري من تحتها الأنهار فى الآخرة ثوابا من عند الله ، ورضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهذا غاية السعادة الأبدية ، إذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم إليه وتتطلع نفوسهم لبلوغه كما قال تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقوله : ذلك الفوز العظيم ، أى ذلك الذى ذكر من النعيمين الجثامى والروحانى اللذين يحصلان بعد النجاة من أهوال يوم القيامة ، لأن الفوز هو الظفر المطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه كما قال تعالى : « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » وبعد أن بين مالأهل الصدق عنده من الجزاء الحق فى مقعد الصدق ، بين عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره فقال :

(لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير) أى إن الملك كله والقدرة كلها لله وحده ، وفى قوله : وما فيهن ، تعريض بأن المسيح وأمه اللذين عبدا من دون الله داخلان تحت قبضته تعالى ، إذ الملك والقدرة له وحده فلا ينبغى لأحد أن يتكل على شفاعتهما « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وغاية ما أعطاهم الكرامة لديه والمنزلة الرفيعة من بين عباده « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ

مَا يَنْ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ .
 وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » .
 سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

إلمامة بما تضمنته السورة من التشريع والأحكام الاعتقادية والعملية

أهم الأصول التي انفردت بها هذه السورة :

(١) بيان أن الله أكمل هذا الدين الذي ارتضى لهم ، وأن دين الله واحد وإن اختلفت شرائع الأنبياء ومناهجهم ، وأن هذا الدين مبني على العلم اليقيني في الاعتقاد والهداية في الأخلاق والأعمال ، وأن التقليد فيه باطل لا يقبله الله ، وأن أصول الدين الإلهي على السنة الرسل كلهم هي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أي ملة كاليهود والنصارى والصابئين فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(٢) بيان عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بالتبليغ العام ، وأنه لا يكلف إلا التبليغ فقط ، ومن حجج رسالته أنه بين لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم مما ضاع قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومما كانوا يكتُمونه من الأحكام اتباعا لأهوائهم ، وأن هذا الرسول قد عصمه الله وحفظه من أن يضره أحد أو يصدّه عن تبليغ رسالة ربه ، وأننا نهيينا عن سؤاله عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف .

(٣) بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادا وجماعات ، وأنه لا يضرهم من ضل إذا هم استقاموا على صراط الهداية ، فهو لا يضرهم لافي دنيا ولادين ، ومن ذلك الوفاء بالعقود التي يتعاقدون عليها في جميع المعاملات الدنيوية ، وتحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم ، والتعاون على البر والتقوى كتأليف الجماعات العلمية والخيرية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان ، وتحريم موالاة المؤمنين للكافرين وبيان أن ذلك من آيات النفاق .

(٤) تفصيل أحكام الطعام حلاله وحرامه ، وبيان أن التحريم منه إما ذاتي كالميتة وما في معناها ، وإما لسبب ديني كالذي يذبح للأصنام ، وبيان أن الضرورات تبيح المحظورات .

(٥) تحريم الخمر وكل مسكر ، والميسر وهو القمار وما في حكمه (كالمضاربات في البورصة) .

(٦) وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة بين غير المسلمين والمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء وتأكيده وجوب ذلك في سائر الأحكام .

(٧) بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله وحده ، وأن النافع في ذلك اليوم هو الصدق .

وكان مسك ختامها ذكر الجزاء في الآخرة بما يناسب أحكامها كلها ، وقد روى أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت : يا جبير تقرأ المائدة ؟ قلت نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ، وروى أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمر قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح .

سورة الأنعام

آياتها خمس وستون ومائة ، نزلت بعد الحجر .

وهي مكية إلا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
وقد روى كثير من المحدثين عن غير واحد من الصحابة والتابعين أن هذه
السورة نزلت جملة واحدة .

مناسبة هذه السورة لما قبلها

الناظر إلى ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول
والتوسط والقصر في الجملة ، ليكون ذلك أعون على التلاوة وأسهل في الحفظ ؛ فالناس
يبدءون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المثني فالثاني فالفصل
أنقى للعلل وأدعى إلى النشاط ، ويبدءون بحفظه من آخره لأن ذلك أسهل على
الأطفال ، ولأنه قد روعي التناسب في معاني السور مع التناسب في مقدار الطول والقصر
ووجه مناسبتها لآخر سورة المائدة من وجوه عدة :

(١) إن معظم سورة المائدة في محاجة أهل الكتاب ، ومعظم سورة الأنعام
في محاجة المشركين .

(٢) إن سورة الأنعام قد ذكرت فيها أحكام الأطعمة المحرمة والذبائح بالإجمال ،
وذكرت في المائدة بالتفصيل وهي قد نزلت أخيرا .

(٣) إن هذه افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وبينهما تلازم
كما قال : « وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ،
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى
أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) .

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء الحسن والذكر الجميل ، والظلمة : الحال التي يكون عليها كل
مكان لا نور فيه ، والنور قسمان : حسي وهو ما يدرك بالبصر ، ومعنوي عقلي يدرك
بالبصيرة ، والجعل : هو الإنشاء والإبداع كالخلق ، إلا أن الجعل مختص بالإنشاء
التكويني كما في هذه الآية ، والتشريعي كما في قوله : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ
وَلَا سَائِيَةٍ » الآية ، والخلق عام .

ولم يذكر النور في القرآن إلا مفردا والظلمة إجمعا ، لأن النور واحد وإن
تعددت مصادره ، والظلمة تحدث مما يحجب النور من الأجسام غير النيرة وهي كثيرة ؛
وكذلك النور المعنوي شيء واحد ، والظلمات متعددة فالحق واحد لا يتعدد والباطل
الذي يقابله كثير ، والهوى واحد والضلال المقابل له كثير ، فالتوحيد يقابله التعطيل ،
والشرك في الألوهية بأنواعه والشرك في الربوبية بضروبه المختلفة .

وقدمت الظلمات في الذكر على النور لأن جنسها مقدم في الوجود فقد وجدت
مادة الكون وكانت دخانا مظلمًا أو سديما كما يقول علماء الفلك ، ثم تكونت
الشموس بما حدث فيها من الاشتعال لشدة الحركة ، وإلى هذا يشير حديث عبد الله

ابن عمرو عند أحمد والترمذى « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل » .

وكذلك الظلمات المعنوية أسبق وجودا ، فإن نور العلم والهداية كسبى فى البشر ، وغير الكسبى منه كالوحى ، فتلقيه كسبى وفهمه والعمل به كسبيان أيضا ، وظلمات الجهل والأهواء سابقة على هذا النور « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ويعدلون أى يعدلون به غيره ويجعلونه عديلا مساويا له فى العبادة والدعوة لكشف الضر وجلب النفع ، فهو بمعنى يشركون به ويتخذون له أندادا ، والأجل هو المدة المضروبة للشيء أى المقدار المحدود من الزمان ، وقضاء الأجل : تارة يطلق على الحكم به وضربه للشيء كما قضى شعيب عليه السلام أجلا لخدمة موسى له ثمانى سنوات وأجلا اختياريا سنتين ، ويطلق أخرى على القيام بالشيء وفعله كما قال : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » الآية ، وتمتروا أى تشكون فى البعث .

الإيضاح

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) أى الحمد والشكر للذى خلقكم وخلق السموات والأرض فهو المستوجب للحمد بنعمه عليكم ، لا من تعبدون من دونه وتجعلونه له شريكا من خلقه .

والمخالصة — إن المراد بالسموات والأرض العوالم العلوية التى يرى كثير منها فوقنا، وهذا العالم الذى نعيش فيه ، وكذلك هو الذى أوجد الظلمات والنور . واختلف العلماء فى المراد منهما ، فمن قائل إن المقصود منها ظلمة الليل ونور النهار وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى ، وفى ذلك رد على المجوس (الثنوية) الذين

زعموا أن للعالم ريين أحدهما النور وهو الخالق للخير والثاني الظلمة وهو الخالق للشر،
ومن قائل إن المراد منهما الكفر والإيمان وروى هذا عن ابن عباس .
(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى إنه مع استحقاقه الحمد والعبادة لذاته
ولما بين من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ، لم يعمل هؤلاء
الكفرة بما يرشد إلى ذلك ، بل عدلوا به سواء وسووه به فى العبادة التى هى أقصى
غاية الشكر .

والخلاصة — كأنه قال أى وهم مع ذلك يعدلون به غيره ويجعلونه مساويا له .
و بعد أن وصف الخالق تعالى بما دل على توحيده واستحقاقه للحمد — انتقل
إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره فى العبادة مذكرا لهم بدلائل التوحيد
والبعث فقال :

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون)
أى هو الذى خلقكم من الطين (التراب الذى يخالطه ماء) فقد خلق أبائكم آدم
من الطين كما خلق سائر الأحياء التى فى هذه الأرض بل خلق كل فرد من أفراد
البشر من سلالة من طين ، فإن بنية الإنسان مكونة من الغذاء ومن ذلك البويضات
التى فى الأتى والحيوان المنوى الذى فى الذكر فكلها مكونة من الدم ، والدم من
الغذاء ، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولدة من النبات فالمرجع
إلى النبات ، والنبات من الطين ، والناظر فى كل هذا يعلم جليا أن القادر على كل
هذا لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه عند انقضاء آجاله التى قضاهها له فى أجل
آخر يضربه لهذه الإعادة على حسب علمه وحكمته .

والآية ترشد إلى أنه تعالى قضى لعباده أجلا لحياة كل فرد منهم ينتهى
بموته ، وأجلا لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا .
ومعنى كونه مسمى عنده : أنه لا يعلمه غيره ، لأنه لم يطلع أحدا على يوم القيامة ،
لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

(وهو الله فى السموات وفى الأرض) أى إنه تعالى هو المتصف بهذه الصفات المعروفة المعترف له بها فى السموات والأرض ، ونظير هذا أن تقول إن حاتما هو حاتم فى طيء ، وفى جميع القبائل ، أى هو المعروف بالجلود المشهور به فى قومه وفى غيرهم .
(يعلم سركم وجهركم) هذا تقرير وتوكيد لما قبله ، لأن الذى يستوى فى علمه السر والعلانية هو الله وحده .

(ويعلم ما تكسبون) من الخير والشر فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)
فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي
الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا
الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
قَرْنًا آخَرِينَ (٦) .

شرح المفردات

الآيات هنا : آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوام والمثبتة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والإعراض : التولى عن الشيء ، والحق : هو دين الله الذى جاءهم به خاتم رسله من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب ، والأنبياء : ما فى القرآن من وعد بنصر الله لرسله وإظهار لدينه ، ووعيد لأعدائه بنخلانهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، والقرن من الناس : القوم المقترنون فى زمن واحد وجمعه قرون ، وقد جاء فى القرآن

حفردا وجمعا ، ومكنه في الأرض أو في الشيء : جعله متمكنا من التصرف فيه ، ومكن له : أعطاه أسباب التمكّن في الأرض كقوله : « وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ » وقوله : « أَوْ لَمْ يُمْكِنَنَّ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ؟ » والسماء : المطر ، والمدرار : الغزير .

المعنى الجملي

بعد أن أرشد الله تعالى في الآيات السالفة إلى دلائل وحدانيته ، ودل على أنها مع ظهورها لم تمنع الكافرين من الشرك ، وإلى دلائل البعث ، وأنها على شدة وضوحها لم تمنع المشركين من الشك والريب ، وإلى أن الله المتصف بتلك الصفات التي تعرفونها هو الله المحيط علمه بما في السموات والأرض فلا ينبغي أن يشرك به غيره فيهما ، ولكن المشركين جهلوا ذلك وجوزوا أن يكون غير الرب إلها ، بل عبدوا معه آلهة أخرى .

ذكر هنا سبب عدم اعتدائهم بالوحي ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق ، ثم كشف لهم فيما بعد شبهاتهم على الوحي وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) أى وما تنزل عليهم آية من آيات القرآن التي من جملتها تلك الآيات الناطقة بتفصيل بدائع صنع الله المنبثثة بجرى أحكام ألوهيته على جميع الكائنات - إلا أعرضوا عنها استهزاء وتكديبا غير متدبرين معناها ولا ناظرين في دلالتها .

ولما بين سبحانه أن شأنهم الإعراض عن الآيات المنزلة رتب عليه قوله :

(فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) أى فبسبب ذلك الإعراض العام عن النظر في الآيات كذبوا بالحق الذي جاءهم حين جاءهم ولم يترثوا ولم يتأملوا ، لأنهم سدوا على أنفسهم مسالك العلم .

وهذا الحق الذي كذبوا به هو الدين الذي جاء به خاتم أنبيائه بما اشتمل عليه من آداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم .

(فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) النبأ الخبر العظيم أى فستكون عاقبة التكذيب أن تحمل بهم العقوبات العاجلة التي نطقت بها الآيات وعيدا لهم من القتل والسبى والجلاء عن البلاد ، ووعدا لرسوله من النصر له وإظهار دينه على الدين كله .

وقد أتاهم ذلك فكان منه ما نزل بهم من القحط ، ومن الخذلان يوم بدر ، ثم تم ذلك يوم الفتح .

وبعد أن توعدهم سبحانه بنزول العذاب بهم بين أن هذا مما جرت به سنته في المكذبين فقال :

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لهم ؟) أى ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق أنا أهلكنا كثيرا من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطيهم مثله ، ثم لم تكن تلك النعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتوهم واستكبارهم .

وذكر بعد هذا ما امتازت به تلك القرون على كفار قريش من النعم الإلهية التي اقتضتها طبيعة بلادهم وخصب تربتها فقال :

(وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) الإرسال تارة يكون يبعث من له اختيار كالرسال الرسل ، وتارة بالتسخير كالرسال الريح والطر ، وتارة بترك المنع نحو « إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى وسخرنا لهم الأمطار الغزيرة التي تكوّن الأنهار المترعة بالمياه ، وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها

تجربى دائماً تحت مساكنهم التى يبنونها على ضفافها ، أو فى الجنات والحدائق التى تنفجر خلالها فيتمتعون بالنظر إلى جمالها واستنبت الأشجار والثمار التى يأكلونها ، ويولدون النم والماشية التى تتغذى من مراعيها .

وإخلاصة — إنهم أوتوا من البسطة فى الأجسام والامتداد فى الأعمار والسعة فى الأموال والاستمتاع بلذات الدنيا ما لم يؤته أهل مكة ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً فكفروا بأنعم الله ولم يؤمنوا بما جاءهم به أنبيأؤهم بل كذبوهم فاستحقوا العقاب وإلى ذلك أشار بقوله .

(فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) أى فكان عاقبة أمرهم أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التى كانوا يجترحونها ، وأوجدنا من كل منهم قرناً آخر يعمررون البلاد ويكونون أجدر بشكران النعمة .

والذنوب التى تدعو إلى الهلاك ضربان :

(١) معاندة الرسل والاستكبار والعتو والتكذيب .

(٢) كفران النعم بالبطر وغط الحق وظلم الضعفاء ومحابة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة ، كما جاء فى قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » .

وفى هذه الآية رد على كفران مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقرهم كما حكى الله عنهم فى قوله : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وهؤلاء القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لا بد أن يختلفوا عنهم فى صفاتهم وإن كانوا من أبناء جنسهم ، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير

كبير في النفوس تخفف من غلواء الناس وتقلل من بطشهم وعتوهم ، وفي المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك .

انظر إلى ما فعلته الحرب العظمى الثانية في نفوس الشعوب في الشرق والغرب ، فإنه قد نشأ بعدها جيل أقل بطرا وانغماسا في الشهوة والترف وما ينشأ عنهما من الفسق والفجور من سابقه ، وكذلك في حسن معاملة الناس بعضهم لبعض وحفظ الحقوق والمساواة فيها .

ولا يعلم إلا الله ما ستنتهى إليه تلك الحرب الضروس الدائرة رحاها الآن . ولا ما ستتمخض عنه من الحوادث الجسام في مستقبل الأمم والشعوب ، ولا ما سيكون لها من التأثير في النظم الاجتماعية والاقتصادية والصلات والروابط بين بعض الأمم وبعض .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لِمَ لَا يَنْظُرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) .

شرح المفردات

الكتاب : الصحيفة المكتوبة ومجموعة الصحف في غرض واحد ، والقرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه ، واللمس كالمس : إدراك الشيء بظاهر البشرة ، وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه ، ويقال لمسه والتمسه وتلمسه ، ومنه « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » وسحر أى خداع وتمويه يرى ملاحقيقة له في صورة الحقائق ، لقضى الأمر أى تم أمر هلاكهم ، لا ينظرون أى لا يمهلون ، اللبس : الستر والتغطية

يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء في الأول وفتحها في الثاني) ولبس الحق بالباطل يلبسه (بفتح الباء في الأول وكسرها في الثاني) بمعنى ستره به ، أى جعله مكانه ليظن أنه الحق ، ولبست عليه أمره أى جعلته بحيث يلبس عليه فلا يعرفه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد سبحانه في الآيات المتقدمة إلى ما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث ، ثم ذكر بعدها الأسباب التي دعت قريشا إلى التكذيب ، وأنذرهم عاقبة هذا التكذيب بما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، وأنه لا يحول دونه ما هم فيه من قوة ووضف الرسول صلى الله عليه وسلم وتمكنهم في مكة وهي أم القرى ، وأهلها القدوة والسادة بين العرب .

وذكر هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول ، وبها تم بيان أسباب جحودهم وإنكارهم لأصول الدين الثلاثة . (التوحيد والبعث ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم) .

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحق سبب نزول الآية الثانية قال « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلهم فأبلغ إليهم ، فقال له زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ وَالنُّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَعَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثٍ وَأَبِي ابْنِ خَلْفٍ وَالْعَاصِي بْنُ وائِلِ بْنِ هِشَامٍ : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك - فأنزل الله في ذلك : - وقالوا لولا أنزل عليه ملك » .

ورجح بعضهم أن هذا السبب لا يصح في هذه الآية ، لأن اقتراح المعاندين من المشركين إنزال الملك مع الرسول مذكور في سور من القرآن أنزلت قبل هذه السورة ، فما فيها إنما هو رد على شبهة سبقت وحكيت عنهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة مذكور في سورة الفرقان .

الإيضاح

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وإظهار إعجازه ، وكان يضيق صدره لذلك ويبلغ منه الحزن والأسف . كل مبلغ كما قال في سورة هود « فَلَمَّا كَ تَارِكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِّنْ سَمَوَاتٍ مَّا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ » .

فبين الله أسباب ذلك ومناشئته من طباع البشر وأخلاقهم ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة فإنها لا تجدى إلا عند من كان مستعدا لها وزالت منه موانع الكبر والعناد . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

(ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) أى إن علة تكذيبهم بالحق هى إعراضهم عن الآيات وإقفال باب النظر والاستدلال لاختفاء الآيات فى أنفسها وقوة الشبهات التى تحوم حولها ، فلو أننا نزلنا عليك كتابا من السماء فى قرطاس فأروه نازلا فيها بأعينهم ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم لقال الذين كفروا منهم : ما هذا الذى رأيناه ولمسناه إلا سحر بين فى نفسه ، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتابا ولمسناه ، وما ثم كتاب نزل ولا قرطاس رثى ولا لمس ، وتلك مقالة أمثالهم فى آيات الأنبياء من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإنما قال لمسوه بأيديهم ليبين أن المراد باللمس المعنى الأول لا الثانى ، ومن ثم قال فتادة فعابنوه ومسوه بأيديهم ، وقال مجاهد فسوه ونظروا إليه ؛ واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع ، لأن البصر يخدع بالتخيل ، وجاء فى سورة الحجر : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ [حبست ومنعت] أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

(وقالوا لولا أنزل عليه ملك) كان لكفار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن مختلفة :

(١) أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا يروونه ويسمعون كلامه ، وإلى هذا تشير الآية .

(٢) أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم .

والاقتراح الأول مبنى على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وآدابا وهم الرسل عليهم السلام ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلا بين الله وبين عباده ، لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء في سورة المؤمنون « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاتِهِ الْآخِرَةِ وَأُتِرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَنْ أَطْعَمَهُ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا نَخَّسِرُونَّ » .

وقد ردَّ الله تعالى الاقتراحين من وجهين :

(١) (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) أى لو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكم ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم ، قال ابن عباس : ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون .

(٢) (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى لو جعل الرسول ملكا لجعل متمثلا في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذى يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا ، ولا ينفكون

يقترحون جعله ملكا ، وهم قد كانوا في غنى عن ذلك ، وهذا شأن كثير من الناس
يوقعون أنفسهم في المشكلات بسوء صنيعهم ثم يحارون في المخلص منها .

وذكر البخارى في تفسير قضاء الأمر عدة وجوه :

(١) أن سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها

يعذبهم الله عذاب الاستئصال ، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التي

بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

(٢) أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية لزهقت أرواحهم من هول

ما يشاهدون .

(٣) أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة

التكليف .

(٤) أنهم حين اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان ثم أعطوه ولم يُجد ذلك معهم

نفعا دل ذلك على منتهى العناد الذي يستدعى الإهلاك وعدم النظرة .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرِيسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١١) .

شرح المفردات

الهمزؤ : (بضم تين أوضم فسكون) والاستهزاء : السخرية ، والاستهزاء بالشخص :

احتقاره وعدم الاهتمام بأمره ، وفاق به المكروه يهين حيقا : أحاط به فلم يكن له

منه مخلص .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيا سلف اقتراحاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم تارة يطلبون إنزال ملك مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخرى يطلبون إنزال ملك بالرسالة ، وكان مبنى هذه المقالة الاستهزاء ، وكان قلب الرسول يضيق بها ذرعا عند سماعه إياها .

ذكر هنا ما يخفف عنه ما يلاقيه منهم من سوء الأدب ومن الهزؤ والسخرية ، فأبان له أنك لست ببدع من الرسل ، فإن كثيرا منهم لافوا من أقوامهم مثل ما لاقيت ، بل أشد من ذلك وأنكى ، فأنزل الله بهم من العذاب ما يستحقونه كفاء أفعالهم الشنيعة وجراتهم على من اصطفاهم ربهم من خلقه ، ثم أمر هؤلاء المكذبين بأن يسيروا في الأرض ليروا كيف كانت عاقبة المكذبين لأنبيائه .

الإيضاح

(ولقد استهزى برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون)
أخبر الله رسوله بأن الكفار قد استهزءوا برسول كرام قبلك كما جاء في قوله :
« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس ببدع منهم بل هم جروا فيه على آثار أعداء الرسل قبلك وقد حل بأولئك الساخرين العذاب الذى أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم ،
وفي الآية وجوه من العبرة :

(١) تعليم النبي صلى الله عليه وسلم سنن الله فى الأمم مع رسليهم .

(٢) تسليية له عن إيذاء قومه له .

(٣) بشارية له بحسن العاقبة وما سيكون له من الغلبة والسلطان ، وما سيحل

بأولئك المستهزئين من الخزى والنكال ، وقد أهلكتهم الله وامتن على نبيه بذلك

في سورة الحجر « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » والمشهور أنهم كانوا خمسة من رؤساء قريش هلكوا كلهم في يوم واحد .

وخلاصة المعنى — هوّن عليك ما تلقى من هؤلاء المستخفين بحقك فيّ وفي طاعتي وامنض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى والإذعان لطاعتي ، فإنهم إن تمادوا في غيهم نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم ونعجل النعمة لهم وتحل بهم المثالات .

ولما كان ما يحل بالمستهزئين بالرسول من الهلاك بموجب سنة الله المطردة فيهم ، قد يكون موضعاً للريبة والشك لديهم إذ هم يجهلون التاريخ ولا يأخذون خبره بالنسليم أمر الله نبيه بأن يرشدهم إلى الطريق الذى يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم فقال :

(قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى قل لأولئك المكذبين الجاحدين حقيقة ما جئتهم به : سيروا في الأرض كما هو دأبكم وعادتكم وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم ما لم نمكن لكم ، ثم انظروا في أثناء رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم وما تسمعون من أخبارهم ، ثم اعتبروا إن لم تنهكم حلومكم ولم تزجركم حجج الله عليكم واحذروا مثل مصارعهم واتقوا أن يحل بكم مثل ما حل بهم

قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)
قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ،
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ
عَنهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ
شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ
بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ،
قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ، وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩).

شرح المفردات

كتب على نفسه : أى أوجب إيجاب فضل وكرم ، سكن : من السكون ضد
الحركة، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله أى له ما سكن وما تحرك كما جاء في قوله تعالى
«سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ» أى والبرد ، والولى : الناصر، ومتولى الأمر: المتصرف فيه ،
فاطر السموات والأرض أى مبدعهما على غير مثال سابق ، وأصل الفطر: الشق، ومنه
« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وهو يطعم ولا يطعم ، أى هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد،
يصرف عنه أى يبعد عنه ، رحمه أى بإنجائه من الهول الأكبر ، المس : أعم من اللبس
فيقال مسه سوء والكبر والعذاب والتعب أى أصابه ، والضر: الألم والحزن والخوف
وما يفضى إليها أو إلى أحدها ، والنفع : اللذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ،
والخير : ما كان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلية ، والشر: ما لا منفعة فيه البتة أو ما كان
ضره أكبر من نفعه، قال تعالى: « وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ » والقهر: الغلبة والإذلال ، وشهادة الشيء: حضوره
ومشاهدته ، والشهادة به: الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبنى على المشاهدة

بالبصر أو بالعقل والوجدان، والإنذار: التخويف، واكتفى به عن ذكر البشارة لمناسبته للمقام أى لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن ووصل إليه من الأسود والأحمر، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة، مما تشركون أى من الأصنام .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى الآيات السابقة أصول الدين الثلاثة : التوحيد والبعث والجزاء ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر شبهات الكافرين على الرسالة وبين ما يدحضها ، ثم أرشد إلى سننه تعالى فى أقوام الرسل المكذبين وأن عاقبتهم الهلاك والاستئصال والنخزى والنكال تسلياً لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً لقلبه وإعانة له على المضى فى تبليغ رسالته .

ثم ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة بأسلوب آخر : أسلوب السؤال والجواب بهرهم فيه بالحجة ودلهم على واضح المحجة تفننا فى الحجاج فى المواضع الهامة ، فإن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها فى النفس قبول أيماً قبول ، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم وجعلته ينشط لسماع ما يلقى إليه ، فهو إذا لم يعقل الدليل الأول أو عمى عليه أسلوبه رأى فى الدليل الثانى ما يغير له طريق المطلوب أو رأى فى الأسلوب الثانى ما يكفيه مئونة البحث فى الدليل الأول فهو فى غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت أو يلجأ إلى غائب ، ومن ثم نرى الخطباء المفلتقين والعلماء المبرزين ينوعون أساليب حجاجهم ويكثرزون البرهانات على المطلوب الواحد ليكون ذلك أدمى إلى الإقناع وأقرب إلى الاقتناع .

الإيضاح

(قل لمن ما فى السموات والأرض ؟) أى قل أيها الرسول لقومك الجاحدين

لرسالتك المعرضين عن دعوتك : لمن هذه المخلوقات علويها وسفليها ؟

وقد كانت العرب تؤمن بأن الله خالق السموات والأرض وأن كل ما فيهما ملك وعبيد له ، كما قال تعالى : « وَلَنْ سَأَلَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

والمقصود من السؤال التبكيت والتوبيخ .

(قل لله) هذا تقرير للجواب نيابة عنهم أو إلقاء لهم إلى الإقرار بأن الكل له سبحانه ولا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولا تقدروا أن تضيفوا شيئا آخر إليه : وإتيان السائل بالجواب يحسن إذا كان ما يأتي به هو عين ما يعتقد المسئول وما يجيب به إن أجاب ، وإنما يسبقه إليه ليبنى عليه شيئا من لوازمه مما يجمله المسئول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته من كونه لازما لما يعرفه ويعتقده .

(كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) أى إن الله الذى تقرون معى بأنه مالك السموات والأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه ، إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لاشك فى مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه ، للحساب والجزاء على الأعمال إذ أنه وازع نفسى لا يتم تهذيب النفوس إلا به فهو يمنع الظلم وهضم الحقوق وإيذاء الناس وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، خوفا من هول ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .

ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم ، ومنهم من يعفو الله عنه ، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزداد فيه ، وإنما الزيادة فى الجزاء على الإحسان : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » .

وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضا ، فأمثله إلا مثل الحكومة العادلة تبين للأمة ما تواخذ عليه من الأعمال الضارة وما تكفى به من يصدق فى خدمتها

ويرقى إلى سماء العزة والكرامة ، روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبي » والمراد بالسبق هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه .

والخلاصة — أنه لما قال كتب على نفسه الرحمة ، فكأنه قيل وما تلك الرحمة ؟ فقيل ليجمعنكم إلى يوم القيامة، ذلك أنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد في الأرض واختلت نظم الاجتماع وأكل القوى الضعيف ولا وازع ولا زاجر ، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرحمة .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) خسارة الأنفس إفساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله من أنواع الهدايات، فالقلدون خسروا أنفسهم لأنهم حرموها استعمال نعمتى العقل والعلم .

أى أخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم بالتذكير والذم والتوبيخ بين من يجمعون إلى يوم القيامة ، إذ هم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة ، فهم قلما ينظرون ويستدلون ، وإن هم فعلوا قعد بهم ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللاتمين واحتقار الأهل والمعاشرين .

والخلاصة — أن الفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم ، فمن خسر إحدى الفضيلتين فقد خسر نفسه ، فردا كان أو أمة ، فما بال من خسرها معا .

(وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) أى لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ، وخص هذا بالذكر وإن كان داخلا فى عموم ما فى السموات والأرض ، تنبيها إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا ولا سما إذا جن الليل وهدأ الخلق .

وبعد أن ذكر الله تعالى تصرفه في الخلق دقيقه وجليله كما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة، ذكر أنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء، والمحيط علمه بكل شيء « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » .

والخلاصة — أنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داع، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج حتى يخبره بها الأولياء أو يقنعه بها الشفعاء .

وبعد هذا القول الذي أمر الله رسوله به للتذكير بأنه المالك لكل شيء والمدير لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء ولا يعزب عن علمه شيء — أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم فقال :

(قل أغير الله أتخذ وليا ؟) أي قل لهم لا أطلب من غيره نفعا ولا ضرا لا فعلا ولا منعا فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولى بعضهم بعضا فيما هو من كسبهم العادي فلا يدخل في عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض .

وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله في قضاء حاجاتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة في رزق إلى نحو أولئك .

وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لا اعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله .

ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعاً لإرادة الولي الشافع أو المتخذ وليا وشفيعا .

(فاطر السموات والأرض) أى إنه تعالى أوجدهما على غير مثال سابق، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني عرييان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أى ابتدعتها .
وقد كانت المادة التى خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية ، ففتق رتقها وفصل منها أجرام السموات والأرض وهذا لا شك أنه ضرب من الفطر والشق، قال تعالى « أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » .

وفى ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته بدون تأثير مؤثر ولا شفاعاة شافع ينبغى ألا يتوجه إلى غيره بالدعاء ولا يستعان بسواه فى كل ما وراء الأسباب ، وقد أكد هذا المعنى وزاده تثبيتاً بقوله :
(وهو يطعم ولا يطعم) أى إنه يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه ، لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه ، أيا كان نوعها .
وفى هذا إيماء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام ولا حياة لهم بدونه ، وأن الله هو الذى خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن خلقه ، وعاجزون عن البقاء بدونه ، فأحرى بهم ألا يتخذوا أولياء مع الغنى الرزاق الفعال لما يريد .

وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان لأنها أضعف من البشر، إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد، والإنسان على جميع أنواع الحيوان .

(قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) أى قل لهم بعد أن استبانت لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره ولياً : إني أمرت من ربى الموصوف بجليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لديه من تلك الأمة التى بعثت فيها ، فلا أدعو إلى شىء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه .

(ولا تكونن من المشركين) أى وقيل لى بعد إسلام الوجه له : لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إليه زلفى .

وخالصة ذلك — أنى أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك .

وبعد أن أمره الله بهذا القول المبين لأساس الدين ، وبين أنه مأمور به كغيره ، أمره بقول آخر فيه بيان لجزء من خالف الأمر والنهى السالفين فقال :

(قل إنى أخاف إن عصيت ربنى عذاب يوم عظيم) أى قل لهم إن فرض وقوع العصيان منى فإننى أخاف أن يصيبنى عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذى يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويمجازيهم بما يستحقون .

وفى الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد منهما كان عظيما ، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين بل الأمر يومئذ لله فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظنا منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبى صلى الله عليه وسلم من العذاب على المعصية منتفيا لوجود العصمة ، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له فى جميع الأحوال .

(من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين) أى من يُحوّل عنه هذا العذاب فى ذلك اليوم فقد رحمه الله ، إذ أنجاه من الهزل الأكبر ، ومن نجا منه فقد دخل الجنة ، والنجاة من العذاب يومئذ والتمتع بالنعيم فى دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر .

وقد سبق أن قلنا إن الفوز إنما ينال بحصول مطلوبين: أحدهما سلبى وهو النجاة من العذاب . والثانى إيجابى وهو الظفر بالنعيم المقيم فى الجنة .

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) أى وإن يصبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وذلل اقتضته سنة

الله فلا كاشف له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو ، دون الأولياء الذين يتخذون من
دونه ويتوجه إليهم المشرك بكشفه - وهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب
الكسبية التي تزيله ، وإما أن يكشفه بغير عمل منك ، بل بلطفه وكرمه فله الحمد
على نعمه المتظاهرة التي لا حد لها - وإن يمسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاء فهو
قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائه إياك، وهو القدير على كل شيء ، أما أولئك
الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدر على مسك بخير ولا ضرر .

فعلى المؤمن الصادق في إيمانه ألا يطلب شيئاً من أمور الدنيا والآخرة من كشف
ضرر وصرف عذاب أو إيجاد خير ومنح ثواب - إلا من الله تعالى وحده دون غيره
من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وهذا الطلب إما طلب بالعمل ومراعاة الأسباب التي اقتضتها سنة الله في الخلق
ودل عليها الشرع وهدى إليها العقل ، وإما بالتوجه إلى الله ودعائه كما ندب إلى ذلك
كتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »
وبعد أن أثبت الله لنفسه كمال القدرة أثبت له كمال السلطان والتسخير لجميع
عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور ليرشدنا إلى أن من
اتخذ الأولياء فقد ضل ضلالاً بعيداً فقال :

(وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) أى إن الرب من شأنه العزة
والسلطان والعلو والكبرياء وهو الحكيم الخبير ، فلا ينبغي للمؤمن أن يتخذ ولياً من
عباده المقهورين تحت سلطان عزته المذللين لسنته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير
الأمر في خلقه .

والله جلت قدرته لم يجعل من خلقه شريكاً له في التصرف ولا في كونه يدعى
معه ولا وحده لكشف ضرر ولا جلب نفع كما قال تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا » وقال : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ
عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلاً » .

وخلاصة المعنى — أنه تعالى هو الغالب عباده العالى عليهم بتذليله لهم وخلقهم إياهم ، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه ، وهو الحكيم فى تديره ، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها ، ولا تخفى عليه خوافى الأمور ولا بواديبها ولا يقع فى تديره خلل ، ولا فى حكمته دَخل .

وقد ختم الله هذه الأوامر القولية المبينة لحقيقة الدين وأدلته بشهادة الله لرسوله وشهادة رسوله له فقال :

(قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل كفار قريش : أى شىء شهادته أكبر شهادة وأعظمها وأجدر أن تكون أصحابها وأصدقها ؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع فى شهادته كذب ولا زور ولا خطأ وذلك هو الله تعالى ، وهو الشهيد بينى وبينكم وقد أوحى إلىّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذيبى فيما جئت به مؤيداً بشهادته سبحانه ، وأنذر من بلغه هذا القرآن ، إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم القيامة .

وشهادة الله بين الرسول وقومه ضربان : شهادته برسالة الرسول ، وشهادته بصدق ما جاء به ، والأول أنواع ثلاثة :

(١) إخباره بها فى كتابه بنحو قوله « مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ » وقوله « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » .

(٢) تأييده بالآيات الكثيرة التى من أعظمها القرآن ، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله ، وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله وإظهارهم على أعدائهم .

(٣) شهادة كتبه السابقة له وبشارة الرسل السابقين به ، ولا تزال هذه الشهادة فى كتب اليهود والنصارى .

والثاني ثلاثة أنواع أيضا :

(١) شهادة كتبه بذلك كقوله « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » .
(٢) ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال .

(٣) ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال وبقاء النفس .

والخلاصة — أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن ، وآياته في الأكوام وآياته في العقل والوجدان اللذين أودعهما في نفس الإنسان .

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعا قال : « من بلغه القرآن فكأنما شافهته به » ثم قرأ : (وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَ كُمْ بِهِ) .
وأخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ عن أنى بن كعب قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى فقال لهم : هل دعيتم إلى الإسلام ؟ قالوا لا ، نخفى سبيلهم ثم قرأ : - وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به - ثم قال : خلوا سبيلهم حتى يأتوا آمنهم من أجل أنهم لم يدعوا » .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بالوحدانية وبالبراءة من قوهم وشهادتهم بالشرك فقال :

(أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون) بدأ الجملة بالاستفهام الدال على الإنكار والاستبعاد لما تضمنته ، ثم أمر نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون ، ثم أمره أمرا آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون ويتبرأ مما يزعمون فيصرح بأن الإله لا يكون إلا واحدا ، ويتبرأ مما يشركون به من الأصنام والأوثان وغيرها .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ
 خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
 جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)
 ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظِرْ
 كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) .

المعنى الجملى

روى أن الكفار سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم
 فأنكروا أن فى التوراة والإنجيل شيئاً يدل على نبوته ، فبين الله فى الآية السابقة أن
 شهادة الله على صحة نبوته كافية فى نبوتها وتحققها ، ثم بين فى هذه الآية كذبهم
 فى ادعائهم أنهم لا يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه بالنبوة والرسالة كما
 يعرفون أبناءهم ، فقد روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر
 لعبد الله بن سلام : أنزل الله على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة ؟ فقال
 يا عمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى
 بابني لأنى لا أدرى ما صنع النساء ، وأشهد أنه حق من الله .

الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) أى إن اليهود والنصارى
 يعرفون أن محمداً النبى الأمى خاتم الرسل كما يعرفون أبناءهم ، لأن نعمة فى كتبهم واضح
 ظاهر فلا يشكون فيه على حال ، ثم بين السبب فى إنكار هؤلاء المنكرين فقال :
 (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) أى إن علة إنكار من أنكروا نبوة

محمد صلى الله عليه وسلم من علماء اليهود كعلة من أنكروا من المشركين بعد ظهور آياتها ، بل أنكروا ما هو أظهر منها وهي وحدانية الله تعالى ، إنهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم ، علما منهم بأنهم إذا آمنوا سلبوا الرياسة وجعلوا مساوين لسائر المسلمين في سائر الأحكام والمعاملات .

وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه أن يؤمن فيكون تابعا ومرءوسا ويكون مثله مثل بلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهما من فقراء المسلمين .

فهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية خسروا أنفسهم لضعف إرادتهم لا لفقدان العلم والمعرفة ، لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة .

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ، كمن زعم أن له ولدا أو شريكا أو أن غيره يدعى معه أو من دونه أو يتخذ وليا له يقرب إليه زلفى ويشفع للناس عنده ، أو زاد في دينه ما ليس منه ، أو من كذب بآياته المنزلة كالقرآن ، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله .

وإذا كان كل منهما بالغا غاية القبح وصاحبه يعد مفتريا ظلما ، فما حال من جمع بينهما فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة .

ثم بين سبحانه عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم فقال :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله ولا بنعيم الجنة ، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته فكان أظلم الظالمين .

(ويوم نحشهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) أى واذكر لهم أيها الرسول يوم نحشهم جميعا على اختلاف درجاتهم .

في ظلم أنفسهم وظلم غيرها ثم نقول للذين أشركوا منهم وهم أشدّهم ظلماً : أين الشركاء الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم أولياؤكم من دون الله تستعينون بهم كما يستعان به ويدعون كما يدعى وأنهم يقرّبونكم إليه زلفى ويشفعون لكم عنده فأين هم؟ فلا يرون معكم؟ كما جاء في الآية الأخرى « وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

(ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) الفتنة هنا الشرك أى ثم لم تكن عاقبة هذا الشرك إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين. وظاهر الآيات يدل على أنهم كانوا ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توها منهم أن ذلك ينفعهم كما جاء في هذه الآية ، ويعترفون به في بعض آخر كما جاء في قوله : « هُوَ لَأَشْرَكَ كَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ » وفي قوله : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله : (ولا يكتمون الله حديثاً) فقال : أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا لنجحد (قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثاً)

وقال الزجاج تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من وقف على معانى كلام العرب ، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهاككين في حبه ، فذكر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا - لم تكن إلا الجحود والتبرؤ منه والحلف على عدم التدين به ، ومثاله أن ترى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له ما كانت محبتك (عاقبة محبتك) لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته .

وعلى هذا فالفتنة هي شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس ويكون في الكلام تقدير مضاف هو كلمة (عاقبة) كما قدمنا ذلك .
 (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) هذا تعجب من كذبهم الصريح بانكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا .
 (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة بانكار صدور ما صدر عنهم؟ وكيف ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من الإشراك حتى نفوا صدوره عنهم بتاتا وتبرءوا منه غاية البراءة ؟ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
 وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ
 يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ
 يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) .

شرح المفردات

الأكنة واحدها كنان كأسنه و سنان : وهو الغطاء ، والوقر (بالفتح) الثقل في السمع ، والآية : العلامة الدالة على صدق الرسول ، يجادلونك : يخاصمونك وينازعونك ، والأساطير واحدها إسطورة وأسطورة : وهي الخرافات والترهات ، والنأى عنه : يشمل الإعراض عن سماعه ، والإعراض عن هدايته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال الكفار في الآخرة وذكر ما يكون منهم من تلجج واضطراب ، فتارة ينكرون شركهم بالله وأخرى يعترفون ، وذكر ما يواجهون به من اللوم والتتريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء .
 ذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصادة عنه ،

فهما تواتت الآيات والنذر لا تجدى معهم شيئا ، إذ الحجب كثيفة والأغطية سميكة ،
فاختراقها عسير والوصول إليها في حكم المستحيل .

قال ابن عباس : حضر عند النبي صلى الله عليه وسلم أبو سفيان والوليد بن المغيرة
والنضر بن الحرث والحرث بن عامر وأبو جهل في جمع كثير واستمعوا إلى النبي صلى
الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ ، فقال : والذي
جعلها (الكعبة) بيته ما أدري ما يقول إلا أنى أراه يحرك شفثيه ويتكلم بأساطير
الأولين مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث
عن القرون الأولى يحدث قريشا بما يستملحونه ، قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض
ما يقول حقا ، فقال أبو جهل كلاً فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(ومنهم من يستمع إليك) أى ومن أولئك الكافرين فريق يستمع إليك
إذا أنت تلوت القرآن داعيا إلى توحيد الله مبشرا منذرا .
(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) أى والحال أنا
قد جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه وفهمه ، وفي آذانهم ثقلا أو صمما يحول
دون سماعه بقصد التدبر والوصول إلى مانيه من الهداية والرشد .
وفي هذا تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية ، فالقلب الذى
لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الغطاء فلا يدخل فيه شيء ،
والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالأذان المصابة بالثقل أو بالصم ،
فسمعها وعدمه سواء .

بيان هذا — أن الله جلت قدرته جعل التقليد الذى يختاره الإنسان لنفسه
مانعا من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق ، فهو لا يستمع إلى متكلم ليميز
الحق من الباطل ، وإذا وصل إلى سمعه ما هو مخالف لما يدين به لا يتدبره ولا يراه
جديرا بالموازنة بينه وبين ما عنده من عقيدة أو رأى ليختار أقربهما إلى الصحة

وأجدرها بالصدق ، وأكثرهما هداية ورشادا ؛ وأبعثهما إلى اطمئنان النفس الموصل لها إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك لا يؤمنوا بها ، إذ هم لا يفقهونها ولا يدركون المراد منها لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ فحظهم كحظ الصم من سماع أصوات البشر .
(حتى إذا جاءوك مجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) أى حتى إذا جاءوك مجادلين لك في دعوتك قالوا : ما هذا إلا أساطير الأولين وخرافاتهم .
ذلك أنهم لم يعقلوا مما في القرآن من أنباء الغيب إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها من الأنباء والخرافات ، فلا علم فيها ولا فائدة منها ، وهذه حال من يسمع جرس الكلام ولا يتدبره ولا يفقه أسراره ، أو من ينظر إلى الشيء نظرة جمالية لا يستنبط منها علما ولا يستفيد منها عميقة ورأيا ، وما مثاهما إلا مثل من يشاهد ألعاب الصور المتحركة (السينما) مفسرة بلغة هو لا يعرفها ، فكل هم مما يرى من المناظر والكتابة لا يعدو التسلية وشغل الوقت .

فلو عقل هؤلاء قصص القرآن وتدبروا معانيها لكان لهم من ذلك آيات بينات تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبر ومواعظ ونذر تبين سنن الله في خلقه مع الأقسام الذين كذبوا الرسل وكان عاقبة أمرهم الدمار والنيكال .

(وهم ينهون عنه وينأون عنه) أى وأولئك المشركون المعاندون للذي الجاحدون لنبوته ، لا يقنعون بتكذيبهم له وعده حديث خرافة ، بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به ، ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لاشمئزازهم وتفورهم منه فيكونون ناهين منتهين .

(وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) أى وما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه وهو عذاب الضلال والإضلال ، وما يشعرون بذلك بل يظنون أنهم يبعثون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب ؛ فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوته صلى الله عليه وسلم ، بعضهم في نغم خاصة ، وبعضهم في وقعة بدر وغيرها من الغزوات .
ويتبع هذا الهلاك الدينى هلاك الآخرة ، واللفظ يشملهما معا .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ
بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ
مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

يقال وقف الرجل على الأرض وقوفا ، ووقف على الشيء : عرفه وتبينه ، ووقف نفسه على كذا وقفا : حبسها كوقف العقار على الفقراء .

المعنى الجملى

بين الله في الآية السابقة حال طائفة من المشركين تلقى السمع مصغية للقرآن لكن لا يدخل القلب شيء مما تسمع ، لما عليه من أكنة التقليد ، والاستنكار لكل شيء جديد ، فهم يستمعون ولا يسمعون ؛ وبين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم يوم القيامة وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالح العمل ويكونوا من المؤمنين حقا ، ثم كذبهم فيما يقولون وأنهم لوردوا لعادوا لما كانوا فيه لفقد استعدادهم للإيمان ، وأن حالهم بلغ مبلغا لا يؤثر فيه كشف الغطاء ورؤية الفرع والأهوال .

الإيضاح

(ولو ترى إذ وقفوا على النار) أى ولو ترى أيها السامع ما يحل بأولئك المكذبين من الفرع والهول حين تفهم ملائكة العذاب على النار مشرفين عليها من أرض الموقف ، وندمهم على كفرهم وحسرتهم على ما فرط منهم فى جنب الله وتمنيهم ما لا سبيل للحصول عليه ، لرأيت ما لا يحيط به الوصف ولا يقدر على التعبير عنه اللسان ولا يبلغ تصويره البيان ، ولو أوتى المتكلم بلاغة سبحانه .

(فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) أى ويقول هؤلاء المشركون بربهم إذ حسبوا على النار : ليتنا نرد إلى الدنيا حتى نتوب ونعمل صالحا ولا نكذب بآيات الله وحججه التى نصبها دلالة على وحدانيته وصدق رساله ، بل نكون من المصدقين به وبرسله ومن المتبعين لأمره ونهيه .

والخلاصة — إنهم حين عاينوا الشدائد والأهوال بسبب تقصيرهم تمنوا الرد إلى الدنيا ليسعوا فى إزالة ذلك التقصير ويتركوا التكذيب بالآيات ويعملوا صالح العمل . وتمنى هذا الرد إلى الدنيا بناء على جهلهم بأنه محال ، أو أنهم مع علمهم باستحالته لما نعى من تمنيه على سبيل التحسر ، لأنه يصحح أن يتمنى ما لا يكون .

(بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل) أى بدالهم سوء عاقبة ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا وتمنوا الخلاص منه بالرد إلى الدنيا وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان ، كما يتمنى الموت من أنه يهك المرض وأضناه الداء العضال ، لأنه ينقذه من الآلام لأنه محبوب فى نفسه ولا مرجو لذاته .

بيان هذا أنه إذا جاء ذلك اليوم الذى تبلى فيه السرائر وتتكشف جميع الحقائق ، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح ، وتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية

في كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها كما تتمثل الوقائع مصورة في آله الصور المتحركة (فلم السينما) .

فكل أحد يظهر له في الآخرة ما كان خفيا عنه من خير في نفسه وشر « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » أي فهي لا تخفى على أنفسكم فضلا عن خفائها على ربكم .

والخلاصة — إنه تعالى بين لنا أن تمنى أولئك الكفار لما تمنوا لا يدل على تبدل حقيقةتهم ، بل بدا لهم ما كان خفيا عنهم من أحوالهم بإخفائهم إياه عن الناس أو عنهم « وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فتمنوا الخروج مما حاق بهم ، ولكن الحقيقة لا تتغير ، وإنما يكون للنفوس أطوار وأحوال .

(ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي ، فإن ذلك من أنفسهم ثابت فيها نخبث طينتهم وسوء استعدادهم ، ومن ثم لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوا ولا سوء ما رأوا .

(وإنيهم لكاذبون) فيما تضمنه تمنيههم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله ، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله ، فلوردوا إلى الدنيا لرد المعاند المستكبر منهم مشتملا بكبره وعناده ، والمنافق مرتدا بمكره ونفاقه ، والشهواني ملوثا بشهواته القابضة على زمامه .

وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسول ، فإما مثله إلا مثل ما يلوح لهم في الدنيا من الآيات والعبء ، فهم يكابرون فيها أنفسهم ، ويغالطون عقولهم ووجدانهم .

ألا ترى شارب الخمر والمقامر يريان ما حل بغيرهما من الشقاء فيظهران الندم على ما فرط منهما ويتوبان ويعزمان على ألا يعودا إلى مثل ما عملا ، ثم لا يلبثان أن يرجعا سيرتهما الأولى خضوعا لما اعتادا وألقا ، وترجيحا للذة العاجلة على المنفعة الآجلة .

ومن هذا يستبين لك أن الطريقة المثلى لتعويد الناس الفضيلة ، هي حملهم عليها بالعمل والمران وحسن التلقين والتعليم كما يمرن الأطفال في الصغر والرجال على أعمال الجندية ، ولا ينبغي أن يسمح للأحداث بإطاعة شهواتهم واتباع أهوائهم ، فلنا أن هذا يعوّدهم الحرية والاستقلال فيهدّيهم ذلك إلى الحق والفضيلة ، إذ قلما يوجد من يتبع شهواته في الصغر ثم يعدل عن ذلك في الكبر بعد أن يصير طبيعة وعادة .

فما مثل تربية الأطفال على الآداب والفضائل إلا مثل تربيتهم على النظافة ومراعاة القوانين الصحية فإننا نعوّدهم ذلك في الصغر ثم هم يعرفون فوائد ذلك في الكبر .

(وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) أى لوردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر وسيء الأعمال ولأنكروا البعث والحساب والجزاء ، وقالوا لا ثواب ولا عقاب في الدار الآخرة .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ ؟
 قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)
 قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
 يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَّا
 سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهَبٌ وَهَوٌّ ، وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
 لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٣٢) .

شرح المفردات

الساعة في اللغة : الزمن القصير المعين ، ثم أطلق على الوقت الذي ينقضى به أجل هذه الحياة ويخرب العالم وما يتبع ذلك من البعث والحساب ، سمي بذلك لسرعة

الحساب فيه كأنه ساعة ، و بفتة ، نجاة : يقال بفته إذا هجم عليه من غير شعور ، والحسرة
 الغم على ما فات والندم عليه كأنَّ المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذي حمله
 على ما ارتكب ، والتفريط: التقصير ممن قدر على الجد والتشمير ، من الفرط وهو السبق
 ومنه الفارط والفرط وهو الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم ، والأوزار جمع وزر
 (بالكسر) وهو الحمل الثقيل ، ووزره (بزنة وعده) حمله على ظهره ثم أطلق
 في الدين على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذي يثقل الظهر ، واللعب:
 الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصدا صحيحا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة كأفعال
 الصبيان التي يتلذذون بها ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وقد يسمى
 كل ما به استمتاع لهوا ، ويقال لهوت بالشئ أهو به لهوا وتلهيت به إذا تشاغت
 وغفلت به عن غيره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السالفة إنكارهم في الدنيا للبعث والجزاء -
 بين هنا حالهم في الآخرة يوم يكشف عنهم الغطاء فيتحسرون ويندمون على تفريطهم
 السابق وغرورهم بذلك المتاع الزائل ، ثم أردفه بذكر حقيقة الدنيا مقابلا بينها وبين
 الآخرة وموازنا بين حالهما لدى المتقين والعاصين .

الإيضاح

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) أى ولو ترى هؤلاء الضالين المكذبين حين
 تفهم الملائكة في الموقف الذى يحاسبهم فيه ربهم ويمسكونهم إلى أن يحكم الله فيهم
 بما يشاء - لهالك أمرهم واستبشعت منظرهم ورأيت ما لا يحيط به وصف ، وجعلهم
 موقوفين على ربهم لأن من تفهم الملائكة وتحبسهم في موقف الحساب امتثالا لأمر
 الله فيهم كما قال : « وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » يكون أمرهم مقصورا على الله
 لا يتصرف فيه غيره : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(قال أليس هذا بالحق) أى حينئذ يقول لهم ربهم: أليس هذا الذى أتم فيه من البعث هو الحق الذى لاشك فيه ولا ريب؟ لا باطل كما كنتم تزعمون .

(قالوا بلى وربنا) أى قالوا بلى هو حق لا يحوم حوله الباطل ، وقد أكدوا اعترافهم باليمين فشهدوا بذلك على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) عبر بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنهم يجدونه وجدان الذائق فى قوة الإحساس به أى إذا كان الأمر كما اعترفتهم فذوقوا العذاب الذى كنتم به تكذبون بسبب كفركم الذى دأبتم عليه واتخذتموه شعارا لكم لا تتركونه .

(قد خسر الذين كذبوا بقاء الله) أى قد خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بما وعد الله به كل ما ربحه وفاز به المؤمنون من ثمرات الإيمان فى الدنيا كرضا الله وشكره حين النعمة ، والصبر والعزاء وقت المصيبة ، ومن ثمرات الإيمان فى الآخرة من الحساب اليسير والثواب العظيم ، والرضوان الأكر والنعم المقيم ، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وما سبب هذا إلا أن إنكار البعث والجزاء يفسد الفطرة البشرية ويفضى إلى الشرور والآثام ، فإن الاعتقاد بأن لاهياة بعد هذه الحياة يجعلهم الكافرين محصورا فى الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاه والرياسة والعلو فى الأرض ولو بالباطل ، ومن كانوا كذلك كانوا شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضا لا يصددهم عن الشر إلا العجز ولا تحمك بينهم إلا القوة . وشاهدنا على ذلك أن أرقى أهل الأرض فى الحضارة والعلوم والفلسفة هم الذين يقوِّضون صروح المدنية بمدافعهم ودباباتهم وطياراتهم وبكل ما أوتوا من فن واختراع ، ويهلكون الحرث والنسل ويخربون العامر من المدن ودور الصناعات بمنتهى القسوة والشدة ، ويهلكون ملايين الأنفس ما بين قتيل وجريح دون أن تستشعر قلوبهم

عاطفة رحمة ولا رافة ، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء لما اتهموا في الطغيان إلى هذا الحد الذي نراه الآن .

(حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) أى كذبوا إلى أن جاءتهم الساعة مباغتة .
مفاجئة : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وقد ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى أخفى علمها عن كل أحد حتى الرسل والملائكة .

(قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) أى قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وأصروا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيتهم وهى بالنسبة إليهم مبدأ الساعة ومقدمات القيامة ، مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينتظرونها ولا يعدون العدة لمجيئها ، قالوا يا حسرتنا على تفریطنا فى الحياة الدنيا التى كنا نزعم أن لا حياة بعدها .

(وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) أى يحملون ذنوبهم وخطاياهم كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وفى ذلك إيماء إلى أن عذابهم ليس مقصورا على الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال ، وإشارة إلى أن تلك الحسرة من الشدة والهول بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من صنوف العقوبات .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أن الأعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل قبيح يحمله صاحبها يوم القيامة ، والصالحة بصورة رجل حسن تحمل صاحبها يوم القيامة .

وإخلاصة — إنهم ينادون الحسرة التى أحاطت بهم أسبابها وهم فى أسوأ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم .

وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال التى تلابسهم حينما يلهجون بذلك المقال فقال :

(ألساء ما يزررون) أى ما أسوأ تلك الأثقال التى يحملونها يوم القيامة

على ظهورهم .

(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى وما هذه الحياة الدنيا التى قال الكفار إنه لا حياة غيرها إلا لهو ولعب ، فهى دائرة بين عمل لا يفيد فى العاقبة كلعب الأطفال ، وعمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام ، ومن ثم قال بعض الحكماء : إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هى إزالة للآلام ، فإذة الطعام فى إزالة ألم الجوع ، وبقدر هذا الألم تعظم اللذة فى إزالته ، ولذة شرب الماء هى إزالة العطش وهكذا .

وفى الآية وجه آخر ، وهو أن متاع هذه الدنيا متاع قليل ، قصير الأجل لا ينبغى أن يغتر به العاقل ، فما هو إلا كلعب الأطفال قصير المدة ، فإن الطفل سريع الملل لكل ما يقدم إليه من أصناف اللعب ، أو أن زمن الطفولة قصير كله غفلة ، أو كلهو المهموم فى قصر مدته ، على كونه غير مقصود لذاته .

(وللدار الآخرة خير للذين يتقون) الكفر والمعاصى نخلو لذاتها من المضار والآلام وسلامتها من التقضى والانصرام ، من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذى لاحظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذى هو من قبيل اللعب فى قصر مدته وعدم فائدته ، أو من قبيل اللهو فى كونه دفعا لألم الهم والكدر .

وإخلاصة — إن نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا ، فالبدنى منه أعلى وأكمل من نعيم الدنيا فى ذاته وفى دوامه وثباته وفى كونه إيجابيا لا سلبيا ، وفى كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام ، وفى كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقدار ، والروحانى منه كلفاء الله ورضوانه وكمال معرفته يجلب عنه الوصف والتحديد ولا شبهه له فى نعيم الدنيا .

(أفلا تعقلون) أى أتغفلون عن هذا فلا تعقلون أن الحياة الدنيا لعب ولهو وأنتم ترون من يموت ومن تنوبه النوائب ، وتفجعه الفواجع ، فى ذلك مزدجر عن الركون إليها واستعباد النفوس لها ، ودليل على أن لها مدبرا يلزم الخلق عبادته وعدم إشراك غيره معه فى ذلك التدبير والنظام وإخلاص العبادة والطاعة له .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ،
 وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ
 قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ المرسلين (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكَ
 إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ
 فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الجاهلين (٣٥) .

شرح المفردات

الحزن: ألم يحل بالنفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب ، أو حدوث مكروه ،
 ولا سبيل لعلاجه إلا التسلية والتأسي كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
 وما يبكون مثل أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي

وكذبه: رماه بالكذب، والجحود والجحد: نفى ما في القلب إثباته أو إثبات ما في
 القلب نفيه ، ويقال جحده حقه وبحقه ، وكلمات الله : هي وعده ووعيده ، ومن ذلك
 وعده للرسول بالنصر ، ووعيده لأعدائهم بالغلب والخذلان كقوله : « كَتَبَ اللَّهُ
 لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين . إِنَّهُمْ لَهُمُ
 الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » والنبأ : الخبر ذو الشأن العظيم ، وكبر على
 فلان الأمر أي عظم عنده وشق عليه وقعه ، والإعراض : التولي والانصراف عن الشيء
 رغبة عنه أو احتقار له ، واستطعت الشيء : صار في طوعك منقادا لك باستيفاء
 الأسباب التي تمكنك من فعله ، والابتغاء : طلب ما في طلبه كلفة ومشقة من البغي

وهو تجاوز الحد ، ويكون في الخير كابتغاء رضوان الله وهو غاية السكال ، وفي الشر كابتغاء الفتنة وهو غاية الضلال ، والنفق: السرب في الأرض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، والسلم: المرقاة من السلامة ، لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك ، وتذكيره أفصح من تأنيثه، والآية : المعجزة ، والجهل هنا : ضد العلم ، وليس كل جهل عيباً لأن الخلق لا يحيط بكل شيء علماً ، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه علمه ، ثم بجهل ما ينبغي له ويعد كمالاً في حقه إذا لم يكن معذوراً في جهله .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة في دعوة مشركى مكة إلى الإسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث ، وكثير فيها حكاية أقوالهم بلفظ (وقالوا - وقالوا) نحو : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ - وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » إلى نحو ذلك - وتلقين الرسول صلى الله عليه وسلم الرد عليهم مع إقامة الحجة والبرهان بلفظ (قل - قل) نحو : « قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْتُمْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

بعد هذا الحجاج كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وحزنه مما يقولون في نبوته وما يراه منهم من الإعراض عن دعوته ، وسلاه عن ذلك ببيان سنته سبحانه في الرسل مع أقوامهم وأن كثيراً منهم كذبوا فصبروا حتى جاءهم النصر المبين وخذل الله أعداءهم الكافرين .

روى ابن جرير عن السدى أن الأحنس بن شريق وأبا جهل التقي ، فقال الأحنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا أحد يسمع كلامك غيرى ، قال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابه والندوة والنبوة فإذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله هذه الآية .

الإيضاح

(قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) القول الذى يحزنه منهم هو ما كانوا يقولونه فيه وفي دعوته ونبوته من تكذيب وطعن وتنفير للعرب منه .
يقول تعالى مسلماً لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه .
قد أحطنا علماً بتكذبيهم لك وحزنك وأسفك عليهم كما جاء فى قوله : « وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » وفى قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسًا عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدودهم . روى سفيان الثورى عن على قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

وروى ابن أبى حاتم عن أبى يزيد المدنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصاحه ، فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابى ؟ فقال والله إني لأعلم إنه لنبى ولكن متى كنا لنبى عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

والخلاصة — إنهم لا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم إلى افتراء الكذب ، ولا يجحدونه كاذباً فى خبر يخبر به بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع ، وإنما يدعون أن ما جاء به من أخبار الغيب التى من أهمها البعث والجزاء كذب غير مطابق للواقع ، ولا يقتضى ذلك أن يكون هو الذى افتراه ، فإن التكذيب قد يكون للكلام دون المتكلم الناقل له .

وذكر الرازى فى نفي التكذيب مع إثبات الجحود أربعة أوجه :

(١) إنهم ما كانوا يكذبونه فى السر ولكنهم كانوا يكذبونه فى العلانية
ويجحدون القرآن والنبوة .

(٢) إنهم لا يقولون له إنك كذاب لأنهم جربوه الدهر الطويل فلم يكذب
فيه قط ، ولكنهم جحدوا صحة النبوة والرسالة واعتقدوا أنه تخيل أنه نبي وصدق
ما تخيله فدعا إليه .

(٣) إنهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة على وفق دعواه
كان تكذبيهم تكذيبا لآيات الله المؤيدة له أو تكذيبا له سبحانه ، فكان أن الله قال
له إن القوم ما كذبوك ولكن كذبوني ، وذلك أن تكذيب الرسول كتكذيب
المرسل المصدق له بتأييد، على حد : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » .

(٤) إن المراد أنهم لا يخلصونك بالتكذيب ، بل ينكرون دلالة المعجزة على
الصدق مطلقا ويقولون فى كل معجزة إنها سحر ، فكان الخلاصة إنهم لا يكذبونك
على التعيين ولكن يكذبون جميع الأنبياء والرسل .

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا)
أى إن الرسل الذين أرسلوا قبلك ، قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذبيهم
وإيذائهم لهم إلى أن نصر الله الرسل بالانتقام من أعدائهم المكذبين لهم .

ونظير هذه الآية قوله : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ »
وقوله : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ . . . » الآية .

وفى الآية تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم بعد تسليية ، وإرشاد له إلى سننه
تعالى فى الرسل والأمم ، وقد صرح بوجوب الصبر على هذا الإيذاء فى قوله :
« فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وقوله : « وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَاصْبِرْ لَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » .

وقد دلت التجارب على أن التأسى يهون المصاب ويفيد شيئا من السلى ، ومن

هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة ، لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له صلى الله عليه وسلم من شأنهما أن يتكررا بتكرر سبهما وبتذكرة .

وفي الآية بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم مؤكدة للتسلية بأن الله سينصره على المكذبين الظالمين من قومه ، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة الدعوة ، كما أن فيها إيماء إلى حسن عاقبة الصبر ، فمن كان أصبر كان حقيقا بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر .

(ولا مبدل لكلمات الله) أى إن ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله ، فى مثل قوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وكلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل ، فنصر الرسل حتم لا بد منه والتبديل جعل شىء بدلا من شىء آخر ، وتبديل الكلمات والأقوال نوعان :

(١) تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول وكلمة مكان أخرى ، ومن هذا قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » .

(٢) تبديل مدلولها ومضمونها كمنع نفاذ الوعد والوعيد أو وقوعه على خلاف القول الذى سبق ، ثم أكد سبحانه عدم التبديل بقوله :

(ولقد جاءك من نبي المرسلين) أى ولقد جاءك ذلك الذى أشير إليه من خبر التكذيب والصبر والنصر من نبي المرسلين الذى قصصناه عليك من قبل ، فقد روى أن سورة الأنعام نزلت بين سور الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبي المرسلين بالتفصيل .

وكما وعد الله رسله بالنصر وعد المؤمنين به فى نحو قوله : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وفى قوله « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

فما بالنأ نرى كثيرا ممن يدعون الإيمان فى هذا الزمان غير منصورين ، فلا بد إذا من أن يكونوا فى إيمانهم غير صادقين ، ولأهوائهم متبعين ، ولسنته فى أسباب النصر جاهلين ، فالله لا يخلف وعده ولا يبطل سنته ، بل ينصر المؤمن الصادق الذى يتجرى الحق والعدل فى حربه لا الظالم الباغى من خلقه ، والذى يقصد إعلاء كلمة الله ونصر دينه كما جاء فى قوله : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

(وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيتهم بآية) من الآيات التى اقترحوها عليك ليؤمنوا فاتهم بها .

ذلك أنهم كانوا يقترحون الآيات على النبى صلى الله عليه وسلم وكان يتمنى لو أتاه الله بعض ما طلبوا حرصا على هدايتهم ، وأسفا وحزنا على إصرارهم على غوايتهم ، لكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون وفوق ما يطلبون .

والخلاصة : وإن كان إتيانهم بآية مما اقترحوا يدحض حججهم ويكشف شبهتهم فيؤمنون عن بينة وبرهان ، فإن استطعت أن تبغى لنفسك نفقا تطلبه فى الأرض فتذهب فى أعماقها ، أو سلما فى جو السماء ترقى عليه إلى ما فوقها ، فتأتيتهم بآية مما اقترحوا عليك فأت بما يدخل طوع قدرتك من ذلك ، كتفجير ينبوع لهم من الأرض أو تنزيل كتاب تحمله من السماء وقد كانوا طلبوا ذلك كما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا إِلَى قَوْلِهِ - أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ » وقد أمره الله أن يجيبهم عن ذلك بقوله عقب هذا : « قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ » أى وليس ذلك فى قدرة البشر وإن كان رسولا فالرسل لا يقدرون على شيء مما يعجز عنه البشر ولا يستطيع إيجاد غير الخالق .

وخلاصة ذلك — إنك لن تستطيع الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا ابتغاء السبل إليها في الأرض ولا في السماء ، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك لعلمه أنه لن يكون سببا لما تحبه من هدايتهم .

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أى ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه ، إما بأن يجعل الإيمان ضروريا لهم كالملائكة ، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير فقط لا متفاوتى الاستعداد مختلفى الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات ، ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار .

(فلا تكونن من الجاهلين) أى إذا عرفت سننه تعالى فى خلق الإنسان وأنه لا تبدل لخلق الله ، فلا تكونن من الجاهلين لسننه فى ذلك ، فتنمى ما تراه حسنا نافعا وإن كان حصوله ممتنعا لكونه مخالفا لتلك السنن التى اقتضتها الحكمة الإلهية .
 وخلاصة ذلك — لا تكونن بالحرص على إسلامهم والميل إلى الإتيان بمقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى فى خلقه .

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

أجاب الدعوة : إذا أتى مادعى إليه من قول أو عمل ، وأجاب الداعى واستجاب له واستجاب دعاءه : إذا لباه وقام بما دعاه إليه .

والقرآن الكريم استعمل أفعال الإجابة فى المواضع التى تدل على حصول

المستول كله بالفعل دفعة واحدة ، واستعمل أفعال الاستجابة في المواضع المفيدة لحصول المستول بالتهيؤ والاستعداد كقوله : « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » إذ الآية نزلت في وقعة حمراء الأسد بعد وقعة أحد فالمراد أنهم تهيئوا للقتال أو المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدرج كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالنطق بالشهادتين ثم يباقي أعماله بالتدرج .

والاستجابة من الله يعبر بها في الأمور التي تقع في المستقبل ويكون من شأنها أن تقع بالتدرج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالمغفرة وتكفير السيئات وإيتاء ما وعد به المؤمنين في الآخرة كما قال (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) الآية .

والسمع والسماع : يطلق على إدراك الصوت ، وعلى فهم ما يسمع من الكلام وهو ثمرة السمع ، وعلى قبول ما يفهم والعمل به وهذا ثمرة الثمرة ، والمراد بالموتى هنا : الكفار الراسخون في الكفر المطبوع على قلوبهم الميئوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه الاستجابة للداعي ، والبعث : لغة إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثت البعير أى أترته من مبركه وسيرته إلى المرعى ونحوه ، ولولا : كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، والآية المعجزة المخالفة لسنن الله في خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه في الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى ، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفظورين على ذلك ، ولا أن يلجئهم إجماع الآيات التي تقسرهم على ذلك ، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين في الاستعداد مختارين في تصرفاتهم وأعمالهم ، ومنهم من يختار الهدى على الضلال ، ومنهم من يستحب العمى على الهدى .

ذكر هنا أن الأولين هم الذين ينظرون في الآيات ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبيانات ، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون ، فهم والأموات سواء .

الإيضاح

(إنما يستجيب الذين يسمعون) أى إنما يستجيب لله ولرسوله الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر فيعقلون الآيات ويذعنون لما عرفوا بها من الحق لسلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ، دون الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ؛ كالمقلدين الذين لا يفكرون فى الأشياء بمقولهم ، ودون الذين قالوا سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين ، فبؤلاء وهؤلاء من موتى القلوب وأبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون .

(والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) أى والذين لا ترجى استجابتهم لأنهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع ، يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، ويرسلهم إلى موقف الحساب فينالون ما يستحقون على كفرهم وسيء أعمالهم ، فلا تبضع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ولا إرجاعهم إلى محجة الرشاد .

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) أى وقال الظالمون لأنفسهم الذين يجحدون بآيات ربهم ويعاندون رسوله إليهم : هلا أنزل عليه آية من ربه من الآيات التى اقترحناها عليه وجعلناها شرطاً لإيماننا به .

(قل إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى قل لهم أيها الرسول إن الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا إذا اقتضت الحكمة تنزيلها لا إذا تعلقت شهواتهم بتعجيز الرسول بطلبها ، فقد مضت سنة الله بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سبباً للهداية فى أمة من الأمم ، بل كانت سبباً فى عقاب المعاجزين للرسول بعذاب الاستئصال ، وتنزيل الآية لا يكون خيراً لهم بل هو شر لهم ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئاً من حكم الله تعالى فى أفعاله ولا من سننه فى خلقه .
 والخلاصة — إن طلبهم للآية أو الآيات مع وجود هذه الآيات البينات إنما هو محاولة تعجيز الرسول لأنه هو الدليل الذى يوصلهم إلى صدقه .

يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » وقوله : « وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالِكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ ،
وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) .

شرح المفردات

الدابة : كل ما يدب على الأرض من الحيوان والدب والديب المشى الخفيف والطائر : كل ذى جناح يسبح في الهواء وجمعه طير كراكب وركب ، والأمم واحدها أمة : وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد أو صفات وأفعال واحدة ، والتفريط فى الأمر التصغير فيه وتضييعه حتى يفوت ، يقال فرطه وفرط فيه ، والكتاب هنا : هو اللوح المحفوظ ، وقيل القرآن ، والحشر : الجمع والسوق .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أن الله قادر على أن ينزل الآيات إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها ، ولا ينزلها للتشهى والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الضالين المكذبين - ذكر ما هو كالدليل على ذلك ، فأرشد إلى عموم قدرته تعالى وشمول علمه وتدييره ، وأن كل ما يدب على وجه الأرض أو يطير فى الهواء فهو مشمول بفضل الله ورحمته وإحسانه ، فلو كان فى إظهار هذه المعجزات مصلحة

للمكلفين لفعالها ولا تمتنع أن يبخل بها ، إذ أنكم ترون أنه لم يبخل على شيء من
الحيوان بمنافعها ومصالحها .

الإيضاح

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم) أى لا يوجد
نوع من أنواع الأحياء التى تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التى تسبح فى الهواء
إلا وهى أم مماثلة لكم أيها الناس؛ وقد أثبت الأخصائيون الباحثون فى طباع الحيوان
الذين تفرغوا للدرس غرائزها وأعمالها أن النمل مثلاً يغزو بعضه بعضاً وأن المنتصر
يسترق المنكسر ويسخره فى حمل قوته وبناء قراه ، إلى نحو أولئك من الأعمال التى
تخصه ؛ وقد حرصت الأمم المتدنية على تحريم اصطيد بعض أنواع الحيوان ، فإذا رأت
بعض ما يصاد من الطير وغيرها قلّ فى بلادها وخشى انقراضه منها حرمت صيده .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها هى التى يراها المخاطبون عامة ويدركون فيها
معنى المماثلة ، دون دواب الأجرام السماوية القابلة للحياة الحيوانية التى أعلمنا الله
بوجودها فى قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ
دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » وهذا من أخبار الغيب التى دل العلم
الحديث على صدقها ؛ فقد أثبت الباحثون من علماء الفلك أن بعض الكواكب
كالمريخ فيه ماء ونبات فلا بد أن يكون فيه أنواع من الحيوان ، بل فيه أمارات
على وجود عالم اجتماعى صناعى كالإنسان ، منها ما يرى على سطحه بالمرقب (التلسكوب)
من جداول منظمة وخليجان وجبال ووديان إلى نحو أولئك .

وهذه الآية الكريمة ونحوها ترشدنا إلى البحث فى طباع الأحياء لنزداد علماً
بسنن الله وأسراره فى خلقه ونزداد بآياته فيها إيماناً وحكمة وكلاً وعلماً ونعتبر بحال
المكذبين بها الذين لم يستفيدوا مما فضلهم الله به على الحيوان فكانوا أضل من جميع
أنواعه التى لا تبغى على نفسها ما ينجيه الكافر على نفسه .

(ما فرطنا في الكتاب من شيء) فسر ابن عباس الكتاب هنا بأم الكتاب : وهو اللوح المحفوظ ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون على حسب السنن الإلهية ، وقيل الكتاب هنا علم الله المحيط بكل شيء ، شبه بالكتاب لكونه ثابتاً لا ينسى ، وقيل هو القرآن أى ما تركنا في القرآن شيئاً من ضروب الهداية التي ترسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامه وحكمها والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التي سخرها الله للانسان .

قال الحافظ بن كثير : ما فرطنا في الكتاب من شيء أى الجميع عليهم عند الله لا ينسى واحداً من جميعها من رزقه سواء كان برياً أو مجرياً كقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مفسح بأسمائها وأعدادها ونظامها وحاصر لحركاتها وسكناتها .

(ثم إلى ربهم يحشرون) أى ثم يبعث أولئك الأمم من الناس والحيوان يوم القيامة ويساقون مجتمعين .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أن المراد بحشر البهائم موتها كما ورد في الحديث « من مات فقد قامت قيامته » .

(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) أى والكافرون الذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا - تكذيب جحود واستكبار أو تكذيب جمود على تقليد الآباء - صم لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع قبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون في تلك الظلمات الخالكة ، ظلمة الوثنية ، وظلمة تقليد الجاهلية ، وظلمة الجهل والأمية .

(من يشأ الله يضلله) أى من تعلق مشيئته بإضلاله يضلله كما أضل هؤلاء الذين استحجوا العمى على الهدى ، وإضلاله إناهم جاء على مقتضى سننه في البشر ،

أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه وإن ظهر له أنه الحق ، وأن يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان بطلانها وإثبات خلافها مادام مغرورا بها مُكْبِرًا لمن جرى من الآباء عليها .

(ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) أى ومن يشأ هدايته يجعله على طريق مستقيم هو طريق الحق الذى لا يضل سالكه ، بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله ، استعمالا يعرف به الحق ويعرف به الخير ، ويعمل به على حسب سننه تعالى فى الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطِّعْ دَائِرَةَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) .

شرح المفردات

أرأيتم أى أخبرونى ، وهو أسلوب يذكر للتعجيب والتنبيه إلى أن ما يذكر بعده غريب عجيب تقوم به الحجة على المخالف ، يكشف أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء ، والبأساء : تطلق على الحرب والمشقة ، والبأس : الشدة

فى الحرب والعذاب الشديد والقوة والشجاعة ، والضراء : من الضر ضد النفع ،
والتضرع : إظهار الضراعة والخضوع بتكلف ، والأخذ بالبأساء والضراء : إنزالها
بهم ، مبلسون : أى متحسرون يأتسون من النجاة ، دابر القوم : آخرهم الذى
يكون فى أدبارهم ، وقطع دابرهم أى هلكوا واستئصلوا بالعذاب ولم يبق منهم
أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى للمشركين أن علمه محيط بما فى الأرض والسماء ، وأن عنايته
تم كل ما درج على الأرض أوطار فى الهواء ، وأن أم الحيوان مشابهة لأم الإنسان ،
وقد أوتيت من الإلهام والمعرفة ما به تميز بين ما ينفعها وما يضرها .

أمر نبيه أن يوجه إليهم هذا السؤال مذكرا لهم بما أودع فى فطرتهم من
توحيد عزمه عز اسمه ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت
الرخاء وارتفاع الأواء حتى إذا جد الجد ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد دعوا
الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وفضل عنهم ما كانوا
يعبدون من الأصنام والأوثان . وما وضعت رمزا له من ملك أو إنسان .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم
صادقين ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان
والأصنام ، أخبروني إن أتاكم عذاب الله كالذى نزل بمن قبلكم من الأمم الذين
كذبوا بالرسول ، فقد هلك بعضهم بريح صرصر عاتية ، وبعض آخر بالصاعقة ، أو بمياه
الطوفان المغرقة ، أو جاءكم الساعة بأهوالها وخزيها ونكالتها وبعثتم لموقف الحساب -
أغير الله فى هذه الأحوال تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء ؟ أم إلى غيره من
آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء ، إن كنتم صادقين فى دعواكم

ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء؟ فأخبروني أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين؟ ثم أجاب عن ذلك بقوله :

(بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) أى ما أتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتكم الساعة - بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد الهول بكم ، بل تدعونه وحده ، وبه تستغيثون ، وإليه تفرعون دون كل شيء غيره ، فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إن شاء ذلك ، لأنه وحده القادر على كل شيء ، والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلهاً من صنم أو وثن ، لأن الفزع إليه سبحانه عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى الماء عند العطش ، فلا يذهب به ما يتلقى بالتعليم الباطل من مسائل الدين ، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله ، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة ، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم ويدعون الله وحده .

ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات :

(١) أعرقها في الجهل أن يعتقد في شيء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه .

(٢) المرتبة الوسطى أن يعتقد أن الإله قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها كما تحل الروح في البدن وتدبره فيكونان شيئاً واحداً .

(٣) أضعف درجاته أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء ، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقربونهم إليه زلفى ويشفعون لهم عنده ، فهو لأجلهم يعطى ويمنع ويضر وينفع ، وهذه هي الدرجة التي

كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ » - « هُوَ لَا يَشْفَعُ بِنَا عِنْدَ اللَّهِ » .

والتوحيد الخالص هو الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء ويختار وأن جميع الخلق مسخرون لإرادته وتدبيره خاضعون لسننه وتقديره ، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئاً إلا في دائرة الأسباب التي شرعها لعباده ، وأن الوساطة بين الله وعباده محصورة في تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم ، وأن شفاعة الآخرة لله وحده يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » وقوله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » وقوله : « قُلْ إِنِّي لَنْ يُبَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » .

وقد بين الله أن تلك الوساطة الشركية تنسى عند اشتداد الكروب والأهوال فقال : « فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقال : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون)
 أى لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك فدعواهم إلى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون ذلك مفيداً لهم ، لأن سنتنا قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجارون بالدعاء إلى ربهم ، فالشدائد تربي النفوس وتهذب الأخلاق ، فترجع المغرورين عن غرورهم ، وتكف الفجار عن فجورهم ، فأخلق بها أن ترجع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر بل من دونهم من الأصنام والأوثان .

ولكن كثيرا من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس ولا يحولها بؤس ، فلا تجدى معهم العبر والمواعظ ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره ، ومنهم أولئك الأمم الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء ، ومن ثم قال تعالى :

«فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون» أى فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدمات العذاب وبوادره وحذروا عواقبه وأواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم .

ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة فلم تؤثر فيهم النذر ، وزين لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والفجور ، ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه آباؤهم ولا ينقادوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام سفهاء العقول لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح ولا فكر ثاقب .

(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) أى فلما عرضوا عما أنذروهم به رسليهم وتركوا الاهتداء به وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم وأصرروا على كفرهم وعنادهم وجمدوا على تقليد من قبلهم - بلوناهم بالحسنات وفتحنا عليهم أبواب الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام والأمن على الأنفس والأرواح ، فلم تربهم تلك النعم ولا شكروا الله على ما أنعم ، بل أفادتهم النعمة بطرا وكبرا كما أفادتهم الشدائد عتوا وقسوة .

والخلاصة - إنه تعالى سلط عليهم المكروه والشدائد ليعتبروا ويتعظوا ، فلما لم تُجد معهم شيئا نقلهم إلى حال هي ضدها ففتح عليهم أبواب الخيرات وسهل لهم سبل الرزق والرخاء فلم ينتفعوا أيضا ، وما مثل هذا إلا مثل الأب المشفق على ولده يخاشنه تارة ويلاينه أخرى طلبا لصلاحه واستقامة حاله وإرجاعا له عن غيه وطفغيانه .

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) أى حتى إذا ظنوا أن الندى أوتوا إنما هو باستحقاقهم ولم يزدحم ذلك إلا بطرا وغرورا ، أخذناهم بعذاب

الاستئصال حال كونهم مبعوثين ، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب ، فإذا هم ملبسون أى يأسون من النجاة .

وفي الآية إيماء إلى أن البأساء والضراء وما يقابلهما من السراء والنعماء مما يتهدب بها من وقتهم الله للهداية وألهمهم الرشاد ، والاختبار أكبر شاهد على صدق هذه القضية ، فالشدائد مصلحة للفساد ومهذبة للنفوس ، والمؤمن أجدر الناس بالاستفادة من الحوادث . روى مسلم عن صهيب مرفوعاً « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

وروى أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فلما نسوا ما ذكروا به الآية » .

وروى مالك عن الزهري أنه قال : (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) أى رخاء الدنيا وسترها . وقال الحسن البصرى : من وسع الله عليه فلم ير أنه لم يمكر به فلا رأى له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه لم ينظر له فلا رأى له ، ثم قرأ : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) .

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك وأعماله واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد .

(والحمد لله رب العالمين) أى والثناء الكامل والشكر التام لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر وتحقيق ما وعدهم به من إهلاك المشركين وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم .

وهذه الجملة إرشاد من الله لعباده المؤمنين بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين وقطع دابر الظالمين المفسدين وإيماء إلى وجوب ذلك فى عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل كما قال تعالى فى وصف عباده المتقين : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

والتخلصة — إن في الضراء والسراء عبرة وعظة للمتقين ، وعبرة ظاهرة أو باطنة للفائزين المفلحين .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعَثَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) .

شرح المفردات

نصرف الآيات أى نكررها على وجوه مختلفة، ومنه تصريف الرياح، ويصدفون: يعرضون عن ذلك . والمس : اللمس باليد ، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوءه غالبا من ضر وشر وكبر ونصب وعذاب .

المعنى الجملى

هذا ضرب آخر من ضروب الدعوة إلى وجود الصانع القادر وتوحيده ، وإثبات الرسالة بوجه آخر غير ما تقدم من وجوه الاحتجاج .

الإيضاح

(قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتاكم به ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت به

من التوحيد والهدى : أرايتم ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم وترجون شفاعتهم - إن أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم ، وأعماكم فذهب بأبصاركم ، وختم على قلوبكم وطبع عليها ، فأصبحتم لا تسمعون قولاً ، ولا تبصرون طريقاً ، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً ، ولا تدركون حقاً ولا باطلاً - من إله غير الله يأتىكم بما ذكر مما أخذه الله منكم ؟ أى لا إله غيره يقدر على إتيانكم بما سلب ، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء آلهة لقدروا على ذلك ؛ وإن كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون فلماذا تدعونهم ، وما الدعاء لإعبادة ، والعبادة لا تكون إلا للإله القدير ؟

(انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) أى انظر كيف تتابع عليهم الحجاج ونضرب لهم الأمثال والعبر - ونجعلها على وجوه شتى ليعتبروا ويتذكروا فينبؤوا ويرجعوا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ويتجنبون التأمل فيها - ويلقونها وراء ظهورهم .

(قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) أى قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن شأنكم إن أتاكم عذاب الله الذى مضت سنة الله فى الأولين بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين مباغتاً ومفاجئاً لكم فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمانة تشعركم بقرب نزوله بكم ، أو أتاكم وأنتم تعابنون وتنتظرون إليه بحيث ترون مبادئه ومقدماته بأبصاركم - هل يهلك الله به إلا القوم الظالمين منكم الذين أصروا على الشرك والعناد والجحود ، إذ قد مضت سنته تعالى فى مثل هذا العذاب أن ينجى منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين .

والخلاصة - إنه لا يهلك بهذا العذاب غيركم ، لظلمكم أنفسكم وجنابتكم عليها بما اخترتم لها من الشرك والفجور وعبادة من لا يستحق العبادة ، وترك عبادة من هو بها حقيق وجدير :

(وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى وما ترسل المرسلين إلا بإشارة أهل الطاعة بالفوز بالجنة جزاء وفاقاً على طاعتهم ، وبإنذار من أصروا على الشرك والإفساد فى الأرض ، لتنذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة .

(فن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى فن صدق من أرسلنا إليه من رسلنا وعمل صالحا فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالمكذبين الجاحدين ولا من عذاب الآخرة الذى أعده للكافرين ، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم ، لأن الله يحفظهم من كل فزع وهول كما قال سبحانه : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » وكذلك هم لا يحزنون فى الدنيا كحزن المشركين فى شدته وطول مدته ، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح كموت ولد أو قريب أو فقد مال أو قلة نصير يكون حزنهم مقرونا بالصبر وحسن الأسوة فلا يضرهم فى أنفسهم ولا فى أبدانهم ، ولا يغير شيئا من أخلاقهم وعاداتهم ، فالإيمان يعصمهم من عنت البأساء وبطر النعماء ، مسترشدين بنحو قوله تعالى « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . اِكْتِيَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

(والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون) أى والذين كذبوا بآياتنا التى أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب فى الدنيا أحيانا عند الجحود والعدا ، وفى الآخرة على سبيل الدوام والاطراد ، جزاء كفرهم وإفسادهم ، وخروجهم عن أمر الله وطاعته ، وارتكابهم مناهيه ومحارمه .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاٰلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ

الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ
 مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
 الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ اِيْقُولُوا اَهُؤُلَاءِ مَنَ اللّٰهُ عَلَيْنِهِمْ
 مِن يَبْنِنَا ؟ اَلَيْسَ اللّٰهُ بِاَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) .

شرح المفردات

الخزائن واحدها خزينة أو خزانة : وهى ما يخزن فيها الشئ الذى يراد حفظه
 ومنع التصرف فيه : « وَ اللّٰهُ خَزَّانُ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ » والغيب : ما غيب علمه
 عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ، وهو قسمان :

(١) غيب حقيقى : وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة وهو المعنى
 بقوله عز اسمه : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ الْغَيْبَ اِلَّا اللّٰهُ » .

(٢) غيب إضافى : وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض كالذى
 يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر .

أما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها ولا يعلمه غيرهم
 لجهلهم بتلك الأسباب أو معجزهم عن استعمالها فليس بداخل فى عموم الغيب الوارد
 فى كتاب الله .

وهذه الأسباب ضروب :

(١) ماهو علمى كالدلائل العقلية والعلمية ، فعلماء الرياضة يستخرجون من
 دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ويضبطون ما يقع من الخسوف
 والكسوف بالدقائق والثوانى قبل وقوعه بألوف الأعوام .

(٢) ماهو عملى كالبرق الأثيرى (التلغراف اللاسلكى) الذى يعلم به المرء
 ما يقع فى أفاصى البلاد من وراء البحار وبينه وبينها ألوف الأميال .

(٣) ماهو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم كالفراصة والإلهام ،
وأكثر هذا النوع هو اجس تلوح للنفس ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها .
والأعمى والبصير : هنا الضال والمهتدى ، والإنذار : العظة والتخويف ، الطرد :
الإبعاد ، والغداة والغدوة كالبكرة : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والعشى :
آخر النهار أو من المغرب إلى العشاء . وحسابهم : أى حساب إيمانهم وأعمالهم
الباطلة . وفتنا : أى ابتلينا واختبرنا . ومن بيننا : أى من دوننا . من الله عليهم :
أى أنعم عليهم بنعم كثيرة .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات السالفة فى بيان أركان الدين وأصول العقائد، وهى: توحيد
الله عز وجل ، ووظيفة الرسل عليهم السلام ، والجزاء على الأعمال يوم الحساب .
وذكر هنا وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه
عليه ، وأزال أوهام الناس فيها ، وأرشد إلى أمر الجزاء فى الآخرة وكون الأمر فيه لله
تعالى وحده على وجه يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيدا وبيانا وتفصيلا .

الإيضاح

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك)
أى قل أيها الرسول الذى بعث كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته
بحسن الثواب ، ومنذرا من لم يقبها بسوء العقاب ، لهؤلاء المكذبين لك بغير علم
يميزون به بين شئون الألوهية وحقيقة النبوة فيقترحون عليك من الآيات الكونية
ما يعلمون أنه ليس فى مقدور البشر . فهم إما أن يقولوه تعجيزا ، وإما أن يظنوا أن
الإنسان لا يكون رسولا إلا إذا خرج من حقيقة البشرية وصار قادرا على ما لا يقدر
عليه البشر ، وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر : لا أقول لكم عندى خزائن الله :

أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشئون المخلوقات . فكل هذا لله وحده يتصرف فيه بما يشاء فيعطى لعباده من خزائنه على حسب ما أوتى كل منهم من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤته ولم يصل إليه استعداده .

فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شيء ، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عنه أمر الدين قادرا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب فضلا عن التصرف بغير سبب مما طلبه المشركون منه وجعلوه شرطا للإيمان به كتفجير الينابيع والأنهار في أرض مكة ، وإيجاد الجنات والبساتين فيها ، وإسقاط السماء عليهم كسفا ، والإتيان بالله والملائكة قبيلة .

فإن قال قائل : إن الله أثبت علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسول عليهم السلام كقوله في سورة الجن : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب ؟ .

وجوابه — أن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدي الرسل — لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية . فإن الوحي ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه حينما يظهره الله عليه ، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية للوصول إليه ، يؤيد ذلك ما جاء في فترات الوحي في السيرة النبوية ، وقد يكون توجه قلب الرسول إلى الله تعالى في بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذي طلب من ربه بيانه — يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » .

وإخلاصة — إن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة ، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله ، فلم يتمكنهم ما لم يتمكن البشر من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم ، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية .

وفي كل من الأمرين إيماء إلى التبرؤ من ادعاء الألوهية أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وإشارة إلى جهل المشركين حقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة ، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب ، والإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات . فقد سألوه عن وقت الساعة ، وعن وقت نزول العذاب بهم ، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم .

وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك فأحرر بمن دونهم منزلة عند الله من القديسين والأولياء المقربين ألا يكون لهم ذلك ، فادعاهم جهل عظيم وإثم كبير ولا ينبغي التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة . كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين بسنن الله في الأكوام .

(إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) أى قل لهم ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلا وحي الله الذى يوحىه إليّ وتنزيله الذى ينزله عليّ ، فأضئ لوجيه وأعمل بأمره ، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة على صحة ما أقول وليس ذلك بالمنكر فى عقولكم ، ولا بالمستحيل كونه ووجوده ، فما وجه إنكاركم لذلك ؟ .

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهؤلاء المشركين المكذبين : هل يستوى أعمى البصيرة الضالّ عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه ، فلم يميز بين التوحيد والشرك ولا بين صفات الله وصفات البشر ، وذو البصيرة المهتدى إليه ، المستقيم فى سيره عليه بالحجة والبرهان حتى صار ذلك فى مرآة قلبه أوضح مما ترى العينان وتسمع الأذنان .

والخلاصة — إنهما لا يستويان ، كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان . (أفلا تتفكرون) فيما أذكر لكم من الحجج فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه ، وتميزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام ، وتعقلوا ما فى القرآن من ضروب الهداية والعرفان بذلك الأسلوب الرائع الذى لم تعهدوه من قبل ، فهل يكون ذلك فى مقدورى

وقد لبثت فيكم عمرا من قبل عاطلا من هذه المعرفة ، وتلك البلاغة الساحرة ، وذلك البيان الخلاب .

(وأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أى وأُنذِرْ بما يوحى إليك - المؤمنين بك الذين يخافون أهوال الحشر وشدة الحساب وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند القدوم على الله فى ذلك اليوم الذى لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » يوم لا ولى ينصر ، ولا شفيع يدفع العذاب إن أريد النجاة منه ، بل أمر ذلك متوقف على مرضاة الله .

فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتقوا الله اهتداء بهديك وخوفا من إنذارك ويتحروا ما يؤدى إلى مرضاته ، لا يصددهم عن ذلك اتكال على الأولياء ولا اعتماد على الشفعاء علما منهم أن الشفاعة لله جميعا : « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » . كما أنهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتركيتهم لأنفسهم لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم أو شفاعة الشافعين لهم ، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة فى الدنيا والآخرة مرتبط بزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها . والآية بمعنى قوله تعالى : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » .

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى أول النهار وآخره ، أو المراد عامة الأوقات إذ يقال هو يفعل كذا صباحا ومساء : إذا كان مداوما عليه .

والدعاء إما الصلاة وقد كان في أول الإسلام صلاتان إحداهما في الصباح والأخرى في المساء، وإما الأعم الشامل للدعاء الحقيقي والصلاة والقرآن المشتملين عليه . وقوله يريدون وجهه : أى يدعون ربهم في هذين الوقتين مرادين بهذا الدعاء ابتغاء مرضاته تعالى : أى يتوجهون إليه وحده مخلصين له الدين ، فلا يشركون معه أحدا ولا يرجون من غيره على الدعاء ثوابا . وهو كقوله : « إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » .

روى أحمد وابن جرير والطبراني في جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : « مرَّ الملأ من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك : فلعلك إن طردتهم أن تتبعك ، فأنزل الله فيهم القرآن : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله - أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : مشى عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وقرظة بن عمرو والحارث بن عامر في أشراف الكفار من بنى عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا له : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا . (واحداها عسيف ، وهو الأجير) كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه ، فذكر ذلك أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت يا رسول الله حتى تنظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم . فأنزل الله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

قال : وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة . وصبيحا مولى أسيد ، ومن الخلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد

عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبى مرثد وأشباههم ، ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا « الآية . فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر فانزل الله : « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا « الآية . والعبرة من هذا أن أول أتباعه كانوا كأتباع من تقدمه من الرسل صلوات الله عليهم من الضعفاء والفقراء ، وأن أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الرؤساء والسادة ، وأنهم كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويذمونهم ويعدون أنفسهم معذورين بعدم رضاهم بمساواتهم ؛ بل قد اقترحوا على الرسل طردهم وإبعادهم كما فى هذه الآية وكما فى قوله فى سورة هود حاكيا قول الأشراف من قوم نوح عليه السلام : « وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا بِآيَاتِنَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْبَثُونَ » .

(ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم)
 أى ما عليك شىء من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، كما أنه ليس عليهم شىء من أمر حسابك على أعمالك ، حتى يكون هذا أو ذلك سببا فى طردك إياهم بإساءتهم فى عملهم أو فى محاسبتك على عملك ، فإن الطرد جزاء والجزاء إنما يكون على سبب الأعمال ولا يثبت ذلك إلا بالحساب . والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم ، بل هى لله يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل وحسابهم عليه تعالى لا عليهم ، والرسل هداة مرشدون ، لا أرباب مسيطرون : « فَذَكَرْهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية ، فأجدر بالناس ألا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم .

(فتكون من الظالمين) أى لا تطرد هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى فتكون بطردك إياهم فى زمرة الظالمين معدودا من جنسهم ، لأن الطرد لا يكون حقا

إلا على الإساءة في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها ، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجرى فيه على صراط العدل ، فإن عملهم هو عبادة الله وحده ، فحسابهم وجزاؤهم عليه كما قال نوح عليه السلام : « إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ » .

والخلاصة — إن هذه الآية الكريمة أفادت :

(١) أن الرسول لا يملك التصرف في الكون .

(٢) أنه لا يعلم الغيب .

(٣) أنه ليس بملك .

(٤) أنه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم .

(وكذلك فتننا بعضهم ببعض) أي ومثل ذلك الفتن أي الابتلاء والاختبار ،

فتنا بعضهم ببعض : أي جعلنا على حسب سنتنا في غرائز البشر وأخلاقهم — بعضهم فتنه لبعض تظهر به حقيقة حاله ، كما يظهر للصائغ حقيقة الذهب والفضة بفتنتهما بالنار .

(ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) أي لتكون العاقبة أن يقول

المفتونون من الأقوياء في شأن الضعفاء من المؤمنين : أهؤلاء الصعاليك من العبيد والموالى والفقراء والمساكين خصهم الله بهذه النعمة العظيمة من جعلتنا أو من مجموعنا ؟ .

والخلاصة — إن ذلك لن يكون لأنهم هم المفضلون عند الله بما آتاهم من غنى

وثررة وجاه وقوة ، فلو كان هذا الدين خيرا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء كما أعطاهم

من قبل الجاه والثررة ، وقد حكى الله عنهم مثل هذا بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » ورد الله عليهم مقاتلهم الدالة على

العتو والاستكبار بقوله :

(أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي إن المستحق لمن الله وزيادة نعمه إنما

هو من يقدرها قدرها ويعرف حق المنعم بها فيشكره عليها لا من سبق الإنعام عليه

فكفر وبطر ، وعتا واستكبر .

وبهذا مضت سنة الله في عباده ، ولولا هذا لكانت النعم خالدة لا تنزع ممن أوتيتها وإن كفر بها ، وهل فتن أولئك الكبراء إلا بما حصل لهم من الغنى والقوة ؟ فظنوا جهلا منهم بسنة الله في أمثالهم أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريما لذواتهم وتفضيلا لهم على غيرهم .

وفي الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم لن يدوم ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذى صبروا عليه بل لا بد أن تنعكس الحال فيسلب الأقوياء ما أعطوا من قوة ومال ، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين فيكونوا هم الأئمة الوارثين « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

كذلك فيها إشارة إلى أن تركهم للإيمان لم يكن إلا جحودا ناشئا عن الكبر والعلو فى الأرض لاعن حجة ولا شبهة ، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) .

شرح المفردات

السلام والسلامة : البراءة والعافية من الآفات والعيوب ، والسلام : من أسماه تعالى يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص وعجز وفناء ، واستعمل السلام فى التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء ، وبمعنى تأمين المسلم عليه من كل أذى

يناله من المسلم فهو دليل المودة والصفاء ، وهو تحية أهل الجنة يحییهم بها ربهم جل وعلا وملائكته الكرام ، ويحيى بها بعضهم بعضا ، وكتب : أوجب ، والجمالة : السفه والخفة التي تقابل الحكمة والروية ، وتستبين : تتضح وتظهر ، يقال : استبنت الشيء وتبينته : أى عرفته بينا واضحا .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته استأالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعا فى إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته كما اقترحه بعض المشركين. أمره بأن يلتقى الذين يدخلون فى الإسلام أما بعد آم عن بينة وبرهان ، بالتحية والسلام والتدخير برحمة الله ومغفرته ، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين إما كفر جحود وعناد وإما كفر جهل وتقليد للأباء والأجداد ، وكان يدخل فى الإسلام الأفراد بعد الأفراد ، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم ، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم .

الإيضاح

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) أى وإذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابنا وحججنا ويقرون بذلك قولاً وعملاً سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم ، هل لهم منها توبة فلا تؤيسهم منها وقل لهم سلام عليكم أى أمانة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها .

(كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى قل لهم أوجب الله على ذاته المقدسة تفضلا منه وإحسانا ، الرحمة بخلقه فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وفيما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية — لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية وتربية عباده بها فى حياتهم الجسدية والروحية .

ثم بين أصلا من أصول الدين فى هذه الرحمة للمؤمنين فقال :

(أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم)
 أى إن من عمل منكم عملا تسوء عاقبته للضرر الذى جرمه الله لأجله حال كونه ملتبسا
 بجهالة دفعته إلى ذلك السوء كغضب شديد حمله على السب والضرب أو شهوة مغتلمة
 قادتة إلى انتهاك عرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعرا بقبحه
 نادما عليه خائفا من عاقبته ، وأصلح عمله بأن أتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده
 ويذهب أثره من قلبه ، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها وتصير أهلا للقرب
 من ربها - فشأنه تعالى فى معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة فيففر له ما تاب عنه
 ويتغمده برحمته وإحسانه .

وقد بين الله فى هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هم أحوج إلى
 معرفته بنص الوحي وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين ، وبقية
 أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر فى الأنفس والآفاق ، وأمر نبيه بتبليغها لمن
 يدخلون فى الدين ليهدوا بها حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على
 التفريط فى جنب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم ، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من
 إفساد الذنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » .

(وكذلك فصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) أى ومثل ذلك التفصيل
 البديع الواضح فصل لك أدلتنا فى بيان الحقائق التى يهتدى بها أهل النظر والفكر
 لما فيها من العلم والحكمة والموعظة والعبارة ولتتضح لك وللمؤمنين طريق المجرمين
 إذ يعلم من هذا التفصيل أن ما خالفه هو سبيل المجرمين ، إذ الأشياء تعرف بأضدادها
 كما قيل : (وبضدها تتميز الأشياء) .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ
 أَهْوَاءَكُمْ ، قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ

رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
يَقْضُ الْحَقَّ ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ
لَقُضِيَ الْأَمْرُ يَنْبِيَّيْنِي وَيَبْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) .

شرح المفردات

النهي : الزجر عن الشيء بالقول نحو اجتنبت قول الزور ، والكف عنه بالفعل
كما قال تعالى : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » والدعاء : النداء لطلب إيصال الخير
أو دفع الضر ، ولا يكون عبادة إلا إذا كان في وراء الأسباب العادية التي سخرها
الله للعباد وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها . والبينة : كل ما يتبين به
الحق من الحجج العقلية أو الآيات الحسية ، ومن ذلك تسمية الشهادة بينة .
والتقصص : ذكر الخبر . أو تتبع الأثر ، والفصل : القضاء والحكم .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل
المجرمين ، ذكر هنا أنه نهى عن سلوك سبيلهم ، وسبيلهم هو عبادة غير الله ، وأن
هذه العبادة إنما هي بمحض الهوى والتقليد ، لا سبيل الحجة والبرهان ، فهي جمادات
وأحجار ينحتونها بأيديهم ويركبونها ثم يعبدونها .

الإيضاح

(قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) أي قل أيها الرسول
لهؤلاء الداعين لك إلى الإشراف : إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثون بهم
من دون الله أي غير الله من الملائكة والصالحين من عباده ، دع مادونهم من الأصنام
والأوثان التي لا علم لها ولا عمل .

وهذا النهى شامل لنهى الله عنه فى كتابه الكريم فى كثير من الآيات ،
ولأمر الله بضده وهو دعاؤه وحده ، ولنهى العقل والفترة السليمة قبل إرسال الأنبياء .
(قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) أى قل لهم ما أتبعكم
على ما تدعوننى إليه من هذه العبادة ولا فى غيرها من الأعمال لأنها مؤسسة على
الهوى ، وليست على شىء من الحق والهدى ، فإن فعلت ذلك فقد تركت محجة
الحق وسرت على غير هدى ، فصرت ضالاً مثلكم وخرجت من عداد المهتدين ،
وفى هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية فى شىء .

(قل إني على بينة من ربي) أى قل لهم أيها الرسول إني فيما أخالفكم فيه على
بينة من ربي أى على بيان قد تبينته وبرهان قد وضع لى من ربي بالوحى والعقل ،
إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التى يعجز
الرسول عن الإتيان بمثلاً .

(وكذبتكم به) أى والحال أنكم كذبتكم به أى بالقرآن الذى هو بينتى من ربي
ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون بينة البينات ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال من
أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد ، والتقليد براءة من الاستدلال ورضا بجهل
الآباء والأجداد .

وفى الكلام حجة دامغة و بينة ناصعة على ما قبلها من نفي عبادته صلى الله عليه
وسلم للذين يدعونهم من دون الله .

وبعد أن بين تكذيبهم به قفى عليه برد شبهة تخطر عند ذلك بالبال ، وهى أن
الله أنذرهم عذاباً يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم ، ووعد بأن ينصر رسوله
عليهم ، وقد استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم فكان عدم وقوع ذلك شبهة لهم على
صدق القرآن ، إذ هم يجهلون سنة الله فى شئون الإنسان ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم :
(ما عندى ما تستعجلون به) أى ما الذى تستعجلون به من نعم الله وعذابه

بيدي ولا أنا على ذلك بقادر ، ولم أقل لكم إن الله فوض أمره إلى ختي تظالبوني به وتعدون عدم إيقاعه حجة على تكذيبه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى هذا وفى غيره من التصرف فى شئون الأمم إلا لله وحده ، وله فى ذلك سنن حكيمة تجرى عليها أفعاله وأحكامه فلا يتقدم شئ منها عن ميقاته ولا يتأخر : « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » .

(يقص الحق وهو خير الفاصلين) أى يقص على رسوله القصص الحق فى وعده ووعيده وجميع أخباره ، وهو خير الحاكمين فى كل أمر ، فهو لا يقع فى حكمه وقضائه حيف إلى أحد ولا جور ، وهو النافذ حكمه فى كل شئ ، والمحيط علمه بكل شئ .
(قل لو أن عندى ما تستعجلون به لطفى الأمر بينى وبينكم) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

لو أن عندى ما تستعجلون به بأن مكنتى الله من التصرف فيه وجعله من قدرتى الكسبية ، لطفى الأمر بينى وبينكم فأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ، واقتصاصا من تكذيبكم ولتخلصت منكم سرىعا لصدكم عن تبليغ دعوة ربى وصدكم الناس عنى ، وقد وعدنى ربى بنصر المؤمنين المصلحين وخذلان الكافرين المفسدين .

(والله أعلم بالظالمين) الذين لا رجاء فى رجوعهم عن الظلم إلى الإيمان والحق والعدل ، ومن ثم لم يجعل أمر عقابهم إلى ، بل جعله عنده ووقت له ميقاتا هو أعلم به ، ترونه بعيدا ويراها قريبا : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » .

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ،
وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٌ

وَلَا يَأْسِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ
مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، أَلَا لَهُ
الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) .

شرح المفردات

المفاتيح واحدها مفتاح : (بفتح الميم) وهو الخزن : (وبكسرها) هو المفتاح
الذي تفتح به الأقفال، والبحر: كل مكان واسع حاو للكثير من الماء، والبر: ما يقابله،
والتوفى: أخذ الشيء وانيا أى تاما كاملا ويقابله التوفية، وهو إعطاء الشيء تاما كاملا ،
ويقال وفاه حقه فتوفاه منه قال تعالى : « وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ » ويقال
توفاه واستوفاه : أحصى عدده ثم أطلق التوفى على الموت ، لأن الأرواح تقبض وتتخذ
أخذها تاما ، وأطلق على النوم كما فى هذه الآية وفى آية الزمر ، والجرح : يطلق على
العمل والكسب بالجوارح وعلى التأثير الدامى من السلاح وما فى معناه كالبرائن
والأظفار والأنياب من سباع الطير والوحش ، وتسمى الخيل والأنعام المنتجة جوارح
أيضا ، لأن نتاجها كسبها، والجرح كالكسب يطلق على الخير والشر ، والاجتراح فعل
الشر خاصة فى قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ
كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ويعيشكم : يوظفكم من النوم ، ويقضى : ينفذ ،
والأجل المسمى : هو مدة بقائه فى الدنيا . والحفظة : هم الكرام الكاتبون من الملائكة .
« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ » .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته ، وأن ما يستعجلونه من عذاب الله تعجيزا أو تهكما ليس عنده ، وإنما هو عند الله ، وقد قضت سنته أن يجعل لكل شيء أجلا وموعدا لا يتقدم ولا يتأخر ، وأن الله تعالى هو الذى يقضى الحق ويقصه على رسوله - ذكر هنا أن مفاتيح الغيب عنده ، وأن التصرف فى الخلق بيده ، وأنه هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله ولا من سواهم فى ذلك .

الإيضاح

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) أى إن خزائن الغيب عند الله وهو المتصرف فيها وحده ، وكذلك المفاتيح أى الوسائل التى يتوصل بها إلى علم الغيب هى عنده أيضا لا يعلمها علما ذاتيا إلا هو ، فهو الذى يحيط بها علما وسواد جاهل بذاته لا يعلم منها شيئا إلا بإعلامه عز و علا ، فعلينا أن نفوض إليه إنجازه وعده لرسوله بالنصر ، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر ، وأن نجزم بأنه لا يخلف وعده رسوله ، وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذى اقتضته حكمته .

روى البخارى عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس » : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » وما حكاه الله عن عيسى عليه السلام من قوله : « وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون فى بيوتكم » وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن : « لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا نبأناكم بما بتوا به قبلا أن يأتىكما »

داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب كما قال في سورة الجن : « عَالِمُ
الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » . وجاء
في معنى الآية قوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ .
وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقوله : « إِنَّا نَحْنُ
نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » .
وروى البخارى عن عمران بن حصين مرفوعا : « كان الله ولم يكن شيء غيره
وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » .
لهذا الحديث والآثار المروية اتفق علماء التفسير بالمأثور على تفسير الكتاب المبين
وأم الكتاب والذكر في نحو ما تقدم من الآيات - باللوح المحفوظ ، وهو شئ أخبر
الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته . فعلمنا أن نؤمن بأنه شئ موجود
وأن الله قد حفظ فيه كتابه ؛ وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة فما
لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغي أن يدخل في باب العقائد
لدى المؤمنين .

وروى عن الحسن أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم
إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب ، وزاد بعضهم حكمتين أخريين :
(١) اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة المحدثات للمعلومات الإلهية .
(٢) عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب ، ويؤيده ما روى
البخارى عن أبي هريرة : « جف القلم بما أنت لاق » .
(ويعلم ما في البر والبحر) أى وعنده علم ما لم يغيب عنكم ، لأن ما فيهما ظاهر
للعين يعلمه العباد ، وعلمه تعالى بما فيهما علم شهادة مقابل لعلم الغيب .
والخلاصة - إن عنده علم ما غاب عنكم مما لاتعلمونه ولن تعلموه مما استأثر الله
بعلمه ، وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شئ منه ، فعنده علم ما كان وما يكون
وما هو كائن إلى يوم القيامة .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى وما تسقط ورقة من نجم أو شجر فى الصحارى والبرارى ، أو فى الأمصار والقرى إلا والله عليم بها .

(ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) أى وما تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره كالحب الذى يلقيه الزراع فى بطون الأرض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار ، أو تذهب به النمل فى قراها وجحورها ، أو بغير فعل الإنسان كالذى يسقط من النبات فى الشقوق والأخاديد ، وما يسقط من الثمار رطبا ويابسا - إلا وهو فى كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ الذى كتب ذلك فيه وكتب عدده والوقت الذى يوجد فيه والذى يفنى فيه ، وهو مبين ، أى يُبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم ، وهذا هو الذى اختاره الزجاج لقوله فى الآية الأخرى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » .

واختار الرازى أن الكتاب المبين علم الله تعالى الذى يشبه المكتوب فى الصحف بثباته وعدم تغيره .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى يتوفى أنفسكم حال نومكم بالليل أى يزيل إحساسها ويمنعها من التصرف فى الأبدان ، واقتصر على الليل وإن كان ذلك يقع فى النهار لأن الغالب أن يكون النوم فيه ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .
(ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى ويعلم جميع عملكم وكسبكم حين اليقظة ويكون معظم ذلك فى النهار سواء أكان خيرا أم شرا .

(ثم يبعثكم فيه) أى ثم إنه بعد توفيقكم بالنوم يثيركم ويرسلكم منه فى النهار .

(ليقضى أجل مسمى) أى يوقفكم ويرسلكم لكسب أرزاقكم وأقواتكم ،
ومناجاة إلهكم وخالقكم ، لأجل أن يقضى وينفذ الأجل المسمى الذى فى علمه تعالى
لكل فرد منكم ، فإن لأعماركم أجالا مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها .
(ثم إليه مرجعكم) أى ثم إليه رجوعكم إذا انقضت آجالكم وتمتم .
(ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم يخبركم بما كنتم تعملون فى حياتكم الدنيا
ويجازيكم بذلك إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

والقادر على البعث من توفى النوم قادر على البعث من توفى الموت .
وفى ذكر الأجل المسمى والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء إيماء إلى
تأييد ما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركو مكة من وعيد الله لهم ووعدده
لرسله بالنصر عليهم وبيان عذاب الآخرة فوق ما أنذروا به من عذاب الدنيا ، فمن
لم يدركه العذاب الأول لم يفلت من الثانى .

وبعد أن أبان سبحانه أمر الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء ، ذكر
قهره لعباده وإرسال الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم فقال :

(وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) أى إنه تعالى هو الغالب خلقه
العالى عليهم بقدرته وسلطانه لا المقهورون من الأوثان والأصنام المغلوبون على أمرهم ،
ويرسل عليكم حفظة من الملائكة يتعاقبونكم ليلا ونهارا يحفظون أعمالكم ويحفظونها ،
ولا يفرطون فى حفظ ذلك وإحصائه ولا يضعون شيئا منها . وإرسال الحفظة عليهم
مراقبتهم لهم وإحصاء أعمالهم وكتابتها وحفظها فى الصحف التى تنشر يوم الحساب ،
وهى المرادة بقوله تعالى : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ »

وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ .
كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف
صفتها ولا تتحكم فيها بأرائنا .

وما مثل مراقبة أولئك الحفظة إلا مثل : (مراقبة رجال البوليس السرى
في حكومات العصر الحديث) .

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه
قال فى الآية : الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم
وعن شمالهم ، يحفظونهم من القتل ، ألم تسمع أن الله تعالى يقول : « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ » لم يغن الحرس عنهم شيئا ، وفى معنى الآية قوله : « سَوَاءٌ
مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ .
لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعا « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل
وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم ،
فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون
وأتيناهم وهم يصلون » .

والحكمة فى كتابة الأعمال وحفظها على العاملين أن المكلف إذا علم أن أعماله
تحفظ عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات
وأبعث له على عمل الصالحات ، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العم الراسخ الذى يثمر
الخشية لله والمعرفة الكاملة الذى يثمر الحياء ، ربما غاب عليه الغرور بالكرم الإلهى
والرجاء فى المغفرة والرحمة فلا يكون لديه من الخشية والحياء ما يزجره عن المعصية ،
كما يزجره توقع الفضيحة فى موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم ، كما قال
تعالى : (وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا
مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ،
وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

(حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) أى يرسل عليكم

حفظه من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم ، حتى إذا جاء أحدكم الموت وانتهى عمله ، توفته وقبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره كما قال تعالى :
(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) .

روى ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه سئل عن ملك الموت أهو وحده الذى يقبض الأرواح ؟ قال هو الذى يلى أمر الأرواح وله أعوان على ذلك ، وقرأ الآية ، ثم قال غير أن ملك الموت هو الرئيس .

وروى عن إبراهيم النخعى ومجاهد وقتادة ، أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان ثم يدفعونها إلى ملك الموت . وعن السكبي أن ملك الموت هو الذى يتولى القبض بنفسه ويدفعها إلى الأعوان ، فإن كان الميت مؤمنا دفعها إلى ملائكة الرحمة وإن كان كافرا دفعها إلى ملائكة العذاب : أى وهم يتوجهون بالأرواح إلى حيث يوجههم الله بأمره ، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحت عن كفيته .

وجاء إسناد التوفى إلى الله فى قوله : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » إما لأنه هو الأمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك - وإما لأنه هو الفاعل الحقيقى والمسخر لملك الموت وأعوانه فهم لا يعملون إلا بأمره ولا يتصرفون إلا بتسخيره .
(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ثم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل إلى الله الذى هو مولاهم ومالك أمورهم ، وهو الحق الذى لا يقضى إلا بالعدل ، ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم .

وفى الآية إيماء إلى أن ردهم إليه حتم ، لأنه هو سيدهم الذى يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق .

وأما تولى بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة أو ملك التصرف والسياسة ، فمنه ماهو باطل من كل وجه ، ومنه ماهو باطل من حيث إنه موقوت لاثبات له ولابقاء ، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره فى سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة

لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا ، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا وبقى للمولى الحق وحده .

(ألاله الحكم وهو أسرع الحاسبين) أى له الحكم وحده ليس لغيره منه شئ فى ذلك اليوم كما قال : « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » وقال : « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ مُّحْكَمُهُ إِلَى اللَّهِ » وقال : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

وسرعة حسابه - أنه يحاسب العباد كلهم فى أسرع زمن وأقصره ، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره ، ولا يشغله شأن عن شأن .
والخلاصة - إنه تعالى أسرع الحاسبين إحصاء للأعمال ومحاسبة عليها .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً :
لَنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لِنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ
مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ تُمْتَأْنِتُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) .

شرح المفردات

ظلمات البر والبحر : ضربان ، ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة للطر ، وظلمات معنوية كظلمة الجهل بالمسالك والطرق ، وظلمة فقد الأعلام والمنار ، وظلمة الشدائد والأخطار كالعواصف والأعاصير وهياج البحار ، إلى نحو ذلك من الشدائد التى تبطل الحواس وتدهش العقول ، قال الزجاج : العرب تقول لليوم الذى فيه شدة : يوم مظلم ويوم ذوكوا كب أى إنه قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل فى ظلمته ، وفى المثل : رأى السكوا كب ظهرها ، أى أظلم عليه يومه

لاشدداد الأمر فيه حتى كأنه أبصر النجم نهارا ، والتضرع: المبالغة في الضراعة ، وهي الذل والخضوع ، والمراد منه هنا ما كان صادرا عن الإخلاص الذى يثيره الإيمان الفطرى المطوى فى أنفوس البشر ، والخفية (بالضم والكسر) الخفاء والاستتار ، والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء ، وقد يكون بالإسرار هربا من الرياء ، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعا صوته متضرعا مبهتلا ، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا ، ويتجرى ألا تسمعه أذن ولا يعلم به أحد ، ويرى أنه يكون بذلك أجدرا بالقبول وأرجى لنيل المستول ، والكرب: الغم الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن أبان الله لعباده إحاطة علمه وشمول قدرته ، واستعلاءه عليهم بالقهر ، وحفظه أعمالهم عليهم - ذكرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية ونهاية الرحمة والفضل والإحسان .

الإيضاح

(قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وعمما أودع فى الآفاق من آيات التوحيد : من ينجيكم من ظلمات البر إذا ضلتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم المحجة ، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه فأظلم عليكم فيه السبيل فلم تهتدوا - غير الله الذى إليه مفزعكم بالدعاء تضرعا منكم إليه معلنين الدعاء تارة ومخفين له أخرى .

(لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الظلمات التى نحن فيها لنكونن ممن يوحدك بالشكر ويخلص لك بالعبادة دون من تشركه معك فى عبادتك .

وفى معنى الآية قوله : « هُوَ الَّذِي يُسِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ

فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَّحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ
 الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَنُنَّ
 أَنْجِيَنَّاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) أى إن الله ينجيكم
 المرة بعد المرة من تلك الظلمات ومن كل كرب يعرض لكم ، ثم أنتم تشركون به
 غيره بعد النجاة أقبح الشرك ، حال كونكم مخلقي وعدمكم له بالشكر حائثين بما وكدموه
 من الأيمان .

وأظهر أنواع الشرك أنكم تدعون أولياء من دون الله وتنسبون إليهم الشفاعة
 عنده ، حتى هذه النجاة التي نجاكموها .

وإخلاصة — إنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ في هذه الحالة إلا إلى
 الله ولا تعويل إلا على فضله ، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص في جميع الأحوال
 والأوقات ، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال
 الجسمانية أو إلى نحو ذلك من الأسباب ويعود إلى الشرك في العبادة ولا يوفى بالعيد .
 وفي الآية تنبيهه إلى أن من أشرك في عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبد رأساً ،
 فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ
 تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، أَنْظُرْ
 كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ
 الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ (٦٧) .

شرح المفردات

الشيعة : واحدهم شيعة ، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر ، قال تعالى : « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ » ويلبسكم : أى يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفة لافرقه واحده ، ونصرف الآيات : نحوها من نوع إلى آخر من فنون الكلام تقريرا للمعنى وتقريبا إلى الفهم ، والفقهاء : فهم الشيء بدليله وعلته المفضى إلى الاعتبار والعمل به ، والوكيل : هو الذى توكل إليه الأمور ، ومستقر : وقت استقرار ووقوع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله المشركين ببعض آياته فى أنفسهم وبمنه عليهم ، بإنجائهم من الأهوال والكروب التى يشعر بها كل من وقعت له منهم إما بتسخير الأسباب ، وإما بدقائق اللطف والإلهام .
ذكر هنا قدرته على تعذيبهم ، وأبان أن عاقبة كفران النعم أن تزول وتحل محلها النقم ، وأن الله يمهل ولا يهمل ، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

الإيضاح

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض) أى قل أيها الرسول لقومك الذين يشركون مع الله سواه ، ولا يشكرون نعمه التى أسداها إليهم : إن الله هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا تجهلون حقيقته ، فيصب عليكم من فوقكم ، أو يثيره من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيئا على أهواء شتى ، كل فرقة تشايح إماما فى الدين أو تتعصب لملك أو رئيس ، أو يذيق بعضكم بأس بعض فيقتل بعضكم بيد بعض .

وقد ورد فى التفسير بالمأثور ، أن المراد بالعذاب من فوق الرجم من السماء

والطوفان كما وقع لبعض الأمم القديمة ، وبالعذاب من تحت : الخسف والزلازل المعهودة قديما وحديثا ، وروى عن ابن عباس أن المراد بمن فوقكم أى من أمرائكم ، ومن تحت أرجلكم : أى عبيدكم وسفلكم .

ولا شك أن لفظ العذاب مبهم قصد به هذا الإيهام لأجل الشمول ، فينطلق على ما يدل عليه اللفظ مما يحدث في المستقبل أو ينكشف للناس فيه ما كان خفيا عنهم ، فالقرآن لا تنفى عجائبه ، وفيه نبأ من قبل ونبا من كان في زمن التنزيل ونبا من سيجىء بعدهم .

فهذه الآية ظهر تفسيرها بأجلى برهان في هذه الحروب في العصر الحديث مما لم يسبق له نظير ولم يكن البشر على علم منه ، فقد أرسل الله فيها على الأمم المحاربة عذابا من فوقها بما تقذفه الطائرات والمطاود وقاذفات القنابل التي تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة ، ومن المواد المحرقة ، وصارت تمشى آلاف الأميال لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى ، وتجعل عاليها سافلها ، بما تصب فيها من عل ، من الحمم المتقدة والنيران المشتعلة ، حتى ليراها الرأى كأنها بركان ثائر يريد أن يبتلع من حوله ويلتهم جميع ما فوق سطح الأرض .

وكذلك مقذوفات المدافع البعيدة المدى التي تطلق قناتير من أفواهاها وترسله من فوق من مواد قاتلة مما لم يعرف الناس له نظيرا من قبل . وكذلك يأتيها العذاب من تحتها بما تحدث السفن الغواصة في البحار بما ترسله من (الطور بيد) الحامل للقناتير المنظرة من مختلف المعادن وتتحين به الفرص لمقابلة سفن العدو فتصبه عليها صبا . وتهلك به مختلف السفن ولا تقوى على النجاة منها مهما عظم حجمها ودق صنعها بل لا بد أن تهوى في قاع البحار إذا قدر لها أن تصاب به ، فكم من سفينة غرقت . وكم من روح زهق به وأصبح طعاما للسماك وحيوان البحر .

وكذلك جعل أم أوروبا شيعا متعادية . وأذاق بعضها بأس بعض فخل بها من

التقتيل والتخريب ما لو لم نره بأعيننا ونسمع عنه الأحاديث المستفيضة التي لا تقبل شكاً ولا ريباً - لكننا في موضع الشك فيه لغرابته وشدة هولته وذهول الناس حين رؤيته ، فترى الناس سكارى ومأمم بسكارى ولكنهم من الذعر وشدة الخطب حيارى ، لا يدرون ما ذاهم فاعلون ، ولا أى مكان يسلكون ؛ ليتقوا ذلك الهلاك المحقق ، والعذاب الذى لا بد واقع بهم إلا من رحم الله .

وقد روى أحمد والترمذى عن سعد بن أبي وقاص قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية - قل هو القادر الخ - فقال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعدُ » .

وروى البخارى والنسائى من حديث جابر قال : « لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعوذ بوجهك) قال : (أو من تحت أرجلكم) قال : (أعوذ بوجهك) (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هاتان أهون أو أيسر) » .

وإنما كانت هاتان أهون أو أيسر لأن المستعاذ منه قبلهما هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد .

وروى عن ابن عباس من طريق أبى بكر بن مردويه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع الآخرين » .
وروى مسلم من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله زوى (جمع) لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة : (كالجماعة والقحط والفرق والصيحة والرجفة والريح الصرصر)

وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم : (عزتهم ومستقر ملكهم)
 وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم
 بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع
 عليهم من باقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا .

وقد ظهر صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في بلوغ ملك أمته مشارق الأرض
 ومغاربها وفي وقوع بأسهم بينهم ، وما زال ملكهم عن أكثر تلك الممالك
 إلا بتفرقهم ثم بمساعدتهم للأجانب على أنفسهم ، وكم تألبت عليهم الأمم فلم ينالوا
 منهم بدون ذلك منالا ، وما بقي لهم الآن إلا القليل الذي يطمع فيه الطامعون .
 ومن هذا نعلم أن الله لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم
 ما داموا مستمسكين بها .

يرشد إلى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن تداعى عليكم
 لأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أتم
 يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم
 وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا
 وكراهية الموت » رواه أبو داود والبيهقي .

(انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون) أى تأمل بعين بصيرتك أيها
 الرسول كيف نصرف الآيات والدلائل ونتابها على أنحاء شتى : منها ما طريقه
 الحس ، ومنها ما طريقه العقل ، ومنها ما سبيله علم الغيب ، لعلمهم يفقهون الحق ويدركون
 الحقائق بأسبابها وعللها التي تفضى إلى الاعتبار والعمل بها .

وأقرب الوسائل إلى تحصيل ذلك تصريف الآيات واختلاف الحجج والبيئات ،
 وبذا يتذكرون ويزدجرون عما هم عليه مقيمون من التكذيب بكتابتنا ورسولنا ،
 وانكبابهم على عبادة الأوثان والأصنام .

(وكذب به قومك وهو الحق) أى وكذب قومك بالقرآن على ما صرفنا فيه

من الآيات الجاذبة إلى فقه الإيمان ، إذ يثبتها الحس والعقل والوجدان ، والحال أنه حق ثابت لا شك فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(قل لست عليكم بوكيل) أى قل لهم أيها الرسول إننى لست عليكم بحفيظ ولا رقيب ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، أبشركم وأنذركم ولم أعط القدرة على التصرف فى عباده حتى أجبركم على الإيمان جبراً وأكرهكم عليه إكراهاً . « فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) أى لكل شىء نبيء عنه ويخبر ، مستقر تظهر فيه حقيقته ويميز حقه من باطله ، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه ، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأكم به كتابى من وعد ووعد ، ومن ذلك ما وعد به الرسول من نصره عليهم ، وما أوعد به أعداءه من الخزي والعذاب فى الدنيا والآخرة : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُجُومٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بِهِدٍ . سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَهُوَآ وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكَرْ بِهِ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلًا لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ

أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

أصل الخوض: الدخول في الماء والمرور فيه سيرا أو سباحة ، ثم استعمل في الاندفاع في الحديث والاسترسال فيه ، والدخول في الباطل مع أهله ، وقد استعمله القرآن بهذين المعنيين ، وأعرض عنهم : انصرف عنهم بدلا من القعود معهم والإقبال عليهم بوجهك ، والذكرى الأولى : بمعنى التذكر والثانية بمعنى التذكير ، والبسل : حبس الشيء ومنعه بالقهر ، ومنه أسد باسل وشجاع باسل أى مانع لما يريد حفظه أن ينال ، وفسر هنا بالحبس في النار ، وبالحرمان من الثواب ، وبالفضيحة ، وتعديل : تفد ، والعدل : القداء ، والحميم : الشديد الحرارة ، وأليم : شديد الألم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في الآيات السابقة تكذيب قريش بالقرآن ، وكون الرسول مبلغا لخالقا للإيمان ، وأحالمهم في ظهور صدق أنبائه وأخباره على الزمان .
بين في هذه الآيات السبيل في معاملة من يخوض في آيات الله بالباطل ، ومن يتخذ دين الله هزوا ولعبا من الكفار الذين لم يجيبوا الدعوة .

روى عن سعيد بن جبير وابن جريج وقتادة ومقاتل والسدى أن هذه الآية نزلت في المشركين المكذابين الذين كانوا يستهزئون بالقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس وأبي جعفر ومحمد بن سيرين أنها نزلت في أهل الأهواء والبدع من المسلمين الذين يؤولون الآيات بالباطل لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء .

الإيضاح

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجربون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزءوا فنزلت : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) الآية . قال فجعل إذا استهزءوا قام فحذروا وقالوا لا تستهزئوا فيقوم . والمخاطب بالآية الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان معه من المؤمنين ، ثم المؤمنون في كل زمان . أى وإذا رأيت أيها المؤمن الذين يخوضون في آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين ، أو من أهل الأهواء المفرقين ، فصدّ عنهم بوجهك وقم ولا تجلس معهم ، حتى يخوضوا في حديث غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها من جانب الكفار أو تأويلها بالباطل من جانب أهل الأهواء ، تأييدا لما استحدثوا من مذاهب وآراء ، وتفنيدا لأقوال خصومهم بالشغب والجدل والمراء ، وإذا خاضوا في غير ذلك فلا ضير في التعود معهم .

وسر هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والتعود معهم يغريهم في التماذى فيما هم فيه ، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه ، والمشاركة في ذلك كفر ظاهر ، لا يرتكبه إلا كافر مجاهر أو منافق مراء .

كما أن في التأويل لنصر البدع والآراء الفاسدة فتنة في الدين لا تنقص عن الأولى ضررا ، فإن أربابها تغشهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع ، ومن ثم حذر الساف من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذروا من مجالسة الكفار ، إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع .

ومن الناس من يحرفون آيات الله عن مواضعها بهواهم ليكفروا بها مسلما أو يضلوا بها مهتديا ، بغيا عليه وحسدا له .

(وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) أى وإن

أنسك الشيطان النهي مرة وقعدت معهم وهم على تلك الحال ثم ذكرت ذلك فقم عنهم، ولا تقعد مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها بدلا من الإيمان بها والاهتداء بهديها .

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد غيره على حد المثل : إياك أعنى واسمعى يا جارة : وهو كثير في كلام العرب ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم بالذات ولغيره بالتبع كما هو الشأن في أحكام التشريع غير الخاصة به صلى الله عليه وسلم .
ووقوع النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان لا خلاف في جوازه قال تعالى لخاتم أنبيائه : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » وثبت وقوعه من موسى عليه السلام : « قَالَ لَا تَأْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » ولكن الله عصمهم من نسيان شيء مما أمرهم بتبليغه أو بإخلال بالدين كإضاعة فريضة أو تحريم حلال أو تحليل حرام .
وثبت في الصحيحين والسنن « أن النبي صلى الله عليه وسلم سها في الصلاة وقال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني » .

وإنساء الشيطان للإنسان بعض الأمور ليس من قبيل التصرف والسلطان حتى يدخل في مفهوم قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

ومن هذا تعلم أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند إلى الشيطان لكونه ضارا أو مفوتا لبعض المنافع أو لكونه حصل بوسوسته ولو بشغل القلب ببعض المباحات لا يعد من سلطان الشيطان على الناس واستحواذه عليهم بالإغواء والإضلال الذي نفاه الله عن عباده المخلصين .

(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) أى وما على الذين يتقون من حساب الخائضين في آياته شيء فلا يحاسبون على خوضهم فيها ولا على غيره من أعمالهم التي يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنبوها وأعرضوا عنهم كما أمروا .

(ولكن ذكرى لعلمهم يتقون) أى ولكن ليعرضوا عنهم ذكرى لأمر الله ، لعلمهم يتقون فيتجنبوا الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم .
 (وذو الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا) أى ودع أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا الفاتنة فأثروها على الحياة الباقية ، واشتغلوا بلذاتها الخفيفة الفانية المشوبة بالمنغصات ، عما جاءهم من الحق مؤيداً بالحجج والآيات ، فاستبدلوا الخوض فيها بما كان يجب من فقها وتدبرها .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَرَّهُمْ يَا كَلْبُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . واتخاذهم دينهم هزواً ولعباً ، أنهم لما عملوا ما لا يركى نفوسهم ولا يطهر قلوبهم ولا يهذب أخلاقهم ولا يقع على وجه يرضى الله سبحانه ولا يُعد للقائه في دار الكرامة ، أضاعوا الوقت فيما لا يفيد وهذا هو اللعب ، أو شغلوا عن شئونهم وهمومهم الأخرى وهذا هو اللهو .

وخلاصة المعنى — أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لعملهم في نظرك وزنا .

(وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) الضمير في قوله « به » يعود إلى القرآن المعلوم بقرينة الحال ، لأنه هو الذكر الذى بعث به الرسول المذكر : أى وذكر الناس وعظهم بالقرآن اتقاء أن تبسل كل نفس في الآخرة بما كسبت أى اتقاء حبسها أو رهنها في العذاب ، وتفادياً من ذلك بما بينه الذكر الحكيم من أسباب النجاة والسعادة في هذه الدار كما قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » .
 (ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) أى والحال أنه ليس لها من غير الله

ولى ولا ناصر ينصرها ولا شفيع يشفع لها عند الله كما قال : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعِ » وقال : « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ حَمِيماً » وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ » .

(وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى وإن تفد النفس المبسلة كل نوع من أنواع الفداء لا يؤخذ منها ولا يقبل ، والمراد أنه لا يقع الأخذ ولا يحصل ، وهذا كقوله فى سورة البقرة : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

والخلاصة — إن النفس المبسلة تمنع فى ذلك اليوم من أى وسيلة من وسائل النجاة ، فلا ولى ولا حميم ولا شفيع ولا فداء إلى نحو أولئك مما ربحنا نفع فى مقاصد الدنيا وأنجز بعض المنافع .

وفى هذا إبطال لأصل من أصول الوثنية وهو رجاء النجاة فى الآخرة كما هو الحال فى الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء . عنده تعالى ، وتقرير لأصل دينى وهو أن لا نجاة فى الآخرة ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على السنة رسله من إيمان به وعمل صالح يزكى النفس ويطهرها ، أما من دسى نفسه وأبسله كسبه للسيئات والخطايا واتخذ دين الله هزوا ولعبا وغرته الحياة الدنيا فلا تنفعه شفاعته ولا تقبل منه فدية .

(أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا) أى أولئك المتخذون دينهم هزوا ولعبا ، للغفرون بالحياة الدنيا ، هم الذين حرموا الثواب وأسلموا للعذاب وحبسوا عن دار السعادة ، بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم ، ولم يكن لهم من دينهم الذى اتخذوه زاجر ولا مانع يرشدهم إلى التحول عن تلك الأعمال القبيحة ويصدهم عن العقائد الزائفة .

ثم بين سبحانه ما يكون لهم من الجزاء حين أبسلوا فقال :
(لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى لهم شراب من ماء حميم : أى بالغ الغاية فى الشدة يتردد فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، وعذاب شديد الألم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم الذى ظلوا عليه طول حياتهم حتى صرفوا عما جعل وسيلة للنجاة لو اتبعوه .

وإخلاصة — إن رسوخهم في الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير ، وفي ذلك عبرة لمن يفقه القرآن ولا يغتر بلبق الإسلام ، ويعلم أن المسلم من اتخذ القرآن إمامه وسنة الرسول طريقه ، لا من اغتر بالأمانى والأوهام ، ولا من ركن إلى شفاعة الشافعين والأولياء والناصرين .

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا ، لَهُ
أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ انْتِنَا ، قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأَمْرٌ نَا
لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) .

شرح المفردات

الأعقاب : واحدها عقب : وهو مؤخر الرجل ، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة أو سفل بعد رفعة أو أحجم بعد إقدام على محمده : نكص على عقبيه وارتد على عقبيه ورجع القهقري ، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم ، واستهوته الشياطين : ذهبت بعقله وهواه ، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن ، ومنه قولهم : جن فلان ، أى مسته الجن فذهبت بعقله ، وكانوا يقولون إن الجن تظهر لهم في المهامه وتتلون لهم بألوان مختلفة فتذهب بلب من يراها فيهم على وجهه لا يدري أين يذهب حتى يهلك ، وهذه الشياطين التى تتلون هى التى يسمونها الغيلان والأغوال والسعالى

وقوله حيران : أى تأنها ضالاً عن الجادة لا يدري ما يصنع ، والصور فى اللغة : القرن وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها فجعلوا منها أبواقاً ينفخون فيها لها صوت شديد يدعى به الناس إلى الاجتماع ويعزفون بها كغيرها من آلات الطرب ، وقد جاء فى سفر الأيام الأول من كتب العهد العتيق : فكان جميع بنى إسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهتاف وبصوت الأصوات والأبواق والصنوج ويصوتون بالرباب والعيدان .

الإيضاح

(قل أئندعوا من دون الله مالا يئنفعنا ولا يئضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟) أى قل أيها الرسول للآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم ، أئندعو من دون الله حجراً أو شجراً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا فنخصه بالعبادة دون الله وئندع عبادة الذى بيده الضر والنفع والحياة والموت إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر ؟ ولا شك أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره أحق وأولى من خدمة من لا يرجى منه شئ منهما ، ونرد على أعقابنا بالعودة إلى الضلال والشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام .

والخلاصة — إن ذلك لا يئبغى ولا يكون للأسباب الآتية :

(١) إن هذا تحول وارتداد عن دعاء القادر الذى يكشف الضر إن شاء ويمنح

الخير إن شاء — إلى دعاء العاجز الذى لا يقدر على نفع ولا ضر .

(٢) إنه نكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء .

(٣) إن من أنقذه الله القدير الرحيم من الضلالة بما أراه من آياته فى الأنفس والآفاق

لا يقدر أحد أن يئضله « وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ »

(كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى

انثنا) أى أئرد على أعقابنا فىكون مثلنا فى ذلك مثل الرجل الذى استتبعه الشيطان

يهوى فى الأرض حيران تأمها ، له أصحاب على الحججة واستقامة السبيل يدعونه إلى طريق الهدى الذى هم عليه ويقولون له اثتنا.

وخالصة المثل — إن من يرتد مشركا بعد الإيمان كمن جعله العشق أو الجنون هاتما على وجهه ضالا فى الفلوات حيران لا يهتدى ، تاركا رفاقه على الطريق المستقيم ينادونه : عد إلينا فلا يستجيب لهم لاجذابه وراء ما تراهى له بغير عقل ولا بصيرة . قال صاحب الكشاف وهذا مبنى على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن تستهوى الإنسان والغيلان تستولى عليه كقوله : « كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ » .

(قل إن هدى الله هو الهدى) أى قل إن هدى الله الذى أنزل به آياته وأقام عليه حججه وبيئاته هو الهدى الحق الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا ماتدعون إليه من أهوائكم اتباعا لما أنفتم عليه آباءكم .

(وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى وأمرنا بأن نسلم لله رب العالمين فأسلمنا .
(وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أى وأمرنا بالإسلام وإقامة الصلاة والتقوى ، وإقامة الصلاة : الإتيان بها على الوجه الذى شرعت لأجله ، وهى أن تزكى النفس بمناجاة الله وذكره وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتقوى : اتقاء ما يترتب على مخالفة دين الله وشرعه وتنكب سننه فى خلقه من ضرر وفساد .

(وهو الذى إليه تحشرون) أى وهو الذى تجمعون وتساقون إلى لقاءه يوم القيامة دون غيره فيحاسبكم على أعمالكم ويمجازيكم عليها ، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يعبد غيره أو يخاف ويرجى .

(وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) أى وهو الذى خلقهما خلقا متلبسا بالحق ، وهو أنه وفق سننه المطردة المشتملة على الحكم البالغة الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته البالغة ، ولم يخلقهما باطلا ولا عبثا فهو لا يترك الناس سدى ،

بل يجزى كل نفس بما كسبت ، ونحو الآية قوله في سورة آل عمران : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا » وقوله : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » .

(ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق) أى وقوله هو الحق الذى لا شك فيه يوم يقول للشئ كن فيكون وهو وقت إيجاد العالم وتكوينه ، فلا مرد لأمره ولا تخلف لقضائه وحكمه ، ومن كان أمره التكويني مطاعا يكن أمره التكليفي كذلك واجب الطاعة بلا حرج فى النفس ولا ضيق منه ، فانخلق حق والأمر حق : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

(وله الملك يوم ينفخ فى الصور) أى وله الملك يوم الحشر يوم يبعث من فى القبور وينفخ فى الصور ، والأمر حينئذ لله وحده ، ولا تملك نفس لنفس شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضرر ، فكيف يرضى لنفسه من يعرف هذه الحقائق - أن يدعو سواه ويتخذ له إلها غير الله ويرد إلى عقبيه ويرجع إلى أسوأ حاله؟ .

روى عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الصور فقال : « هو قرن ينفخ فيه » وروى عن ابن مسعود أنه قال : « الصور كهيئة القرن ينفخ فيه » (عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) قال الحسن : الشهادة ما قد رأيت خلقه ، والغيب ما غاب عنكم مما لم تروه ، وقال ابن عباس : الغيب والشهادة السر والعلانية .

والمعنى - إن الذى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، والذى قوله الحق تكويننا وتكليفنا ، والذى له الملك وحده يوم يحشر الخلائق - هو عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الذى يضع الأشياء مواضعها ، وهو الخبير بدقائقها وخفاياها ، ولا يشذ عن علمه شئ منها ، فلا ينبغى لعاقل أن يدعو غيره معه كما قال : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وقال : « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْرَرْتُكَ وَأُخِي فَأْتِئِذْهُمَا بِالْبُرْهَانِ الْبَاطِنِ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَا كُنْتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً ، قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

شرح المفردات

إبراهيم اسم خليل الرحمن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح ، وهو العاشر من أولاد سام كما في سفر التكوين ، ولد في بلدة (أور) أي النور من بلاد الكلدان ، وهي المعروفة الآن باسم (أورفا) في ولاية حلب كما يرجح ذلك بعض المؤرخين .

وفي سفر التكوين - إن الله تعالى ظهر له في سن التاسعة والتسعين من عمره وكنه وجدده عهده له بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان (فلسطين) ملكا له وسماه لذريته اه .

ومعنى إبراهيم أبو الجمهور العظيم: أي أبو الأمة وهو تبشير من الله له بتكثير نسله من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام .

وقد أثبت علماء الآثار أن عرب الجزيرة استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما .

ونقل بعض المؤرخين أن الملك حمورابي الذي كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام عربي .

وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية في الوادي الذي بنيت فيه مكة وأن الله سخر لهما جماعة من جرمهم سكنوا معها هناك .

وأبو إبراهيم سماه الله آزر ، وفي سفر التكوين اسمه تارح ، ومعناه متكامل ، وقال البخاري في تاريخه إبراهيم بن آزر وهو في التوراة تارح والله سماه آزر اه .

وجزم الضحاك وابن جرير أن اسمه آزر ، والضلال : العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسى والمعنوى ، وملك الله وملكوته : سلطانه وعظمته ، وجنه الليل وأجنه ستره ، والكوكب والكوكبة : واحد الكواكب ، وهي النجوم ، ربي أى مولاي ومدبر أمرى ، الأنول : غيبوبة الشيء بعد ظهوره ، وبزوغ القمر ابتداء طلوعه ، وتوجيه الوجه لله تعالى تركه يتوجه إليه وحده في طلب حاجته وإخلاص عبوديته ، وفطر السموات والأرض : أخرجهما إلى الوجود ، والحنيف : المائل عن الضلال .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟) أى واذا ذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين لقنك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم - قصص جدهم إبراهيم الذى يبجلونه ويدعون اتباع ملته حين جادل قومه وراجعهم فى باطل ما كانوا يعملون ، إذ قال لأبيه آزر منكراً عليه وعلى قومه شركهم وعائباً عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالفه ، يا آزر أتتخذ أصناماً آلهة تعبدونها من دون الله الذى خلقك وخلقها ؟ فهو المستحق للعبادة دونها .

(إني أراك وقومك فى ضلال مبين) أى إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك ، فى ضلال عن الصراط المستقيم ، مبين لا شبهة فيه للهدى ،

فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب ، أو تصنعونها من المعادن ، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا ، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساو له في الخلق ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه ومحتاج إلى الغنى القادر ولا يقدر على نفع ولا ضرر ولا إعطاء ولا منع .

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى لخاتم أنبيائه : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذى يسلكه : إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضال عنه .

وقد دلت آثار الكشف الحديث في العراق على صدق ما عرف في التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صنم للعبادة خاص به ، سواء في ذلك الملوك والسوقة ، وكانوا يعبدون الفلك والنيرات من الكواكب عامة والدرارى السبع خاصة .

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أى وكما أرينا إبراهيم الحق في أمرأبيه وقومه وهو أنهم كانوا في ضلال مبين في عبادتهم للأصنام والأوثان . كذلك أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض : أى خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع فأريناه تلك الكواكب التى تدور في أفلاكها على وضع لا تعدوه ، وأريناه الأرض وما في طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للإنسان في معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذى أرشدناه إليه ، وجلينا له بواطن أمورها وظواهرها ، وهذه إلى وجوه الحجة فيها مما يدل على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته وإحاطة علمه بكل شيء .

(وليكون من الموقنين) أى نريه ذلك ليعرف سنننا في خلقنا وحكمنا في تدبير ملكنا وآياتنا الدالة على ربوبيتنا ، ليقم بها الحجة على المشركين الضالين ، وليكون في خاصة نفسه من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين عين اليقين .

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض فقال :

(فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا) أى إنه تعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض ، كان من أول أمره فى ذلك أنه لما أظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض نظر فى ملكوت السموات فرأى كوكبا عظيما ممتازا عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه ، وهو : (كوكب المشتري) الذى هو أعظم آلهة بعض عباد الكواكب من قدماء اليونان والرومان ، وكان قوم إبراهيم أممتهم فى هذه العبادة وهم لهم مقتدون - فلما رآه .

(قال هذا ربى) أى قال هذا فى مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيدا للانكار عليهم ، فحكى مقالتهم أولا ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها ، فأوهمهم أولا أنه موافق لهم على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانبا دليله على الحس والعقل .

(فلما أفل قال لا أحب الآفلين) أى فلما غرب هذا الكوكب واحتجب قال لا أحب ما يغيب ويحتجب ، إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شى يغيب عنه ويوحشه فقهه ، فما بالك بحب العبادة الذى هو أعلى أنواع الحب وأكمله ، لأنه قد هدت إليه الفطرة وأرشد إليه العقل السليم ، فلا ينبغي أن يكون إلا للرب الحاضر القريب السميع البصير الرقيب الذى لا يغيب ولا يغفل ولا ينسى ولا يذهل ، الظاهر فى كل شىء بآياته :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

والباطن فى كل شىء بحكمته ولطفه الخفى : « لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » وقد جاء فى الحديث فى وصف الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة - إن فى هذا تعريضا بجمل قومه فى عبادة الكواكب إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدري شيئا من أمر عبادتهم وهذا قريب من قوله لأبيه : « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » .

وقد احتج إبراهيم بالأفول دون البرزوخ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن الأفول انتقال مع خفاء واحتجاب وهو مما ينافى الربوبية .

(فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي) أى فلما رأى القمر طالعا من وراء الأفق أول طلوعه قال هذا ربي على طريق الحكاية لما كانوا يقولون تمهيدا لإبطاله كما علمت فيما سلف .

والمتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب فى ليلة ورأى القمر فى الليلة التالية .

(فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين) أى فلما أفل القمر كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظرا وأسطع نورا وأقوى منه ضياء قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربي ويوقنى لإصابة الحق فى توجيهه لأكونن من القوم الضالين الذين أخطئوا الحق فى ذلك فلم يسيبوا الهدى وعبدوا غير الله واتبعوا أهواءهم ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه .

وفى هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه ، وإرشاد إلى توقف هداية الدين على الوحي الإلهى ، وقد ترقى فى هذا التعريض لأن الخصوم قامت عليهم الحججة بالاستدلال الأول فأنسوا بالتدح فى معتقدهم فما عرّض صلوات الله عليه بضلالهم إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره ، وقد انتقل فى المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك بين بعد أن تبلج الحق وظهر غاية الظهور ، وذلك قوله :

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) أى قال مشيرا إليها : هذا الذى أرى الآن هو ربي .

(هذا أكبر) أى من الكوكب والقمر ، وفى هذا مبالغة فى المجازاة لهم وتمهيد لإقامة الحججة عليهم واستدراج لهم إلى التمدادى فى الاستماع بعد ذلك التعريض الذى كان يخشى أن يصددهم عنه .

والخلاصة — إن هذا الطالع أكبر من الكوكب والقمر قدرا وأعظم ضياء ونورا فهو أجدر منهما بالربوبية .

(فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون) أى فلما أفلت كما أفلت غيرها واحتجب ضوء المشرق وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر صرّح بما أراد بعد ذلك التعريض الذى تقدم متبرئاً من شرك قومه وتنحى عنه لقبحه بعد أن جازاهم عليه أولاً استمالة لهم وإصغاء إلى ما يقول .

والخلاصة — إنه حاور وداور وتلطف فى القول وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بالطف وجهه وأحسن طريق متبرئاً من تلك المعبودات التى جعلوها أرباباً وآلهة مع الله .

وبعد أن تبرأ من شركهم قفى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص فقال :

(إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) أى إني جعلت توجهي فى عبادتى لمن خلق السموات والأرض وأكمل خلقهن أطواراً فى ستة أيام ، فهو خالق هذه الكواكب النيرات وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من معدن ونبات .

وفى معنى الآية قوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وقوله : « وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » وإسلام الوجه له تعالى توجه القلب ، وعبر عنه به لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من الإقبال أو الإعراض والسرور أو الكآبة إلى نحو أولئك . وتوجيهه له جعله يتوجه إليه وحده ، فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته إذ هو المستحق للعبادة القادر على الأجر والثواب .

والخلاصة — إن إبراهيم تبرأ أولاً من شركهم أو شركائهم ثم تبرأ منهم أنفسهم . ونحو الآية قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

روى ابن جرير عن ابن زيد أن قوم إبراهيم قالوا حين قال إني وجهت وجهي
للذى فطر السموات والأرض : ما جئت بشيء ونحن نعبده ونتوجه إليه فرد عليهم
بأنه حنيف أى مخلص له لا يشرك به كما يشركون ه .
يريد أنه مائل عن معبوداتهم الباطلة وعن غيرها ، فتوجهه وإسلامه خالص
ولا يشوبه شرك ولا رياء ، وما هو من المشركين به الذين يتوجهون إلى غيره من
المخلوقات كالآكواب أو الملائكة أو الملوك أو الصالحين أو ما يتخذ لهم من
الأصنام والتماثيل .

وظاهر ما حكاه الله عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن قومه كانوا يتخذون
الأصنام آلهة لا أربابا ويتخذون الكواكب أربابا آلهة ، والإله هو المعبود وكل من
عبد شيئا فقد اتخذها إلهًا ، والرب : هو السيد المالك الربى المدبر المتصرف ، وليس
للخلق رب ولا إله إلا الله الذى خلقهم ، فهو المالك لكل شيء وفى كل زمن وعلى كل
حال ، ومملك غيره ناقص موقوف فهو المعبود بحق ، والعبادة : هى التوجه بالدعاء والتعظيم
التولى أو العملى إلى ذى السلطان الأعلى خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه .

والأصل فى اختراع عبادة غير الله من حجر أو شجر أو شمس أو قمر أمران :
(١) إن بعض ضعاف الأحمال رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى فى بعض خلقه ،
فتوهموا أن ذلك ذاتى لهذا المخلوق ليس خاضعاً لسنن الله فى الأسباب والمسببات .
(٢) اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية فى مظاهر النفع والضرر وسيلة إلى
الإله الحق تشفع عنده وتقرب إليه كل من توجه إليها ، فيتوسل ذو الحاجة إليها
بذاتها وتعظيمها بالقول أو الفعل لعله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤله .

وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات : التماثيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكر بها ،
وهذه هى الوثنية الراقية التى كانت عليها العرب زمن البعثة ، ومن ثم كانوا يقولون
فى طوافهم بالبيت الحرام : آبيك لا شريك لك ، لإشريكها هولاك ، تملكه وماملك .
وكان قوم إبراهيم صلى الله عليه وسلم قد ارتقوا فى وثنتهم إلى هذه المرتبة

إذ أنهم عقلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم ولا تبصر عبادتهم ولا تقدر على نفعهم
 وضرهم ، وإنما قلدوا فيها آباءهم كما سيأتي في حججهم في سورة الشعراء ، ومن ثم اتخذوا
 الأصنام آلهة معبودين لا أربابا مدبرين ، لكنهم اتخذوا الكواكب أربابا لما لها من
 التأثير السببي في الأرض ، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس والقمر يدبر
 الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام وينصر جندهم ويخذل عدوهم ،
 ويعتقدون أن (مرداخ) وهو المشتري شيخ الأرباب ورب العدل والأحكام وحافظ
 الأبواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخصومات ، وأن (رنكال) وهو المريخ رب
 الصيد وسلطان الحرب ، وأن (عشتار) وهي الزهرة ربة الغبطة والسرور والسعادة
 وتمثل بصورة امرأة عارية ، وأن (نيو) وهو عطارد رب العلم والحكمة .

وجاء إبراهيم بحجته البالغة فحصر العبادة في فاطر السموات والأرض وحده
 دون غيره من الوسائل فقال في تمثيلهم : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ » .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ
 مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا
 تَتَذَكَّرُونَ ؟! (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
 أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَايُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ
 بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
 أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
 عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) .

شرح المفردات

المحاجة : المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة ، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبينة للمقصد ، وتارة على ما يدلى به أحد الخصمين في إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه ، وهي بهذا الاعتبار تنقسم إلى حجة دامغة يثبت بها الحق ، وإلى حجة داحضة يموه بها الباطل ، وقد اصطلاحوا على تسمية مثل هذه شبهة ، والسلطان : الحجة والبرهان ، لم يلبسوا : لم يخلطوا ، والظلم هنا هو الشرك في العقيدة أو العبادة . كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو من دونه .

الإيضاح

(وحاجه قومه) أى وجادله قومه في أمر التوحيد ، فهو حين أبان لهم بطلان عبادة الأصنام وربوبية الكواكب ، وأثبت لهم وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده ، حاجوه ببيان أوهامهم في شركهم إذ قالوا إن اتخذ الآلهة لا ينافي الإيمان بالله الفاطر للسموات والأرض لأنهم شفعاء عنده ، ولما لم يُجد ذلك معه خوفوه أن تمسه آهتهم بسوء ، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم ، وليس للمقلد أن يحتج ولكنك يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه ، وكثيرا ما يضطرب المقلد لسماع الحجة إذ يومض في قلبه نورها ثم يعود إلى سابق وهمه خائفا مما لا يخيف ، راجيا ما لا يرجى ، كما يشاهد لدى زائرى قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهمون أن هذه القبور تدفع عن زائرها الضر وتكشف عنه السوء وتدر عليه الرزق وتكبت العدو ، إما بتصرفهم في الخلق وإما لأنهم قربان عند الرب ولا يرون شيئا من هذا ناقضا للإيمان الصحيح وفي مثلهم يقول الله عز اسمه « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

(قال أتجاجونى فى الله وقد هدىان ؟) أى أنجادلوننى فى شأن الله وما يجب

في الإيمان به ، وهو قد فضلتني عليكم بما هداني إلى التوحيد الخالص وبما بصرتني به من
الحجة التي أتمتها عليكم ، وأتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم ؟ .
(ولا أخاف ما تشركون به) أى ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دون
الله سواء ينالني في نفسى ، ذلك أنى أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع
ولا تقرب ولا تشفع .

(إلا أن يشاء ربي شيئا) أى لا أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات
إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لى من جهتها فانه يقع لاحالة كما شاء ربي ،
فإن شاء أن يسقط على صنم يشجنى أو كسف من شهب الكواكب يقتلني فإن ذلك
يقع بقدرة ربي ومشيئته لا بمشيئة الصنم أو الكواكب ولا بقدرته ولا بتأثيره
في قدرته تعالى وإرادته ولا بجأه عنده وشفاعته ، إذ لا تأثير لشيء من المخلوقات
في مشيئة الله الجارية إلا بما يثبت في علمه الأزلى .

(وسع ربي كل شيء علما) أى أحاط بكل شيء علما ، فلا يبعد أن يكون
في علمه سبحانه إنزال المكروه بى من جهتها بسبب من الأسباب ، وهذه الجملة
كاملة لقوله : إلا أن يشاء ربي شيئا .

(أفلا تتذكرون ؟) أى أتعرضون بعد ما أوضحتكم لكم عن التأمل في أن
آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضرر ، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضرر
ولا على إيصال النفع إليكم ، فالسلطة العليا له وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير ،
فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئا من النفع أو الضرر فلا يكون ذلك داعيا لرفعها عن
رتبة المخلوقات وجعلها أربابا ومعبودات .

وكان يجب أن يفطن لذلك العقلاء ويتذكروه ، لأنه تذكير بما يدركه العقل
بالبرهان ويهتدى إليه الوجدان .

ومما يجب أن يتنبه له كثير من الذين ينتمون إلى ملة التوحيد أن هذا الضرب من
الشرك الذى نعاه إبراهيم على قومه - لا يزال فاشيا بينهم فهم يعتقدون في بعض المخلوقات

من أحياء وأموات أن لهم تصرفاً غيبياً ، فما يقع عقب زيارتهم لهم من زوال مكروه أو نفع يصل إلى محبوب إنما كان بدعائهم ، والواقع أن ذلك بتقدير السميع العليم وليس لغيره في ذلك تأثير لاجلي ولا خفي .

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم بل يخاف الله وحده ، تعجب من تخويفهم إياه ما لا يخيف وعدم خوفهم مما يجب أن يخاف منه قال :

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً)
 أى وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندا له ينفع ويضر -
 ولا تخافون إشراككم بالله خالقكم ما لم ينزل به حجة بينة بوحي ولا نظر عقل
 تثبت لكم جعله شريكاً في الخلق والتدبير أو في الوساطة والشفاعة ، فافتياتكم على
 خالقكم بهذه الدعوى هو الذى يجب أن يخاف ويتقى .

والمخالصة - إن ما يدعى لصحة هذا الخوف باطل ، وأنه عليه السلام لم يجد لهذا الخوف وجهاً فلا يخاف الشركاء لذواتهم ، ولأنهم يزعمون من وساطتهم عند الله وشفاعتهم ، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدعى لهم .

وقوله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً - مذكور على طريق التهمك ، مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان ، والتقليد ليس بعذر ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ولا بصيرة ، والله لم ينزل بما ادعيتهموه سلطاناً لأنه باطل فلا سلطان عليه ولا دليل .

(فأى الفريقين أحق بالأمن) الفريقان فريق الموحدين الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره ، وفريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب ونسبوا إلى بعضها النفع والضرر كالشمس والقمر والملائكة - أى فأى هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته .

ونكته التعبير (بأى الفريقين) دون أن يقول فأينما أحق بالأمن - الإشارة

إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشارك لا خاصة به وبهم ، والبعد عن التصريح بخطئهم الذى ربما يدعو إلى اللجاج والعناد ، والاحتراس من تفتيرهم من الإصغاء إلى قوله .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم من أهل العلم والبصيرة فى هذا الأمر فأخبروني بذلك وبينوه بالأدلة - وفى هذا إلقاء لهم إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحق والجهل .

ثم بين سبحانه الحقيق بالأمن على سبيل التفصيل فقال :
 (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) المراد بالظلم الذى يلبس به الإيمان بالله ويخالطه فينقص منه أو ينقضه هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو من دونه ، فيعظم كتعظيمه ويحب كحبه للاعتقاد أن له نفعاً أو ضراً بذاته أو بتأثيره فى مشيئة الله وقدرته ، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضار أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال ، ولا ظلم لغيره ببعض التصرفات والأحكام ، يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس وقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » إنما هو الشرك . والمراد بالأمن الأمن من عذاب الله الذى يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته .

أى إن الذين آمنوا بالله تعالى ولم يخالطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه وتعالى ، أولئك لهم الأمن دون غيرهم من الخلود فى دار العذاب ، وهم فيما وراء ذلك بين الخوف والرجاء .

وهذا جواب من الله به فصل القضاء بين إبراهيم ومن حاجه من قومه كما اختاره ابن جرير ونقله عن ابن اسحق وابن زيد من المفسرين .

(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) أى وتلك الحجة الدامغة التى تضمنت البيان السالف ، المثبتة للحق ، المزيفة للباطل ، هى الحجة التى أرشدنا إليها إبراهيم وأعطيناها إياه ليلزم قومه ويقنعهم بها .

(نرفع درجات من نشاء) أى إنما نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها ، فالعلم درجة كمال ، والحكمة درجة كمال ، وقوة العارضة فى الحجاج درجة كمال ، والسيادة والحكم بالحق كذلك ، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات لأنها تشمل عليها وتزيد .

والله هو الذى يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما به ترتقى درجته ، وإلى صرف موانع هذا الارتقاء عنه . ويؤتى ذا الدرجة الوهية (النبوة) مالم يؤت غيره من أهل المناقب والآيات « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » .

(إن ربك حكيم عليم) أى إن ربك الذى ربك وعلمك وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ، حكيم فى قوله عليم بشئونهم ، وسيريك ذلك عيانا فى سيرتك مع قومك كما أراكه بياننا فيما حدث عن إبراهيم مع قومه ، ونأس فى نفسك وقومك المكذبين بأبيك واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر .

واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل على الوجه الصحيح إلا بتعليم الوحي ، وعلم الأنبياء به ضرورى لا نظرى فقد علمهم به مالم يكونوا يعلمون من الحجج العقلية والدلائل النقلية إلى نحو ذلك مما هداهم إليه .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ،
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَى كُلٌّ مِنْ

الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
 الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ،
 وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَوًّا فَكَّرَ وَكَلَّمْنَا بِهَا
 قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدَتْهُ
 قُلُوبٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) .

المعنى الجملى

اعلم أنه سبحانه بعد أن حكى عن إبراهيم صلوات الله عليه أنه أظهر حجة الله
 فى التوحيد وعدّد وجوه نعمه وإحسانه إليه ، ذكر هنا أنه جعله عزيزاً فى الدنيا
 إذ جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من ذريته وأبقى هذه الكرامة له إلى
 يوم القيامة .

الإيضاح

(ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا) أى ووهبنا لإبراهيم إسحاق نبيا من
 الصالحين وجعلنا من ذريته يعقوب نبيا منجبا للأنبيا والمرسلين ، وهدينا كلا منهما
 كما هدينا إبراهيم بما آتيناه من النبوة والحكمة وقوة العارضة والحجة .
 وإنما ذكر إسحاق دون إسماعيل لأنه هو الذى وهبه الله تعالى بآية منه بعد كبر
 سنه وعم امرأته سارة جزاء إيمانه وإحسانه وكال إسلامه وإخلاصه بعد ابتلائه

بذبح ولده إسماعيل ولم يكن له ولد سواه على كبر سنه ، ويقول المؤرخون إن معنى (إسحق) الضحك ، وأنه ولد وكانت سن أبيه مائة واثنى عشرة سنة ، وسن أمه تسعا وتسعين سنة ، وأنه عاش ثمانين ومائة سنة .

(ونوحا هدينا من قبل) أى وهدينا جده نوحا إلى مثل ما هدينا له إبراهيم وذريته فآتيناه النبوة والحكمة وهداية الخلق إلى طريق الرشاد .

والمراد بذلك أن نسب إبراهيم من أشرف الأنساب ، إذ قد رزقه الله أولاداً مثل إسحق ويعقوب وجعل أنبياء بنى إسرائيل من نسلهما ، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين كنوح وإدريس وشيث ، فهو كريم الآباء شريف الأبناء .

(ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل وإسحق ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين) .

الضمير في ذريته يعود إلى إبراهيم ، لأن الكلام في شأنه بذكر ما أنعم الله عليه من فضل ، وإنما ذكر نوحاً لأنه جده فهو كما قدمنا يرشد إلى فضل الله عليه في أصوله وفروعه ، ولأن الله جعل الكتاب والنبوة في نسلهما معا كما جاء في سورة الحديد : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ » أى وهدينا من ذريته داود وسليمان الخ . وقد ذكر الله في هذه الآيات أربعة عشر نبياً لم يرتبهم على حسب أزمانهم ولا على حسب فضلهم لأن الكتاب قد أنزل ذكرى وموعظة للناس لا تاريخاً تفصل وقائمه مرتبة على حسب وجودها ، وقد التمس بعض العلماء حكمة لهذا الترتيب فقال : إن الله تعالى جعل الأنبياء ثلاثة أقسام يجمع بين كل قسم منها معنى مشترك :

(١) داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وأولئك قد آتاهم الله الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة ، فداود وسليمان كأننا ملكين غنيين ، وأيوب كان أميراً غنياً محسناً ، ويوسف كان وزيراً عظيماً وحاكماً متصرفاً

ولكن هذين ابتليا بالضراء فصبرا كما ابتليا بالسرء فشكرا ، وموسى وهرون كانا حاكين ولم يكونا ملكين ، وقد ذكرهم القرآن على طريق الترقى في هدى الدين فأفضاهم موسى وهرون ثم أيوب ويوسف ثم داود وسليمان ، وقوله وكذلك نجزي المحسنين أى بالجمع بين نم الدنيا والرياسة وبين هداية الدين وإرشاد الخلق .

(٢) زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، وهؤلاء كانت لهم ميزة الزهد والإعراض عن لذات الدنيا والرغبة عن زينتها وسلطانها ، ومن ثم خصهم بوصف الصالحين وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً .

(٣) إسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وهؤلاء لم يكن لهم من ملك الدنيا ما كان للقسم الأول ، ولا من المبالغة في الزهد ما كان للقسم الثاني ، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذى جعله الله لكل نبي على عالمي زمانه ، فمن كان منهم منفرداً في قوم كان أفضلهم على الإطلاق وإن وجد نبيان أو أكثر في قوم كانوا أفضلهم وربما كانوا متفاضلين في أنفسهم ، فإبراهيم أفضل من لوط المعاصر له وموسى أفضل من أخيه هرون الذى كان وزيره ، وعيسى أفضل من ابن خالته يحيى صلوات الله عليهم أجمعين اه .

(ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) أى وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم لا كلهم ، إذ أن بعض هؤلاء الأقر بين لم يهتد بهدى ابنه أو أبيه أو أخيه ، ألا ترى إلى أبى إبراهيم وابن نوح قال تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

(واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) يقال اجتبى فلان فلانا لنفسه إذا اختاره واصطفاه ، واجتباء الله العبد : تخصيصه إياه بفيض إلهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى منه كما يحدث للأنبيا والصديقين والشهداء : أى فضلنا كلا على العالمين واخترناهم وهديناهم إلى الصراط المستقيم .

(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) أى ذلك الهدى الذى هديت به من سميت من الأنبياء والرسل فوقتهم به لإصابة الدين الحق الذى به رضا ربهم وشرف الدنيا وكرامة الآخرة - هو هدى الله الخاص وتوفيقه ولطفه الذى يوفق به من يشاء حتى ينيب إلى طاعته ويخلص العمل له ويقر بالتوحيد ويرفض الأوثان والأصنام .

والهداية ضربان: ضرب ليس لصاحبه سعى فيه ولا هو مما ينال بالكسب وهو النبوة وهو ما أشير إليه بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » . وضرب آخر ينال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهى والتوفيق لنيل المراد .

ثم ختم سبحانه الآية بنفى الشرك وتقرير التوحيد فقال :

(ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) أى ولو أشرك أولئك المهديون بربهم فعبدوا معه غيره لبطل أجر أعمالهم التى يعملونها ، لأنه قد زال أفضل أعمالهم الذى هو الأساس لرفع درجاتهم ، إذ توحيد الله تعالى هو المزكى للأنفس ، فضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدسى لها والمفسد لفطرتها فلا يبقى معه فائدة لعمل آخر يترتب عليه به نجاتها وفلاحها .

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) المراد بالكتاب ما ذكر فى القرآن من صحف إبراهيم وموسى وزبور داود وإنجيل عيسى ، والحكم: العلم والفقهاء فى الدين ، وكل نبي آتاه الله العلم الصحيح والفقهاء فى أمور الدين وشئون الإصلاح وفهم الكتاب الذى تعبد به سواء أنزله عليه أم أنزله على غيره ، واختص بعضهم بإيتائه الحكم صبيا كىحي وعيسى أى بإعطائه ملكة الحكم الصحيح فى الأمور . وأما الحكم بمعنى القضاء والفصل فى الخصومات فلم يعطه إلا بعض الأنبياء . أى إن أولئك الأنبياء الذين ذكرت أسماءهم أوتوا الحكم والقضاء بين الناس لفصل الخصومات ، وذلك مستلزم للعلم والفقهاء وتكون هذه العطايا الثلاث مرتبة على

حسب درجات الخصوصية ، فبعض النبيين أوتي الثلاث كإبراهيم وموسى وعيسى وداود ، قال تعالى حكاية عن إبراهيم : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » فهو قد دعا هذا الدعاء وهو رسول عليهم بعد محاجة قومه ، وقال حكاية عن موسى : « فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » وقال عز اسمه : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » وقال في داود وسليمان معا : « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » .

ومنهم من أوتي الحكم والنبوة كالأنبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة ، ومنهم من لم يؤت إلا النبوة فقط .

والمخالصة — إن كل من أوتي الكتاب أوتي الحكم والنبوة ، وكل من أوتي الحكم ممن ذكر كان نبيا ، وما كل نبي منهم كان حاكما ولا صاحب كتاب منزل ، وهذه هي مراتب الفضل بينهم صلوات الله عليهم .

(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) أى فإن يكفر بتلك الثلاث الكتاب والحكم والنبوة — هؤلاء المشركون من أهل مكة فقد وكلنا برعايتها ، ووقفنا للايمان بها ، وتولى نصر الداعى إليها قوما كراما ليسوا بكافرين بها ، فمنهم من آمن بها ومنهم من سيؤمن عند ما يدعى إليها .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : « فإن يكفر بها هؤلاء » يعنى أهل مكة ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين يعنى أهل المدينة والأنصار هـ .

والذى عليه المعول — أن الموكلين بها هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلقا ، فإن المهاجرين قد كانوا أول من آمن بها وكانوا بعد الهجرة فى المقدمة فى كل عمل وجهاد ، ولكن الأنصار هم المقصودون بالذات ، لأن القوة والمنعة لم تكن إلا بهم ، ومن ثم قال : « لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » والأنصار لم يكونوا عند نزول هذه السورة مؤمنين .

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الهدى ضد الضلال ، ويطلق شرعا على الطريق الموصل إلى الحق وهو انطريق المستقيم الذي نطلبه في صلاتنا - وعلى سلوك ذلك الطريق والاستقامة في السير عليه .
 أى إن أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماءهم في الآيات السالفة ، والذين وصفهم الله بإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة - هم الذين هداهم الله هداية كاملة فبهداهم دون ما يخالفه من أعمال غيرهم ، اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحججة والصبر على التكذيب والجحود وإيذاء أهل العناد ومقلدى الآباء والأجداد وإعطاء كل حال حقه من مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال، كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والزهد والسخاء والحكم بالعدل قال تعالى : « وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » وقال : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ » .

والخلاصة - إن الله تعالى أمره بالافتداء بهم في الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة من الصبر على أذى السفهاء والنفو عنهم - وقد كان مهتديا بهداهم كلهم فكانت مناقبه وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم وفضائلهم لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم - إلى ما أوتيه دونهم ، ومن ثم شهد له ربه بمالم يشهد به لأحد منهم فقال « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وكذلك فضائله الموهوبة هي فيه أظهر وأعظم ، فبعثته عامة للناس أسودهم وأحمرهم وبه ختمت النبوة والرسالة ، وكال الأشياء في خواتيمها ، صلوات الله عليهم أجمعين .
 (تنبيه) ذكر بعض العلماء أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا في القرآن ويجب الإيمان بهم تفصيلا خمسة وعشرون هم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماءهم في هذه الآيات ، والسبعة الآخرون هم آدم أبو البشر وإدريس ولوط وصالح وشعيب وخاتم الجميع محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وليس في القرآن نص قطعي صريح في رسالة آدم عليه السلام ، بل مفهوم قوله :
 « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » أن نوحاً أول نبي
 مرسل أوحى الله إليه رسالته وشرعه ، وكذلك حديث الشفاعة عن أنس بن مالك
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك
 فيقولون لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون يا آدم
 أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع
 لنا إلى ربك حتى تريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لهم آدم لست هنا كم - ويذكر
 ذنبه الذي أصابه فيستحي من ربه عز وجل - ولكن اتوا نوحاً أول رسول بعثه
 الله إلى الأرض فيأتون نوحاً ... » الخ .

والخلاصة - إن الآية تدل على أن أول رسول شرع الله على لسانه الأحكام
 والحلال والحرام هو نوح عليه السلام .

ويرى بعض العلماء أن آدم كان على هدى من ربه ربي عليه أولاده
 وبشرهم بالثواب وأنذرهم بالعقاب، وهذه هداية من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين
 التي بلغوها أقوامهم ولا ندرى كيف هدى الله تعالى آدم إليها ، فإن طرق الهداية
 متعددة ، وقد تكون هي هداية الفطرة .

ونوح ومن بعده أرسلوا إلى من فسدت فطرتهم فأعرضوا عما دعوا إليه ،
 وهذه هي الرسالة الشرعية التي يسمى من جاء بها رسولا دون الأولى .

(قل لا أسألكم عليه أجراً) أى قل أيها الرسول لمن بعثت إليهم : لا أسألكم
 على هذا القرآن الذي أمرت أن أدعوكم إليه وأذكركم به أجراً من مال ولا غيره من
 المنافع ، كما أن جميع من قبلي من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى
 وقد تكرر هذا الأمر له صلى الله عليه وسلم في سور متعددة كقوله : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ماهو إلا تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة
للكم خاصة ، وفى هذا تصريح بعموم بعثته صلوات الله عليه للناس جميعا
أسودهم وأحمرهم .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ،
قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْمَلُونَهُ
قَرَأْتُمْ فِيهَا يُجَادِلُهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعَمَّتُمْ مَالَكُمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤَكُمْ
قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) .

شرح المفردات

قدر الشيء ، ومقداره : مقياسه الذى يعرف به ، ويقال قدره يقدره : إذا قاسه ،
والقدر والقدرة والمقدار : القوة أيضا ، والقدر : الغنى واليسار والشرف ، قراطيس :
ما يكتب فيه من ورق أوجلد أو غيرها ، البركة : الزيادة والسعة ، ومبارك : بارك الله
فيه بما فضل به ما قبله من الكتب فى النظم والمعنى ، وأم القرى مكة ، وسميت بذلك
لأنها قبلة أهل القرى أو لأنهم يعظمونها كالأم ، أو لأن فيها أول بيت وضع للناس .

الإيضاح

(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) أى ما عرفوه
حق معرفته ، فإن منكبرى الوحي الذين يكفرون برسلى الله ويريدون أن يفرقوا بين
الله ورسله ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه حق صفته ،

ولا آمنوا بقدرته على إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به أمر الناس من الهدى والشرائع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة أو بتكليمه إياهم بدون واسطة ، وهم قد أنكروا الوحي وجهلوا فضل البشر وقالوا ما أنزل الله على أحد منهم شيئاً .

ومن عرف حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة وعلمه المحيط بكل شيء ونظره في آياته في الأنفس والآفاق وعلم أنه أحسن كل شيء خلقه وخلق الإنسان مستعداً للصعود إلى أعلى عليين والهبوط إلى أسفل سافلين ، وجعل كماله أثراً لعلمه وأعماله الكسبية التي عليها مدار حياته الدنيوية والأخروية — علم أن الإنسان مهما ارتقت معارفه لا يمكن أن يصل إلى الكمال الذي يؤهله لنيل السعادة الأبدية إلا إذا اهتدى بهدى النبيين والمرسلين ، فإن إرسالهم وإنزال الوحي عليهم وإرشادهم للناس سبب لكل ارتقاء إنساني في حياته الجسدية والروحية ، فبذلك تذهب الضغائن والأحقاد من القلوب ويذوب الخلاف والشقاق بين الناس ويعيشون في وفاق ووئام علما منهم بأن هناك سلطة عليا ترقب أعمالهم وتحاسبهم على التقدير والقطمير في ذلك اليوم العبوس القمطير ، وتجزي كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ثم لقن الله رسوله الرد على منكري الوحي والرسالة من مشركي قريش ، إثر بيان كون ذلك من شئونه تعالى ومن مقتضى نظام حياة البشر .

وقد كان أولئك المشركون يعلمون أن اليهود هم أصحاب التوراة المنزلة على موسى فقد أرسلوا إلى المدينة وفدا زعماء النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط ليسألوا الأحبار عما يعلمون عن محمد وصفته لأنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عند غيرهم من علم الأنبياء ، فلما أتوا إلى أولئك الأحبار سألوهم عنه فأنكروا معرفته وبذا يكون الاحتجاج عليهم بإنزال التوراة على موسى احتجاجاً ملزماً لهم ودافعاً لإنكارهم فقال :

(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس

تبدونها وتخفون كثيرا) أى قل لقومك الذين لم يقدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل على بشر من شيء ، وقالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا انقضت به ظلمات الشرك الذى ورثه بنو إسرائيل عن المصريين ، وهدى للناس الذين جاء لتبليغ رسالته إليهم فأخرجهم من الضلال إلى نور الحق وصاروا خلقا آخر اعتصم بالحق والعدل - حتى اختلفوا فيه ونسوا حظا مما ذكروا به واتبعوا أهواءهم وجعلوه قراطيس يبدونها عند الحاجة ، فإذا استفتى الخبر من أحبارهم فى مسألة له هوى فى إظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم فى قرطاس وأظهره للمستفتى ونخصومه ، ويخفون كثيرا من أحكام الكتاب وأخباره إذا كان لهم هوى فى إخفائها وسبب هذا أن الكتاب كان بأيديهم ولم يكن فى أيدي العامة نسخ منه ، وهذا الإخفاء لنصوص الوقائع غير ما نسيه متقدمو اليهود من الكتاب بضياعه عند تخريب بيت المقدس وإجلاء اليهود إلى العراق وهو ما أشار إليه تعالى بقوله :

« فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » وقد أخفى أحبار اليهود حكم الرجم بالمدينة وأخفوا ما هو أعظم من ذلك وهو البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم وكتبان صفاته عن العامة وتخرىفها إلى معان أخرى للخاصة فلئن الله رسوله أن يقرأ هذه الآية على مسمع من اليهود وغيرهم بالخطاب لهم فيقول : (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) .

(وعلمتم ما لم تعلموا أتم ولا آبؤكم) قال مجاهد هذا خطاب للعرب ، وفى رواية عنه للمسلمين وماكأما واحد فإن ما علمه العرب من علوم القرآن وحكمه وهدايته قد أدوه إلى سائر المسلمين من غيرهم فكانت فائدته عامة لجميع من أظلمهم الإسلام بظله . وفى ذلك امتنان منه سبحانه على الرسول وقومه وسائر المسلمين بإتيانهم هذا الكتاب الكريم الذى بسط فيه أصول العقائد مؤيدة بالدلائل وتمم به مكارم الأخلاق وأمهاة الفضائل ، وجعل فيه من العبادات ما يركى النفوس ويطهرها ، ومن المعاملات ما فيه المنافع للأفراد والجماعات وأوجب فيه المساواة بين الأجناس والديانات فلا يحانى مسلم لإسلامه ولا يظلم كافر بكفره .

وبعد أن بين سبحانه إنكار المنكرين للوحى بعبارة تدل على جهلهم وترشد إلى البرهان المكذب لدعواهم وشفعه بأمر الرسول أن يسألهم ذلك السؤال الذى أخصهم وألقمهم حجرا - لفته الجواب الذى كان يجب أن يجيبوا به لو أنصفوا وذلك قوله :
(قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى قل لهم أيها الرسول : الله أنزله على موسى ، ثم دعهم بعد هذا البيان المؤيد بالحجة والبرهان ، فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بآيات الله حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان .

وفى أمر الرسول بالجواب عما سئلوا عنه إيماء إلى أنهم لا ينكرونه ، لما فى ذلك من المكابرة وما فى الاعتراف من الخزى إذا هم أقرروا بما يتحدثون من الحق .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) أى هذا القرآن كتاب عظيم القدر أنزلناه على خاتم رسلنا كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى وقد باركنا فيه فجعلناه كثير الخير دائم البركة والمنفعة يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، مصدقا لما تقدمه من كتب الأنبياء فى الجملة لا بكل ما يعزى إليها على وجه التفصيل ، وقد ذكر فيه بعضها بأسمائها والصحف ومضافة إلى أصحابها ونعى على بعض أهلها تحريفهم لها ونسيانهم حفظا منها .

(ولتنذر أم القرى ومن حولها) أى ولتنذر به عذاب الله وبأسه أهل مكة ومن حولهم من بلاد العالم جميعا كما روى عن ابن عباس .

وجعلت حولها لأن الناس فى جميع بقاع الأرض القريبة من مكة والبعيدة منها يصلون وهم متوجهون إلى البيت الحرام فيها .

وقد ثبت عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى هذه السورة : « وَأُحِىَ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّ نَذِيرَ كُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » أى وكل من بلغه ووصلت إليه هدايته ، وقوله فى سورة الفرقان : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » وقوله فى سورة سبأ : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » .

(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) أى ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد إلى الله فى الآخرة ويصدق بالثواب والعقاب فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذى أنزلناه إليك ويقربه سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم إذا بلغتهم دعوته ، لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى فى تلك الدار ، وما مثلهم إلا مثل قوم ساروا فى الفياض والتفار وضلوا الطريق حتى إذا كادوا يهلكون قابلهم الدليل الخريّات العالم بخفاياها ، والخبير بذرعها ومعرفة مسالكها ، فأرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وخلصهم من هلاك محقق إذا هم اتبعوا مشورته ، وسلكوا سبيله ، فقبلوا نصحه وكانوا من الفائزين .

وأما الذين ينكرون البعث والجزاء فلا حاجة لهم إلى هدايته .
وفى هذا تصريح بسبب إعراض الجبهة من أهل مكة عن هذا الكتاب الذى فيه سعادتهم ، وتنبية إلى أنهم لما يعتقدوا فى البعث والجزاء امتنعوا عن قبول هذا الدين ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
(وهم على صلاتهم يحافظون) فيؤدونها فى أوقاتها ، ويقيمون أركانها وآدابها ، وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لأنها عماد الدين ، وأسس العبادات والمقوية للايمان ، وكال الإذعان ، والمحافظة عليها تدعو إلى القيام بسائر العبادات المفروضة ، وترك جميع المحرمات ، ومحاسبة النفس على لذاتها وشهواتها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ

مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ (٩٤) .

شرح المفردات

الافتراء: اختلاق الكذب، وافتراء الكذب على الله: الاختلاق عليه والحكاية
عنه ما لم يقله ، أو اتخاذ الأنداد والشركاء ، والغمرات : واحدها غمرة ، وهى الشدة ،
واليوم : الزمن المحدود ، والمراد به هنا يوم القيامة الذى يبعث الله فيه الناس للحساب
والجزاء ، والهون (بالضم) والهوان الذل ، ومنه قوله : « أَيْمِسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ
فِي التُّرَابِ » والهون (بالمفتح) اللين والرفق ، ومنه قوله : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا » وفردى : واحدهم فرد ، وخولناكم : أعطيناكم ، والترك وراء الظهر : يراد به
عدم الانتفاع بالشيء ، والبين : الصلة ، والمسافة الحسية أو المعنوية الممتدة بين شيئين
أو أشياء ، ويضاف إلى المثني كقوله : « فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أو الجمع
كقوله : « أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ » ولا يضاف إلى المفرد إلا إذا كرر نحو :
« هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » وضل عنكم أى غاب عنكم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن القرآن كتاب من عند الله ، ورد على الذين أنكروا
إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، بأن مثله مثل التوراة التى يعترفون
بإنزالها على موسى وهو بشر .

قضى على ذلك بوعيد من كذب على الله وادعى النبوة والرسالة ، أو ادعى أنه
قادر على الإتيان بمثل هذا القرآن ، وهذا الوعيد يتضمن الشهادة بصدق النبي صلى
الله عليه وسلم .

ذلك أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إذا لم يكن له بد من الإيمان بأن القرآن من عند الله ، ومن الاهتداء به ، فأكمل الناس إيماناً بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء هو محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يعرض نفسه لمنتهى العلم الذى يستحق عليه أشد العذاب .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله كالذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، أو جعل لله شريكاً أو ولداً .
 (أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء) كسيامة الكذاب الذى ادعى النبوة باليامة ، والأسود العنسى الذى ادعى النبوة باليمن ، وطليحة الأسدى الذى ادعى النبوة فى بنى أسد ، ونحوهم من كل من ادعى ذلك أو يدعيه فى أى زمان كان .
 (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) أى ومن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله على رسوله كمن قال من المشركين : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » فقد أثر عن النضر بن الحرث أنه كان يقول : إن القرآن أساطير الأولين ، وإنه شعر لو نشاء لقلنا مثله .

ثم ذكر تعالى وعيد الظالمين لشديد جرمهم وعظيم ذنبهم فقال :
 (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ثم لكل من سمعه أو قرأه ، أى لو تبصر إذ يكون الظالمون - سواء منهم من ذكروا فى الآية أو غيرهم - فى غمرات الموت وهى سكراته وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بها كما تحيط غمرات الماء بالفرق - لرأيت ما لاسبيل إلى وصفه ، ولا قدرة للبيان على تجلّى كنهه وحقيقته .

(والملائكة باسطوا أيديهم) لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب كما قال :
 « فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ » .
 ثم حكى سبحانه أمر الملائكة لهم على سبيل التهكم والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم .

(أخرجوا أنفسكم) أى أخرجوا أنفسكم مما هي فيه إن استطعتم ، أو أخرجوها من أبدانكم .

قال صاحب الكشاف — هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ليعنفه عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ، ولا أريم — لا أبرح — مكاني حتى أنزعه من أحداقك . ويرى بعضهم أنه لا داعى للعدول عن الحقيقة إلى التمثيل ، فربما تمثل الملائكة للبشر بمثل صورهم ، وتخطبهم بمثل كلامهم فهي إذا ممكنة على الحقيقة فلا معدل عنها .

(اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) أى تقول لهم الملائكة وقت الموت : اليوم تلقون عذاب الذل والهوان جزاء ظلمكم لأنفسكم بسبب ما كنتم تقولون مفترين على الله غير الحق ، اقول بعضهم ما أنزل الله على بشر من شيء ، وقول بعض آخر : إنه أوحى إليه ولم يوح إليه شيء ، وإنكار طائفة لما وصف الله به نفسه من الصفات ، واتخاذ أقوام له البنين والبنات ، واستكبار آخرين عن الاعتراف بما أنزل الله من الآيات ، احتقار المن أكرمه الله بإظهارها على يده ولسانه .

ثم ذكر ما يقوله الله لهم يوم القيامة بعد ذكر ما تقول لهم ملائكة العذاب فقال : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) أى ولقد جئتمونا وحدانا منفردين عن الأنداد والأوثان والأهل والإخوان ، مجردين من الخدم والأملك والأموال ، كما خلقناكم أول مرة من بطون أمهاتكم حفاة عراة غلفا ؛ ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأن المراد لا يكلمهم تكليم تكريم ورضا .

(وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) أى إن ما كان شاغلا لكم من المال والولد والخدم والحشم والأثاث والرياش عن الإيمان بالرسول ، والاهتداء بما جاءوا به

لم ينفعكم كما كنتم تتوهمون ، فهو لم يغن عنكم شيئا ولم يمكنكم الافتداء به أو يبعثه من عذاب الآخرة .

(وما ترى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى وما تبصر معكم شفعاءكم من الملائكة والصالحين من البشر ، ولا تماثيلهم وقبورهم ، وقد زعمتم فى الدنيا أنهم شركاء لله تدعونهم ليشفعوا لكم عنده ويقربوكم إليه زلفى بتأثيرهم فى إرادته وحملهم إياه على ما لم تتعلق به إرادته فى الأزل .

وفى هذه الجملة والتي قبلها هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية وهما الفداء والشفاعة .
(لقد تقطع بينكم) أى لقد تقطع ما كان بينكم من صلوات النسب والملك والولاء والصدقة .

(وضل عنكم ما كنتم تزعمون) أى وغابت عنكم شفاعة الشفعاء ، وتقريب الأولياء وأوهام الفداء ، وقد علمتم بطلان غروركم واعتمادكم على غيركم .
والخلاصة — إن آمالكم قد خابت فى كل ما تزعمون وتتوهمون ، فلا فداء ولا شفاعة ، ولا ما يبنى عنكم من عذاب الله من شيء .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ

مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّثْمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا
أَمْثَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) .

شرح المفردات

الفلق والفرق والفتق : الشق ، والحب : الحنطة وغيرها مما يكون في السنبيل
والأجام ، والنوى واحدها نواة : وهي ما يكون في داخل التمر والزبيب ، والإصباح :
الصبح ، يقال أصبح الرجل : دخل في وقت الصباح ، والسكن : السكون ، وما يسكن
فيه من مكان كالبيت وزمان كالليل ، وما يسكن الإنسان ويظمن إليه استئناسا به
من زوج أو حبيب ، والحساب (بالكسر) والحسبان (بالضم) استعمال العدد
في الأشياء والأوقات ، والمستقر : موضع القرار والإقامة كما قال : « وَلكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ » والمستودع : موضع الوديعة ، وهي ما يتركه المرء عند غيره ليأخذه بعد ، والفقه :
النظر في عمق الشيء وباطنه ، خضرا أى نباتا غضا أخضر ، متراكبا : أى بعضه فوق
بعض ، والنخل والنخيل واحدها نخلة ، والطلع : أول ما يطلع أى يظهر من زهرها
قبل أن ينشق عنه غلافه ، والقنوان واحدها قنو : وهو العذق الذى يكون فيه الثمر ،
وهو من النخل كالعنقود من العنب والسنبلة من القمح ، ودانية : أى قريبة التناول ،
مشتبها وغير متشابهه : أى متشابهها في بعض الصفات وغير متشابهه في بعض آخر ، وينعه
أى حين ينعم ويبدو صلاحه وينضج .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه أمر التوحيد ، ثم أردفه بتقرير أمر النبوة والبعث ،
وذكر مسائل لها ملاسبات لهذه الأصول ، عاد هنا وفصل طائفة من آيات التكوين

تدل أوضح الدلالة على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ، وبيان سننه في خلقه وحكمه في الإحياء والإماتة والأحياء والأموات ، وتقديره وتديره لأمر النيرات في السموات ، وإبداعه في شئون النبات .

الإيضاح

(إن الله فالق الحب والنوى) أى إن الله فالق ما تزرعون من حب الحصيد ونوى النمر ، وشاقه بقدرته وتقديره بربط الأسباب بمسبباتها يجعل الحب والنوى في التراب وإرواء التراب بالماء .

وفي ذلك إيماء إلى كمال قدرته ، ولطيف صنعه ، وبديع حكمته .

(يخرج الحى من الميت) أى يخرج الزرع من نجم وشجر وهو متغذى نام ، من للميت وهو مالا يتغذى ولا ينمى من التراب والحب والنوى وغيرها من البذور ، ويخرج الحيوان من البيضة والنطفة .

وعلماء المواليد يزعمون أن في أصول الأحياء حياة ، فكل ما ينبت من الحب والنوى فهو ذو حياة كامنة ، إذ أنه لو عقم بالصناعة لا ينبت ، واصطلاحهم لا تسيغه اللغة ، إذ أنها لا تجعل الحى إلا الجسم النامى المتغذى بالفعل ، وهذه أقل مراتب الحياة عندهم ، ويليهما مراتب أخرى أعلاها مرتبة الإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام ، وفوق كل هذه المراتب حياة الخالق التى هى مصدر كل حياة وحكمة ونظام فى الكون .

(ومخرج الميت من الحى) كالحب والنوى من النبات والبيضة ، والنطفة من الحيوان ، قال الزجاج : يخرج النبات الغض الطرى الأخضر من الحب اليابس ، ويخرج اليابس من النبات الحى النامى ، وقال ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن كما فى ابن نوح .

قال الطبيب التقي عبد العزيز إسماعيل باشا طبيب الله ثراه : قيل فى تفسير ذلك

كإنشاء الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حي من حي فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

والتفسير الحقيقي — هو إخراج الحى من الميت كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء ميت ، ولا شك أن القدرة على تحويل الشئ الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن النعجة مثلا تتغذى بالنبات وتحوله إلى لحمها ، وهذه أهم علامة تدل على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى فهو الإفرازات مثل اللبن : (وإن شئت فلهجوم الحيوانات أيضا والنباتات ، فإن اللبن سائل ليس فيه شئ حى ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا ينمو الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، والله أعلم براده اه .

(ذلكم الله فأنى تؤفكون) أى ذلكم الله المتصف بكامل القدرة وبالغ الحكمة هو الله الخالق لكل شئ المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به من لا يقدر على شئ من ذلك كفلق نواة وحبّة وإيجاد نخلة وسنبلة .

(فالق الإصباح) فلق الصبح : هو فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح الذى يبدو فى جهة مطلع الشمس من الأفق مستطيلا ، ولا يعتد به حتى تنقش الظلمة عنه من أمامه وعن جانبيه حتى تزول .

(وجعل الليل سكنا) أى جعله يستريح فيه للتعب من العمل بالنهار ويسكن فيه ، والسكون يم سكون الجسم وسكون النفس بهدوء الخواطر والأفكار .

والليل وقت السكون ، لأنه لا يتيسر فيه من الحركة وأنواع الأعمال ما يتيسر في النهار لما خص به الليل من الإظلام والنهار من الإبصار .
وأكثر الأحياء من الإنسان والحيوان تترك العمل والسعى في الليل وتأوى إلى مساكنها للراحة التي لا تتم ولا تكمل إلا بالنوم الذي تسكن فيه الجوارح والخواطر ببطان حركتها الإرادية ، كما تسكن به الأعضاء سكونا نسبيا ، فتقل نبضات القلب ، ويقل إفراز خلايا الجسم للسوائل والمصارات التي تفرزها ، ويبطئ التنفس ويقل ضغط الدم في الشرايين ، ولا سيما أول النوم ويضعف الشعور حتى يكاد يكون مفقودا ، ويستريح الجهاز العصبي لتستريح جميع الأعضاء .

(والشمس والقمر حسبانا) أى يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمدهما ونهاية آجالهما ، ويدوران لمصالح الخلق التي جعلها ، فطلوعهما وغروبهما وما يظهر من تحولاتهما واختلاف مظاهرها — كل ذلك يجري بحساب كما قال : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقال : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » . وقد جمع الله في هذه الآية ثلاث آيات سماوية ، كما جمع فيما قبلها ثلاث آيات أرضية :

فالآية الأولى فلق الصبح والتذكير به للتأمل في صنع الله بإفاضة النور الذي هو مظهر جمال الوجود ، ومبدأ زمن تقلب الأحياء في القيام والقيود ، ومضيهم إلى ما يسروا له من الأعمال ، وما لله في ذلك من حكم وأسرار .

والآية الثانية جعل الليل سكنا ، وذلك نعمة من الله ليستريح الجسم وتسكن النفس وتهبأ من تعب العمل بالنهار ، قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

والآية الثالثة جعل الشمس والقمر حسبانا ، وذلك فضل من الله عظيم ، فإن حاجة الناس إلى معرفة حساب الأوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم لا تخفى على أحد منهم .

وعلماء الفلك متفقون على أن للأرض حركتين ، حركة تتم في أربع وعشرين ساعة ، وعليها مدار حساب الأيام ، وحركة تتم في سنة ، وبها يكون اختلاف الفصول ، وعليها مدار حساب السنة الشمسية .

(ذلك تقدير العزيز العليم) أى وهذا الفعل العالى الشأن البعيد المدى فى الإبداع والإتيقان - هو تقدير الخالق الغالب على أمره فى تنظيم ملكه بما اقتضاه واسع علمه وعظيم قدرته وحكمته ليس فيه جزاف ولا اختلاف: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» . ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آيات التكوين العلوية وقرنها بذكر فائدتها فقال : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) المراد بالنجوم هنا ما عدا الشمس والقمر من النيرات لأنه الظاهر من سياق الكلام ، ولأنه للمهود فى الاهتداء به .

وكانت العرب أيام بداوتها تؤقت بطولوع النجوم فتحفظ أوقات السنة بالأنواء وهى نجوم منازل القمر فى مطالعها ومغاربها . وكان اهتداؤهم بالنجوم على ضربين :

(١) معرفة الوقت من الليل أو من السنة .

(٢) معرفة المسالك والطرق والجهات .

والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة الأرض أو الماء وظلمة الخطأ والضلال . والمعنى - والله هو الذى جعل لكم النجوم أدلة فى البر والبحر إذا ضلتم الطريق أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا ، فيها تستدلون على الطرق فتسلكونها وتنجون من الخطأ والضلال فى البر والبحر .

والخلاصة -- إنه تعالى ذكرنا ببعض فضله فى تسخير هذه النيرات التى تراها صغيرة بعد أن ذكرنا ببعض فضله فى الشمس والقمر اللذين يريان كبيرين فى أعين الناس . وقد جدت فى هذا العصر المراصد الفلكية ، واستحدثت آلات لتقريب الأبعاد وتحليل النور ، فعلم الشئ الكثير من سرعة الكواكب وأبعادها ، ومعرفة

مساحتها وكثافتها والمواد المؤلفة منها ، إلى نحو ذلك مما كان مجهولا من قبل ، فثبت لعلماء الفلك أن النجوم تعد بالملايين ، لكنهم لم يتمكنوا إلى الآن إلا من معرفة أبعاد بعض مئات منها ، لأن باقيا أبعاد من أن يعرف اختلاف في مواقعه .

ولما في عالم السموات من بديع الصنع ، وبديع النظام ختم سبحانه الآية بقوله : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) والآيات هنا إما آيات التنزيل ، وإما آيات التكوين ، فإن كانت الأولى فالمعنى — إن هذه الآية وما قبلها وكل ما في معناها من الآيات المنزلة في الحث على النظر في ملكوت السموات تبين وتفصل حكم الله تعالى وعجائب صنعه ، فيزداد الإنسان بهذا البيان بحثا وعلما .

وإن كانت الثانية ، فالمعنى — إن الآيات الدالة على علم الله تعالى وقدرته وفضله على خلقه لا يستخرجها من النظر في النجوم إلا أهل العلم الذين يقرون العلم بالاعتبار ولا يكتفون بأن يقولوا بعد النظر والحساب : إن هذا لعجب عجاب .
وبعد أن ذكرنا سبحانه ببعض آياته في الأرض والسماء ذكرنا بآياته في أنفسنا فقال :

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته ، أو إحدائه بالتدرج ، والنفس تطلق على الروح وعلى الشخص المركب من روح وبدن .

والمعنى — إنه تعالى هو الذى أنشأكم من نفس واحدة هى الإنسان الأول الذى تسلسل منه سائر الناس بالتوالد ، وهو آدم عليه السلام .

وفى إنشاء جميع البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته ، وفى التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل مدعاة إلى التآلف لا إلى التعادى والتقاتل وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس .

(فمستقر ومستودع) أى ولكم موضع استقرار فى الأصلاب ، وموضع استيداع فى الأرحام ، وإنما جعل الصلب مقر النطفة ، والرحم مستودعها ، لأن النطفة تتولد فى الصلب ابتداء ، والرحم شبيهة بالمستودع كما قال :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

(قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى إننا جعلنا الآيات الميينة لسنننا فى الخلق مفصلة وموضحة لقدرتنا وإرادتنا وعلمنا وحكمتنا وفضلنا ورحمتنا ، لقوم يفقهون ما يتلى عليهم ، ويفهمون المراد منه ، ويفطنون لدقائقه وخفاياه .

وعبر هنا بالفقه وفيما قبلها بالعلم ، لأن استخراج الحكم من خلق البشر يتوقف على غوص فى أعماق الآيات وفطنة فى استخراج دقائق الحكم ، أما العلم بمواقع النجوم والاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر فهو من الأمور الظاهرة التى لا تتوقف على دقة النظر ، ولا غوص الفكر والتأمل فى العبرة منها ، وكذلك جميع المظاهر الفلكية . ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى من آيات التكوين وهى إنزال الماء من السماء وجعله سببا للنبات فقال :

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا) أى وهو الذى أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب هذا الماء كل صنف من أصناف النبات المختلف فى شكله وخواصه وآثاره اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان كما قال : يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ .

فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئا غضا أخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة كساق النجم وأغصان الشجر ، نخرج منه أى من هذا الأخضر المتشعب النبات آنا بعد أن حبا متراكبا بعضه فوق بعض وهو السنبيل . وهذا تفصيل لنماء النجم الذى لا ساق له من النبات ونتاجه ، ثم عطف عليه حال نظيره من الشجر فقال :

(ومن النخل من طلعها قنوان دانية) أى ونخرج من طلع النخل قنوانا دانية القطوف سهلة التناول .

(وجنات من أعناب) أى ونخرج من ذلك الخضر جنات من أعناب .

(والزيتون والرمان مشتها وغير متشابهه) أى وأخص من نبات كل شىء - الزيتون والرمان حال كون الرمان مشتها فى بعض الصفات ، وغير مشتها فى بعض آخر ، فإنها أنواع تشتها فى شكل الورق والثمر ، وتختلف فى لون الثمر وطعمه ، فمنها الحلو والحامض والمز ، وكل ذلك دال على قدرة الصانع وحكمة المبدع جل شأنه .

(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أى انظروا نظرة استبصار واعتبار إلى ثمر ما ذكر إذا أخرج ثمره ، وكيف يخرج ضئيلا لا يكاد ينتفع به ، وإلى ينعه ونضجه ، وكيف إنه يصير ضخما ذا نفع عظيم ولذة كاملة ، ثم وازنوا بين صفاته فى كل من الحالين ، يستبين لكم لطف الله وتدييره ، وحكمته فى تقديره ، وغير ذلك مما يدل على وجوب توحيده .

(إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم ووحدته ، لمن هو مؤمن بالفعل ، ولن هو مستعد للإيمان .

أما غيرهم فإن نظرهم لا يتجاوز الظواهر ولا يعدوها إلى ما تدل عليه من وجود الخالق ووحدته التى إليها ينتهى النظام ، فهم لا يفوضون ليصلوا إلى أسرار عالم النبات ، ولا يبحثون عن أن انتقاه من حال إلى حال على ذلك النمط البديع دال على كمال الحكمة ، وعلى أن وحدة النظام فى الأشياء المختلفة لا يمكن أن تصدر من إرادات متعددة .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا یَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ یَكُنْ
لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ؟ وَخَلَقَ كُلَّ شَیْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَیْءٍ

عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٦) .

شرح المفردات

في اللسان : خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها : إذا ابتدعها كذبا ، وقال
الراغب : انخرق قطع الشيء على سبيل الفساد قال تعالى : « أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا »
والخلق : فعل الشيء بتدبير ورفق ، والبدع (بالكسر) والبديع : الشيء الذي يكون
أولا ، ومنه البدعة في الدين ، وقال الراغب : الإبداع إنشاء صنعة بلاحتذاء واقتداء ،
والبديع من أسمائه تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، والإدراك اللحاق والوصول
إلى الشيء ، يقال تبعه حتى أدركه قال تعالى : « فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ
مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » والبصر حاسة الرؤية ، واللطيف من الأجرام : ضد الكثيف
والغليظ ، واللطيف من الطباع : ضد الجافى ، واللطف في العمل : الرفق فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه البراهين الدالة على توحده بالخلق والتدبير في عالم السموات
والأرض - ذكر هنا بعض ضروب الشرك التي قال بها بعض العرب وروى التاريخ
مثلها عن كثير من الأمم ، وهى اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون ،
أو اختراع نسل له من البنين والبنات .

الإيضاح

(وجعلوا لله شركاء الجن) أى وجعل هؤلاء المشركون لله سبحانه شركاء . من
الجن ، وفى المراد من الجن هنا أقوال ، فقال قتادة : إنهم الملائكة فقد عبدوهم ؛

وقال الحسن : إنهم الشياطين فقد أطاعوهم فى أمور الشرك والمعاصى ، وقيل إبليس فقد عبده أقوام وسموه ربا ، ومنهم من سماه إله الشر والظلمة ، وخص البارى سبحانه بألوهية الخير والنور ، وروى عن ابن عباس أنه قال : إنها نزلت فى الزنادقة الذين يقولون إن الله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والحيوان ، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشر ، ورجح الرازى هذا الرأى قال : إن المراد من الزنادقة لجوس الذين قالوا إن كل خير فى العالم فهو من يزدان ، وكل شر فهو من أهرمَن أى إبليس .

(وخلقهم) أى والحال أنه تعالى خلق الشركاء الجمولين كما خلق غيرهم من العالمين ، فنسبة الجميع إليه واحدة ، وامتياز بعض المخلوقين عن بعض فى صفاته وخصائصه لا يخرجهم عن كونه مخلوقا ، ولا يصل به لأن يكون إلهها وربا .

(وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى واختلقوا له بحمقهم وجهلهم بنين وبنات بغير علم بذلك ؛ فقد سمى مشركو العرب الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقوله بغير علم أى من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ وصواب ، بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية ، ومن غير معرفة لمكانه من الشناعة والازراء بمقام الألوهية .

(سبحانه وتعالى عما يصفون) أى تنزهه ربنا وتعالى عن كل نقص ينافى انفراده بالخلق والتدبير ، إذ ليس كمثل شىء وهو السميع البصير .

(بديع السموات والأرض) أى خالقهما ومبدعهما ، فهو الخالق المخرع لاعلى مثال سابق .

(أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟) أى كيف يكون له ولد والحال أنه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه بها ، والولد لا يوجد إلا كذلك ، ولكن جميع الكائنات السماوية والأرضية صدرت عنه تعالى صدور إبداع وإيجاد من العدم لأصولها الأولى ، وصدور تسبب كالتوالد ونحوه على حسب سننه فى الخلق .

(وخلق كل شيء) أى خلقه خلقا ولم يلد له ولادة كما زعمتم ، فما افتريتم واخترتم له من الولد ، فإنما هو مخلوق له لا مولود منه - وجاءت هذه الجملة مقررة لإنكار نفي الولد ، ودليلا بعد دليل على ذلك .
 (وهو بكل شيء عليم) أى إن علمه بكل شيء ذاتى له ، ولا يعلم كل شيء إلا الخالق لكل شيء ، ولو كان له ولد لكان هو أعظم به ، ولهدى العقول إليه بآيات الوحي ودلائل العلم ، لكنه كذب الذين افتروا عليه ذلك كذبا بلا علم مؤيد بوحي ولا دليل عقلى .

والخلاصة - إنه تعالى نفي عن نفسه الولد بوجوه :

(١) إن من مبدعائه السموات والأرضين ، وهى مبرأة من الولادة لاستمرارها وطول مدتها .

(٢) إن العادة قد جرت بأن الولد يتوالد من ذكر وأتى متجانسين ، والله تعالى منزّه عن المجانسة لشيء .

(٣) إن الولد كفاء للوالد ، والله لا كفاء له ، لأن كل ما عداه فهو مخلوق له لا يكافئه ، ولأن علمه ذاتى ولا كذلك غيره .

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) الخطاب موجه إلى المشركين الذين أقيمت عليهم الحججة ، والإشارة إلى الله المنزه عن كل ما يصفونه به ، للمتصف بما وصف به نفسه من الإبداع ، أى ذلكم الذى شأنه ما ذكر هو الله ربكم لامن خرقوا له من الأولاد وأشركوا به من الأنداد ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، لا إله إلا هو خالق كل شيء ، وما عداه مخلوق له يجب أن يعبد خالقه ، فكيف يعبد من هو مثله ويتخذها .

(وهو على كل شيء وكيل) أى وهو مع تلك الصفات الجليلة الشأن متول جميع الأمور ، يدبر ملكه بعلمه وحكمته ، فيرزق عباده ويكأفهم بالليل والنهار سرا وعلانية .

وقد يكون المعنى — إنه تعالى رقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها .
 والخلاصة — إنه لا حافظ إلا الله ، ولا قاضى للحاجات إلا هو ، فعلينا أن نقطع
 أطماننا عن كل ما سواه ، ولا نلجأ فى المهمات إلا إليه .
 (لا تدركه الأبصار) أى لا تراه الأبصار رؤية إحاطة تعرف كنهه عز وجل ،
 ونحو الآية قوله : « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ »
 ونفى إحاطة العلم لا يستلزم نفي أصل العلم ، وكذلك نفي إدراك البصر للشئ والإحاطة
 به لا يستلزم نفي رؤيته مطلقا .

وبهذا يعلم أنه لا تنافى بين هذه الآية وبين الأحاديث الصحيحة الدالة على
 رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم سترون
 ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب »
 فالؤمنون يرونه ، والكافرون عنه يومئذ محبوبون كما قال جل ثناؤه « كَلَّا إِنَّهُمْ
 عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » .

(وهو يدرك الأبصار) أى إنه تعالى يرى العيون الباصرة رؤية إدراك وإحاطة
 فلا يخفى عليه من حقيقتها ولا من علمها شئ .

وقد عرف علماء التشريح تركيب العين وأجزاءها ووظيفة كل منها فى ارتسام
 المرئيات فيها ، كما عرفوا كثيرا من سنن الله فى النور ووظيفته فى رسم صور الأشياء
 فى العينين ، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى معرفة كنه الرؤية ، ولا كنه قوة الإبصار
 ولا إلى حقيقة النور .

قال صاحب اللسان : قال أبو إسحق فى الآية : أعلم الله أنه يدرك الأبصار ،
 وفى هذا الإعلام دليل على أن خلقه لا يدركون الأبصار أى لا يعرفون حقيقة البصر
 وما الشئ الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر
 أعضائه ، فأعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه ،
 فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير ؟ .

فأما ما جاء من الأخبار في الرؤية وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغير مدفوع ، وليس في الآية دليل على دفعها ، لأن معنى هذه الآية إدراك الشيء والإحاطة بحقيقته ، وهذا مذهب أهل السنة والعلم بالحديث اه .
 (وهو اللطيف الخبير) أى وهو اللطيف بذاته بحيث تحسب الأبصار دون إدراك حقيقته ، الخبير بدقائق الأشياء ولطائفها ، فلا يعزب عن إدراكه شيء .
 والخلاصة — إنه يلفظ عن أن تدركه الأبصار ، ولكنه خبير بكل لطيف ، وهو يدرك الأبصار . ولا تدركه الأبصار .

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَهَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ
 فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَتَّقَوْا
 وَدَرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ،
 وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) .

شرح المفردات

البصائر واحدها بصيرة ، ولها عدة معان : منها عقيدة القلب ، والمعرفة الثابتة باليقين ، والعبرة ، والشاهد المثبت للأمر ، والحجة ، والقوة التي تدرك بها الحقائق العلمية ، ويقابلها البصر الذي تدرك به الأشياء الحسية ، والمراد بها هنا الآيات الواردة في هذه السورة أو القرآن بجملة ، نصرف الآيات أى نأتى بها متواترة حالا بعد حال مفسرين لها في كل مقام بما يناسبه ، ودرس الشيء يدرس : إذا عفا وزال فهو دارس ودرسته الريح وغيرها ، ودرس اللابس الثوب درسا : أخلقه وأبلاه فهو دريس ، ودرسوا القمح : داسوه ليتكسر فيفرق بين حبه وتبنه ، ودرس الناقة : راضها ، ودرس

الكتاب والعلم يدرسه درسا ودراسة ومدارسة أى ذلله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه من ذلك ، والمعنى العام للدرس تكرر المعالجة ، وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به أو يصل إلى الغاية منه .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة والبراهين الواضحة على توحيدهِ وكال قدرته وعلمه - عاد هنا إلى تقرير أمر الدعوة والرسالة ، وتبليغ النبي صلى الله عليه وسلم أوامره ، ومدى تلك الأوامر من الهداية والإرشاد ، وما يقوله المشركون في المبالغ لها ، وأعلم سبحانه سنته فيهم وفي أمثالهم ، وما يجب على الرسول معهم وما ينفي عنه .

الإيضاح

(قد جاءكم بصائر من ربكم) أى قد جاءكم فى هذه الآيات البينات بصائر من الحجج الكونية والبراهين العقلية ، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التى عليها مدار سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، تفضل بها عليكم ربكم الذى خلقكم وسواكم ، وربى أجسادكم ، وأكل مشاعركم وقواكم كما ربى أرواحكم ، وهذب نفوسكم ، ويخصص بها عقولكم ، حتى تصل إلى منتهى ما تسمو إليه النفوس البشرية من الكمال .
(فمن أبصر فلنفسه) أى فمن أبصر بها الحق وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فلنفسه قدم الخير وبلغ السعادة .

(ومن عمى فعليها) أى ومن عمى عن الحق وأعرض عن سبيله ، وأصر على ضلاله ، تقليدا لآبائه وأجداده ، فعلى نفسه جنى ، ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » وقوله : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

(وما أنا عليكم بحفيظ) أى وما أنا عليكم برفيق أحصى عليكم أعمالكم وأفعالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، والله هو الحفيظ عليكم ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون ، ويميزكم عليه بما تستحقون ، فعليه وحده الحساب ، وما على إلا البلاغ .

(وكذلك نصرف الآيات) أى ومثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات فى سائر القرآن لإثبات أصول الإيمان وتهذيب النفوس والأخلاق ، فنحوها من حال إلى حال ، مراعين فى ذلك تفاوت العقول والأفهام واختلاف استعداد الأفراد والجماعات .

(وليقولوا درست) أى إن تصريف الآيات على أنواع شتى ، ليهتدى بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام ، وليقول الجاحدون المعاندون من المشركين قد درست من قبل وتعلمت ، وليس هذا بوحى منزل كما زعمت ، وقد قالوا هذا إفسكا وزوراً؛ فرعموا أنه تعلم من غلام رومى كان يصنع السيوف بمكة وكان يختلف إليه كثيراً ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : « وَاقْدَرْ نَعْلُكُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ »

(ولنبينه لقوم يعلمون) أى ولنبين هذا القرآن المشتمل على تصريف الآيات الذى يقول فيه الجاحدون إنه أثر درس واجتهاد لقوم لديهم الاستعداد للعلم بما تدل عليه الآيات من الحقائق ، وما يترتب على الاهتداء بها من السعادة دون أن يكون لديهم معارض من تقليد أو عناد .

والخلاصة — إن الذين يقولون للرسول : إنك درست هم الجاهلون الذين لم يفهموا تلك الآيات التى صرفها الله على ضروب مختلفة ، ولم يفقهوا سرها ، وما يجب من إثارتها على منافع الدنيا .

وأما الذين يعلمون مدلولاتها ، وحسن عاقبة الاهتداء بها ، فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن وما اشتمل عليه من حسن التصرف المؤيد بالحجة والبرهان .

و بعد أن بين سبحانه لرسوله أن الناس فى شأن القرآن فريقان ، فريق فسدت فطرتهم ولم يبق لديهم استعداد لهديه ، ولا للعلم بما فيه من تصريف الآيات ، ومن ثم كان نصيبهم منه الجحود والانكار ، وفريق آخر اهتدى به وعمل بما فيه - أمره أن يتبع ما أوحى إليه من ربه بالبيان له والعمل به فقال :

(اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين)
 أى اتبع ما أوحى إليك لتربى نفسك وتكون إماما لأبناء جنسك ، فإن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل بما يعلمه ، ويأتمر بما يأمر ، ثم قرن ذلك باعتقاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فالخالق المربى للأشباح بما أنزل من الرزق ، وللأرواح بما أنزل من الوحي والمعبود واحد لا شريك له وهو يجازى على الأعمال ولا يقبل شفاعته ولا فداء .

ثم أمره بعدئذ بالإعراض عن المشركين بالأىبالى بإصرارهم على الشرك ، ولا بمثل قولهم درست ، لأن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص ، ولا يضره الباطل بتزيينه بزخارف الأقوال ولا بالانكباب على خرافات الأعمال ؛ ثم هوّن عليه أمر الإعراض عنهم فقال :

(ولو شاء الله ما أشركوا) أى ولو شاء الله ألا يشركوا لما أشركوا بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة ، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والطاعة والفسق ، ومضت سنته بأن يكونوا مختارين فى أعمالهم وفى كسبهم لعلومهم وأعمالهم ، وجعل منها الخير والشر ، وإن كانت غرائزهم وفطرتهم كلها خيرا .

(وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل) أى وما جعلناك عليهم حفيظا تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم عليها وتجازيهم بها ، ولا وكيلا تتولى أمورهم وتتصرف فيها .

والخلاصة — أنه ليس لك ما ذكر من الوصفين كما يكون ذلك لبعض الملوك
بالتعهر أو التراضي بل أنت بشير ونذير ، والله هو الذي يتولى جزاءهم وحسابهم .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)
وَتَقَلَّبُ أَعْقَابَهُمْ فَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله فيما سبق من الآيات بتبليغ وحيه بالقول والعمل ،
والإعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطغيتهم في الوحي بالصبر والحلم ، وبين
أن من مقتضى سنته في البشر ألا يتفقوا على دين لاختلاف استعدادهم وتفاوتهم
في درجات الفهم والفكر ، وذكر أن وظيفة الرسل أن يكونوا مبلغين لأمسيطين ،
وهادين لاجبارين ، فينبغى ألا يضيقتوا ذرعا بما يرون وما يشاهدون من الأزدياء بهم
والطعن في دينهم ، فإن الله هو الذي منحهم هذه الحرية ولم يجبرهم على الإيمان —
نهى المؤمنين هنا عن سب آلهة المشركين ، لأنهم إذا شتموا فر بما غضبوا ، وذكروا
الله بما لا ينبغى من القول ، ثم ذكر طاب بعضهم للآيات ، لأن القرآن ليس من
جنس المعجزات، ولو جاءهم بمجزة ظاهرة لآمنوا به، وحلفوا على ذلك وأكذوه بكل
عين مُخرجة .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله :
« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » الآية ، قال : قالوا يا محمد لتنتهين عن سب
آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم أن يسبوا أو ثأنهم فیسبوا الله عدواً بغير علم .
وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : « لما حضر أبا طالب الموت قالت قریش :
انطلقوا فلندخلن على هذا الرجل فلنأمرنه أن ينهى عنا ابن أخيه فإننا نستحي أن
نقتله بعد موته فتقول العرب : كان يتمعه ويحميه فلما مات قتلوه ، فانطلق
أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمّية وأبي ابنا خلف وعمّية بن أبي معيط
وعمر بن العاصي والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب فقالوا :
استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مَشِيخَةٌ قومك يريدون
الدخول عليك ، فأذن لهم فدخلوا فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمداً
قد آذانا وأذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه ، فدعا
النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه فقال له : هؤلاء قومك وبنو عمك ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما يريدون ؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك ، قال
أبو طالب : قد أنصفك قومك فأقبل منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أرايتم
لو أعطيتكم هذا هل أتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم
بها العجم وأدت لكم الخراج ؟ قال أبو جهل : وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها
فما هي ؟ قال : قولوا لا إله إلا الله ، فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : قل غيرها فإن
قومك قد فزعوا منها ، قال ياعم : ما أنا بالذي أقول غيرها حتى يأتوا بالشمس
فيضعوها في يدي ، ولو أتوني بها فوضعوها في يدي ما قات غيرها ، فغضبوا
وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك ، فأنزل الله : (ولا تسبوا
الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) .

الإيضاح

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) أي ولا تسبوا
أيها المؤمنون معبودات المشركين التي يدعونها من دون الله لجلب نفع لهم أو دفع

ضر عنهم بوساطتها وشفاعتها عند الله ، إذ ربما نتج عن ذلك سببهم لله سبحانه وتعالى عدواً أى تجاوزاً منهم للحد في السباب والمشامة ليغيظوا المؤمنين . وقوله بغير علم أى بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يذكر به .

وفي ذلك إيماء إلى أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها ، فإن ما يؤدي إلى الشر شر ، وإلى أنه لا يجوز أن يعمل مع الكفار ما يزدادون به بعدا عن الحق ونفورا منه ، ألا ترى إلى قوله تعالى لموسى وهرون في مخاطبة فرعون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى » .

(كذلك زينا لكل أمة عملهم) أى مثل ذلك التزيين الذى يحمل المشركين على ما ذكر حمية لمن يدعون من دون الله - زينا لكل أمة عملهم من كفر وإيمان وشر وخير .

والخلاصة - إن سنننا في أخلاق البشر قد جرت بأن يستحسنوا ما يجرون عليه ويتعودونه ، سواء كان مما عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم إذا صار ينسب إليهم ، وسواء أكان ذلك عن تقليد وجهل أم عن بينة وعلم .

ومن هذا يعلم أن التزيين أثر لأعمالهم الاختيارية بدون جبر ولا إكراه ، لأن الله خلق في قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر ، وفي قلوب بعضها تزيينا للإيمان والخير من غير أن يكون لهم عمل اختياري نشأ عنه ذلك ، وإلا كان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائز الخلقية التى تعد الدعوة إليها من العبث الذى يتنزه الله تعالى عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله ، وكان عمل الرسل والحكام والمؤدبين الذين يؤدبون الناس عملا لافائدة فيه .

والخلاصة - أن تزيين الأعمال للأمم سنة من سنن الله جل شأنه سواء في ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) أى ثم إلى ربهم ومالك

أمرهم رجوعهم ومصيرهم بعد الموت وحين البعث ، لا إلى غيره إذ لا رب سواه ،
فإنبتهم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر ويجزيهم عليه ما يستحقون وهو
به عليم .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها) أى وأقسم هؤلاء
المشركون المعاندون بأوكّد الإيمان وأشدّها مبالغة ، لئن جاءتهم آية من الآيات
الكونية ليؤمننّ بأنها من عند الله وأنتك رسول من لدنه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم بلغوا غاية العتو والعتاد ، إذ هم لم يعدوا ما يشاهدونه من
المعجزات من نوع الآيات ومن ثم اقترحوا غيرها ، وما كان غرضهم من ذلك
إلا التحكم فى طلب المعجزات ، وعدم الاعتداد بما شاهدوا من البينات .

(قل إنما الآيات عند الله) أى قل أيها الرسول إنما الآيات عند الله وحده ،
فهو القادر عليها والمتصرف فيها يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته وقضائه
كما قال : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » فلا يمكننى أن
أتصدى لإنزالها بالاستدعاء والطلب .

روى « أن قرىشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن
فعلت بعض ما تقولون أتصدقوننى ؟ فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلت لنؤمننّ جميعا ،
فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى إيمانهم ، فهم عليه
السلام بالدعاء فنزلت الآية » .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : « كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم
قرىشا فقالوا يا محمد : تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر ، وأن عيسى
كان يحيى الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى شىء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا نحول
لنا الصفا ذهباً ، فقال : فإن فعلت تصدقوننى ، قالوا نعم ، والله لئن فعلت لتتبعنك

أجمعين ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبهم (أى عذاب الاستئصال) وإن شئت فأتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أتركهم حتى يتوب تائبهم ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله : (ولكن أكثرهم يجهلون) « (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) الخطاب للمؤمنين الذين تمنوا بحىء الآية ليؤمنوا والنبي صلى الله عليه وسلم منهم بدليل همه بالدعاء ورغبته فى ذلك .

والمعنى — إنه ليس لكم شىء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبى الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية .

(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) تقلب الأفئدة والأبصار : الطبع والنخم عليها أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يدركونه ، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكالم نبوها عنه وتمام إعراضهم عن درك حقيقته وتكون حالهم حينئذ كحالهم الأولى فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات .

ونظير الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلَّوْا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ » .

ومن لم يقنعه ما جاء به القرآن من الدلائل العقلية والبراهين العلمية لا يقنعه ما يراه بعينه من الآيات الحسية ، فله أن يدعى أن عينيه قد خدعتا أو أصيبتا بأفة ، فهما لا تريان إلا صوراً خيالية أو سحراً مفترى ، وهذه سنة الأولين فى مكابرة آيات الرسل .

(ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) العمه : التردد فى الأمر من الحيرة فيه ، والطغيان : تجاوز الحد أى إنا ندعهم يتجاوزون الحد فى الكفر والعصيان ، ويترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات ، محدثين أنفسهم أهذا هو الحق المبين أم السحر الذى يخدع

عيون الناظرين ؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين ، أو المكابرة والجدل
كبرا وأنفة من الخضوع لمن يروونه دونهم .

وإنما أسنده الخالق إلى نفسه لبيان سننه الحكيمة في ربط المسببات بأسبابها ،
ففسوخيم في الطغيان الذى هو غاية الكفر والعصيان هو سبب تقليب القلوب
والأبصار أى الختم عليها ، فلا تفقه ولا تبصر .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم ثبت أفئدتنا
وأبصارنا على الحق ، واحفظنا من العمه والطغيان فى كل أمر ، واجعلنا ممن يسمعون
القول فيتبعون أحسنه .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الغر الميامين وأصحابه المطهرين .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة فى الليلة
الثالثة من جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية .

- ٥٢
- ٥٦
- ٥٧
- ٥٨
- ٥٩
- ٦٠
- ٦١
- ٦٢
- ٦٣
- ٦٤
- ٦٥
- ٦٦
- ٦٧
- ٦٨
- ٦٩
- ٧٠
- ٧١

فهرس

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	إرسال وفد من الصحابة إلى ملك الحبشة ، وما حدث حينئذ .
٦	إرسال كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك ورؤساء العشائر .
٧	النصارى أقرب مودة للمؤمنين من اليهود مع ذكر سبب ذلك .
١٠	النهي عن تحريم الطيبات ، وعن الإسراف في استعمالها .
١٣	ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم في استعمال الطيبات .
١٥	إلزام الخانث في يمينه بإحدى مبرات ثلاث .
١٧	لا يجوز الحلف بغير الله وأسمائه وصفاته .
١٨	الأيمن ثلاثة أقسام .
١٩	الأيمن مبنية على العرف والعبرة بنية المحلف لا الخالف .
٢١	الحكمة في تحريم الخمر بالتدريج .
٢٣	الخمر والميسر يوقعان في العداوة والبغضاء ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة .
٢٧	جواز التداوى بالخمر والسموم والنجاسات .
٢٨	عقوبة شارب الخمر في الدنيا والآخرة .
١٣	حرمة قتل الصيد البرى حين الإحرام .

الصفحة	المبحث
٣٣	جزاء قتله حين التعمد .
٣٣	حل صيد البحر حين الإحرام .
٣٥	البيت الحرام معظم لدى الناس جميعاً .
٣٧	ليس على الرسول إلا البلاغ ويبد الله الحساب .
٣٨	لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث .
٤٣	النهي عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى .
٧٧	يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إذا قست القلوب فلم تؤثر فيها المواعظ .
٤٨	الشهادة على الوصية حين الموت .
٥٠	إذا اتهم الوارثون الشاهدين بالكذب أو بالخيانة حلف اثنان من أقرب الناس إلى الموصى .
٥٢	الحث على الوصية وعدم التهاون فيها فى سفر أو حضر .
٥٤	سؤال الرسل يوم القيامة عما أجابتهم به أممهم .
٥٥	ما أنعم الله به على عيسى وأمه .
٥٧	طلب الحوار بين إنزال ما نزل من السماء .
٦١	ما ينجى الإنسان من عذاب يوم القيامة .
٦٢	اتخاذ المسيح إلهاً .
٦٧	إلمامة بما تضمنته سورة المائدة من التشريع والأحكام .
٧٢	المجوس يعتقدون أن للعالم ريين .
٧٦	الذنوب التى تدعو إلى الهلاك ضربان .

الصفحة	المبحث
٨٠	اقتراح كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم إنزال ملك من السماء . يشهد بأنه رسول .
٨٢	تسليمة الرسول صلى الله عليه وسلم عن إيذاء قومه له وبشارته بحسن العاقبة .
٨٨	لا تدق عن سمع الله دعوة داع أو حاجة محتاج .
٩١	لا يطلب شيء من أمور الدنيا والآخرة إلا من الله .
٩٢	شهادة الله بين الرسول وقومه ضربان .
٩٦	المشركون يوم القيامة ينكرون الشرك تارة ويعترفون أخرى .
٩٨	التقليد يمنع من النظر والاستدلال .
١٠٢	الكافرون يتمنون يوم القيامة أن يردوا إلى الدنيا .
١١٠	حزنه صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين له .
١١٢	تبديل الكلمات والأقوال نوعان .
١١٣	اقتراح المشركين نزول الآيات ورد الله عليهم .
١١٨	الأحياء التي تدب على وجه الأرض أمم وجماعات أمثالكم .
١١٩	اللوحة المحفوظة .
١٢٢	حب الأنداد والأصنام مراتب ودرجات .
١٢٥	البأساء والضراء تهذب النفوس .
١٢٨	من آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
١٢٩	الغيب قسمان .
١٢٩	ليس من الغيب ما تعلم أسبابه عند بعض وتجهل لدى آخرين .
١٣١	علم الغيب ليس من العلوم الكسبية لدى الرسل والأنبياء .

الصفحة	المبحث
١٣٤	من معاذير المشركين في عدم إيمانهم أن أتباعه صلى الله عليه وسلم من الفقراء المستضعفين .
١٣٥	الأنبياء مذكرون لا مسيطرون جبارون .
١٣٦	الرسول لا يملك التصرف في الكون ، ولا يعلم الغيب ولا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم .
١٤٤	مفاتيح الغيب خمس .
١٤٥	الحكمة في كتابة مقادير الخلق في اللوح المحفوظ .
١٤٨	إرسال الحفظة لإحصاء أعمال العباد .
١٥٣	الدلائل على قدرة الله .
١٥٤	الحروب الحديثة تفسر قوله تعالى: قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم الآية .
١٥٩	نهينا عن الجلوس مع أهل الأهواء والبدع ما داموا يخوضون في الدين .
١٦٢	منع الفداء يوم القيامة .
١٦٤	حجة إبراهيم في ترك عبادة الأوثان والأصنام .
١٦٩	محاجة إبراهيم تقوم على عبادة الشمس والقمر والكواكب .
١٧٣	الأصل في اختراع عبادة غير الله من الأحجار والأشجار والكواكب .
١٨١	الأنبياء أقسام ثلاثة .
١٨٣	الهداية ضربان .
١٨٥	أمر الله رسوله بالافتداء بالأنبياء السابقين .
١٨٦	الذى عليه المعول أن نوحا عليه السلام أول الأنبياء .

الصفحة	المبحث
١٨٨	الإنسان مهما رقيت معارفه في حاجة إلى هدى النبيين .
١٩٠	بعثة النبي صلى الله عليه وسلم عامة للأسود والأحمر .
١٩٢	الفرق بين الهون (بالضم) والهون (بالفتح) .
١٩٣	ما يكون حين قبض الملائكة لأرواح الكافرين .
١٩٥	لا فداء ولا شفاعة في الآخرة .
١٩٨	إخراج الحى من الميت والميت من الحى .
٢٠٠	الاهتداء بالنجوم على ضربين .
٢٠١	الآيات ضربان .
٢٠٢	تفسير المستقر والمستودع .
٢٠٣	انلخرق وانلخلق .
٢٠٤	المراد من الجن الملائكة في قوله وجعلوا لله شركاء الجن .
٢٠٦	نفي الولد عنه سبحانه .
٢٠٧	لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .
٢٠٨	البصيرة والبصر .
٢١٠	زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم من غلام رومى .
٢١١	أمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين وعدم المبالاة بهم .
٢١٢	الرسول بشير ونذير وهاد لا مسيطر جبار .
٢١٣	ما حدث حين احتضر أبو طالب .
٢١٤	جرت سنة الله أن يستحسن البشر ما يتعودون .
٢١٥	طلب المشركين من النبي صلى الله عليه وسلم نزول الآيات الكونية كما فعل موسى وعيسى .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَشْرَفَ عَلَى قَوْمِهِ مَجْدٌ
وَأَشْرَفَ عَلَى قَوْمِهِ مَجْدٌ
وَأَشْرَفَ عَلَى قَوْمِهِ مَجْدٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَشْرَفَ عَلَى قَوْمِهِ مَجْدٌ



تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثامن

كتاب في التاريخ

كتاب

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

دار النشر

دار النشر

الجزء الثامن

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ فَدَرَهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

قبلا : مواجهة ومعابنة ، وقيل إن واحده قبيل كرف ورفيف - أي قبيل قبيل
وصنفا صنفا أي كل صنف منه على حدة . قال ابن عباس : كل عات متعرد من
الجن والإنس فهو شيطان - الإيحاء : الإعلام بالأشياء من طريق خفي سريع كالإيحاء ،
والزخرف : الزينة كالأزهار للرياض والذهب للنساء وما يصرف السامع عن الحقائق

إلى الأوهام - والغرور : الخداع بالباطل - صغى إليه : كرضى يصغى : مال ، ومثله أصغى - ويقال صغى فلان وصغوه معك : أى ميله وهواه كما يقال ضلعه معك ، واقترب المال : اكتسبه ، والذنب : اجترحه - والعدو : ضد الصديق - ويستعمل للواحد والجمع والمذكر والأنثى . قال تعالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السابقة أن مقترحي الآيات الكونية أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وبما تدل عليه من صدق الرسول فى دعوى الرسالة ، وأن المؤمنين كانوا يودون لو أجيب اقتراحهم ظنا منهم أن ذلك مفض إلى أيمانهم ، وذكر لهم خطأهم بقوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فأفاد أن سنته فيهم وفى أمثالهم من المعاندين أنهم إذا رأوا آية تدل على خلاف ما يعتقدون نظروا إليها نظرة إنكار وجحود وحملوها على أنها إما خديعة وسحر ، وإما أنها من أساطير الأولين .

ذكر هنا ما هو أبلغ من ذلك وفصل الإجمال الماضى فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فأياس النبي صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، ولو جاءهم بكل آية وآتى لهم بكل دليل .

الإيضاح

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وسمعوا بأذانهم شهادتهم لك بالرسالة .

(وكلهم الموتى) بأن نحبيهم لهم ونجعلهم حجة على صدق ما جئت به من الرسالة .

(وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) أى وجمعنا كل شيء من الآيات والدلائل غير

الملائكة والموتى وأرسلناه إليهم معاينة ومواجهة ليكون ذلك دليلا على صحة دعواك

(ما كانوا يؤمنوا) أى ما كان شأنهم ، ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا - ذلك لأنهم لا ينظرون فى الآيات نظر هداية واعتبار ، وإنما ينظرون إليها نظر العدو إلى من يعاديه ، لانظر الولى إلى من يعينه ويواليه ، فيخيل إليهم الوهم أن ماجئتهم به لا يهديهم إلى سواء السبيل وإنما تسحر به عقولهم وتسلب به ألبابهم .
(إلا أن يشاء الله) أى لى لى ان شاء الله إيمان أحد منهم آمن - والمراد أنهم ماداموا على صفاتهم التى هم عليها من اقتراح الآيات فهم لا يؤمنون - لى ان شاء الله أن يزيلها فعل .

والخلاصة : إن فقد هؤلاء للاستعداد للإيمان ، جار على حسب مشيئته تعالى ككل ما يجرى فى الوجود ، ولو شاء غير ذلك لكان ، ولكنه لا يشاء لأنه تغيير لسنته وتبديل لطباع الانسان .

(ولكن أكثرهم يجهلون) أى ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم سنة الله تعالى فى عباده وانطباقها على الأفراد والجماعات ، لذلك يمتنى بعض المؤمنين لو يؤتى مقترحو الآيات ما اقترحوا ظنا منهم أن ذلك يكون سبب إيمانهم ، مع أن الآيات لا تلزمهم الإيمان ولا تغير طباع البشر فى اختيار ما يرجح لدى كل منهم على حسب ما يؤديه إليه فكره وعقله : ولو شاء الله لخلق الإيمان فى قلوبهم خلقا بحيث لا يكون فيه عمل ولا اختيار - وحينئذ لا يكونون محتاجين إلى الرسل ، كما أنه لو شاء - جعل الآيات مغيرة لطباع البشر وملزمة لهم أن يؤمنوا ، فىكون الإيمان إجماعا وقسرا ، لا اختيارا وكسبا ، ولكنه لم يشأ ذلك بدليل قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » قال ابن عباس كان المستهزئون بالقرآن خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومى ، والعاصم بن وائل السهمى ، والأسود بن يعقوب الزهري ، والأسود بن المطلب ، والحريث بن حنظلة . أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من أهل مكة وقالوا أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله ،

أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم (أحق ما نقول أم باطل؟) أو اثنتا بالله والملائكة
قبيلة ، فنزلت الآية .

ثم أراد بعدئذ تسليمة نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان أن سنته في الخلق أن يكون
للنبيين أعداء من الجن والانس فقال :

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن) أى كما جعلنا هؤلاء
ومن لَفَّ لِقَمِّهم أعداء لك جعلنا لكل نبي جاء قبلك أعداء هم شياطين الإنس
والجن - قال مجاهد وقتادة والحسن : إن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين -
وأيده ابن جرير بما رواه أبو ذر ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له عقب
صلاة : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال قلت
يارسول الله : وهل للإنس شياطين ؟ قال نعم » . وجاء في سورة البقرة (وَإِذَا خَلَوْا
إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) الآية .

ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء : أن سنة الله قد جرت بأن يكون الشرير الذى
لا ينتقاد للحق كبرا وعنادا أو جمودا على ما تعود - عدوا للداعى إليه من الأنبياء ،
وورثتهم وناشرى دعوتهم ، وهكذا الحال فى كل ضدين يدعو أحدهما إلى خلاف
ما عليه الآخر ، فى الأمور الدينية أو الاجتماعية ، وهذا ما يعبر عنه بسنة تنازع البقاء
بين المتقابلات التى تدعو إلى التنافس والجهاد وتكون العاقبة انتصار الحق ، وبقاء
الأمثل الأصلى كما قال تعالى : (فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) فالحياة جهاد لا يثبت فيه إلا الصابرون المجدون ، وليس
العمل للآخرة إلا كذلك ، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

ثم بين بعدئذ أشر ضروب عداء هؤلاء الشياطين ، وهو مقاومة الهداية
والدعوة فقال .

(يرحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) أى يلقى بعضهم إلى بعض القول المموه الذى به يظنون أنهم يسترون قبيح باطلهم ويؤدونه بطرق خفية لا يفتن إلى باطلها كل أحد حتى يغروا غيرهم ويخدعوه ويميلوه إلى ما يريدون .
 وأول مثل لهذا الغرور ما وسوس به الشيطان للإنسان الأول وزوجه الكريم (آدم وحواء) فزين لهما الأكل من الشجرة التى نهاها الله عن الأكل منها كما قال :
 (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) .

وهكذا يسوس شياطين الإنس والجن أن يجترحون السيئات ويرتكبون المعاصى فيزينون لهم ما فيها من عظيم اللذة والإطلاق والحرية ، ويمنونهم بعفو الله ورحمته ، وشفاعة أنبيائه وأوليائه حتى ليرتم أحدهم بقوله :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد ربا غفورا

(ولو شاء ربك مافعلوه) أى ولو شاء ربك ألا يفعلوا هذا الغرور مافعلوا ، ولكنه لم يشأ أن يغير خلقهم أو يجبرهم على خلاف ما تزينه لهم أهواؤهم ، بل شاء أن يكون الإنس والجن على استعداد لقبول الحق والباطل والخير والشر ، وأن يكونوا مختارين سلوك أى الطريقين كما قال « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

(فذرهم وما يفترون) من الكذب ويخترعون من الإفك ، صرفا للناس عن سبيل الحق ، وسعيا فى إضلالهم وصددهم عن طريق الرشاد ، وامض لشأنك كما أمرت فعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء ، وسترى سنتنا فيهم وفى أمثالهم ، وقد أراه عاقبة أمرهم فأهلك المستهزئين بالقرآن ونصره على أعدائه المشركين (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) .

(ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى يوحى بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المموه من القول ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنهم عن دينهم ، ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، لأنه الموافق لأهوائهم ؛ إذ هم يميلون إلى حب الشهوات التى من جعلتها مزخرفات الأقاويل ، ومموهات الأباطيل .

أما الذين ينظرون إلى عواقب الأمور فيعلمون بطلانها ، فلا تفرغهم تلك
الزخارف ولا تعجبهم تلك الأباطيل .
(وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون) أى وليترتب على ذلك أيضا أن يرضوه
لأنفسهم بلا بحث ولا تمحيص فيه ، وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصي ما هم
مكتسبون بغرورهم به ورضاهم عنه .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا؟
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥).

شرح المفردات

الحكم : من يتحاكم إليه الناس ويرضون حكمه - مفصلا : مبينا فيه الحق
والباطل والحلال والحرام ، إلى غير ذلك من الأحكام - المتترين : المترددين الشاكين ،
والكلمة هنا : القرآن ، وتام الشيء ، كما قال الراغب : اتهاؤه إلى حد لا يحتاج معه
إلى شيء خارج عنه ، وتامها هنا : أنها كافية وافية في الإيجاز والدلالة على صدق
الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصدق : يكون في الأخبار ومنها المواعيد ، والعدل :
يكون في الأحكام . والتبديل : التغيير بالبديل .

المعنى الجملى

بعد أن بين في سابق الآيات ، أن الذين اقترحوا الآيات الكونية ، وأقسموا
بأنهم يؤمنون إذا جاءتهم - كاذبون في أيمانهم ، وأنهم ما هم إلا من شياطين الإنس
الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، وأن دأبهم صرف الناس عن
اتباع الحق ، وتزيين الباطل ، فيغتر بهم من لا يؤمن بالآخرة ويرضى بهم
لموافقهم أهواءه .

ذكر هنا الآية الكبرى ، وهي القرآن الكريم فهو أقوى الأدلة على رسالة نبيه من جميع ما اقترحوا ، ومنزله هو الذى يجب الرجوع إليه فى أمر الرسالة ، واتباع حكمه فيها ، دون أولئك الضالين المبطلين ، من شياطين الإنس والجن .

الإيضاح

(أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) أى ليس لى أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزه؛ لأنه لاحكم أعدل من حكمه، ولا قائل أصدق منه ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، فيه كل ما يصح به الحكم ، وإزاله مشتملا على الحكم التفصيلى للعقائد والشرائع وغيرها على لسان رجل منكم هو أكبر دليل وأظهر آية على أنه من عند الله ، لا من عنده ، كما جاء فى قوله : « فَقَدْ آبَتْ فِيكُمْ عُمرًا مِنْ قَبْلِهِ » .

والمخالصة — إنكم تتحكمون فى طلب المعجزات لأن الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد حصل بوجهين :

(١) إنه أنزل إليكم الكتاب المفصل المشتمل على علوم كثيرة ، بأسلوب قد عجز الخلق عن معارضته ، فيكون هذا دليلا على أن الله قد حكم بنبوته .

(٢) ما ذكر بعد ، من أن التوراة والإنجيل تشتملان على الآيات الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول حق وأن القرآن كتاب حق من عند الله .

(والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أى إن أنكر هؤلاء للمشركون أن يكون القرآن حقا وكذبوا به ، فالذين أعطيناهم الكتب المنزلة من قبله كعلماء اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق .

ذاك أنهم يعلمون أنه من جنس الوحي الذى نزل على أنبيائهم وأن أوسع البشر علما لا يستطيع أن يأتى بمثله — إلى أن كتبهم تشتمل على بشارات بذلك النبي لم تكن

لتخفى على علمائهم في عصر التنزيل كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .
وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرتهم من أهل الكتاب فأمنوا ، وأنكر بعضهم الحق وكتمه بغيا وحسدا فباء بالخسران المبين .

(فلا تكونن من المعتزين) الخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره على طريق التعريض كقوله : « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ » وتقدم الكلام على مثل هذا ، وإماله والمراد النهي عن الشك في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق - أو الخطاب لكل من يتأتى منه الامتراء على مثل قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ » .

(وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) قد تطلق الكلمة على الجملة والطائفة من القول في غرض واحد ؛ فإذا كتب أحد أو خطب في موضوع ما قيل كتب أو قال كلمة ، وكانوا يسمون القصيدة كلمة ، وقالوا كلمة التوحيد يعنون (لا إله إلا الله) والمراد بها هنا ما أريد بها في قوله : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

والعنى - وتمت كلمة ربك فيما وعدك به من نصرك ، وأوعد به المستهزئين بالقرآن من الخذلان والهلاك ، كما تمت في الرسل وأعدائهم من قبلك كما قال : « وَلَقَدْ سَبَّحْتَ كَلِمَتَنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .
وتمامها صدقا هو حصولها على الوجه الذي أخبر به ، وتمامها عدلا باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون ، وللمؤمنين بما يستحقون أيضا ، وقد يزدون على ذلك فضلا من الله ورحمة ، والمراد بالخبر هنا تأكيد ما تضمنته الآيات من تسليمة النبي صلى الله عليه وسلم عن كفر هؤلاء المعاندين وإيذابهم له ولأصحابه ، وإيثاس الطامعين من المسلمين في إيمانهم حين إيتائهم الآيات المقترحة .

وخالصة المعنى — كما أن سنتى قد مضت بأن يكون للرسول أعداء من شياطين
الإنس والجن ، تمت كلمتى بنصر المرسلين وخذلان الأعداء المفسدين .
(لا مبدل لكلماته) أى إن كلمة الله فى نصره وخذلان أعدائه قد تمت
وأصبحت واقعة نافذة حتما لا مرد لها لأن كلمات الله لا مبدل لها ، ولا يستطيع أحد
من خلقه أن يزيلها بكلمات أخرى تخالفها وتمنع صدورها على من وردت فيهم ، كأن
يجعل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا ، أو بصرفهما وتحويلهما عن الموعد بالثواب
أو الموعد بالعقاب إلى غيرهما ، أو يحول دون وقوعهما .

والخلاصة — إنه لا مغير لما أخبر عنه من خبر أنه كائن فيبطل مجيئه ، وكونه
على ما أخبر جل ثناؤه .

(وهو السميع العليم) أى إنه تعالى سميع لتلك الأقوال الخادعة عنهم ، عليم
بما فى قلوبهم من المقاصد والنيات ، وبما يقترفون من الذنوب والسيئات .

وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ
يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ
عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ،
وَإِنْ كَثِيرًا يَضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٩)
وَذَرُوا ظَاهِرَ الْأَيْمَنِ وَبَاطِنَهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَيْمَنَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا
كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفَسِقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَيُّ حُورٍ إِلَىٰ أَوْلِيَّائِهِمْ يُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١).

المعنى الجملى

بعد أن أجاب سبحانه عن شبهات الكفار وبين بالدليل صحة نبوة محمد صلى
الله عليه وسلم - ذكر هنا أنه لا ينبغي الالتفات إلى ما يقوله هؤلاء الجهال لأنهم
يسلكون سبيل الضلال والإضلال ، ويتبعون الظنون الفاسدة الناشئة من الجهل
والكذب على الله ، فلا ينبغي الركون إليهم والعمل بآرائهم .
وفي سياق الحديث ذكر أن أكثر الأمم في عهد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا
ضلالاً يغاب عليهم الشرك ، بعد أن أبان ضلال مشركى العرب ومن على شاكلتهم
في عقائدهم ، ثم أردف ذلك ، ببيان مسألة هامة لها خطرها وهي من أصول الشرك ،
تلك هي مسألة الذبائح لغير الله .

الإيضاح

(وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) أى وإن تطع أحدا
من الكفار بمخالفة ما شرعه الله ، وأودعه كتابه المنزلة عليك ، يضلوك عن الدين
الحق ، وعن نهج الصواب ، فلا تتبع أنت ومن اتبعك حكما غير الذى أنزل إليك
من الكتاب مفصلا ، فهو الهداية التامة الكاملة ، فادع إليه الناس كافة .
(إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون) الخرص : القول بالظن قول
من لا يستيقن ، أى إن هؤلاء لا يتبعون فى عقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذى
رجحه له أهواؤهم - وما هم إلا يخرصون فى ترجيح بعض منها على بعض ، كما يخرص
أرباب النخيل والكروم ثمرات نخيلهم ، وأعنابهم ، ويقدرّون ما تجود به من التمر
والزبيب تخميناً وحدثاً دون تحقيق لذلك ، ولا برهان على ما يقولون فهم يكذبون

على الله فيما ينسبونه إليه من اتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان ذريعة إليه ، وتحليل الميتة والبحائر ونحو ذلك .

وتاريخ تلك العصور يؤيد الحكم القطعى الذى فى الآية من ضلال أكثر أهل الأرض ، واتباعهم للخرص والظن ؛ فأهل الكتاب قد تركوا هداية أنبيائهم ، وضلوا ضلالا بعيدا ، وكذلك الأمم الوثنية ، التى كانت أبعد عهدا عن هداية الرسل والأنبياء .

وهذا من علم الغيب الذى أوتيه ذلك النبى الأسمى ، وهو لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا النذر اليسير من شئون الأمم المجاورة لبلاد العرب . ثم أكد الجملة السابقة زيادة فى التحذير فقال :

(إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك الذى ربك وعلمك بما أنزله إليك ، وبين لك ما لم تكن تعلم من الحق ومن شئون الخلق - هو أعلم منك ومن سائر عبادته ، بمن يضل عن سبيله القويم وبمن هو من المهتدين ، السالكين صراطه المستقيم ، ففوض أمرهم إلى خالقهم فهو العليم بالضال والمهتدى ، ويجازى كلا بما يليق بعمله .

وبعد أن أبان لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أكثر أهل الأرض يضلون من أطاعهم ، لأنهم ضالون خراصون ، وأنه تعالى هو العليم بالضالين والمهتدين - أمر الله رسوله وأتباعه بمخالفة أولئك الضالين ، من قومهم ومن غيرهم فى مسألة الذبائح وترك جميع الآصار والآثام ، فقال :

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) أى إذا كان حال أكثر هؤلاء الناس ما بينته لكم من الضلال فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح دون غيره ، إن كنتم بآياته التى جاءكم بالهدى والعلم مؤمنين ، وبما يخالفها من الضلال والشرك مكذبين .

وقد كان مشركو العرب وغيرهم من أرباب الملل والنحل يجمعون الذبائح من أمور العبادات ويقرنونها بأصول الدين والاعتقادات فيتعبدون بذبيح الذبائح لألهتهم ومن قدسوا من رجال دينهم ، ويهلّون لهم عند ذبحها ، وهذا شرك بالله ، لأنه عبادة يقصد بها غيره سواء سموه إلهاً أو معبوداً أو لم يسموه ، وقد وقع كثير من المسلمين في مثل ما كان عليه أولئك الضالون المشركون من مشركى العرب وسواهم فذبحوا باسم بعض الأولياء والصالحين ، وسيبوا لهم السوائب ، فتراهم يندرون العجول والخراف للسيد البدوى وغيره من أرباب الأضرحة والقبور ممن يستشفعون بهم إلى ربهم في زعمهم ، وهذا شرك صريح .

(وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يقولون مالك ألا تفعل كذا ، على معنى وأى شيء يمنعك من ذلك ؟ والمراد هنا وأى شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟

(وقد فصل لكم ما حرم عليكم) أى وقد فصل لكم ما حرمه عليكم وبينه بما سيأتى فى قوله : « قُلْ لَا أُجِدُّ فِيهَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ مُحْرَمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ نَجَسًا أَوْ رِجْسًا أَوْ فِئْتًا مِنْ أَهْلِ لَيْلٍ أَوْ كَيْفَ تَعْلَمُ إِلَّا بِرِضَا رَبِّكَ وَمَا تَعْلَمُ إِلَّا بِرِضَا رَبِّكَ أُولَٰئِكَ حُدُودُ اللَّهِ لِقَوْمٍ عَلِيمٍ » ومعنى أهل لغير الله به أى ذكر عليه اسم غيره عند ذبحه كالأصنام والأنبياء والصالحين الذين وضعت التماثيل ذكرى لهم .

(إلا ما اضطررتم إليه) أى إلا ما دعتكم الضرورة إلى أكله بأن لم يوجد من الطعام عند شدة الجوع إلا المحرم ، فحينئذ يزول التحريم . والقاعدة الشرعية « الضرورات تبيح المحظورات » والقاعدة الأخرى « الضرورة تقدر بقدرها » فيباح للمضطر ما تزول به الضرورة ويتقى به الهلاك لا أكثر منه .

(وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) أى وإن كثيرا من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم الزائغة وشهواتهم الفاسدة من غير علم منهم بصحة ما يقولون ، ولا برهان على ما فيه يجادلون ، اعتداء وخلافا لأمر الله ونهيه وطاعة للشياطين ،

كعمرو بن لُحَى وقومه ، الذين اتخذوا البحائر والسوائب ، وأحلوا أكل الميتة ، وما أهل به لغير الله بذلك اسم الغير من نبي أو ولي أو وثن أو صنم .
وأصل عبادة الأوثان أنه كان في القوم الذين أرسل إليهم نوح رجال صالحون فلما ماتوا وضعوا لهم أنصاباً ليتذكروهم بها ويقتدوا بهم ، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم ، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا حكمة وضعها لكنهم حفظوا تكريمها ، والتبرك بها ، تدنيا وتوسلاً إلى الله ، فكان ذلك عبادة لها وتسلسل في الأمم بعدهم ، وقد روى البخاري عن ابن عباس : إن المضلين يبنون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التي عبدوا بها غير الله كالتوسل به ودعائه ، وطلب الشفاعة منه ، وذبح القرابين باسمه ، والطواف حول تمثاله أو قبره والتمسح بأركانها ، وكل ذلك شرك في العبادة شبهته تعظيم المقرين من الله تعالى للتقرب بهم إليه .

وقد انتشرت هذه الشبهات الوثنية في أرباب الكتب الإلهية ، وأولوا لأجلها النصوص القطعية وأنكروا تسمية ذلك عبادة ، أو أن هذه العبادة إذا كانت لغير الله لجعله واسطة ووسيلة إليه لاتعد شركاً به ، وما الشرك في العبادة إلا هذا .
(إن ربك هو أعلم بالمعتدين) أي إن ربك الذي أرشدك وهداك هو أعلم منك ومن سائر خلقه بالمعتدين الذين يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه عليهم . أو يتجاوزون حد الضرورة عند وقوعها وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى .
وفي الآية إيماء إلى تحريم القول في الدين بالتقليد لأن ذلك من اتباع الأهواء بغير علم ، إذ المقلد غير عالم بما قلده فيه .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) الإثم لغة ما قبح ، وشرعاً ما حرمه الله ، والله لم يحرم على عباده إلا ما كان ضاراً بالأفراد في أنفسهم أو في أموالهم أو في عقولهم أو في أعراضهم أو في دينهم ، أو ضاراً بالجماعات في مصالحهم السياسية أو الاجتماعية .
والظاهر منه ما تعلق بأفعال الجوارح ، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب ، كالكبر والحسد وتدمير المكاييد الضارة والشروع للناس ، ومنه الاعتداء في أكل

المحرم الذي يباح للمضطر بأن يتجاوز فيه حد الضرورة كما بينه الله بقوله : « فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهذه الجملة من جوامع الكلم والأصول العامة في تحريم الآثام ، ومن ثم قال ابن الأنباري : المراد بذلك ترك الإثم من جميع جهاته كما تقول ما أخذت من هذا المال لا قليلا ولا كثيرا تريد ما أخذت منه بوجه من الوجوه .

(إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) أى إن الذين يكسبون بوعا من الآثام الظاهرة أو الباطنة سيلقون جزاء إثمهم وعاقبة كسبهم للذنوب التي أفستت فطرتهم ودست نفوسهم بإصرارهم عليها ومعاودتها المرة بعد المرة .

أما الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ولم يصرخوا على ما فعلوا وهم يعلمون ، فهؤلاء يتوب الله عليهم ويمحو تأثير الإثم في قلوبهم ، بما يفعلونه من الحسنات كما قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » وبذلك تعود نفوسهم زكية وتلقى ربها سليمة نقية من أدران السوء التي كانت قد وقعت منها ماما .

واتفق المسلمون على أن التوبة تمحو الخُوبَةَ : أى إن التوبة الصحيحة بالمعزم الصادق والندم على ما فات تمحو آثار الذنب الماضى ، فإن الله قد يعفو عن المذنب فيغفر له ما فرط منه من الذنوب كما قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

ثم صرح الله تعالى بما فهم من الأمر السابق ، بقوله : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) لشدة العناية بهذا الأمر الذى هو من أظهر أعمال الشرك فقال :

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) أى ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء فى الآية الأخرى « أَوْ فَسَقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » .

[تنبيه] قال مالك كل ذبح لم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكر

عمدا أو سهوا ، وقال أبو حنيفة إن ترك الذكر عمدا حرم ، وإن ترك نسيانا حل ،
وقال الشافعى : متروك التسمية عمدا أو سهوا حلال إذا كان الذابح مسلما .
(وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعموهم إنكم لمشركون)
أى وإن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا
ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن
أطعموهم فيها فجاريتهم في هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن
التعبد لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره وإن كان
لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إليه زلفى ويشفع له عنده كما يفعل
أهل الوثنية . وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه
ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التى لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل هذه
الذبائح لا يكون مشركا وكذلك من يأكل الميتة ، بل يكون عاصيا إن لم
يكن مضطرا .

قال عكرمة : وإن الشياطين يعنى مردة الجوس ، ليوحون إلى أوليائهم من
مشركى قريش زخرف القول ليصل إلى نبي الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه
لما نزل تحريم الميتة سمعه الجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم
مكاتبة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يذبحونه
حلال وما يذبحه الله حرام ، فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء فأنزله الله
هذه الآية ثم قال : (وإن أطعموهم) يعنى فى استحلال الميتة (إنكم لمشركون) قال
الزجاج وفيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى أو حرم شيئا مما أحل
الله تعالى فهو مشرك ، لأنه أثبت مشرعا سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله
لأنه مما أهل به لغير الله . وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استقباشا بقدمه فهو
كذبح العقيقة لولادة المولود . ومثل هذا لا يوجب التحريم ، وهذا هو الراجح
الذى عليه المعول .

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
 كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا
 لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعمة ، الأ كابر واحدهم أ كبر أو كبير: وهو الرئيس ، والمجرمون:
 فاعلو الإجرام ، والإجرام: هو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال ، والقريه: البلد الجامع
 للناس (العاصمه في عرف هذا العصر) وقد تطلق بمعنى الشعب أو الأمة ، ويرادفها
 البلد في اصطلاح هذا العصر فيقولون ثروة البلد ، مصلحة البلد ويريدون الأمة ،
 والمكر: صرف المرء غيره عما يريد به إلى غيره بضرب من الحيلة في الفعل ، أو الخلافة
 في القول .

المعنى الجملي

بعد أن أبان الله سبحانه وتعالى أن أكثر أهل الأرض ضالون متبعون للظن
 والحدس ، وأن كثيرا منهم يضلون غيرهم بأهوائهم بغير علم ، وأن الشياطين منهم
 العاتين عن أمر ربهم يوحون إلى أوليائهم ما يجادلون به المؤمنين ليضلوهم ويحملوهم
 على اقتراف الآثام ، ويحملوهم أيضا على الشرك بالله بالذبح لغيره والتوسل به إليه وهو
 عبادة له - ضرب هنا مثلا يستبين به الفرق بين المؤمنين المهتدين للاقتداء بهم ،
 والكافرين الضالين للتنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم مع ذكر السبب
 في استحسان الكافرين لأعمالهم وهو تزوين الشيطان لهم ما يعملون ، ومن ثم انغمسوا
 في ظلمات لا خلاص لهم منها ، وأصبحوا في حيرة وتردد على الدوام .

الإيضاح

(أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟) أى أأنتم أيها المؤمنون كأولئك الشياطين أو كأوليائهم الذين يجادلونكم بما أوحوه إليهم من زخرف القول الذى غروهم به ، ومن كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان وجعلنا له نورا يمشى به في الناس وهو نور القرآن المؤيد بالحجة والبرهان ، يمشى به في الناس على بصيرة من أمر دينه وآدابه ومعاملاته للناس كمن مثله المبين لحاله مثل السائر في ظلمات بعضها فوق بعض (ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر) وهو ليس بخارج منها لأنه يبقى متحيرا لا يهتدى إلى وجه صلاحه فيستولى عليه الخوف والفرع والعجز والحيرة الدائمة . وكذلك الخابط في ظلمات الجهل والتقليد الأعمى وفساد الفطرة ليس بخارج منها لأنها قد أحاطت به وألقتها نفسه فلم يعد يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور ، بل ربما شعر بالألم من هذا النور المعنوي كما يألم الخفّاس بالنظر إلى النور الحسى .
والخلاصة : إنه ينبغى للمسلم أن يكون حيا عالما على بصيرة في دينه وأعماله وحسن سيرته ، وأن يكون القدوة والأسوة للناس في الفضائل والخيرات والحجة على فضل دينه على سائر الأديان .

(كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى مثل هذا التزيين الذى تضمنه المثل السابق ، وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله حياة عالية وتزيين ظلمات الضلال والكفر لموتى القلوب ، قد زين للكافرين ما كانوا يعملون من الآثام كعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وذبح القرابين لغير الله وتحريم ما لم يحرمه الله وتحليل ما حرمه بمثل تلك الشبهات التى تقدم ذكرها .

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرمها ليذكروا فيها) أى وكما أن أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا في كل قرية أكبر مجرمها ليذكروا فيها ، فزين لهم على

حسب سنننا في البشر سوء أعمالهم في عدوان الرسل ومقاومة الإصلاح اتباعا للهوى ،
واستكبارا في الأرض .

ومجمل القول : إن سنة الله في الاجتماع البشري قد قضت أن يكون في كل عاصمة
لشعب أو أمة بعث فيها رسول أو لم يبعث — زعماء مجرمون يمحرون بالرسول وبسائر
المصلحين من بعدهم ، وهكذا كان الحال في أكثر أكابر الأمم والشعوب ولا سيما
في العصور التي تكثر فيها المطامع ويعظم حب الرياسة والكبرياء فتراهم يمحرون
بالأفراد والجماعات ليحفظوا رياستهم ويعززوا كبريائهم كما يمحرون بغيرهم من الساسة
والرؤساء إرضاء لمطامع أمتهم وتعزيز نفوذ حكومتهم بين الشعوب والدول .

والمراد بالأكابر المجرمين من يقاومون دعوة الإصلاح ويعادون المصلحين من
الرسول وورثتهم ، وكان أكثر أكابر مكة كذلك ، وتخصيص الأكابر بذلك لأنهم
أقدر على المكر واستتباع الناس .

(وما يمحرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) أى وما يمحرون أولئك الأكابر المجرمون
الذين يعادون الرسل في عصرهم ودعاة الإصلاح من ورثتهم من بعدهم — إلا بأنفسهم .
وهكذا شأن من يعادون الحق والعدل ليبقى لهم ما هم عليه من فسق وفساد ، لأن سنة
الله قد جرت بأن عاقبة المكر السيئ تحقيق بأهله في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا
فما ثبت في القرآن من نصر المرسلين وهلاك الكافرين المعاندين ، ومن علو الحق على
الباطل ، ومن هلاك القرى الظالمة ، وبما أيده الاختبار ودلت عليه نظم العمران من
أن تنازع البقاء يقضى ببقاء الأمثل والأصلح « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا
مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ » .

وقد أشارت الآيات إلى أن هذا كان سنة الله في الأولين فقال : « وَمَكَرُوا
مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ
أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فالذين كانوا يمحرون السيئات لمقاومة إصلاح
الرسول حرصا على رياستهم وفسقهم وفسادهم ، لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم

تحقيق بهم لجهلهم بسنن الله في خلقه وهم خليقون بهذا الجهل . وأما في الآخرة فالأمر واضح والنصوص متظاهرة على ذلك .

وهذه الجملة متضمنة لوعيد الماكرين من مجرمي أهل مكة ، وفيها وعد وتسليية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ،
 اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ
 وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ
 يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا
 كَانَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيْلُهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ (١٢٧) .

شرح المفردات

الصغار والصَّغَرُ (بالتحريك) : الذل والهوان جزاء الكفر والطغيان ، وهو قلة
 في الأمور المعنوية . والصَّغَرُ (بزنة عنب) قلة في الأمور الحسية . والصاغر : الراضى
 بالمنزلة الدنية . وشرح الصدر : توسعته ، ويراد به جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها
 وخلوها مما يكدرها . والضيق (بالتشديد والتخفيف) كهين وهين : ضد الواسع .
 والحرج : شديد الضيق من الحرجة وهي الشجر الكثير اللتف بعضه ببعض بحيث
 يصعب الدخول فيه . روى أن عمر سأل أعرابيا من بني مدلج عن الحرجة فقال :

هي الشجرة تكون بين الأشجار لاتصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير . والرجس : كل ما يستقذر حسا أو عقلا أو شرعا ، وهو ما لاخير فيه ، أو هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة . صراط ربك : أى طريقه الذى ارتضاه وسنته التى اقتضتها حكيمته ، والمستقيم : ما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، دار السلام : هى الجنة ، أو هى دار السلامة من المنغصات والكروب ، وليهم : أى متولى أمورهم وكافهم كل ما يهمهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن سنته فى البشر قضت بأن يكون فى كل شعب أو أمة زعماء مجرمون يمحرون بالرسول وبدعاة الإصلاح ، ويقاومون دعوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا - ذكر هنا أن هذه السنة تنطبق أشد الانطباق على مجرمى أهل مكة الذين تعنتوا أشد التعنت فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات ، ثم ذكر بعد هذا سنة الله فى المستعدين للإيمان وغير المستعدين مع ظهور الحق فى نفسه .

وقد نزلت هذه الآية فى الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أحق بها من محمد فإنى أ أكثر منه مالا وولدا .

الإيضاح

(و إذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى إذا جاءت أولئك المشركين آية بينة من القرآن تتضمن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من التوحيد والهدى قالوا لانؤمن إلا إذا أتى على يديه من الآيات الكونية التى يؤيده الله بها ، مثل ما أوتى رسل الله كفلق البحر لموسى وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى .

وقال ابن كثير أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل .
وهذا بمعنى قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ
أَوْ نُنزِلَ رَبَّنَا » الآية .

وخلاصة ذلك — إنهم لا يؤمنون بالرسالة إلا إذا صاروا رسلا يوحى إليهم .
وقد رد الله عليهم جهالتهم وبين لهم خطأهم بقوله :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح
لها من خلقه وهذا كقوله : حكاية عنهم « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ
مِنَ الْقَرِيبَاتِ عَظِيمٍ . أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » الآية . يريدون لولا نزل هذا
القرآن على رجل عظيم مبجل في أعينهم من القرابتين مكة والطائف ، ذاك أنهم
— جازاهم الله بما يستحقون — كانوا يزدرون الرسول صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا
وعنادا واستكبارا كما قال تعالى : « وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوعًا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ »
وهم مع ذلك كانوا يعترفون بشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه وكانوا يسمونه
بالأميين ، فكان ينبغى أن يكون فى ذلك مقنع لهم بأنه أولى من أولئك الأَكْبَرِ
الحاسدين له بالرسالة ، وبكل ما فيه الكرامة ، ولكنه الحسد والبغى والتقليد .
كل أولئك كانت الباعث لهم على تلك الأقوال وعمل هاتيك الأفعال فى
عداوته ومعاندته .

والخلاصة — إن الرسالة فضل من الله يمنحه من يشاء من خلقه ، لا يناله أحد
بكسب ولا يتصل إليه بسبب ولا نسب ولا يعطيه إلا من كان أهلا له لسلامة
القطرة ، وطهارة القلب ، وحب الخير والحق .

(سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون)
أى سيصيب المجرمين الماكرين الذين قد قضت سنة الله أن يكونوا زعماء فى كل

شعب دب فيه الفساد ، عذاب شديد مكان ما تمنوه وعلقوا به آمالهم من عز النبوة وشرف الرسالة .

ومعنى كونه - من عند الله - أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره ؛ فإن ما هو ثابت عند الله في حكمه التكويني الذي دبر به نظام الخلق ، وحكمه الشرعي التكليفي الذي أقام به العدل والحق -- يقال إنه من عند الله ويكون هذا جزاء لهم على استكبارهم عن الحق في الدار الدنيا كما قال تعالى : « كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّأَمُّ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاتَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

وعذاب الأمم في الدنيا بذنوبها مطرد وعذاب الأفراد لا يطرد وإن كانوا من المجرمين الماكرين . وقد عذب الله في الدنيا أكبر مجرمي أهل مكة الذين تصدوا لإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والكيده كالحنسة المستهزئين الذين قد سبق الكلام فيهم فقتل منهم من قتل في بدر ، ولحق الصغار والهوان بالباقيين . وقد سبقت هذه الجملة وعيدا لهم وبيانا لسوء عاقبتهم لحرمانهم من الاستعداد للإيمان ، وفقى ذلك بالمقابلة بينهم وبين المستعدين له فقال :

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أى من كان أهلا بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة ، والهادى إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحا واتساعا بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعا من النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالاته ، فتوجه إليه إرادته ويذعن له قلبه ، بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه ، وباهر البرهان الذي يملك نفسه .

« وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، قالوا كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح ، قالوا فهل لذلك من أمانة

يعرف بها؟ قال الإنابة إلى دار الخلود . والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

(ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) أى إن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في صدره ضيقاً أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألقه وسار عليه الناس ، وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعى إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثله مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء ، إذ يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكلما صعد في الجوّ أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع سبيلاً إلى البقاء فإن هو قد بقي فيها مات اختناقاً .

وخلاصة ذلك — إن الله ضرب مثلاً لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه ، بضيق التنفس الذى يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجوّ حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لاحالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجوّ إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً ، وتقدم فن الطيران الآن علم الطيارين بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك ، ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات التى هى أسفل منها ، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات .

وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جليلاً لأنهم لم يهتدوا لسرها ، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها على حسب ما أثبتته العلم ، ومن هذا صح قولهم : الدين والعلم صنوان لاعدوان ، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

(كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) أى كما جعل الصدر ضيقاً خرجاً بالإسلام على هذا النحو فى سنة الله وتقديره بما تقدم ذكره من الأسباب ، يجعل الرجس على الذين يعرضون عن الإيمان ، فيظهر أثر ذلك فى تصرفاتهم وأعمالهم فيكون غالبها قبيحاً سيئاً فى ذاته أو فيما بعث عليه من قصد ونية ، لأن الإيمان الذى اجتنبوه هو الذى يصد عنه ويظهر الأنفس منه .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) أى وهذا الإسلام الذى يشرح الله له صدر من يريد هدايته ، هو صراط ربك الذى بعثك به ، وبين لك أصوله وعقائده بالبراهين الواضحة والبيّنات الظاهرة ، حال كونه مستقيماً فى نظر العقول الراجحة والفطر السليمة ، بعيداً من الإفراط والتفريط ، فلا اعوجاج فيه ولا التواء ، بل هو السبيل السوى ، وما عداه من المائل والنحل فهو معوج ملتو بما فيه من زيغ وفساد وخروج عن الجادة التى يؤيدها العقل وتستند إلى النقل كما قال على كرم الله وجهه فى نعت القرآن : هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم .

(قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) أى قد وضعنا آياته وفسرناها لقوم يتذكرون ما بلغوه منها كما عرضت الحاجة إليه فيزدادون بذلك يقينا ورسوخا فى الإيمان ، كما يزدادون موعظة تبهتهم على الإذعان والعمل الصالح .

(لهم دار السلام عند ربهم) أى لهؤلاء السالكين صراط ربهم المستقيم دار السلام عندهم بسلوكتهم صراطه الموصل إليه بما أسلفوا من عمل ، إذ هم قد اتقوا آثار الأنبياء وطرائقهم وسلموا من الاعوجاج فوصلوا إلى دار السلام .

(وهو وليهم بما كانوا يعملون) أى إنه تعالى متولى أمورهم وكافهم كل مايعنيهم جزاء على صالح أعمالهم التى تركى نفوسهم وتصلح حالهم فى الدنيا والآخرة ، فيتولى رعايتهم وتوفيقهم فى الدنيا ، وينيلهم الثواب ويدخلهم جنات النعيم بمنه وكرمه .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) .

شرح المفردات

المعشر والنفر والقوم والرهط : الجمع من الرجال فحسب ، ولا واحد لها من لفظها ، وقال الليث : المعشر كل جماعة أمرهم واحد نحو معشر المسلمين ومعشر الكافرين ، ويطلق على الإنس والجن بدليل الآية ، واستكثر : أخذ الكثير ، يقال استكثر من الطعام : أكل كثيرا ، وأولياؤهم : هم الذين تولوهم أى أطاعوهم فى وسوستهم وما ألقوه إليهم من الخرافات والأوهام ، والاستمتاع بالشئ : جعله متاعا ، والمتاع ما ينتفع به انتفاعا طويلا ممتدا وإن كان قليلا ، وبلغنا أجلنا : أى وصلنا يوم البعث والجزاء ، والمثوى : مكان الثواء ، أى الإقامة والسكنى ، والخلود : المكث الطويل غير المؤقت بوقت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده من العذاب للمجرمين ، وما أعده من الثواب والنعيم فى دار السلام للمؤمنين ، إثر بيان أحوالهم وأعمالهم التى استحق بها كل منهما جزاءه .

ففي على ذلك بذكر ما يكون قبل هذا الجزء من الحشر وبعض ما يكون في يومه من الحساب ، وإقامة الحججة على الكفار ، وسنة الله في إهلاك الأمم .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) أى ويوم يحشرهم جميعا يقول لمعشر الجن منهم : يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس أى استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم كما قال تعالى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ » .

والمراد أنهم استتبعوهم بسبب إضلالهم إياهم فحشروا معهم ، لأن المكلفين يحشرون يوم القيامة مع من اتبعوهم في الحق والخير ، أو في الباطل والشر .

(وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى وقال الذين تولوا الجن من الإنس فى جواب الرب تعالى : يا ربنا تمتع كل منا بالآخر بما كان للجن من اللذة فى إغوائنا بالأباطيل وأهواء الأنفس وشهواتها ، وبما كان لنا فى طاعتهم ووسوستهم من اللذة فى اتباع الهوى والانغماس فى اللذات ، قال الحسن البصرى : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس اه .

وفى الآية إيماء إلى أن كل إنسى يوسوس له شيطان من الجن بما يزين له من الباطل وبما يغريه من الفسق والفجور .

فهذا الخلق الخفى الذى هو من جنس الأرواح الشريرة يلابسها بقدر استعدادها للباطل والشر ويقوى فيها داعيتها كما تلابس جنّة الحيوان الخفية (الميكروبات) الأجساد الحيوانية فتفسد مزاجها وتفسد بالأمراض والأدواء ، فقد أثبت الطب الحديث دخول النسم (النسم لغة : كل ما فيه روح) الحية (الميكروبات) فى الأجسام ، وعرفت الطرق والمداخل الخفية لدخولها بما استحدثت من المناظير (الميكروسكوبات) ،

التي تكبر الصغير حتى يرى أكبر من حقيقته بألوف الأضعاف ، فأمكن أن نعرف أن في الأرض أنواعا من النسم الخفية تدخل الأجسام من خراطيم البراغيث أو البعوض أو القمل ، أو مع الماء والطعام ، وتنمو فيها بسرعة مذهشة فتولد ألوف الألوف ، ومتى تكاثرت ولدت الأمراض والأوبئة القاتلة ، ولو كان قد قيل مثل هذا لأكبر أطباء المصريين القدامى أو للهنود أو اليونان أو العرب لعدوه نوعا من الشعوذة والسحر أو ضربا من التخيل والجنون .

وإذا كان هذا الاتصال الخفي قد ثبت في الأجساد بعد آلاف السنين فلا عجب أن يثبت مثل ذلك في الأرواح ، وأمرها أخفى من الأجساد ، والكتاب والسنة مليئان بهذا ، فقد جاء في الحديث ما يدل على وجود هذه الجرائم (الميكروبات) التي لم يثبتها الطب إلا حديثا ، وكفى بهذا معجزة لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن الله أوحى إليه بنظريات لم يثبتها العلم إلا بعد ذلك بأربعة عشر قرنا ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « تنكبوا الغبار فإن منه تكون النسمة » . وقال عمرو بن العاص : اتقوا غبار مصر فإنه يتحول في الصدر إلى نسمة ، ولو أن هذا الأثر قيل لغير المتدينين وفسر لهم هذا التفسير قبل اختراع المناظير لكان فتنة للناس وزادهم نفورا مما جاء به الرسول ، ولكن في كل يوم يثبت العلم نظريات جديدة تكون نعم العون على صدق ما جاء به الرسول ، وتلقى نورا على الناس ينظرون به تلك الدرر الغوالي المبثوثة في القرآن والحديث وآثار الصدر الأول من المسلمين .

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) أي ووصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذي حددته لنا وهو يوم البعث والجزاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا فاحكم فينا بما تشاء وأنت الحكم العدل .

ومقصدهم من هذا الإخبار إظهار الحسرة والندامة على ما كان منهم من التفريط في الدنيا وتفويض الأمر إلى ربهم العليم بحالهم ، ولم يذكر هنا قول المتبوعين من الشياطين وحكاه في آي أخرى فقال في الفريقين « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ

بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » وكما ذكر في سورة البقرة كيف يتبرأ بعضهم من بعض ، وحكى في سورة إبراهيم أقوال كل من الضعفاء التابعين من الناس وأقوال المتكبرين المتبوعين وقول الشيطان للفريقين وتنصله من استحقاق الملام وكفره بما أشركوا .

(قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) أى قال الله تعالى ردا عليهم : النار منزلتكم وموضع إقامتكم إقامة خلود إلا ما شاء الله مما يخالف ذلك ، فكل شيء بمشيئته واختياره ، فإن شاء أن يرفعه كله أو بعضه عنكم أو عن بعضكم فعل ، فله السلطان الكامل والنفوذ الأعلى ، ولكن هل يشاء ذلك ؟ هذا مما يتعلق بعلمه وحده ولا يعلمه غيره إلا بإعلامه .

(إن ربك حكيم عليم) أى إنه تعالى حكيم فيما يتعلق به مشيئته من الجزاء الذى نص عليه فى كتابه ، عليم بما يستحقه كل من الفريقين ، والبشر لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء .

روى ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً .

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُقِصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ
الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ
رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) .

المعنى الجملي

بعد أن حكي عز اسمه عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضا — أردف ذلك ببيان أن ذلك يحدث بتقديره تعالى وقضائه .

الإيضاح

(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) تولية الله الناس بعضهم بعضا جعل بعضهم أنصارا وأولياء لبعض ، إما بمقتضى أمره في شرعه ومقتضى سنته وتقديره كما في ولاية المؤمنين بعضهم بعضا في الحق والخير والمعروف ، فقد أمرهم بذلك في شرعه ونهاهم عن ضده ، وهو أيضا مقتضى الإيمان الصادق وأثره الذي لا ينفك عنه على حسب تقدير الله الذي مضت به سنته في خلقه ، وإما بمقتضى سنته وتقديره فحسب وهو ولاية الكفار المجرمين والمنافقين بعضهم بعضا ، إذ هذا أثر مترتب على الاتفاق في الاعتقاد والأخلاق واشتراك المنفعة على حسب تقديره تعالى وسنته في نظم الحياة البشرية ، وهو لم يأمرهم بشيء مما يتناصرون به في الباطل والشر والمنكر ، بل نهاهم عن ذلك ، ولكن شأن الأفراد والجماعات أن يميل كل منهم إلى من كان على شاكلته ويتولاه بالتعاون والتناصر فيما هم فيه مشتركون ويناوئون من يخالفهم في ذلك .

أى ومثل ذلك الذى ذكر من استمتاع أولياء الإنس والجن بعضهم ببعض فى الدنيا لما بينهم من التناسب والمشاكلة نولى بعض الظالمين بعضا لأنفسهم وللناس بسبب ما كانوا يكسبون باختيارهم من أعمال الظلم المشتركة بينهم .

روى عن قتادة أنه قال فى تفسير الآية : إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن من أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر من أين كان وحيثما كان وليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولعمري لو عملت بطاعة الله ولم تعرف أهل

طاعة الله ما ضرك ذلك ، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله ما نفعك ذلك شيئاً اه .

وروى أبو الشيخ عن منصور بن أبي الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) ما سمعتهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمر عليهم شرارهم اه . ذلك أن الملوك يتصرفون في الأمم الجاهلة الضالة تصرف الرعاة في الأنعام السائمة ، فهم يتخذون الوزراء والحاشية من أمثالهم فيقدم جمهور الأمة في سيء أعمالهم ، فيغلب الفساد على الصلاح ، ويفسقون عن أمر الله فيهلكون أو يسلب عليهم الأمم القوية التي تستبيح حمام وتثل عروشهم ويصبحون مستعبدين أذلاء بعد أن كانوا سادة أعزاء كما قال سبحانه : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا مَا تَدْمِيرًا » .

أما الأمم العاملة بسنن الاجتماع التي أمرها شورى بين زعمائها وأهل الرأي فيها ، فلا يستطيع الملوك أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، بل يكونون تحت مراقبة أولى الأمر فيها .

وقد وضع الإسلام هذا الدستور فجعل أمر الأمة بين أهل الحل والعقد ، وأمر المرسل بالمشاورة ، فسار على هذا النهج ، وجعلت الولاية العامة — الخلافة — بالانتخاب .

واقتمى الخلفاء الراشدون خطواته ، وجروا على سنته ، فقال الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة له : أما بعد فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمتم فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني .

وقال الخليفة الثاني على المنبر : من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه . . وقال الخليفة الثالث على المنبر أيام الفتنة : أمرى لأمركم تبع .

وقوله (الظالمين) يشمل الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس من الحكام وغيرهم ،

إذ كل من هؤلاء وأولئك يتولى من يشا كله فى أخلاقه وأعماله وينصره على من يخالفه .

ثم أجاب سبحانه عن سؤال يخطر بالبال وهو : ما حال الظالمين إذا قدموا على الله يوم القيامة ؟ فأجاب بأنهم يسألون فقال :

(يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم ؟) أى إنهم ينادون ويسألون عن دعوة الرسل لهم فتقوم الحجة عليهم فيما يترتب من الجزاء على مخالفتها .

وقوله : (رسل منكم) ظاهر فى أن كلا من الفريقين — الإنس والجن — قد أرسل منهم رسل إلى أقوامهم ، لكن جمهرة العلماء يقولون : إن الرسل كلهم من الإنس كما يدل عليه ظاهر الآيات الأخرى ، وقالوا إن المراد بقوله : منكم أى من جملتكم لا من كل منكم ، وهو يصدق على رسل الإنس الذين ثبتت رسالتهم إلى الإنس والجن .

والجن عالم غيبى لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص ، وقد دل الكتاب الكريم وصحيح الأحاديث على أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم كقوله تعالى حكاية عن الذين استمعوا القرآن منهم أنهم قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ » فهذا ظاهر فى أنه كان مرسلًا إليهم فنؤمن بذلك ونفوض الأمر فيما عداه إلى الله .

ثم بين سبحانه وظيفة الرسل الذين أرسلهم الله إلى الفريقين بقوله :
(يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى إنهم يتلون عليه الآيات المبينة لأصول الإيمان وأحسن الآداب والفضائل ، والمفصلة لأحكام التشريع التى من ثمراتها صلاح الأعمال والنجاة من الأهوال ، وينذرونكم لقاء يوم الحشر بالإعلام بما يكون فيه من الحساب والجزاء لمن كفر بالله وجحد بآياته .

ثم أجابوا عن سؤال فهم من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا حين ذلك التوبيخ الشديد ؟ فقيل .

(قالوا شهدنا على أنفسنا) أى شهدنا بإتيان الرسل وإنذارهم وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب . وفي هذا الجواب اعتراف صريح بكفرهم ، وإقرار بأن الرسل قد أتوهم وبلغوهم دعوتهم إما مشافهة أو نقلا عن سمعها منهم .

وهذا موطن من مواطن يوم القيامة ، وفي موطن آخر لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، وفي موطن ثالث يكذبون على أنفسهم بما ينكرون من كفرهم وأنهم قدموا شيئا من السيئات والخطايا .

ونحو الآية قوله : « قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

مِنْ شَيْءٍ » .

(وغرتهم الحياة الدنيا) أى وغرتهم زينة الحياة الدنيا ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحب السلطان على الناس وعظيم الجاه ، فكفروا بالرسل عنادا وكبرا ، وقلدهم في ذلك أتباعهم ، واغتر كل منهم بما يغتر به من التعاون مع الآخر . وأما غرور غيرهم ممن جاء بعدهم بالدنيا، فلما غلب عليهم من الإسراف في الشهوات المحرمة والجاه الباطل حتى لقد أصبحت الخطوة بين الناس لذوى المال والنسب مهما اجترحوا من الموبقات وأبسلوا من المكارم والخيرات .

(وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى وبعد أن قامت عليهم الحجة شهدوا على أنفسهم بأنهم كانوا في الدنيا كافرين بتلك الآيات والنذر التي جاء بها الرسل حين رأوا أنه لا يجديهم الكذب ولا تنفعهم المكابرة .

والكفر بالرسل ضربان : كفر بتكذيبهم بالقول ، وكفر بعدم الإذعان النفسي الذي يتبعه العمل على حسب سنن الله في ترتب الأعمال على الطباع والأخلاق .

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) أى ذلك الذى ذكر من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله لإصلاح حال الأفراد والجماعات في شئونهم الدنيوية والأخروية ، وينذرونهم يوم الحشر والجزاء ، بسبب أن الله لم يكن من سنته في تربية خلقه أن يهلك الأمم بعذاب الاستئصال الذى أوعده به مكذبي الرسل

بظلم منهم وهم غافلون عما يجب أن يقفوا به ذلك الهلاك ، بل يسبق هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق بما يقصه عليها من آيات الوحى فى عصره ، أو بما ينقله إليها من يبلغونها دعوته من بعده ، إذ من حكمة الله فى الأمم جعل ما يحل بها من عقاب جزاء على عمل استحقته به ، فىكون عقابها تربية لها وزجرا لسواها .

والخلاصة — إن الله لا يظلم أحدا من خلقه ، بل هم الذين يظلمون أنفسهم ، وإن الإهانة والتعذيب تربية لهم وتأديب وزجر لغيرهم ، وإن هذا العقاب للأمم منه ما هو فى الدنيا ومنه ما هو فى الآخرة ، ومن الأول عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاءهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية ، وبعد أن أنذروهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا بها كما حصل لعاد وثمود ، وقد انقطع ذلك بانقطاع الرسل .

وهلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق والفجور الذى يفسد الأخلاق ، ويقطع روابط المجتمع ويجعل بأس الأمة بينها شديدا .

وهذه الآية وما شا كلها من قواعد الاجتماع التى سبق أن شرح جانبها منها بعض علماء الاجتماع من المسلمين كابن خلدون ، لكن لم يستفد من ذلك من جاء بعده من علماءهم ، واستفاد منها غيرهم ، كما لم يستفيدوا من هدى القرآن ومثله العليا فى إقامة ملكهم وحضارتهم على حسب ما أرشدهم إليه من سنن الاجتماع فىمن قبلهم ، وإنهم لا يزالون غافلين عن هذا الرشاد مع حاجة العصر إلى بذل أقصى ما يكون من الجهد فى هذا المضمار ، لأن الأمم قد افتنت فى الوصول إلى أغراضها بكل الوسائل التى يمكن أن يفكر فيها البشر ، كما هى سنة تنازع البقاء .

ولا نرى من المسلمين إلا معاذير لو تركوها لكان أحرى بهم وبما ينسبونه إلى دينهم كذبا وافتراء ، إذ يعتذرون تارة عن ضعف أممهم وتقصيرها بأن كل شىء بقضاء وقدر ، ولو سلم لهم هذا لكان الناس مجبورين فى أعمالهم لا مختارين ، وقواعد الدين تأبى هذا ، والتكاليف الشرعية مؤسسه على غير ما يقولون . . .

وأين كان هذا أيام أن كان المسلمون في أوج عزهم يكافحون وينافحون ويتغلبون على من سواهم من الأمم ويفتحون الممالك والأمصار ، وتحقق عليها بنودهم وأعلامهم . وتارة يسلون أنفسهم بأن هذا من علامات الساعة ، وأتى لهم بها ؟ وهل هم أوتوا من العلم ما يرشدهم إلى ما يدعون ، بل لقد بلغ الأمر بهم أن وسوس لهم الشيطان وهم يناجون أنفسهم أو إذا خلوا إلى شياطينهم أن قالوا : إن تعاليم الإسلام أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » أفليست تعاليمهم هذه هي التي شيدت صروح المجد في سالف العصور وأقامت ملكاً ضم أطراف المغرب والمشرق ؟ .

أليس أسلافهم بهذه التعاليم ثلوا عروش الأكاصرة والقياصرة ، ودوخوا الممالك ، وأسسوا حضارات ، ووضعوا قوانين لانزال أرقى الأمم مدنية تمتح من معينها ، وتطفى ظمأها من نيرها العذب ؟

وقد التمس بعضهم هداية غير هداية القرآن ليؤسس عليها سعادة دنياه ، فكان كالتى تقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، فلم يتم له ما أراد وخسر دنياه وأخراه ، وذلك هو الضلال البعيد .

(ولكل درجات مما عملوا) أى ولكل عامل فى طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر .
(وما ربك بغافل عما يعملون) أى فكل عملهم بعلم من ربك وهو محصيه عليهم ، ومجازيهم بالسيئة سيئة مثلها ويضاعف الحسنات من فضله عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه .

وفى الآية إيماء إلى أن مناط السعادة والشقاء هو عمل الإنسان ومشيبته ، فإن شاء عمل عمل النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين فكان من الذين سمعوا القول واتبعوا أحسنه ، فجازاه الله أحسن الجزاء ، وإن شاء تنكب عن جادة الدين ورمى

أحكامه وراءه ظهر يا وسار في غلواء الضلال ، فكان من الأشقياء الذين كبكبوا فيها هم والفاوون وجنود إبليس أجمعون .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَاتٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

شرح المفردات

يذهبكم أى يهلككم ، يستخلف أى ينشىء الذرية والنسل ، بمعجزين أى جاعلى من طلبكم عاجزا غير قادر على إدراككم ، والمكانة: الحال التى هم عليها ، والدار: هى الدنيا ، والمراد بالعاقبة: عاقبة الخير إذ لا اعتداد بعاقبة الشر ، لأن الله جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، وقنطرة المجاز إليها ، وأراد من عباده أعمال الخير لينالوا حسن العاقبة .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات السالفة فى تقرير حجة الله على المكلفين الذين بلغتهم الدعوة فوجدوا بها ، وأنهم يشهدون على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين وأن سنة الله فى إهلاك الأمم فى الدنيا بجناياتها على أنفسهم لا يظلم منه تعالى .

وهنا ذكر وعيد الآخرة وأنه مرتب على أعمال المكلفين لا يظلم منه سبحانه ، ولا حاجة له تعالى إليه ، لأنه غنى عن العالمين ، بل لأنه من مقتضى الحق والعدل المقرونين بالرحمة والفضل .

الإيضاح

(وربك الغنى ذو الرحمة) أى وربك هو الغنى الكامل الغنى ، وهو ذو الرحمة الشاملة التى وسعت كل شىء ، إذ كل ما عداه فهو محتاج إليه فى وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التى جعلها سبحانه قوام وجوده .

ويقال فى الخلق : هذا غنى إذا كان واجدا لأهم هذه الأسباب التى هى من فيض مولاه وهو مع ذلك محتاج إلى غيره ، انظر إلى الغنى ذى المال الكثيرته محتاجا إلى كثير من الناس من الزوج والخدام والعامل والطبيب والحاكم ، ومحتاجا إلى خالقه وخالق كل شىء كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

(إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى إن يشأ يذهبكم أيها الكافرون المعاندون واستخلف غيركم بعدكم يذهبكم بعذاب يهلككم به كما أهلك أمثالكم ممن عاندوا الرسل كعاد وثمود ، ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الأقوام ، فإنه غنى عنكم وقادر على إهلاككم وإنشاء قوم آخرين من ذريتكم أو ذرية غيركم يكونون أحق برحمته منكم ، كما قدر على إنشائكم من ذرية قوم آخرين .

وقد صدق الله وعده فأهلك أولئك الذين عادوا خاتم رسله كبرا وعنادا وجحدوا بما جاء به وهم يعلمون صدقه ، واستخلف فى الأرض غيرهم ممن كان كفرهم عن جهل أو تقليد لمن قبلهم ولم يلبث أن زال بالتأمل فى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، فكانوا أكمل الناس إيمانا وإسلاما وإحسانا ، وهم المهاجرون والأنصار وذرياتهم ، وكانوا أعظم مظهر لرحمة الله للبشر حتى فى حروبهم وفتوحهم ، وشهد لهم بذلك أعداؤهم حتى قال مؤرخو الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب . وبعد أن أنذرهم عذاب الدنيا وهلاكهم فيها أنذرهم عذاب الآخرة فقال :

(إن ما توعدون لآت وما أتم بمعجزين) أى إن ما توعدونه من جزاء الآخرة بعد البعث لآت لا مرد له ، وما أتم بمعجزين الله بهرب ولا منع مما يريد ، فهو القادر على إعادتكم كما قدر على بدء خلقكم ، وهذا دليل قد ذكره الله فى كتابه مرات كثيرة . وقد أنار العلم فى هذا العصر أمر البعث وقربه إلى العقول ، فأثبت أن هلاك الأشياء وفناءها ما هو إلا تحلل موادها وتفرقها ، وأنه يمكن تركيب المواد المتفرقة وإرجاعها إلى تركيبها الأول فى غير الأحياء .

بل بلغ الأمر ببعض العلماء من الألمان أن حاولوا إيجاد البشر بطريقة صناعية علمية بتنمية البذرة التى يولد منها الإنسان إلى أن صارت علقة فضغة ، وزعم أنه يمكن بوسائل أخرى تغذية المضغة فى حرارة كحرارة الرحم إلى أن تتولد فيها الأعضاء حتى تصير إنساناً تاماً ، وقال إنه يمكن إيجاد معامل للتفريخ البشرى كمعامل تفريخ الدجاج ، ولكن الكثير من العلماء قالوا إن هذه نظريات لا يمكن إخراجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود بالفعل .

وإذا كان علماء المادة يحاولون الوصول إلى ذلك ولا يعدونه مستحيلاً ، فهل يعجز عنه خالق البشر وخالق كل شيء : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » ثم تم الوعيد والتهديد بأمره لرسوله أن ينذرهم بقوله :

(قل يا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى يا قوم اعملوا على مكاتكم وطريقتكم التى أتم عليها ، إني عامل على مكاتى وطريقتى التى ربانى ربي عليها وهدانى إليها وأقمنى عليها ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدار بتأثير أعماله .

وفى الآية إيماء إلى أن أحوال الأمم مرتبة على حسب أعمالها ، وأن أعمالها منبعثة من عقائدها وصفاتها النفسية ، وأن عاقبة كل عمل نتيجة حتمية له إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال صاحب الكشاف : اعملوا على مكاتكم - تحتمل وجهين - اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أتم عليها ، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حال : على مكانك يا فلان أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ، إني عامل على مكاتتي التي أنا عليها .
والعنى - اثبتوا على كفركم وعداوتكم فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ، فسوف تعلمون أينما تكون له العاقبة المحمودة .

ثم قال - وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك فيه إنصاف في المقال وأدب حسن مع تضمن شدة الوعد والوثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل اه .
يقصد بذلك رحمه الله - أن في هذا الإنذار إحالة على المستقبل ليم وعده لرسوله بالنصر والتأييد ، وصدق وعيده لأعدائه بقهرهم في الدنيا بحيث يروونه بأعينهم ، وإذا صدق في الدنيا صدق في الآخرة ، وأن كلا منهما كان بإنباء الغيب ، وأن السبب الذي لأجله كانت عاقبة الرسول ومن اتبعه الحسن في الدنيا والآخرة واحد ، وكذلك عاقبة من ناواه وكفر به ، وقد أشار إليه بقوله :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إن الظالمين لأنفسهم بالكفر بنعم الله واتخاذ الشركاء له فى ألوهيته والتوجه إليهم فيما يتقرب به إليه تعالى أو فيما لا يطلب إلا منه وهو ما خفيت على المرء أسبابه ، إذ مثل هذا لا يدعى فيه إلا الله وحده ، وما عرف سببه يجب أن يطلب من طريق السبب ، مع العلم بأن خالق الأسباب جميعها هو الله تعالى ، وحال الظالمين للناس أشد من حال الظالمين لأنفسهم ، وكلهم لا يفوزون بفلاح لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، وإنما يفوز به أهل الحق والعدل الذين يؤدون حقوق الله وحقوق أنفسهم ، ولا يكمل مثل هذا إلا لرسول الله وجندهم من المؤمنين .

انظر كيف نصر الله رسوله على الظالمين من قومه كأ كابر مجرمى مكة المستهزئين به ثم من سائر مشركى العرب ، ثم نصر أصحابه على أعظم أمم الأرض وأقواها جندا كالرومان والفرس ، ثم نصر من بعدهم على من ناوهم من أهل الشرق والغرب ،

فلما ظلموا أنفسهم وظلموا الناس لم تبق لهم ميزة عن غيرهم تمكنهم من الفلاح والفوز
وأنحصر الفوز في الأسباب المادية والأسباب المعنوية كالصبر والثبات والعدل والنظام .

ولا عجب بعد هذا أن يتغلب عليهم غيرهم ، لأن الله إنما وعدهم نصره إذا هم
نصروه وأقاموا شرعه وسلكوا سبيل الحق والعدل كما قال : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَهَايْكُنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ » .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ
بِرِّعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ
لِللَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ
الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبَسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا
هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِّعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ
بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ،
سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ (١٤٠)

شرح المفردات

ذراً أى خلق على وجه الاختراع والإبداع ، لشركائنا أى الأوثان التى يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، لشركائهم أى سدنة الآلهة وخدمها ، أو الشياطين الذين يوسوسون لهم ما يزين ذلك فى أنفسهم ، ويردوهم أى يهلكوهم بالإغواء ، ويلبسوا أى يخلطوا ، حجر أى محجور ممنوع ، كما قالوا : ذبح وطحن أى مذبح ومطحون ، وجزاه بكذا جعله جزاء له على عمله قال تعالى : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » وصفهم أى جزاء وصفهم .

المعنى الجملى

بعد أن حاج سبحانه المشركين وسائر العرب فى كثير من أصول الدين وكان آخرها البعث والجزاء - ذكر هنا بعض عبادتهم فى الحرث والأنعام والتحليل والتحریم بباعث الأهواء النفسية والخرافات الوثنية .

الإيضاح

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) أى وجعلوا لله نصيباً مما خلق من ثمر الزرع وغلته كالتمر والحبوب ونتاج الأنعام ، ونصيباً لمن أشركوا معه من الأوثان والأصنام .

(فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) أى فقالوا فى النصيب الأول هذا لله أى نتقرب به إليه ، وفى النصيب الثانى هذا لشركائنا أى لمعبوداتنا نتقرب به إليها ، وقوله بزعمهم أى بتقولهم الذى لا يبنه لهم عليه ولا هدى من الله ، إذ جعله قربة لله يجب أن يكون خالصاً له وحده لا يشرك معه غيره فيه ، وأن يكون بإذنه ، لأنه دين والدين لله ومن الله وحده ، فهذا زعم مخترع لا دين مشترع ، فيكون باطلاً .

وقد روى أنهم كانوا يجعلون نصيب الله لقرى الضيفان ، وإكرام الصبيان ، والتصدق على المساكين ، ونصيب آلهتهم لسدنتها وقرائنها وما ينفق على معابدها .

(فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أى فما عينوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله لا بالتصدق ولا بالضيافة ولا غيرها ، بل يهتمون بحفظه وإنفاقه على السدنة وذبح الذبائح والقرايين عندها .
(وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) أى وما عينوه وجعلوه له فهو يحول أحيانا للتقرب به إليها .

(ساء ما يحكمون) أى قبح ما يحكمون به بإيثارهم الخلق العاجز عن كل شئ على الخالق القادر على كل شئ ، وبعملهم شيئا لم يشرعه الله .
وللتبجح وجوه متعددة منها :

- (١) إنه اعتداء على الله بالتشريع وهو لم يأذن لهم به .
- (٢) الشرك فى عبادته تعالى ، ولا ينبغى أن يشرك مع الله سواء فيما يتقرب به إليه .
- (٣) ترجيح ما جعلوه لشركائهم على ما جعلوه لخالقها وخالقهم .
- (٤) إن هذا حكم لا مستند له من عقل ولا هداية من شرع .

نقل على بن أبى طلحة والعمري عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شئ من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شئ فيما سمي للصدم ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شئ من الحرث والثمرة الذى جعلوه لله فاختلط بالذى جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن .

وكانوا يجرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يجرمونه قربة لله تعالى .

ثم ذكر سبحانه من أعمال الشرك أيضا عملا لا مستند له من عقل ولا شرع فقال :

(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) أى ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرت والأنعام بين الله والآلهة - زين لكثير من المشركين شركاؤهم - سدنة الآلهة وخدمها - أن يقتلوا أولادهم ، وكان مصدر هذا التزيين وجوهاً مختلفة منها :

(١) إتقاء الفقر الحاصل أو المتوقع ، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » وأشار إلى الثانى بقوله : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » .

(٢) إتقاء العار بواد البنات أى بدفنهن وهن على قيد الحياة خشية أن يكن سببا للعار أو القتال إذا كبرن ، أو خشية أن يقترن بأزواج دون آبائهن فى الشرف .

(٣) التدين بنحر الأولاد للآلهة تقربا إليها بنذر أو بغير نذر ، فقد كان الرجل فى الجاهلية ينذر إن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب فى قصص طويل أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « أنا ابن الذبيحين » .

وسمى الله المزيبين لهم الشرك من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن شركاء وإن كانوا لم يسموهم لا آلهة ولا شركاء ، لأنهم لما أطاعوهم طاعة إذعان وخضوع فى التحليل والتحريم ولا يكون ذلك إلا لله - سماهم كذلك كما قال : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

وقد حذا كثير من المسلمين حذو هؤلاء فدعوا غير الله من الموتى تضرعا وخضوعا عند قبورهم مع التقرب إليهم بالصدقات وذبائح النسك ، ولكنهم لا يسمون عبادتهم هذه شركا ولا عبادة ، بل يسمونها توسلا (والأسماء لا تغير الحقائق والأعمال) فالدعاء والتضرع أدل على الحقائق من الأسماء والتأويلات .

ثم ذكر سبحانه علة تزيين المنكرات لهم فقال :

(ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) أى إنهم زينوا لهم هذه المنكرات ليهلكوهم

بالإغواء ، ويفسدوا عليهم فطرتهم ، فتنقلب عواطف ود الوالدين من رأفة ورحمة إلى قسوة ووحشية ، فينحر الوالد ولده ويدفن بنته الضعيفة بيده وهى حية .

والدين الذى لبسوه وخلطوه هو ما كانوا يدعون من دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام ، وقد اختلط عليهم بما ابتدعوه من تقاليد الشرك حتى لم يعرف الأصل الذى كان يتبع من هذه الإضافات التى ضمها إليه .

(ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) أى ولو شاء الله أن يخلق الناس مطبوعين على عبادته طبعاً لا يستطيعون غيرها كالملائكة ، فلا يؤثر فيهم إغواء ولا تجدى فيهم وسوسة - لفعل ، ولكن شاء أن يخلقهم مستعدين للتأثر لكل ما يرد على أنفسهم من الأفكار والآراء ، وما يشاهدون من المحسوسات ، واختيار ما يترجح عندهم أنه الخير على ما يقابله ، ومن ثم يؤثر في نفوسهم ما يستفيدونه بالتعليم والاختيار والمعاشرة والمخالطة ، والناس يتفاوتون في هذا جد التفاوت ، فلا يمكن أن يكونوا على رأى واحد أو دين واحد .

فدعهم أيها الرسول وما ينتحلونه من شرائع وما يفترون من عقائد ، وعليك بما أمرت به من التبليغ ، والله هو الذى يتولى أمرهم وله سنن فى هداية خلقه لا تتغير ولا تتبدل ، ومن سننه أن يغلب الحق الباطل .

ثم ذكر نوعاً ثالثاً من آرائهم الفاسدة فقال :

(وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) أى إنهم لغوايتهم وشركهم قسموا أنعامهم وزرعهم أقساماً ثلاثة :

(١) أنعام وأقوات من حبوب وغيرها تقتطع من أموالهم وتجعل لمعبوداتهم تعبداً وتديناً ، ويمتنعون من التصرف فيها إلا لها ، ويقولون هى حجر أى محتجرة للآلهة لاتعطى لغيرهم .

وقوله لا يطعمها إلا من نشاء أى لا يأكل منها إلا الرجال دون النساء ، وقوله بزعمهم أى بادعائهم الباطل من غير حجة ولا برهان عليه .

(٢) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تتركب ولا يحمل عليها ، قال السدى : هى البحيرة والسائبة والحامى وقد تقدم ذكرها فى قوله : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » .

(٣) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى الذبح ، بل يهلون بها لألهتهم وحدها ، وكانوا إذا حجوا لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهرها .

(افتراء عليه) أى إنهم قسموا هذا التقسيم وجعلوه من أحكام الدين ونسبوه إلى الله افتراء عليه واختلاقا له والله منه برىء ، فهو لم يشرعه لهم ، وما كان لغير الله أن يحرم أو يحلل على العباد ما لم يأذن به الله ، كما جاء فى قوله : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ، قُلْ اللَّهُ أُذُنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ » .

(سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه وينكل بهم شر النكال بسبب هذا الافتراء القبيح .

ثم ذكر ضربا آخر من أحكامهم فى التحريم والتحليل ينبىء عن سخفهم فقال : (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء) المراد بالأنعام هنا البحائر أى المشقوقة الآذان ، والسوائب التى تسبب وتترك للآلهة فلا يتعرض لها أحد ، وكانوا يجعلون لبنها للذكور ويحرمونه على الإناث ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه خالصا للذكور لا تأكل منه الإناث ، وإذا كان ميتا اشترك فيه الذكور والإناث ، وإذا ولدت أنثى تركوها للنتاج .

(سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم) يقولون وصف كلامه بالكذب - إذا

كذب ، وعينه تصف السحر أى هى ساحرة ، وقده يصف الرشاقة ؛ على معنى أنه رشيق على سبيل المبالغة ، حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له قال أبو العلاء :

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف المللا
أى سيجزيهم الله تعالى جزاء وصفهم ، لأن حكمته تعالى فى الخلق وعلمه
بشؤونهم ، جعل عقابهم عين ما يقتضيه وصفهم ونعتهم الروحى ، إذ لكل نفس
فى الآخرة صفات تجعلها فى مكان معين سواء أكان فى أعلى عليين أم فى
أسفل سافلين .

وإخلاصة — إن منشأ الجزاء نفس الإنسان باعتبار عقائدها وسائر صفاتها التى
يطبعها العمل عليها .

وقد يكون المعنى — سيجزيهم وصفهم لربهم بما جعلوا له من الشركاء فى العبادة
والتشريع ، أو وصف أسنتهم الكذب بما افتروا عليه فيما كما قال تعالى :
« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى
اللَّهِ الْكُذِبَ » الآية .

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على
الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين) أنكر سبحانه على مشركى العرب أمرين عظيمين
ونعاهما عليهم ، وحكم فيهم حكما عدلا وهما :

(١) قتل أولادهم وواد بناتهم ، وبذلك خسروا خسرانا مبينا ، فإن قتل
الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يرجى من العزة والنصرة ، والسرور والغبطة ،
والبر والصلة ، وخسران العاطفة الأبوية ورأفتها واستبدال القسوة والغلظة بها ،
إلى نحو أولئك من مساوى الأخلاق التى يضيق بها العيش فى الدنيا ، وبها يحل
العقاب فى الآخرة .

(٢) تحريم ما رزقهم الله من الطيبات .

وقد نعى الله عليهم هذين الجُرمين وعلاهما بالخسران والسفاهة وعدم العلم والافتراء على الله والضلال وعدم الاهتداء .

أما الخسران فلأن الولد نعمة من الله على العبد ، فإذا سعى العبد في زوالها فقد خسر خسرانا عظيما ، إذ هو قد استحقق الذم في الدنيا وقال الناس إنه قتل ولده خوف أن يأكل طعامه ، والعقاب في الآخرة ، لأنه ألحق أعظم أنواع الأذى بأقرب الناس محبة إليه .

وأما السفاهة ، وهي اضطراب النفس وحماتها ، فلأنه أقدم على ضرر محقق وهو القتل خوفا من ضرر موهوم وهو الفقر .

وأما عدم العلم بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقيح فذلك من أتبع القبائح والمنكرات .

وأما الافتراء على الله فلا أنهم جعلوه ديننا يتقرب به إليه وهو جرأة عليه ، وذلك من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر .

وأما الضلال المبين فلا أنهم لم يرشدوا إلى مصالح الدين ولا منافع الدنيا .
وأما عدم الاهتداء إلى شيء من الحق والصواب ، فلا أنهم لم يعملوا بمقتضى العقل ولا بهدى الشرع في منافع الدنيا وسعادة الآخرة .

وفائدة قوله وما كانوا مهتدين — بيان أنهم لم يحصل لهم اهتداء قط ، والإنسان أحيانا قد يضل ثم يهتدى ولكن هؤلاء لم يحصل لهم الاهتداء بحال .

أخرج البخارى عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فأقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها — إلى قوله وما كانوا مهتدين) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية : هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويغذو كلبه .

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّثْمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ دَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ آلَ الَّذِينَ حَرَّمَ أُمَّ الْأَنْثِيَيْنِ ، أُمِّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَ الَّذِينَ حَرَّمَ أُمَّ الْأُنثِيَيْنِ أُمِّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أُمِّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) .

شرح المفردات

الإنشاء : إيجاد الأحياء وتربيتها وكل ما يكمل بالتدريج كالإنشاء السحاب والدور والشعر، والجنات : البساتين والكروم الملتفة الأشجار، لأنها تجن الأرض وتسترها ، والمعروشات : المحمولات على العرائش ، وهي الدعائم التي يوضع عليها مثل السقف من العيدان والقصب ، غير المعروشات : ما لم يعرش منها ، والمراد أن الجنات نوعان : نوع المعروشات كالكرم ؛ ونوع غير المعروشات من سائر أنواع الشجر الذي يستوى على سوقه ولا يتساق على غيره ، والأكل (بضم الهمزة والكاف) ما يؤكل ، متشابها أى فى النظر ، وغير متشابهه أى فى الطعم ، والحمولة : الكبير من الإبل والبقر الذى

يحمل عليه الناس الأثقال ، والفرش : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل والبقرة ، أو هو ما يتخذ الفرش من صوفه ووبره وشعره ؛ والخطوات واحدها خطوة (بالضم) : وهي المسافة التي بين القدمين ، ما شتمت عليه الأرحام : هي الأجنة .

المعنى الجملى

علمت فيما سلف أن أصول الدين التي عنى الكتاب الكريم بذكرها ، واهتم ببيانها ، وكررها المرة إثر المرة - هي التوحيد والنبوة والبعث والقضاء والقدر ، وقد بالغ سبحانه في تقرير هذه الأصول وأتبعها بذكر آراء لهم سخيصة وكلمات فاسدة في التحليل والتحريم ، تنبها إلى ضعف عقولهم ، وتنفيها للناس من اتباع آرائهم والسير على أهوائهم .

وهنا عاد إلى المقصود الأصلي وهو توحيد الله باعتقاد الألوهية ، والربوبية له وإفراده بالعبادة وحق التشريع ، إذ لا رب غيره ، ولا خالق سواه يعبد معه أو من دونه ، ولا شارع سواه لعبادة ولا تحليل ولا تحريم .

الإيضاح

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله) أى وربكم أيها الناس هو الذى ابتدع البساتين والكروم الملتفة الأشجار والتي تجن الأرض وتسترها ، سواء المعروش منها وغير المعروش ، وأنشأ النخل والزرع المختلف الطعم واللون والرائحة والشكل .

والنخل وإن كان من قسم الجنات غير المعروشات ، ذكر على سبيل الانفراد لما فيه من المنافع الكثيرة ولا سيما للعرب ، فإن بصره ورطبه فاكهة وغذاء ، وتمره من أفضل الأقوات التي تدخر ، ومن أيسرها تناولها في السفر والحضر ، ولا يحتاج

إلى طبخ ولا إلى معالجة ، ونواه علف لرواحلهم ، ويتخذ منه شراب لذيد إذا نبذ في الماء زمنا قليلا - إلى ما فى حوصه وليفه من الفوائد والمنافع .
وبهذه الفوائد يفضل الكرم الذى هو أقرب الشجر منه تفكها وتغذية وشربا وأشبهه به شكلا ولونا فى عنبه وزيبه ومنافعه .

والزرع وهو النبات الذى يكون بحرث الناس ، يشمل كل ما يزرع لكنه خص بما يأتى منه القوت كالقمح والشعير ؛ وقد ذكرت هذه الأنواع على طريق الترقى من الأدنى فى التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم ، فإن الحبوب هى التى عليها للمعول فى الاقتيات .

(والزيتون والرمان متشابهها وغير متشابهه) أى وأنشأ الزيتون والرمان متشابهها فى المنظر ، وغير متشابهه فى الطعم .

(كلوا من ثمره إذا أثمر) أى كلوا من ثمر ذلك الذى ذكر إذا أثمر وإن لم يدرك وينبع .

وخلاصة ما سلف - إنه سبحانه بعد أن أعلم عباده بأنه هو الذى أنشأ لهم ما فى الأرض من الشجر والنبات الذى يستعملون منه أقواتهم - أعلمهم بأنه أباح ذلك كله لهم ، فليس لأحد غيره أن يحرم شيئا منه عليهم ، لأن التحريم حق لله الخالق للعباد والأقوات جميعا ، فمن ادعاه لنفسه فقد جعل نفسه شريكا له تعالى ، كما أن من أذعن لتحريم غير الله فقد أشركه معه سبحانه وتعالى .

والتحريم الذى لا يكون إلا لله هو تحريم التشريع ، أما المنع من بعض هذا الثمر لسبب غير ذلك فلا شرك فيه ، فإذا منع الطيب بعض المرضى من أكل الثمر أو الخبز لأنه يضره يكون منعاً شرعياً أو تحريماً لا على معنى أن الطيب هو الذى شرع ذلك ، بل الله هو الذى حرم كل ضار والطيب هو الذى عرف المريض ضرره . وكذلك منع السلطان من صيد بعض الطيور لمصلحة عامة كالحاجة إلى كثرتة لحفظ بعض الزرع ، لأنه يأكل الحشرات المهلكة مثلا لا يكون تحريماً ذاتياً

بل تحريماً مؤقتاً ما دام السبب والسلطان هو المكلف شرعاً بصيانة المصالح ودرء المفاسد وليس له أن يحرم بمحض إرادته ، وإذا هو أخطأ في اجتهاده وجب على الأمة الإنكار عليه ، ووجب عليه أن يرجع إلى الحق .

وفائدة قوله إذا أثمر — بيان أن أول وقت لإباحة الأكل هو وقت الإثمار ، وليس بلازم أن يدرك وينبع ، فالكرم ينتفع بثمره حصرماً فعنباً فزبيبا ، والنخل يؤكل ثمره بسراً فرطباً فتمراً ، والقمح يطحن ويؤكل خبزاً أو يطبخ أو يعمل حلوى على أشكال شتى .

(وآتوا حقه يوم حصاده) أى وآتوا الحق المعلوم فيما ذكر من الزرع وغيره لمستحقيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين زمن حصاده جملة ، ويدخل فى الحصاد جنى العنب وصرم النخل .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وآتوا حقه يوم حصاده » قال ما سقط من السنبل وقال مجاهد فيه : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، فإذا دسته فحضرك المساكين فاطرح لهم ، فإذا أذريت وجمعت وعرفت كيله فاعزل زكاته ، وإذا بلغ النخل وحضرك المساكين فاطرح لهم من التفاريق والبسر ، فإذا جددته (قطعته) فحضرك المساكين فاطرح لهم منه ، فإذا جمعت وعرفت كيله فاعزل زكاته . وعن ميمون بن مهران وزيد بن الأصم أن أهل المدينة كانوا إذا صرموا النخل يخيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد فيجىء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله : « وآتوا حقه يوم حصاده » .

وعن سعيد بن جبير قال : كان هذا قبل أن تنزل الزكاة . الرجل يعطى من زرعه ويعلف الدابة ويعطى اليتامى والمساكين ويعطى الضعف ، يريد أن هذا الأمر فى الصدقة المطلقة غير المعينة ، وبما يؤيد هذا أن السورة مكية والزكاة المحدودة فرفضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة .

(ولا تسرفوا إنه لا يحب للسرفين) أى كلوا مما رزقكم الله من غير إسراف فى الأكل كما قال فى آية أخرى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

والاعتداء والإسراف : مجاوزة الحد ، والحد الذى ينهى الله عن تجاوزه إما شرعى كتجاوز الحلال من الطعام والشراب وما يتعلق بهما إلى الحرام ، وإما فطرى طبيعى وهو تجاوز حد الشبع إلى البطنة الضارة .

(ومن الأنعام حمولة وفرشا) أى وأنشأ من الأنعام كبارا منها تصلح للحمل ، وصغارا مثل الفصلان ، دانية من الأرض لصغر أجسامها كالفرش المفروش عليها . (كلوا مما رزقكم الله) أى كلوا من هذه الأنعام وغيرها وانتفعوا بها بسائر ضروب الانتفاع المباحة شرعا .

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فتحرموا ما لم يحرمه الله عليكم ، فإن ذلك إغواء منه ، والله المبدع قد أباحها لكم فليس لغيره أن يحرم أو يحلل ، ولا أن يتعبدكم به .

ويقال لمن اتبع آخر فى أمر وبالغ فى التأسى به — اتبع خطواته ، ولا شك أن تحريم ما أحل الله من أتبع المبالغات فى اتباع إغواء الشيطان ، لأنه اتباع له فى حرمان النفس من الطيبات ، لا فى الاستمتاع باللذات كما هو أكثر غوايته ؛ ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنه لكم عدو مبين) أى لا تتبعوه لأنه ظاهر العداوة بينها ، لا يأمر إلا بكل قبيح يسوء فعله حالا أو استقبالا ، ويأمركم بالافتراء على الله بغير علم كما قال عز اسمه : « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

وبعد أن ذكر سبحانه أن الأنعام إما حمولة وإما فرش ، فصلها وقسمها ثمانية أزواج ، فإن الحمولة إما إبل وإما بقرة ، والفرش إما ضأن وإما معز ، وكل من الأقسام الأربعة إما ذكر وإما أنثى ، وكل هذا لإيضاح المحال التي تقوّلوها على الله تعالى بالتحريم والتحليل ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافتراءهم في كل محل من هذه المحال بتوجيه الإنكار إليها مفصلة فقال :

(ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأثنين أم ما اشتملت عليه أرحام الأثنين ؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ؛ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأثنين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأثنين) أى أنشأ سبحانه من الضأن زوجين الكبش والنعجة ، ومن المعز زوجين التيس والعنز ، وهذه الأنواع الأربعة تفصيل للفرش ، فقل لهم أيها الرسول تبكئنا وتوبخنا : أحرم الله الذكرين الكبش والتيس من ذينك النوعين أم حرم الأثنين النعجة والعنز أم حرم ما حملت إناث النوعين ؟ أخبروني بيينة تدل على ذلك من كتاب الله أو خبر من أنبيائه إن كنتم صادقين في دعوى التحريم .

وكذلك أنشأ من الإبل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة ، فقل لهم تأنيبا وإنكارا وإلزاما للحجة . أحرم الذكرين منهما أم حرم الأثنين أم ما اشتملت عليه أرحام الأثنين من ذينك النوعين ؟ .

وخلاصة ذلك — إن المشركين في الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام ، فاحتج سبحانه على إبطال ذلك — بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكرا وأنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراما ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراما ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الإناث وجب تحريم الأولاد كلها ، لأن الأرحام تشتمل على الذكور والإناث . وقصارى ذلك — إنه تعالى ما حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة ، وإنهم كاذبون في دعوى التحريم ، وقد فصل ذلك أتم التفصيل مبالغته في الرد عليهم .

ثم زاد فى الإنكار والتهكم بهم فقال :

(أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) أى عندكم علم يؤثر عن أحد من رسله فتنبئونى به ، أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة ؟ - كلاً ، ما حصل هذا ولا ذاك ، فما هو إلا محض افتراء على الله يقلد فيه بعضكم بعضاً بقوله إن الله حرم علينا كذا وكذا كما قال تعالى : « وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنْ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهَا لَآتَيْنَاهَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

والخلاصة - إنكم إذ لم تؤمنوا بنبي فلا طريق لكم إلى علم ذلك على حسب ما تقولون إلا أن تشاهدوا ربكم وتتلقوا منه أحكام الحلال والحرام .

وبعد أن نفى الأمرين بالبرهان أثبت أنه افتراء على الله لإضلال عباده وهو ظلم يجنيه الإنسان على نفسه وعلى غيره ويجنى سوء عاقبته ، ومن ثم قال :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم) أى لا أحد أظلم منكم ، لأنكم من هؤلاء المفتريين على الله بقصد الإضلال عن جهل تام .

ونفى العلم شامل لما يؤثر أو يعقل ويستنبط كالنظر العقلى والتجارب العملية وطرق درء المفسد والشروع وتقدير المصالح وعمل البر والخير .

والخلاصة - إن فى ذلك تسجيل الغباوة عليهم وعمى البصيرة باتباعهم محض التقليد من غير عقل ولا هوى ، فإن عملهم ليس له أثاره من علم ولا قصد إلى شىء من الهدى إلى حق أو خير .

وقد وجد فى البشر ناس فكروا وبحثوا فيما يجب عليهم لله من الشكر والعبادة واتباع الحق والعدل وفعل الخير على حسب ما يرشد إليه العقل ، وفيما ينبغي لهم أن يجتنبوه من الطعام والشراب فأصابوا فى بعض ما هدتهم إليه عقولهم وأخطأوا فى بعض ، وكانوا خير الناس للناس على حين فترة من الرسل ، كما فعل قصى

إذ وضع للعرب سننا حسنة كسقاية الحاج ورفادتهم وإطعامهم ، وسن الشورى في مهام الأمور .

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق للرشاد من افترى عليه الكذب وقال عليه الزور والبهتان ، ولا يهديه إلى الحق والعدل لامن طريق الوحي ولا من طريق العلم ، بل يصدّه عن استعمال عقله فيما يهديه إلى الصواب وعمّا فيه صلاحه عاجلا وآجلا .

قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم (١٤٥) وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون (١٤٦) فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرذ بأسه عن القوم المجرمين (١٤٧) .

شرح المفردات

الطاعم: الآكل، والميتة: البهيمة ماتت حتف أنفها ، والمسفوح: المصبوب السائل كالدم الذى يجرى من المذبوح ، رفس أى قدر قبيح ، الإهلال: رفع الصوت ، والمراد به الذبح باسم الأصنام ، اضطر أى أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء منه ، وباغ أى طالب لذلك قاصد له ، عاد أى متجاوز قدر الضرورة ، الذين هادوا: هم اليهود لقولهم: «إنا هُداًنا إليك» أى رجعنا وتبنا ، الظفر للانسان وغيره: مما لا يصيد ،

والخالب لما يصيد ، والشحم : ما يكون على الأمعاء والكروش والسكلى من المادة الدهنية ، حملت ظهورها أى علفت بها ، والحوايا : المباخر أو المرباض (مجتمع الأمعاء فى البطن) أو المصارين والأمعاء ، بأسه أى عذابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بوحي من ربه على لسان رسله ، ومن فعل ذلك يكون مفترياً على الله معتدياً على مقام الربوبية ، ومن اتبعه فى ذلك فقد اتخذ شريكاً لله تعالى ، وأبان أن من هذا الافتراء ما حرّمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحرث .

فى على ذلك بذكر ما حرّمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله وألسنة بعض الرسل قبله .

أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَىٰ مُحَرَّمًا » الآية .

الإيضاح

(قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمات على طعام يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ، وقل لغيرهم من الناس : لا أجد فيما أوحاه إلى ربي طعاماً محرماً على آكل يريد أن يأكله - إلا أن يكون ميتة لم تذك ذكاة شرعية ، وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، ولمنخقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دماً مسفوحاً أى سائلاً كالدم الذى يجرى من المذبوح ، فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبد والطحال ، وفى الحديث « أحلت لنا ميتتان السمك والجراد ، ودمان الكبد والطحال » أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك

خبثت تعافه الطباع السليمة ، وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقا أهل لغير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبدا ويذكر اسمه عليه عند ذبحه .

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) أى فمن دفعته ضرورة الجوع وقد الحلال إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مرید لذلك ولا قاصد له ، ولا متجاوز حد الضرورة — فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره — غفور رحيم ، فلا يؤاخذ به بأكل ما يسد به مخمصته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

والخلاصة — قل لا أجد فيما أوحى إلى من أخبار الأنبياء وشرائعهم ، ولا فيما شرع على لسانى — أن الله حرم أى طعام إلا هذه الأنواع الأربعة ، وما حرمه على اليهود تحريماً مؤقتاً عقوبة لهم وهو ما ذكر أهمه فى الآية التالية ، ودليل التوقيت قوله فى سورة آل عمران : « **وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ** » وقوله مخاطباً من يتبع النبى صلى الله عليه وسلم منهم : « **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** » ودليل كونه عقوبة لآذاته قوله : « **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ** » .

وما صح من الأحاديث فى النهى عن طعام غير هذه الأنواع الأربعة فهو ما مؤقت لعارض وإما للكراهة فقط ، ومن الأول تحريم الحمر الأهلية ؛ فقد روى ابن أبى شيببة والبخارى عن ابن عمر قال : « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » ومن الثانى ما رواه البخارى ومسلم عن أبى ثعلبة الخشنى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » .

ثم بين سبحانه ما حرمه على بنى إسرائيل خاصة عقوبة لهم لا على أنه من أصول شرعه على السنة رسله قبلهم أو بعدهم فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) أى وعلى الذين هادوا دون غيرهم من أتباع الرسل حرمنا كل ذى ظفر أى مالمس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط كما قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة وبجاهد .

(ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم) أى إنه حرم عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شئ منه ، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة وهى الثروب (واحدة ثروب ، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش) وشحوم الكلى .
والخالصة — ومن البقر والغنم دون غيرها مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومها الزائدة التى تنتزع بسهولة لعدم اختلاطها بلحم ولا عظم ، ولم نحرم عليهم ما حملت الظهور أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، والسبب فى تخصيص البقر والغنم بهذا الحكم أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما ، وكان يتخذ من شحمهما الوقود للرب كما ذكر ذلك فى الفصل الثالث من سفر اللاويين فقد جاء فيه بعد التفصيل فى قرابين السلامة من البقر والغنم (كل الشحم للرب فريضة فى أجيالكم فى جميع مساكنهم ، لا تأكلوا شيئاً من الشحم ولا الدم) .
(ذلك جزيناهم ببغيهم) أى إنما حرم الله ذلك عليهم عقوبة ببغيهم فشدد عليهم بذلك ، وليس ذلك بالخبيث لذاته .

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود من الأنبياء التى لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ولا قومه يعلمون منها شيئاً لأمتهم ، وكان مظنة تكذيب المشركين له ، لأنهم لا يؤمنون بالوحي ومظنة تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عقوبة ببغيهم وظلمهم ، أ كده فقال :

(وإنا لصادقون) أى وإنا لصادقون فى هذه الأخبار عن التحريم وعلته ، لأن أخبارنا صادرة عن العلم المحيط بكل شئ ، ولأن الكذب محال علينا ، لأنه نقص فلا يصدر عنا .

(فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين)
 هذا الخطاب إما لليهود وهو المروي عن مجاهد والسدي ، وإما لمشركي مكة .
 فعلى الأول يكون المعنى — فإن كذبك اليهود وثقل عليهم أن يكون بعض
 شرعهم عقابا لهم على ما كان من بغيهم على الناس وظلمهم لهم ولأنفسهم ، واحتجوا
 على إنكار كونه عقوبة بكون الشرع رحمة من الله — فأجابهم بما يدحض هذه
 الشبهة بأن رحمة الله واسعة حقا ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه ويمنع عقابه
 عن القوم المجرمين ، فإصابة الناس بالمحق والشدائد عقابا لهم على جرائم ارتكبوها ،
 قد تكون رحمة بهم ، وقد تكون عبرة وموعظة لغيرهم لينتهوا عن مثلها ، وهذا العقاب
 من سنن الله المطردة في الأمم وإن لم يطرد في الأفراد .

وعلى الثاني يكون المعنى — فإن كذبك المشركون فيما فصلناه من أحكام
 التحليل والتحریم فقل لهم : ربكم ذو رحمة واسعة ولا يعاجلكم بالعقوبة على
 تكذيبكم ، فلا تغفروا به فإنه إهمال لكم لا إهمال لمجازاتكم .
 وفي هذا تهديد لهم ووعيد إذا هم أصروا على كفرهم وافتراءهم على الله بتحريم
 ما حرموا على أنفسهم ، كما أن فيه إطاعا لهم في رحمته الواسعة إذا رجعوا عن إجرامهم
 وآمنوا بما جاء به الرسول ، فيسعدون في الدنيا بحل الطيبات وفي الآخرة بالنجاة من
 النار ودخول الجنات .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
 حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ،
 قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
 إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)
 قُلْ هَلْ هُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا

فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) .

شرح المفردات

الحرص : الحزر والتخمين ويراد به لازمه وهو الكذب ، الحجة : الدلالة المبينة
للقصد المستقيم ، هلم أى أحضروا ، يعدلون أى يتخذون له مثلاً وعديلاً يعادله ويشاركه .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سالف الآيات فى تفصيل أصول الإسلام من توحيد الله والنبوة
والبعث ، وفى دحض شبهات المشركين التى كانوا يحتجون بها على شركهم وتكذيبهم
للسل وإنكارهم للبعث ، وفى بيان أعمالهم التى هى دلائل على الشرك من التحريم
والتحليل بخرافات وأوهام .

وهنا ذكر شبهة لهم مثل يمثلها كثير من الكفار ، وهم وإن لم يكونوا قالوها
وأوردوها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الله المحيط علمه بكل شىء يعلم أنهم
سيقولونها ، فذكرها ورد عليها بما يبطلها ، وكان ذلك من إخباره بأمر الغيب
قبل وقوعها .

الإيضاح

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء)
أى سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله ألا نشرك به من اتخذنا من الأولياء والشفعاء
من الملائكة والبشر ، وألا نعظم ما عظمنا من تماثيلهم وصورهم ، وألا يشرك آباؤنا
من قبلنا — لما أشركنا ولا أشركوا ، ولو شاء ألا نحرم شيئاً مما حرمنا من الحرث
والأنعام وغيرها — لما حرمنا ، ولكنه شاء أن نشرك به هؤلاء الأولياء والشفعاء

ليقر بونا إليه زلنى ، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها فخرمناها ،
فأبيناها إياها دليل على مشيئته تعالى وعلى رضاه وأمره بها .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وقوله :
« وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » .
وقد رد عليهم شبهتهم فقال :

(كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) أى ومثل ذلك التكذيب الذى صدر من مشركى مكة لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إبطال الشرك وإثبات توحيد الله فى الألوهية والربوبية ، ومنها حق التشريع والتحليل والتحرير — كذب الذين من قبلهم لرسولهم تكذيبا غير مبنى على أساس من العلم .

والرسل صلوات الله عليهم قد أقاموا الحجج والبراهين العلمية والعقلية على التوحيد وغيره مما ادعوا ، وأيدهم الله بآيات ، ولكن المكذبين لم ينظروا فيها نظرة إنصاف ، بل أعرضوا عنها وأصرروا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا بأسه تعالى وأهلكهم بذنوبهم وصاروا كأمس الدابر .

ولو كانت مشيئة الله لما كانوا عليه من الشرك تتضمن رضاه عن فاعلها وأمره بها لما عاقبهم عليها تصديقا لما قال الرسل ، كذلك لو كانت أعمالهم بالجبر المخرج لها عن كونها من أعمالهم ، لما استحقوا العقاب عليها ، ولما قال إنه أخذهم بذنوبهم ، وأهلكهم بظلمهم وكفرهم ونحو ذلك مما جاء فى كثير من الآيات .

فقوله : (حتى ذاقوا بأسنا) برهان دال على صدق الرسل فى دعواهم وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم .

وبعد أن ذكرهم بالبرهان الواضح أمر رسوله أن يطالبهم بدليل يثبت ما يزعمون فقال :

(قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟) أى هل عندكم بما تقولون علم تعتمدون عليه وتحتجون به ، فتخرجوه لنا لتفهمه ونوازن بينه وبين ماجئناكم به من الآيات العقلية والوقائع الحكيمية عن الأمم قبلكم وتبين منها الراجح من المرجوح ؟ وفي هذا الاستفهام من التعجيز والتوبيخ ما لا يخفى .

ثم قفى على ذلك ببيان حقيقة حالهم فقال :

(إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) أى إنكم لستم على شيء من العلم ، بل ما تتبعون في عقائدكم وآرائكم في الدين والعمل به إلا الحدس والتخمين الذى لا يستقر عنده حكم .

وبعد أن نفى عنهم درجات العلم أثبت لذاته الحججة البالغة التى لا تعلوها حجة فقال :

(قل فله الحججة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين بعد تعجيزك إياهم عن أن يأتوا بأدنى دليل أو قول يرقى إلى أضعف درجة من العلم : إن لم يكن عندكم علم فى أمر دينكم ، فإن الله وحده أعلى درجات العلم وله الحججة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بينه فى هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمية والفطر السليمة وسنن الله فى الاجتماع البشرى ، ولكن لا يهتدى بهذه الآيات إلا المستعد للهداية المحب للحق الحريص على طلبه الذى يستمع القول فيتبع أحسنه ، دون من أعرض عن النظر فيها استكباراً عنها وحسداً للمبلغ الذى جاء بها ، وجموداً على تقليد الآباء واتباع الرؤساء .

ولو شاء سبحانه أن يهديكم بغير هذه الطريق التى أقام أمر البشر عليها وهى التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال — لهداكم أجمعين ، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كما لا تكتفى المفطورين على الحق والخير وطاعة الله جل شأنه كما قال سبحانه عنهم : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ويجعل الطاعة فيكم بغير

شعور منكم ولا إرادة كما يجري الدم في أبدانكم ، أومع الشعور بأنها ليست من أفعالكم ، وحينئذ لا تكونون من نوع الإنسان الذي قضت الحكمة وسبق العلم بخلقه مستعدا لعمل الخير والشر والحق والباطل ، ويرجح أحدهما على الآخر بالاختيار ، والاختيار لأحدهما بمشيئته ، لا ينفي مشيئة الله تعالى ولا يعارضها ، فإنه هو الذي شاء أن يجعله فاعلا باختياره .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » وقوله : « مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ ، وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وقوله : « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » وقوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

وبعد أن نفى عنهم العلم وسجل عليهم اتباع الخرص والكذب ، ليظهر لهم أنهم ليسوا على شيء ، يعتقد به من العلم — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالب مشركي قومه بإحضار من عساه يعتمدون عليه من الشهداء في إثبات تحريم الله تعالى عليهم ما ادعوه من المحرمات فقال :

(قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أى أحضروا شهداءكم الذين يخبرون عن مشاهدة وعيان أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه .
والخلاصة — عليكم أن تحضروا من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأمم الأحكام الدينية وغيرها بالأدلة الصحيحة التى تجعل النظريات العلمية كأنها مشاهدات حسية من يشهد لكم بصحة ما تدعون .

(فإن شهدوا فلا تشهد معهم) أى فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود فلا تصدقهم ولا تقبل لهم شهادة ، ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت على الباطل كالشهادة به .

(ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى ولا تتبع أهواء هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا المنزلة ، وبما أرشدت إليه من الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق .

(والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربههم يعدلون) أى والذين هم مع جهلهم واتباعهم للأهواء لا يؤمنون بالآخرة حتى يحملهم الإيمان بها على سماع الدليل والحجة إذا ذكروا بها ، ويشركون بربههم ويتخذون له مثلاً وعدلاً يشاركه فى جلب الخير والنفع ودفع الضرر، إما استقلالاً وإما بحمله الرب على ذلك وتأثيره فى عمله وإرادته .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرُكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَسْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ،
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لعباده جميع ما حرم عليهم من الطعام ، وذكر حجته البالغة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه عليهم ربهم ، ودحض شبهتهم التى احتجوا بها على شركهم بربههم وافترائهم عليه .
ذكر فى هذه الآيات أصول المحرمات فى الأقوال والأفعال ، وأصول الفضائل وأنواع البر .

الإيضاح

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم فيما يملكون وما يحرمون لأنفسهم وللناس : أقبلوا إلى أيها القوم أقرأ لكم ما حرم ربكم عليكم فيما أوحاه إليّ ، وهو وحده له حق التحريم والتشريع ، وأنا مبلغ عنه بإذنه وقد أرسلنى بذلك .

وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا أعم ؛ لأن بيان المحرمات يستلزم حل ما عداها ، وقد بدأها بأكبر المحرمات وأعظمها وأشدّها إفسادا للمقل والفطرة ، وهو الشرك بالله ، سواء أكان باتخاذ الأنداد له أو الشفعاء المؤثرين فى إرادته ، أو بما يذكر بهم من صور وتمائيل وأصنام وقبور ، أو باتخاذ الأرباب الذين يتحكمون فى التشريع فيحللون ويحرمون فقال :

(١) (ألا تشركوا به شيئا) أى ومما أتلوه عليكم فى بيان هذه المحرمات وما يقابلها من الواجبات — ألا تشركوا بالله شيئا من الأشياء وإن عظمت فى الخلق كالشمس والقمر والكواكب ، أو فى القدر كالملائكة والنبين والصالحين ، فإن عظمتها لا تخرجها عن كونها مخلوقة لله ، مسخرة له بقدرته وإرادته : « إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

ويلزم هذا أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم .

(٢) (وبالوالدين إحسانا) أى وأحسنوا بالوالدين إحسانا تاما كاملا ، لا تدخرون فيه وسعا ، ولا تألون فيه جهدا ، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت ، فما بالك بالعتوق الذى هو من أكبر الكبائر وأعظم الآثام ، وقد جاء فى القرآن غير مرة قرن التوحيد والنهى عن الشرك بالأمر بالإحسان إلى الوالدين .

وكفى دلالة على عظيم عناية الشارع بأمر الوالدين أن قرنه بعبادته وجعله

ثانيها في الوصايا ، وأكده بما أكده به في سورة الإسراء ، كما قرن شكرها بشكره في سورة لقمان في قوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَوَالِدَيْكَ » وما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » قلت ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » .

والمراد بهما احترامهما احترام المحبة والكرامة ، لا احترام الخوف والرهبية ، لأن فى ذلك مفسدة كبيرة فى تربية الأولاد فى الصغر ، وإلجاء لهم إلى العقوق فى الكبر ، وإلى ظلم الأولاد لهم كما ظلمهم آباؤهم ، وليس لهما أن يتحكما فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا سيما تزويجهم بمن يكرهون ، أو منعهم من الهجرة لطلب العلم النافع أو لكسب المال والجاه إلى نحو ذلك :

(٣) (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) أى ومما وصاكم به ربكم ألا تقتلوا أولادكم الصغار لفقريهم بكم ، فإن الله يرزقكم وإياهم أى يرزقهم تبعاً لكم ، وجاء فى سورة الإسراء : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » .

وسر اختلاف الأسلوبين وتقديم رزق الأولاد هناك على رزق الوالدين على عكس ما هنا — أن ما هناك متعلق بالفقر المتوقع فى المستقبل الذى يكون فيه الأولاد كباراً كاسبين ، وقد يصير الوالدون فى حاجة إليهم لعجزهم عن الكسب بالكبر ، ففرق فى تعليل النهى فى الآيتين بين الفقر الواقع والفقر المتوقع ، فقدم فى كل منهما ضمان رزق الكاسب ، للإيماء إلى أنه تعالى جعل كسب العباد سبباً للرزق ، لا كما يتوهم بعضهم فيزهد فى العمل بشبهة كفالاته تعالى لرزقهم .

(٤) (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) أى ولا تقربوا ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال كالزنا وقذف المحصنات سواء منه ما فعل علناً وما فعل سراً ،

وقيل الظاهر ما تعلق بأعمال الجوارح ، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب كالسكبر والحسد والتفكير في تدبير المكاييد الضارة وأنواع الشرور والآثم .

وقد روى عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بأسا بالزنا في السر ويستتبعونه في العلانية ، فحرم الله الزنا في السر والعلانية ، أى في هذه الآية وما أشبهها .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : ما ظهر منها ظلم الناس ، وما بطن منها الزنا والسرقه ، أى لأن الناس يأتونهما في الخفاء ، وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش : ما ظهر منها وما بطن » رواه البخارى ومسلم .

(٥) (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) أى ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بالإسلام أو بالعهد بين المسلمين وغيرهم كأهل الكتاب المقيمين بيننا بعهد وأمان ، وقد جاء في الحديث : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وروى الترمذى قوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفا » .

وقوله إلا بالحق إيماء إلى أن قتل النفس قد يكون حتماً جُزماً يصدر منها كما جاء في الحديث : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأمر ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » .

والمخالصة — إن قتلها بالحق هو أمر الشارع بإباحة قتلها كقتل القاتل عمداً أو قتل الزانى المحصن .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) الوصية أن يعهد إلى إنسان بعمل خير أو ترك شر ، ويقرن ذلك بوعظ يرحى تأثيره ؛ أى إنه سبحانه وصاكم بذلك ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمنفعة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، إذ هو مما تدركه العقول بأدنى تأمل .

وفي هذا تعريض بأن ما هم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها مما لا تعقل له فائدة ، ولا تظهر فيه لذوى العقول الراجحة مصلحة .

(٦) (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) أى ولا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره ، أو تعاملتم به ولو بواسطة وليه أو وصيه إلا بالفعلة التي هي أحسن في حفظ ماله وشميره ، ورجحان مصلحته ، والإنفاق منه على تربيته وتعليمه ماباه يصلح معاشه ومعاده .

والنهي عن القرب عن الشيء أبلغ من النهي عنه ، فإن الأول يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه ، وعن الشبهات التي هي مظنة التأويل ، فيتعذر عنها المتقى ، ويستسيغها الطامع فيه ، إذ يراها بالتأويل من الوجوه الحلال التي لا تضر به أو يرجح نفعها على ضررها ، كأن يأكل شيئاً من ماله حين يعمل عملاً له فيه ربح ولولاه ما ربح .

(حتى يبلغ أشده) والأشدُّ مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، ولبلوغه طرفان أدناهما الاحتلام الذي هو مبدأ سن الرشد والقوة التي يخرج بها عن كونه يتيماً أو سفياً أو ضعيفاً ونهايته سن الأربعين ، والمراد هنا الأول كما قال الشعبي ومالك وآخرون : ويكون ذلك عادة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة .

أى احفظوا مال اليتيم ولا تسمحواله بتبذير شيء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه حتى يبلغ ، فإذا بلغ فسلموه إليه ، وهذا نظير قوله : « فَإِنْ آتَسَّمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » .

والخلاصة — إن المراد النهي عن كل تعدّ على مال اليتيم وهضم لحقوقه من الأوصياء وغيرهم حتى يبلغ سن القوة بدناً وعقلاً ، إذ قد دلت التجارب على أن الحديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأى قليل الخبرة بشئون المعاش يخدع كثيراً في المعاملات .

وقد كان الناس في الجاهلية لا يحترمون إلا القوة ، ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء
ومن ثم بالغ الشارع في الوصية بالضعيفين : المرأة ، واليتيم .
والقوة التي يحفظ بها المرء ماله في هذا العصر هي ائزان الفكر ، والرشد العقلي
والأخلاقى بكثرة المران والتجارب في المعاملات ، لكثرة الفسق والحيل ووجود
أعوان السوء الذين يوسوسون إلى الوارثين ويزينون لهم الإسراف في اللذات
والشهوات على جميع ضروبها حتى لا يتركوهم إلا وهم فقراء ، وقلما يستيقظون من
غفلتهم إلا إذا بلغوا سن الكهولة التي يكمل فيها العقل ويفتهون تكاليف الحياة
ويهتمون فيها بأمر النسل .

وقد شرط الشارع الحكيم لإيتاء اليتامى أموالهم بلوغ سن الحلم وظهور الرشد
في المعاملات المالية بالاختبار كما سلف في سورة النساء من قوله : « وَأَبْتَلُوا
الْيَتَامَى » الآية .

(٧) (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) أى وأتموا الكيل إذا كلمتم للناس
أوا كلمتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذا وزتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم
فيما تبيعون ، فليكن كل ذلك وافيا تماما بالعدل ، ولا تكونوا من أولئك المطففين
الذين وصفهم الله بقوله : « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ
أَوْ وَّزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ » .

والخلاصة — إن الإيفاء يكون من الجانبين : حين البيع ، وحين الشراء ،
فيرضى المرء لغيره ما يرضاه لنفسه . وقوله : (بالقسط) يدل على تحريم العدل في الكيل
والميزان حال البيع والشراء بقدر المستطاع .

(لا تكلف نفسا إلا وسعها) أى إن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا ما يسعها فعلة ،
بأن تأتبه بلا عسر ولا حرج ، فهو لا يكلف من يبيع أو يشتري الأقوات ونحوها أن
يزنها أو يكيلها بحيث لا تزيد حبة ولا مثقالا ، بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له
أو عليه سواء بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتقد بهما عرفا .

والقاعدة الشرعية : أن التكليف إنما يكون بما فى وسع المكلف بلا حرج ولا مشقة عليه ، ولو اتبع المسلمون هذه الوصية وعملوا بها لاستقامت أمور معاملاتهم وعظمت الثقة والأمانة بينهم ، ولكن وا أسفا فسدت أمورهم وقلت ثقتهم بأنفسهم ، ووثقوا بغيرهم لاتباعهم هذه الوصية وأمثالها .

وقد قص علينا الكتاب الكريم قصص من طففوا الكيل والميزان فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر بما كان من ظلمهم ، كقوم شعيب وقد حكى الله عنهم ما قال لهم نبيهم شعيب : « وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان : « إنكم ولستم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم » .

(٨) (وإذا قلمت فاعدلوا ولو كان ذا قربى) أى وعليكم أن تعدلوا فى القول إذا قلمت قولاً فى شهادة أو حكم على أحد ، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة منكم ، إذ بالعدل تصلح شئون الأمم والأفراد ، فهو ركن ركين فى العمران ، وأساس فى الأمور الاجتماعية ، فلا يحل لمؤمن أن يجابى فيه أحداً لقرابة ولا غيرها ، فالعدل كما يكون فى الأفعال كالوزن والكيل يكون فى الأقوال .

ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ » .

(٩) (وبعهد الله أوفوا) أى وأوفوا بعهد الله ، وهذا شامل لما يأتى :

(١) ما عهده الله تعالى إلى الناس على أسنفة الرسل .

(ب) ما آتاهم من العقل والوجدان والفطر السليمة كما قال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ »

يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ » وقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ

مِنْ قَبْلُ » .

(ح) ما عاهده الناس عليه كما قال : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ »

وقال : « أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا وَعَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ » .

(س) ما عاهد الناس عليه بعضهم بعضا كما قال في وصف المؤمنين : « وَالْمُؤْمِنُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » .

فمن آمن برسول من رسله فقد عاهد الله حين الإيمان به أن يمثل أمره ونهيه ، وما شرعه للناس ووصاهم به فهو مما عاهده إليهم ، وما التزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد عليه ربه كما قال تعالى ناعيا على المنافقين سوء فعلهم : « وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ » الآية ، وكذلك من عاهد السلطان وبايعه على الطاعة في المعروف ، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع ، وجب عليه الوفاء إذا لم يكن من قبيل المعصية .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) التذكر يطلق حيننا على تكلف ذكر الشيء في القلب أو التدرج فيه بفعله المرة إثر الأخرى ، وحيننا على الاتعاظ والتدبر كما قال تعالى : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » وقال : « سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى » .

والخلاصة -- إن ذلك الذى تلوته عليكم من الأوامر والنواهي وصاكم الله به رجاء أن يذكره بعضكم لبعض في التعليم والتواصي الذى أمر الله به في مثل قوله : « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » لما فيه من مصالح ومنافع كتدارك النسيان والغفلة من كثرة الشواغل الدنيوية ، أو رجاء أن يتعظ به من سمعه وقرأه .

(١٠) (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) أى وإن هذا القرآن الذى أدعوكم إليه وأدعوكم به إلى ما يحبيكم ، هو صراطى ومنهاجى الذى أسلكه إلى مرضاة الله ونيل سعادة الدنيا والآخرة ، حال كونه مستقيما لا يضل سالكه ، ولا يهتدى تاركه ، فاتبعوه وحده ، ولا تتبعوا السبل الأخرى التى تخالفه وهى كثيرة ، فتتفرق بكم عن سبيله ، بحيث يذهب كل منهم فى سبيل ضلالة ينتهى بها إلى الهلكة ، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال .

والمخالصة — إن هذا صراطى مستقيم لا عوج فيه ، فعليكم أن تتبعوه إن كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج ، وترجعون الهدى على الضلال .

أخرج أحمد والنسائى وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : « خط رسول الله خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . وروى أحمد والترمذى والنسائى مرفوعا : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من جوف الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » .

وجعل الصراط المستقيم واحدا ، والسبل المخالفة متعددة ، لأن الحق واحد والباطل وهو ما خالفه كثير ، فيشمل الأديان الباطلة سواء أكانت وضعية أو سماوية محرقة أو منسوخة .

ونهى عن التفرق فى صراط الحق وسبيله ، لأن التفرق فى الدين الواحد وجعله

مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من خالفه ويرمون أتباعه بالجهل والضلال — سبب لإضاعته ، إذ كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها ، ولا يهمها إثبات الحق وفهم النصوص ، والحق لا يكون وقفا على عالم معين ولا على أتباعه ، بل كل باحث يخطئ ويصيب ، وذلك ما دل عليه العقل وأثبتته الكتاب والسنة والإجماع .

ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز أهل الحق — كان التفرق فيه سبب ضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم .

روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله : « ولا تتبعوا السبل » قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه ، وقد ذكرت في القرآن في سياق الأوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وعشرة وزواج ، وتفسر في كل موضع بما يناسبه .
أى ذلك الأمر باتباع صراط الحق المستقيم ، والنهي عن سبل الضلالات والأباطيل ، وصاكم ربكم به ، ليهيئكم لاتقاء كل ما يشقى ويردى في الدنيا والآخرة ، ويوصلكم إلى السعادة العظمى والحياة الصالحة .

وقال الرازي : ختمت الآية الأولى بقوله : لعلكم تعقلون ، والثانية بقوله : لعلكم تذكرون ، لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المجرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها ، فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها ، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به ، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان .
وقال أبو حيان : ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وقد أمر

سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ، ختم الآية الثالثة بالتقوى التى هى اتقاء النار ، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية .
وقد وردت أحاديث كثيرة بشأن هذه الوصايا نقلها الحفاظ الثقات فمن ذلك :
(١) ما أخرجه الترمذى وحسنه وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من سره أن ينظر الى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم — إلى قوله — تتقون) .

(٢) ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيْكُمْ يَبَايَعُنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ؟ ثُمَّ تَلَا : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ، إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ وَفَى بِهِنَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عِقَابُهُ ، وَمَنْ أَخْرَجَهُ إِلَى الْآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » .

(٣) ما أخرجه عبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر عن منذر الثورى قال : قال الربيع بن خثيم : « أَيْسُرُكَ أَنْ تَلْقَى صَحِيفَةً مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَاتَمِهِ ؟ قُلْتُ نَعَمْ ، فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ » .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بَلِقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَمُعَانِبِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى

مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحجج العقلية على أصول هذا الدين ودحض شبهات المعاندين ،
وقفى على ذلك بذكر الوصايا العشر فى الآيات الثلاث التى قبل هذه الآيات .
نبه هنا إلى مكانة القرآن من الهداية وإلى وجوب اتباعه ، وذكر أعذار
المشركين بما يعلمون أنها لا تصلح لهم عذرا عند الله ، وافتتح هذا التنبيه والتذكير
بذكر ما يشبه القرآن فى التشريع ويسير على نهجه فى الهداية ، وهو كتاب
موسى عليه السلام الذى اشتهر عند مشركى العرب وعرفوا بالسماع خبره .

الإيضاح

(ثم آتينا موسى الكتاب) فى الكلام تقدير لفظ (قل) أى قل أيها الرسول
لهؤلاء الناس : تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به وهو كذا وكذا - ثم قل
لهم وأعلمهم أننا آتينا موسى الكتاب ... إلى آخره .
وقد تكرر فى الكتاب الكريم قرنه بالتوراة لما بينهما من التشابه ، فكل
منهما شريعة كاملة ، والإنجيل والزبور ليسا كذلك ، فإن أكثر الإنجيل عظات
وأمثال ، وأكثر الزبور ثناء ومناجاة - إلى أن العرب كانوا يعلمون أن اليهود لهم
كتاب يسمى التوراة ، ولهم رسول يسمى موسى ، وأنهم أهل علم ، وكان يتمنى كثير
من عقلائهم لو أتيتهم لهم كتاب كما أتى اليهود التوراة ، وأنه لو جاءهم كتاب
لكانوا أهدى منهم ، وأعظم انتفاعا به ، لما يمتازون به من الذكاء وحصافة العقل
ورجاحة الرأى .

ولما أخبر سبحانه عن القرآن بقوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ »
 قفى بمدح التوراة ، كما جاء مثل هذا فى قوله : « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا
 وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا » وقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ
 الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » ثم قال : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
 مُبَارَكٌ » الآية .

وهذه الوصايا العشر التى فى الآيات الثلاث ، والتى لها نظير فى سورة الإسراء -
 كانت أول ما نزل بمكة قبل تفصيل أحكام العبادات والمعاملات فى السور المدنية ،
 وكذلك كانت أول ما نزل على موسى من أصول دينه ، لكن وصايا القرآن أجمع
 للمعانى فهى تبلغ العشرات إذا فصلت .

وهذه الوصايا وما أشبهها هى أصول الأديان على أسنة الرسل ، يرشد إلى ذلك
 قوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » .

وليس هذا الدين المشترك الذى أوصى به هؤلاء الرسل الكرام إلا التوحيد
 ومكارم الأخلاق والتباعد عن الفواحش والمنكرات .

(تماما على الذى أحسن) أى آتىناه الكتاب تماما للنعمة والكرامة على من
 أحسن فى اتباعه واهتدى به ، كما جاء فى قوله : « وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
 كَمَا صَبَرُوا » وقوله : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي
 جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .

وقد يكون المعنى — آتىناه الكتاب تماما كاملا جامعا لما يحتاج إليه من
 الشرائع كقوله « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » .

(وتفصيلا لكل شىء) أى مفصلا لكل شىء من أحكام الشريعة عباداتها

ومعاملاتها ، مدنية كانت أو حربية أو جنائية ، وهذا كقوله في صفة القرآن :
« وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » .

(وهدى ورحمة) أى ودليلا من دلائل الهداية إلى الحق ، وسببا من أسباب
الرحمة لمن اهتدى به ، فينجيه الله من الضلالة ، وعمى الخيرة .
(لعلهم بقاء ربهم يؤمنون) أى آتيه الكتاب جامعا لكل ما ذكر ، ليجعل
قومه محل رجاء للايمان بالله تعالى ، وموضع الفوز في دار الكرامة ، تلك الدار التي
أعدها الله لمن اهتدى بوجهه .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أى وهذا القرآن الذي تليت عليكم أوامره
ونواهيه — كتاب عظيم شأنه ، أنزلناه بوحاطة الروح الأمين ، كما أنزلنا الكتاب
على موسى ، وهو مبارك أى كثير الخير دينا ودنيا ، جامع لأسباب الهداية الدائمة ،
وقد جاء بأكثر مما في كتاب موسى من تفصيل لهدى البشر في معاشهم ومعادهم .
(فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) أى فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم
عنه ، وحذركم إياه ، لتكون رحمته مرجوة لكم في الدنيا والآخرة .

(أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم
لغافلين) الدراسة: القراءة والعلم كما جاء في قوله : « وَدَرَسُوا مَا فِيهِ » أى علموا ما فيه
ولم يأتوه بجهالة .

أى أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله ، وطريق طاعته ، وتزكية
النفوس من أدران الشرك ، لئلا تقولوا يوم الحساب والجزاء معتذرين عن شرككم
وإجرامكم : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وهما اليهود والنصارى، وقد كنا
عن تلاوتهم للكتاب الذى أنزل عليهم غافلين ، لا ندري ما هي لعدم فهمنا ما يقولون
لأنها بلسان غير لساننا ، ولأنهم أهله دوننا ، ولأننا لم نؤمر بما فيه ، ولغلبة الأمية علينا .
(أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) أى ولئلا تقولوا :
لو أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين قبلنا ، فأمرنا بما فيه ونهينا

عما نهى عنه ، وبين لنا خطأ ما نحن فيه — لكننا أهدى منهم ، لأننا أذكي منهم أفئدة ، وأمضى عزيمة ، وقد حكى الله عنهم مثل هذا في قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِحْدَىٰ مِنَ الْإِيمَانِ » أي من إحدى الأمم المجاورة لهم من أهل الكتاب .

فرد الله عليهم بجواب قاطع لكل تَعَلَّةٍ ، دافع لكل اعتذار فقال :

(فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) البينة في اللغة ما يبين الحق ، أي فقد جاءكم كتاب مبين للحق بالحجج والبراهين في العقائد والفضائل والآداب وأميات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع ، وهو هادي لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ؛ إذ يجذب ببلاغته وبيانه قلوب الناظرين فيه إلى الحق الذي فصله أتم تفصيل وإلى عمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه ، وهو رحمة عامة لمن يستضيئون بنوره ، وتنفذ فيهم شريعته ، إذ هم يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم ، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات .

(فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) صدف ، أعرض : أي وإذا كانت هذه الآيات مشتملة على الهداية الكاملة ، والرحمة الشاملة ، فلا أظلم ممن كذب بها وأعرض عنها ، أو لم يكتف بذلك ، بل صرف الناس عنها كما كان يفعل كبراء مجرمي قريش بمكة ، فقد كانوا يصدفون العرب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحولون بينه وبينهم ، لئلا يسمعوا منه القرآن فينجذبوا إلى الإيمان .

ونحو الآية قوله : « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » .

(سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) أي سنجزى الذين يصدفون الناس عن آياتنا ويردونهم عن الاهتداء بها سوء العذاب بسبب ما كانوا يجزون عليه من الصدف عنها ، إذ هم بذلك يحملون أوزارهم وأوزار من صدفوا عن الحق ، وحالوا بينهم وبين الهداية .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى زدناهم عذابا شديدا بصددهم الناس عن سبيل الله فوق العذاب على كفرهم بسبب إفسادهم فى الأرض بهذا الصدّ عن الحق .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ؟ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر ، وإزاحة للعلة ، وقرن هذا الإعذار بالإندار الشديد والوعيد بسوء العذاب .
 قفى على ذلك بيان أنه لا أمل فى إيمانهم البتة ، وفصل ما أمامهم وأمام غيرهم من الأمم وما ينتظرونه فى مستقبل أمرهم ، وأنه غير ما يتمنون من موت الرسول وانطفاء نور الإسلام بموته صلوات الله عليه .

الإيضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتيتهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك)
 ينظرون أى ينتظرون ، والمراد بالملائكة ملائكة الموت الذين يقبضون أرواحهم ، والمراد بإتيان الله إتيان ما وعده من النصر لأحبابه وأوعده به أعداءه من العذاب فى الدنيا كما جاء فى قوله : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » الآية . وإتيان أمره هو جزاؤهم على نحو ما جاء فى قوله : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ

أَمْرُ رَبِّكَ ؟ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

والخلاصة — إنهم لا ينتظرون إلا أحد أمور ثلاثة : مجيء الملائكة أو مجيء ربك على حسب ما اقترحوا بقولهم : « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » وقولهم : « أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » أو مجيء بعض آيات ربك غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا » ونحو ذلك من الآيات العظام التي علقوا بها إيمانهم .

وفي الآية إيماء إلى تماديهم في تكذيب آيات الله ، وعدم اعتدادهم بها ، وأنه لا أمل في إيمانهم البتة .

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) أى يوم يأتي بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطرارى لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل أن تؤمن حينئذ ، ولا نفسا لم تكن كسبت في إيمانها خيرا وعملا صالحا أن تفعل ذلك بعد مجيئها ، لبطان التكليف الذى يترتب عليه ثواب الأعمال ، إذ التكليف يستدعى الإرادة والاختيار بالتمسك من الإيمان والكفر وعمل الخير والشر ، وبذا يكون الثواب والعقاب .

و بعض هذه الآيات قد يطلع عليه الأفراد عند الغرغرة قبل خروج الروح ، وبعضها لا يطلعون عليه إلا قبيل يوم القيامة حين مجيء أسراط الساعة .

وقد وردت أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف الذى لا يصح وحده أن يكون حجة ، أن المراد ببعض الآيات هو طلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة التى ترج الأرض رجا وتبس الجبال بسا ، ويبطل هذا النظام الشمسى بمحدث حادث تتحول فيه حركة الأرض اليومية ، فيكون الشرق غربا والغرب شرقا ، أخرج البخارى فى تاريخه وأبو الشيخ فى العظمة وابن عساكر عن كعب الأحبار

قال : « إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب (يريد المحور) فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها » . وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا » وأخرج أحمد والترمذى عن أبى هريرة مرفوعا « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

(قل انتظروا إنا منتظرون) أى قل لهم : انتظروا أيها المعاندون وما تتوقعون إتيانه ووقوعه بنا من اختفاء أمر الإسلام . إنا منتظرون وعد ربنا لنا ووعيده لكم ، ونحو الآية قوله : « فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وفى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، وهو كقوله : « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) .

المعنى الجملى

بعد أن وصى سبحانه هذه الأمة على لسان رسوله باتباع صراطه المستقيم ، ونهى عن اتباع غيره من السبل ، ثم ذكر شريعة التوراة المشابهة لشريعة القرآن ووصاياها ، ثم تلا ذلك تذكيره لهم ولسائر المخاطبين بالقرآن بما ينتظر آخر الزمان من الحوادث الكونية للأفراد والأمم .

قفي على ذلك بتذكير هذه الأمة بما هي عرضة له على حسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء بالتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التي تجعلها أحزابا وشيعا تتعصب كل منها لمذهب أو إمام ، فيضيع الحق وتنقسم عرا الوحدة ، وتصبح بعد أخوة الإيمان أمما متعادية كما حدث لمن قبلهم من الأمم .

وقد ذهب بعض مفسرى السلف إلى أن الآية نزلت في أهل الكتاب إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ، وكل منها مذاهب تتعصب لها شيع مختلفة يتعادون ويتقاتلون فيه ، وذهب بعض آخر إلى أنها نزلت في أهل البدع والفرق الإسلامية والمذاهب التي استحدثت فزقت وحدة الأمة .

ولا مانع من الجمع بين الرأيين ، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم وأمر من استجاب لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم ، كما جاء في سورة آل عمران : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ثم بين أن رسوله برىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما فعل أهل الكتاب ، فهو يحذر من صنيعهم ، وينهى عن سلوك طريقهم ، فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق فالرسول برىء منه ، كما هو برىء من أولئك المفرقين من سالفى الأمم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد أنزل عليه (إن الذين فرقوا دينهم) الآية . وأخرج رواية التفسير بالمأثور عن أبي هريرة في قوله : (إن الذين فرقوا دينهم) الآية قال هم في هذه الأمة . وأخرج الترمذى وابن أبي حاتم والبيهقى وغيرهم عن عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع وأصحاب الأهواء

ليس لهم توبة ، أنا منهم برىء وهم منى برءاء » وليس المراد بنفى التوبة عنهم أنهم لا تقبل لهم توبة إذا ظهر لهم خطؤهم وعرفوا بدعتهم فرجعوا وتابوا إلى ربهم ، بل المراد أنهم لا يتوبون لزعمهم أنهم على الصواب ، وسواهم على الباطل .

والخلاصة — إن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أهل الكتاب ، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم ، ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة فالرسول منه برىء ، إذ ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الكفار وأفعالهم ليس خاصا بهم ، بل إذا اتصف المسلمون بمثل ما اتصفوا به كان حكمهم كحكمهم ، لأن الله لا يبيح للمسلمين البدع والضلالات والتفرق في الدين لأنهم مسلمون ، فإن ذلك يكون هدماً لأسس الدين ، وخروجاً من سنن المهتدين .

ولدى التحقيق والبحث نجد أن أسباب التفرق في هذه الأمة في دينها وتبعه ضعفها في دنياها ترجع إلى أمور :

(١) التنازع على الملك ، وقد حدث هذا من بدء الإسلام واستمر حتى وقتنا هذا
(٢) العصبية الجنسية والنصرة القومية في كل شعب وقبيل ، إذ شمخ كل شعب بأنفه وأبى أن يخضع لغيره اعتقاداً منه أنه أرقى الشعوب أرومة ، وأرفعها محتداً ، فأتى له أن ينفق لسواه ؟

(٣) عصبية المذاهب والآراء في أصول الدين وفروعه ، فأرباب المذاهب من الشيعة ذموا بقية المذاهب الأخرى كالحنفية والشافعية ، ورجال الحديث تكلموا في أهل القياس .

(٤) القول في الدين بالرأى ، فإن كثيراً من يركن إليهم في الفتيا واستنباط الأحكام الدينية ضعيف عن حمل السنة والتفقه في فهم الكتاب ، فإذا عرضت له حادثة ولم يفتن إلى مأخذها من الكتاب أو السنة أفتى فيها بالرأى ، وقد يكون

مصادما للدليل النقلى أو لفتاوى الصحابة والتابعين — إلى أن آراء الناس تختلف باختلاف الزمان والمكان وشئون المعيشة وأحوال الاجتماع ، فأنى تتفق الألوف الكثيرة من الشعوب المختلفة فى الأزمنة المتعاقبة ؟ .

(٥) دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له ووضع كثير من الأحاديث التى نفقت لدى بعض رجال الدين واتخذوها مرجعا فى استنباط بعض الأحكام ، والدين منها براء . (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء) أى إن الذين فرقوا دينهم فأفروا ببعض وكفروا ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ، إذ تفرقوا فرقا وكفر بعضهم بعضا ، وأخذوا بعضا وتركوا بعضا كما أخبر بذلك الكتاب الكريم بقوله : « أَفَتَوَّانُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » .

وقوله : لست منهم فى شيء ، أى إنك بعيد من أقوالهم ومذاهبهم ، والله يتولى جزاءهم ، كما قال : (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) أى إنه تعالى هو الذى يجازيهم على مفارقة دينهم والتفريق له بما اقتضت به سنة الله من ضعف للمتفرقين ، وفشل المتنازعين ، وتسليط الأقوياء عليهم ، وإذاقة بعضهم بأس بعض كما بين ذلك سبحانه بقوله : « وَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » أى إنه بعد أن يعذبهم بأيديهم وأيدي أعدائهم فى الدنيا يبعثهم فى الآخرة ، ثم ينبئهم عند الحساب بما كانوا يفعلون فى الدنيا من الاختلاف والتفرق اتباعا للأهواء ثم يجازيهم على ذلك أشد الجزاء فى النار وبئس القرار .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن بين في السورة أصول الإيمان ، وأقام عليها البراهين ، وفند ما يورده الكفار من الشبهات ، ثم ذكر في الوصايا العشر أصول الفضائل والآداب التي يأمر بها الإسلام وما يقابلها من الرذائل والفواحش التي ينهى عنها .
بين هنا الجزء العام في الآخرة على الحسنات وهي الإيمان والأعمال الصالحة ، وعلى السيئات وهي الكفر والفواحش ما ظهر منها وما بطن .

الإيضاح

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أى من جاء ربه يوم القيامة بالخصلة الحسنة من خصال الطاعات التي فعلها وقلبه مطمئن بالإيمان فله عنده عشر حسنات أمثالها من عطائه غير المحدود .

وهذه العشر لا يدخل فيها ما وعد به من المضاعفة لمن يشاء على بعض الأعمال كالنفقة في سبيله ، إذ قد وعد بالمضاعفة عليها دون قيد في قوله : « **إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم وَيَغْفِرْ لكم وَاللهُ شكورٌ حلِيمٌ** » ووعد بمضاعفة كثيرة في قوله : « **مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيضاعفه له أَضعافًا كثيرة** » ووعد بالمضاعفة سبعة ضعف في قوله : « **مِثْلُ الَّذِينَ ينفقُونَ أموالهم في سبيلِ اللهِ كمثلِ حبةٍ أنبتت سبع سنابلٍ في كلِّ سنبلَةٍ مائة حبةٍ ، وَاللهُ يضاعف لمن يشاء وَاللهُ واسعٌ عليمٌ** » .

وفي هذا إشارة إلى تفاوت المنفقين وغيرهم من المحسنين في الصفات النفسية كالإخلاص في النية والاحتساب عند الله والإخفاء سترًا على المعطى وتباعدًا من الشهرة ، والإيداء لحسن القدوة ، وتحجى المنافع والمصالح ، وما يقابل ذلك من صفات الرذيلة كالرياء وحب الشهرة الباطلة والمن والأذى .

وإخلاصة — إن العشرة تعطى لكل من أتى بالحسنة ، والمضاعفة فوقها تختلف على حسب مشيئته تعالى بما يعلم من أحوال المحسنين ، فمن بذل الدرهم ونفسه كثيية على فقده ، لا تكون حاله كمن يبذله طيبة به نفسه ، مسرورة بتوفيق الله على عمل الخير ونيل ثواب الآخرة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) أى ومن جاء بالخصلة السيئة وعليها طابع الكفر تكنفها الفواحش والمنكرات ، فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها على حسب سننه تعالى فى تأثير الأعمال السيئة فى إفساد النفس وتدسيئها .

(وهم لا يظلمون) الظلم النقص من الشيء كما جاء فى قوله تعالى : « كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَكَمْ تَظْلِمُ مِنْهُ شَبَابًا » أى إن كلا الفريقين فاعلى الحسنات والسيئات لا يظلم يوم الجزاء ، لامن الله ؛ لأنه منزه عن الظلم عقلا ونقلا فقد روى مسلم من حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث ، ولا من غيره إذ لا سلطان لأحد من خلقه ولا كسب فى ذلك اليوم يمكنه من الظلم كما يفعل الأقوياء الأشرار فى الدنيا بالضعفاء ، وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال : « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هوم بها فعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هوم بها فعلها كتبها الله سيئة واحدة » .

والمراد من كتابة الله لها أمره الملائكة بكتابتها كما ورد فى حديث أبى هريرة مرفوعا قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكذبوها عليه بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكذبوها له حسنة ،

وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » وفي هذا الحديث بيان للسبب في كتابة السيئة حسنة ، وأن ذلك إنما كان لمخالفة النفس بكفها عن عمل السيئة من أجل ابتغاء رضوان الله واتقاء سخطه وعذابه .

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِئِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) .

شرح المفردات

قيماً ، أي يقوم به أمر الناس في معاشهم ومعادهم ، حنيفاً أي مائلاً عن الأديان الباطلة ، والنسك العبادة ، ومحياي ومماتي لله : أي وما آتته في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كله لله رب العالمين ، الوزر لغة الحمل الثقيل ، ووزره يزره حمله يحمله ، والخلائف واحدهم خليفة ، وهو من يخلف من كان قبله في مكان أو عمل أو ملك ، والابتلاء الاختبار والامتحان .

المعنى الجملى

لما كانت هذه السورة أجمع السور لأصول الدين مع إقامة الحجج عليها ودفع الشبه عنها ، وإبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم - جاءت هذه الخاتمة أمره له صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم قولاً جامعاً لجملة ما فصل فيها - وهو أن الدين القيم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم دون ما يدعيه المشركون وأهل الكتاب المحرفون ، وأنه صلى الله عليه وسلم مستمسك به معتصم بحبله يدعو إليه قولاً وعملاً على أكمل الوجوه ، وهو أول المخلصين وأخشع الخاشعين ، وهو الذى أكمل هذا الدين بعد انحراف جميع الأمم عن صراطه .

ثم بين أن الجزاء عند الله على الأعمال ، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن المرجع إليه تعالى وحده ، وأن له سنناً فى استخلاف الأمم واختبارها بالنعم والنقم ، وأن الله وحده هو الذى يتولى عقاب المسيئين ورحمة المحسنين ، فلا ينبغى الاتكال على الوسطاء ولا الشفعاء بين الله والناس فى غفران الذنوب وقضاء الحاجات كما هى عقيدة أهل الشرك أجمعين .

الإيضاح

(قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم) أى قل أيها الرسول لقومك ولسائر البشر : إن ربى أرشدنى بما أوحاه إلىّ بفضله ، إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اشتباه ، يهذى سالكه إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الذى أدعوكم إلى طلبه منه تعالى حين تناجونه فتقولون : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » .

(ديناً قيماً) أى إن هذا الصراط المستقيم هو الدين الذى به يقوم أمر الناس فى معاشهم ومعادهم وبه يصلحون .

(ملة إبراهيم حنيفاً) أى الزموا ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً مائلاً عن جميع ما سواه من الشرك والباطل .

(وما كان من المشركين) أى إنه منزه عن الشرك وما عليه المبطلون ، وفيه تكذيب لأهل مكة القائلين إنهم على ملة إبراهيم وهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، وللإهود الذين يقولون: عزيز ابن الله ، وللنصارى الذين يقولون: عيسى ابن الله ، وهذا كقوله: « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » .

هذا الدين هو دين الإخلاص لله وحده ، وهو الدين الذى بعث به جميع رسله وقرره فى جميع كتبه ، وجعله ملة إبراهيم لأنه هو النبي الذى أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه مشركو العرب وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكانت قريش ومن لف لفيها من العرب يسمون أنفسهم الحنفاء مدعين أنهم على ملة إبراهيم وهكذا فعل أهل الكتاب حين ادعوا اتباعه واتباع موسى وعيسى عليهما السلام كما قال : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) المراد بالصلاة ما يشمل المفروض منها والمستحب ، والنسك : العبادة ، والناسك : العابد ، وكثر استعماله فى عبادة الحج ، والمراد من كون محياى ومماتى لله أنه قد وجه وجهه وحصر نيته وعزمه فى حبس حياته لطاعته ومرضاته وبذلها فى سبيله ، فيموت على ذلك كما يعيش .
والآية جامعة لكل الأعمال الصالحة التى هى غرض المؤمن الموحد من حياته وذخيرته لمماته ، ويكون فيها الإخلاص لله رب العالمين .
فينبغى للمؤمن أن يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله ، فيتحرى الخير والصالح والإصلاح فى كل عمل من أعماله ، ويطلب الكمال فى ذلك لنفسه رجاء أن يموت ميتة ترضى ربه ، ولا يحرص على الحياة لذاتها ، فلا يهرب الموت ، فيمتنع عن الجهاد فى سبيل الله ، كما أن عليه أن يقيم ميزان العدل فيأخذ على أيدى أهل الجور ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وأفرد الصلاة بالذكر مع دخولها في النسك ، لأن روحها وهو الدعاء وتعظيم المعبود وتوجه القلب إليه والخوف منه ، مما يقع فيه الشرك ممن يغفلون في تعظيم الصالحين وما يذكر بهم كقبورهم وصورهم وتمائيلهم .

والخلاصة — إنه لا ينبغي أن تكون العبادة لإلا الله رب العباد وخالقهم ، فمن توجه إليه وإلى غيره من عباده المكرمين أو إلى غيرهم مما يستعظم من خلقه كان مشركا ، فالله لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .
(لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) أى لا شريك له في ربوبيته فيستحق أن يشركه في العبادة ويتوجه إليه معه للتأثير في عبادته ، وبذلك أمرني ربي ، وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امثال ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

وفي هذا بيان إجمالى لتوحيد الألوهية بالعمل بعد بيان أصل التوحيد في العقيدة ثم انتقل إلى برهانه الأعلى ، وهو توحيد الربوبية بما أمره به فقال :

(قل أغير الله أبغى ربًا وهو رب كل شيء) أى أغير الله الذى خلق الخلق وربهم — أطلب ربا آخر أشركه في عبادتى له بدعائه والتوجه إليه ، لينفعنى أو يمنع الضر عنى أو ليقربنى إليه زلفى ، وهو تعالى رب كل شيء مما عبد وما لم يعبد ، فهو الذى خلق الملائكة والمسيح والشمس والقمر والكواكب والأصنام كما قال :
« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

وإذا كان الله هو الخالق والمدبر فكيف أسفه نفسى وأكفر بربى بجعل الخلق الربوب مثلى ربألى ، وجميع المشركين يعترفون بأن معبوداتهم مخلوقة لله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين .

(ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تكسب كل نفس إنما إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب كما قال : « لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » أى دون ما كسب أو اكتسب غيرها .

والخلاصة — إن الدين أرشدنا أن نجري على ما أودعته الفطرة في النفوس من أن سعادة الناس وشقاهم في الدنيا بأعمالهم ، والعمل يؤثر في النفس التأثير الذي يزيكها إن كان صالحا ، أو التأثير الذي يفسدها إن كان سيئا والجزاء مبني على هذا التأثير ، فلا ينتفع أحد ولا يتضرر بعمل غيره .

ومن كان قدوة سالحة في عمل أو معلما له فإنه ينتفع بعمل من أرشدهم بقوله أو فعله زيادة على انتفاعه بأصل ذلك القول أو الفعل ، ومن كان قدوة سيئة في عمل أو دالا عليه ومغريا به ، فإن عليه مثل إثم من فعله ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا بقوله : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم .

وهذه قاعدة من أصول كل دين بعث الله به رسلا كما جاء في سورة النجم :
« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح في المجتمع البشري ، وهادمة لأسس الوثنية ، وهادية للناس جميعا إلى ما تتوقف عليه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فإن العمل وحده هو وسيلة الفوز وطريق النجاة ، لا كما يزعم الوثنيون من طلب رفع الضر وجلب النفع بقوة من وراء الغيب ، وهي وساطة بعض المخلوقات الممتازة ببعض الخواص والمزايا بين الناس وربهم ، ليعطيهم ما يطلبون في الدنيا بلا كسب ولا سعي من طريق الأسباب التي جرت بها سنته في خلقه ، وليحملوا عنهم أوزارهم حتى لا يعاقبوا بها ، أو ليحملوا الخالق على رفعها عنهم وترك عقابهم عليها ، وعلى إعطائهم نعيم الآخرة وإنقاذهم من عذابها .

ومما ينتفع به المرء من عمل غيره — لأنه في الحقيقة كأنه عمله إذ كان سببا فيه —

دعاء أولاده ، وحجهم وتصدقهم عنه ، وقضاؤهم لصومه كما ورد في الحديث :

« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو وند صالح يدعو له » رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة .
 ذلك أن الله قد ألحق ذرية المؤمنين بهم بنص الكتاب ، وصح في السنة أن
 ولد الرجل من كسبه :

ومن هذا تعلم أن ما جرت به العادة من قراءة القرآن والأذكار وإهداء ثوابها
 إلى الأموات واستئجار القراء وحبس الأوقاف على ذلك — بدعة غير مشروعة ،
 وكذا إسقاط الصلاة ، إذ لو كان لذلك أصل في الدين لما جهله السلف ، ولو علموه
 لما أهملوا العمل به .

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أي ثم إن رجوعكم
 في الحياة الآخرة إلى ربكم دون غيره مما عبدتم من دونه ، فينبئكم بما كنتم تختلفون
 فيه من أمر أديانكم المختلفة ، ويتولى جزاءكم عليه وحده على حسب علمه وإرادته
 القديمين ، ويضل عنكم ما كنتم تزعمون من دونه .

ونحو الآية قوله : « إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخْبِمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ
 تَخْتَلِفُونَ » .

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات
 ليلوكم فيما آتاكم) أي إن ربكم الذي هو رب كل شيء هو الذي جعلكم خلائف
 هذه الأرض بعد أمم قد سبقت ، وفي سيرها عبر وعظات لمن ادّكر وتدبر ، وكذلك
 هو قد رفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم
 والجهل ، ليختبركم فيما أعطاكم أي ليعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك ، ويبني
 الجزاء على العمل ، إذ قد جرت سنته في أن سعادة الناس أفرادا وجماعات في الدنيا
 والآخرة أو شقاءهم فيهما تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم .

وجاء في معنى الآية قوله : « وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »

وقوله : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »
وقوله : « وَلِنَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » .

(إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) أى إنه تعالى سريع العقاب لمن كفر به أو كفر بنبيّه وخالف شرعه وتكذب عن سنته ، وهذا العقاب السريع شامل لما يكون فى الدنيا من الضرر فى النفس أو العقل أو العرض أو المال أو غير ذلك من الشئون الاجتماعية ، وهذا مطرد فى الدنيا فى ذنوب الأمم ، وأكثرى فى ذنوب الأفراد ، ومطرد فى الآخرة بتدسية النفس وتدنيها .

وهو سبحانه على سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين ، غفور للتوابع رحيم بالمؤمنين المحسنين ، إذ سبقت رحمته غضبه ، ووسعت كل شيء ، ومن ثم جعل جزاء الحسنه عشر أمثالها ، وقد يضاعفها بعد ذلك أضعافا كثيرة لمن يشاء ، كما جعل جزاء السيئة سيئة مثلها ، وقد يغفرها لمن تاب منها كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

نسأله تعالى أن يغفر لنا خطيئاتنا ويستر زلاتنا بمنه وكرمه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة ما اشتملت عليه "سورة من العقائد والأحكام

(١) العقائد وأدلتها بالأسلوب الجامع بين الإقناع والتأثير كبيان صفات الله بذكر أفعاله وسننه فى الخلق وآياته فى الأنفس والآفاق ، وتأثير العقائد فى الأعمال ، مع إيراد الحقائق بطريق المناظرة والجدل ، أو ورودها جوابا بعد سؤال ، وفى أثناء ذلك يرد شبهات المشركين ويهدم هياكل الشرك ويقوض أركانه .

(٢) الرسالة والوحى وتفنيده شبهات المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم وإلزامهم الحجة بآية الله الكبرى ، وهى القرآن المشتمل على الأدلة العقلية والبراهين

العلمية ، وقد كان كثير من الكفار مشركين وغير مشركين يكفرون بالرسول ويستبعدون إنزال الوحي عليهم .

(٣) البعث والجزاء والوعد والوعيد بذكر ما يقع يوم القيامة من العذاب للمجرمين ، والبشارة للمتقين بالفوز والنعيم ، مع ذكر عالم الغيب من الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار ، وقد كانت العرب كغيرها من الأمم تؤمن بالملائكة وبوجود الجن ويعتقدون بأنهم يظهرون لهم أحيانا بصورة الغيلان ويسمعون أصواتهم وعزفهم ، وأنهم يلقون الشعر في هواجس الشعراء .

(٤) أصول الدين ووصاياه الجامعة في الفضائل والآداب والنهي عن الرذائل ، وإذا نحن فصلنا القول فيها نرجعها إلى الأصول الآتية :

(أ) إن دين الله واحد ، فتفرقه بالمذاهب والأهواء وجعل أهله فرقا وشيعا خروج عن هدى الرسول الذي جاء به وموجب لبراءته من فاعليه .

(ب) إن سعادة الناس وشقاوتهم منوطتان بأعمالهم النفسية والبدنية ، وأن الجزاء على الأعمال يكون على حسب تأثيرها في الأنفس ، وأن الجزاء على السيئة بمثلها ، وعلى الحسنه بعشر أمثالها فضلا من الله ونعمة ، وجزاء السيئات على الإنسان وحده ، وجزاء الحسنات له وحده ، فلا يحمل أحد وزر غيره .

(ج) إن الناس عاملون بالإرادة والاختيار ، ولكنهم خاضعون للسنن والأقدار ، فلا جبر ولا اضطرار ، ولا تعارض بين عملهم باختيارهم ومشية الخالق سبحانه ، إذ المراد من خلقه الأشياء بقدر وتقدير أنه تعالى خلقها على وجه جعل فيه المسببات على قدر الأسباب بناء على علم وحكمة ، فهو لم يخلق شيئا جزافا بغير تقدير ولا نظام يجري عليه .

(د) إن لله سننا في حياة الأمم وموتها ، وسعادتها وشقتها ، وإهلاكها بمعاندة الرسل والظلم والفساد في الأرض ، وتربيتها بالنعمة تارة والنعم أخرى .

- (هـ) إن التحليل والتحريم وسائر الشعائر التعبدية من حق الله تعالى ، فمن وضع حكماً لا يستند إلى شرع الله فقد افترى إثماً عظيماً .
- (و) الأمر بالسير في الأرض ، وقد تكرر ذلك في الكتاب الكريم للنظر في أحوال الأمم وعواقب الأقوام التي كذبت الرسل .
- (ز) الترغيب في معرفة ما في الكون والإرشاد إلى معرفة سنن الله فيه ، وآياته الكثيرة الدالة على علمه وقدرته .
- (ح) إن التوبة الصحيحة مع ما يلزمها من العمل الصالح موجبة لمغفرة الذنوب .
- (ط) ابتلاء الناس بعضهم ببعض ، ليتنافسوا في العلوم والأعمال النافعة ، وإعلاء كلمة الحق والدين ورفعة شأنه وإعزاز أهله .

سورة الأعراف

عدد آياتها خمس ومائتان ، وهي مكية ، وقد روى أنها نزلت قبل سورة الأنعام ، وأنها نزلت مثلها دفعة واحدة ، لكن سورة الأنعام أجمع لما اشتركت فيه السورتان ، وهو : أصول العقائد وكليات الدين التي قدمنا القول فيها ، وهي كالشرح والبيان لما أوجز في الأنعام ، ولا سيما عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وقصص الرسل قبله وأحوال أقوامهم ، وقد اشتملت سورة الأنعام على بيان الخلق كما قال : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » وبيان القرون كما قال : « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » وعلى ذكر المرسلين وتعداد الكثير منهم ، وجاءت هذه مفصلة لذلك ، فبسطت فيها قصة آدم ، وفصلت قصص المرسلين وأممهم وكيفية هلاكهم أكل تفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ،
لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) .

شرح المفردات

(الْمَصَّ) هذه حروف تكتب بصورة كلمة من ذوات الأربعة الأحرف ،
لكننا نقرؤها بأسماء هذه الأحرف فنقول : ألف . لام . ميم . صاد .
وحكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء الحروف التي ليس لها معنى مفهوم
غير مسماها الذي تدل عليه — تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من
الكلام حتى لا يفوته منه شيء ، فكانت أداة استفتاح بمنزلة الأواها التنبيه .

وبالاستقراء نرى أن السور التي بدئت بها وبذكر الكتاب ، هي التي نزلت بمكة لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحي ، وما نزل منها بالمدينة كالزهاوين البقرة وآل عمران فالدعوة فيه موجهة إلى أهل الكتاب ، وهكذا الحال في السور: مريم والعنكبوت والروم وصّ ونّ ، فإن ما فيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة في الدين بإيذاء الضعفاء لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة ، والإنباء بقصص فارس والروم ونصر الله للمؤمنين على المشركين ، وكان هذا من أظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور ، والأسماء المترجمة لا تعلق ، كما يرى آخرون أن الحكمة في ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من هذه الأحرف المفردة التي يتألف منها الكلام العربي ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، ليؤديهم النظر إلى أنه ليس من كلام البشر ، بل من كلام خالق القوى والقدر ؛ والخرج : الضيق ، من عاقبة المخالفة ، والذكري : التذكير النافع والموعظة المؤثرة ، وولاية الله لعباده : تولى أمورهم فيما لا يصل إليه كسبهم من هدايتهم ونصرهم على أعدائهم ، وشرعه لهم عبادته وبيان الحرام والحلال ، و (ما) في قوله قليلا ما - حرف يؤكد معنى القلة ، وتذكرون : أصله تتذكرون حذف منه إحدى التاءين .

الإيضاح

(كتاب أنزل إليك) أى هذا القرآن كتاب أنزل إليك من عند ربك ، ووصفه بالإنزال من عند الله - دال على عظيم قدره وقدر من أنزل إليه .
(فلا يكن في صدرك حرج منه) أى لا يضق صدرك من الإنذار به وإبلاغه من أمرت بإبلاغه إليهم ، واصبر لأمرى فيما حملتك من عبء النبوة كما صبر أولو العزم من الرسل فإن الله معك .

فقد كلف صلى الله عليه وسلم هداية الثقلين وكان من المتوقع أن يلقي أشد الإيذاء

والمقاومة والطعن والإعراض، وتلك أمور توجب ضيق الصدر كما قال في سورة الحجر: « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ » وقال في سورة النحل: « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » وقال في سورة هود: « فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ويراد بالنهي عن مثل هذا الأمر الطبيعي — الاجتهاد في مقاومته والتسلي عنه بوعده الله ، والتأسي بمن سبقه من الرسل أولى العزم صلوات الله عليهم أجمعين .
(لتتذرب به وذكرى للمؤمنين) والمراد بالمؤمنين هنا من كتب الله لهم الإيمان ، سواء أكانوا مؤمنين حين نزول هذه السورة أم لا .

والمخالصة — إنه أنزل إليك الكتاب لتتذرب به قومك وسائر الناس ، وتذكر به أهل الإيمان ذكرى نافعة مؤثرة .

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى قل لهم أيها الرسول : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم وخالفكم ومدبر أموركم ، فهو وحده الذى له الحق فى شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم ، وتحليل ما ينفعم وتحرير ما يضرهم ، إذ هو العليم بما فيه الفائدة أو الضرر لكم .

(ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى ولا تتخذوا من أنفسكم ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم — أولياء تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يرومون منكم من ضلال التقاليد والابتداع فى الدين ، فيضعوا لكم أحكام الحرام والحلال زاعمين أنهم أعلم منكم ، فيجب عليكم تقليدهم ، ولا أولياء ينجونكم من الجزاء على ذنوبكم وجلب النفع لكم أو رفع الضر عنكم ، زاعمين أنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، أو يشفعون لكم عنده فى الآخرة .

والخلاصة — إن الله وحده هو الذى يتولى أمر العباد بالتدبير والخلق والتشريع ،
وله وحده الخلق والأمر وبيده النفع والضرر .

(قليلا ما تذكرون) أى إنكم تتذكرون قليلا لا كثيرا ما يجب أن يعلم للرب
سبحانه ، وما يحظر أن يشرك معه فيه غيره ، وقد يكون المراد — قليلا ما تتعظون
بما توعظون به ، فترجعون عن تقاليدكم وأهوائكم إلى ما أنزل إليكم من ربكم .

وفى هذا إيماء إلى النهى عن طاعة الخلق فى أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه
كما فعل أهل الكتاب فى طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي
من العبادات ، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء فى قوله : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » فكل من أطاع أحدا فى حكم شرعى لم ينزله الله
فقد اتخذه ربا .

واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من بيان الدين — داخل
فى عموم ما أنزل إلينا على رسوله ، لأنه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته وأخبرنا أنه مبين
لما نزل إليه كما قال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .
وقد صح فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من
دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنا أنا بشر » رواه مسلم عن رافع بن
خديج فى مسألة تأبير النخل (تلقيح النخلة بطلع الذكر) .

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)
فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) .

شرح المفردات

(كم) اسم يفيد التكثير ، والقريّة : تطلق على الموضع الذى يجتمع فيه الناس
وعلى الناس معا ، وتطلق على كل منهما كما جاء فى قوله : « وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ » أى

أهل القرية ، والقرية هنا تصلح لأن يراد بها القوم أنفسهم ، وأن يراد بها المكان ، لأنه يهلك كما يهلك أهله ، والبيات : الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة ، والبأس : العذاب ، والقائلون : هم الذين ينامون استراحة وسط النهار أى حين القائلة يقال : قال يقيل قيلا وقيلولة ، والدعوى ما يدعيه الإنسان ، وتطلق على القول أيضا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل الكتاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويكون موعظة وذكري لأهل الإيمان ، وأنه طلب إليه أن يأمر الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم وألا يتبعوا من دونه أحدا يتولونه في أمر التشريع أردف هذا بالتخويف من عاقبة المخالفة لذلك ولما يتبعه من أصول الدين وفروعه ، والتذكير بما حل بالأمة قبلهم بسبب إعراضهم عن الدين وإصرارهم على أباطيل أوليائهم .

الإيضاح

(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) أى وكثير من القرى أهلكناها لعصيانها رسلها فيما جاءوها به من عند ربها ، وكان هلاكها إما حين البيات ليلا كقوم لوط ، وإما حين القائلة وهم آمنون نهارا كقوم شعيب ، وكلا الوقتين وقت دعة واستراحة لم تكن تنتظر فيه كل منهما هلاكا ولا عذابا ، فلا يجمل بالعاقل أن يأمن غدر الليالى ولا خدع الأيام ولا يفتر بالرخاء فيعده علامة على أنه مستحق له فيوم مظنة الدوام .

وفى ذلك تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزهم وعصبيتهم ، وأن ذلك من دلائل رضا الله عنهم كما قال تعالى بحكاية عنهم : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

(فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم العذاب إلا أن اعترفوا بظلمهم فيما كانوا عليه ، وشهدوا ببطلانه ، تحسرا وندامة وطمعا فى الخلاص ، ولكن أنى ينفع الندم ، وقد أذفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ؟ .

وفى الآية من العبرة — أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنب فعله فى الدنيا ، يعترف بجرمه ويندم على ما فرط منه إذا هو علم أنه سبب العقاب ، وقلما يشعر المرء بعقاب فى الدنيا على الذنوب ، لأنه يأتى على التراخى غالبا فالأمراض التى تتولد من شرب الخمر كأمراض القلب والكبد والجهاز التناسلى وضعف النسل واستعداده للأمراض إلى نحو ذلك من الأمراض الجسدية والعقلية تحصل ببطء ، وقلما يعرفها غير الأطباء ؛ ومن ثم لا يشعر بها السكارى وإنما يشعرون بما يعقب الشرب من صداع وغثيان يسهل عليهم احتمالها وترجيح لذة النشوة عليه .

إلى أنه لو علمها بعدُ فقلما يفيد علمه بها شيئا بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة فى السكور حتى تحمله على التوبة، إذ داء الخمار يزمن . وحب السكر يضعف الإرادة . وعقاب الأفراد على الذنوب فى الدنيا لا يطرد ، كما يطرد فى الأمم ، فعقابها فى الدنيا على ما تجترح — حتم لا شبهة فيه ، ولكن له آجال ومواقيت أطول مما يكون فى الأفراد ، ويختلف باختلاف أحوال الأمة فى القوة والضعف ، فامة نشأ فيها الظلم والظغيان وعدمت الثقة بين أفرادها واختل نظام الأمن فيها وكثر فيها الفسق والفجور — تسوء حالها وتنحل قواها وتفكك روابط الألفة والمودة بين أفرادها وتضعف منعتها ، فتحسب أهلها جميعا وقلوبهم شتى ، ولا يزال أمرها يأخذ فى التدهور والفساد حتى يستولى عليها العدو القاهر ويمتنص ثروتها ويجعل أهلها أذلة مستضعفين ، وقلما تشعر أمة بما قبلها قبل وقوع العقوبة ، كما لا يجديها نفعاً أن يقول حكماؤها : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . وربما عمها الجهل ، ووران على قلوبها الفساد فلا تشعر بأن ما حل بها إنما كان جزاء وفاقا ، ونكالا من الله على ما قدمت

من عمل ، واقترفت من إثم ، ففرضى باستذلال الغاصب كما رضيت من قبل بما اجترحت من الآثام والذنوب ، وقد يكون ذلك سبيلا لانقراضها بما يعقبه الفسق والفجور من قلة النسل ، ولا سيما إذا فشا الزنا والسكر ، أو تبقى فيها بقية تدغم فى الكثرة الغالبة ، فلا تعد أمة على سبيل الاستقلال ، وربما نالت عليها المصائب والآثام حتى تضيق بها ذرعا فتطلب لها مخرجا وترجع إلى الوراء لتبحث عن أسبابها فلا تجدها إلا فى أنفسها كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » .

وإذا أرادت لها علاجا وتمنت لها دواء من دائها الدوى وتلفتت بمنة ويسرة سرا وعلائية لم تجده إلا ما وصفه الكتاب الكريم : « إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ولن يكون ذلك إلا بالإقلاع عما ترتكب من الجرائم والتوبة الصادقة والعمل الطيب الذى به تصلح القلوب وتستقيم الأمور ، وهما كم ما قاله العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم حين توسل به عمر والصحابة بتقديمه لصلاة الاستسقاء لما انقطع الغيث وعم الجذب : اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة .

وفى هذا عبرة أيما عبرة للشعوب الإسلامية التى ثلت عروشها ، وخوت صروح عظمتها ، وقد كانت أجدر بهدى القرآن ، ولكن أنى لها بذلك ، وقد هجره الخاصة وتبعهم العامة ، إذ جهلوا أحكامه وحكمه ، حتى لقد بلغ الأمر بنابتنا ، ألا ترى سببا لركود ريحها إلا اتباع القرآن والعمل بهذا الدين : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

فَلَمَسْأَلِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلِنَ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظَاهِمُونَ (٩).

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه الرسل في الآية السالفة بالتبليغ وأمر الأمم بالقبول والمتابعة، وذكرهم بعذاب الأمم التي عاندت الرسل في الدنيا — قفى على ذلك بذكر العذاب الآجل يوم القيامة، وأنه في ذلك اليوم يسأل كل إنسان عن عمله .

الإيضاح

(فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين) الذين أرسل إليهم : هم جميع الأمم الذين بلغتهم دعوة الرسل ، فيسأل تعالى كل فرد منهم في الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته ، ويسأل المرسلين عن تبليغهم وإجابة أقوامهم لهم وعماعملوا من إيمان وكفر ، وقد فصل هذا الإجمال في آيات أخرى كقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ » وقوله : « وَهُمْ يَنكُرِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ » وقوله في سورة الحجر : « فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قال ابن عباس : نسال الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسال المرسلين عما بلغوه ، والمواعظ بالسؤال حينئذ تفرغ الكفار وتوايخهم .

ولا مخالفة بين هذه الآية التي تثبت السؤال العام وبين قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » لأن يوم القيامة مواقف متعددة ، والسؤال والجواب والاعتذار يكون في بعضها

دون بعض .

وقال الرازي : إنهم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب قد أحصتها ، لكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها . يريد أنهم يسألون عن الموانع التي حالت بينهم وبين عمل ما طلب منهم عمله ، أو فعل ما طلب إليهم تركه .

(فلنقصن عليهم بعلم) القص تتبع الأثر إما بالعمل كما في قوله حكاية عن أم موسى « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » وإما بالقول كما في قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » .

أى فانقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم كل ما وقع من الفريقين قصصا بعلم منا محيط بكل ما كان منهم ، فلا يعزب عنا مثقال ذرة ، وقد روى عن ابن عباس أنه يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

(وما كنا غائبين) عنهم في وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال ، بل كنا معهم نسمع ما يقولون ونبصر ما يعملون ، ونحيط علما بما يسرون وما يعلنون ، كما قال تعالى : « وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

وفي هذا إيماء إلى أن السؤال لم يكن للاستعلام والاستبانة لشيء مجهول عنه تعالى ، بل للإعلام والإخبار بما حدث منهم توبيخا لهم وتأنيبا على إهمالهم .

وهذا القصص هو الذي يكون به الحساب ويتلوه الجزاء ، وقد دل عليه الكتاب الكريم في مواضع عدة ، ودلت عليه السنة ؛ فمن ذلك ما رواه ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع يسأل عن الناس ، والرجل راع يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » وما رواه المقدم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة ، بين يديه راية

يحملها وهم يتبعونه ، فيسأل عنهم ويسألون عنه « وما رواه الترمذى عن أبي بَرزَةَ
الأسلمى مرفوعاً : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم
عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه ؟ » وروى
الحاكم وابن ماجه حديث شدّاد بن أوس مرفوعاً : « الكيس من دان - حاسب -
نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

(والوزن يومئذ الحق) الوزن عمل يراد به تعرف مقدار الشيء بالميزان
والقسطاس ، وقد يطلق كل من الميزان والقسطاس على العدل كقوله : « هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالمِيزَانَ » وقوله في الرسل : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

أى والوزن فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والأئم ، ويقص عليهم كل
ما كان منهم - هو الحق أى الذى تعرف به حقائق الأمور وما يستحقه كل أحد من
ثواب وعقاب .

(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى فمن رجحت موازين أعماله
بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والحائزون للنعيم
فى دار الثواب .

(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى
ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة ما اجترح من السيئات ، فأولئك الذين
خسروا أنفسهم ، إذ حرموها السعادة التى كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها
بالكفر والمعاصى وإصرارهم على ذلك إلى نهاية أعمارهم .

والخلاصة - إن المؤمنين على تفاوت درجاتهم فى الأعمال هم المفلحون ، فمن
مات مؤمناً فهو مفلح وإن عذب على بعض ذنوبه بمقدارها ، وإن الكافرين على
تفاوت درجاتهم هم فى خسران عظيم .

وهناك فريق ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أصحاب الأعراف وسيأتي
ذكرهم بعد .

وقد اختلف العلماء فى الوزن والموازن ، هل المراد بها ظهور العدل التام فى تقدير الجزاء على الأعمال التى تصلح الأنفس وتزكياها أو تفسدها وتدسيها ؛ بذلك قال مجاهد والضحاك والأعمش ، أو أن هناك وزنا حقيقيا حكمته إظهار علم الله تعالى بأعمال عباده وعدله فى جزائهم عليها ، وبهذا قال الجمهور ، قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال .

وقال القرطبي : التى توزن هى الصحائف التى تكتب فيها الأعمال .
والحق أن التى توزن هى الأعمال ، فقد أخرج أبو داود والترمذى عن جابر مرفوعا : « توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار ، قيل ومن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف » .
والذى عليه المعول فى الإيمان بعالم الغيب : أن كل ما ثبت من أخباره فى الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه ، فنؤمن به ولا نحكم رأينا فى كفيته ، فنؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال يميزان يلبق بعالم الآخرة توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق ، ولا نبحت عن صورته وكفيته .

وإذا كان العلم الحديث كشف موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شىء عن وضع موازين للأعمال النفسية والبدنية التى سماها الدين الحسنات والسيئات ، بما تحدثه فى الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها ؟

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ (١٠) .

شرح المفردات

مكنناكم في الأرض، أى جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوءونها وتمكنون من الإقامة
بها، والمعاش واحدها معيشة: وهى ما تكون به العيشة والحياة الجسمانية الحيوانية من
المطاعم والمشارب وغيرها، وهى ضربان :

(١) ما يحصل بخلق الله ابتداء كالثمار وغيرها .

(٢) ما يحدث بالاكتساب .

وكلاهما إنما يحصل بفضل الله وإقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاما من
الله ، وذلك مما يوجب طاعته .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أن واضع الدين هو الله فيجب أتباعه دون ما يأمر به غيره
من الأولياء والشفعاء ، وقفى على ذلك بذكر عذاب الدنيا بقوله : وكم من قرية
أهلكناها ، وذكر عذاب الآخرة بقوله : فلنسالن الذين أرسل إليهم ، وبقوله :
والوزن يومئذ الحق .

أردف ذلك بذكر نعمة على عباده بتمكينهم فى الأرض وخلق أنواع المعاش
فيها ، مع بيان أن كثرة النعم توجب عليهم الطاعة .

الإيضاح

(ولقد مكنناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش) أى ولقد جعلنا لكم
فيها أوطانا تتبوءونها وتستقرون فيها ، وجعلنا لكم فيها معاش تعيشون بها أيام حياتكم
من مطاعم ومشارب ، نعمة منى عليكم ، وإحسانا منى إليكم ، وأنشأنا لكم فيها
ضروبا شتى من المنافع التى تعيشون بها عيشة راضية : من نبات وأنعام وطيور وسمك
ومياه عذبة وأشربة مختلفة الطعوم والروائح ، ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال من

جهة إلى أخرى تتقدم بتقدم العلم والاختراع من طائرات وسيارات وقطر برية وسفن بحرية ، وسبل متعددة لمداواة المرضى بالمقاوير المختلفة على يد نطس الأطباء إلى نحو ذلك .

وكل ذلك يقتضى منكم الشكر الكثير ، ولكن الشكر من العباد قليل كما قال :
 « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » ومن ثم عقب هذا بقوله :
 (قليلا ما تشكرون) أى وأتم قليلو الشكر على هذه النعم التى أنعمت بها عليكم ، لا كثيره كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها ، فقد عبدتم سواى واتخذتم الأولياء والشفعاء من دونى .

وشكر النعمة يكون بمعرفة المنعم بها ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل ، ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه ، وتحقيق الأغراض التى أسداها لأجلها .
 فهذه النعم المعيشية ما خلقت إلا لحفظ الحياة الجسمانية للأفراد والجماعات ، والاستعانة بذلك على حفظ الحياة الروحية التى بها تزكو الأنفس ، وتستعد للحياة الأخرى الأبدية التى فيها النعيم المقيم والسعادة المستقرة إلى غير نهاية .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْخُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) .

شرح المفردات

الخلق: التقدير، يقال خلق الخياط الثوب: أى قدره قبل قطعه ، وخلق الله الخلق:
أوجدهم على تقدير أوجبه الحكمة ، والهبوط: الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه
أو من منزلة إلى ما دونها ، فهو إما حسى وإما معنوى، والتكبر: جعل الإنسان نفسه
أكبر مما هي عليه ، والصغار الذلة والهوان ، وأنظره: أخره ، والإغواء الإيقاع فى الغواية:
وهى ضد الرشاد ، وذأم الشيء : عابه ، ودحر الجند العدو ، طرده وأبعده .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عباده فى الآية السابقة بنعمه عليهم بالتمكين فى الأرض
وخلق أنواع المعاش فيها — قفى على ذلك ببيان خلق النوع الإنسانى مستعدا للكمال
وأنة قد تعرض له وسوسة من الشيطان تحول بينه وبين هذا الكمال الذى يبتغيه .

الإيضاح

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) الخطاب لبنى آدم أى ولقد خلقنا مادة هذا
النوع من الصلصال والحما المنون أى من الماء والطين اللازب ، فمنه خلق الإنسان
الأول ، ثم جعلنا من تلك المادة صورة بشر سوى قابل للحياة .
وقد يكون المعنى — إنا قدرنا إيجادكم تقديرا ثم صورنا مادتم تصويرا ، وذلك
شامل لخلق آدم وخلق مجموع الناس ، إذ أن كل فرد يقدر الله خلقه ثم يصور المادة
التي يخلقها منها فى بطن أمه .

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أى و بعد أن سويناه ونفخنا فيه من روحنا

وصار مستعدا لأن يكون خليفة في الأرض ، وعلمناه الأسماء كلها ، قلنا لجماعة الملائكة اسجدوا لآدم .

(فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) أى فسجد الملائكة جميعا إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ، وهو من الجن لا منهم .

وهذا السجود سجود تكريم وتعظيم من الله لآدم لا سجود عبادة ، فقد قامت الدلائل القاطعة على أنه لا معبود إلا الله وحده .

(قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) لا هنا مزيدة للتأكيد بدليل قوله في آية

أخرى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ » أى قال له تعالى : ما منعك من امتثال أمرى ، فرفضت أن تسجد لآدم مع الساجدين .

وقد تكون (لا) غير زائدة والمنع بمعنى الحمل والاضطرار، وعليه فالمعنى - ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد .

وخلاصة ذلك - أى شيء عرض لك فحملك على ألا تكون مع الملائكة فى امتثال أمرى بالسجود ؟ .

ثم ذكر سببا يبرر به امتناعه عن السجود .

(قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) أى إن الذى حملنى على ذلك أنى خير منه ؛ إذ أنك خلقتنى من النار وخلقته من الطين ، والنار خير من الطين وأشرف ، والشريف لا يعظم من دونه ولو أمره بذلك ربه .

ولا شك أن فى هذا ضروبا من الجهالة وأنواعا من الفسوق والعصيان تتجلى لك

فيا بلى :

(أ) اعتراضه على مولاه وخالقه بما تضمنه جوابه .

(ب) احتجاجه عليه بما يؤيد به اعتراضه ، والمؤمن المذعن لأمر ربه يعلم أن

الله الحجة البالغة والحكمة الكاملة فيما يفعل ويأمر وينهى .

(ح) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه له . وموافقته لهواه ، وهذا

رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية ، والرءوس في الدنيا إذا لم يطع أمر الرئيس إلا فيما يوافق هواه ، صار الأمر فوضى والعاقبة وخيمة فلا يصلح عمل ولا يتم الفوز والنجاح .

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن جعفر الصادق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال الله تعالى له اسجد لآدم قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » قال جعفر : فن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس .

(د) استدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء ولا تثبت بالبرهان ، إلى أن كثيرا من المواد النفسية خسيصة الأصل ، ألا ترى أن أصل المسك الدم ، والملس من (الكربون) الذي هو أصل الفحم ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(هـ) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية التي في هذه الأرض إماما من الطين مباشرة أو بالواسطة وهي خير ما فيها ، وليس للنار شيء من هذه المزايا ولا ما يقرب منها .
(ز) إنه قد جهل ما خص به آدم من استمداده العلمي والعملية أكثر من سواه ، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، فكان بذلك أفضل منهم ، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلق وبالطاعة لربهم .
وكل ما قدمنا مبنى على أن الأمر بالسجود أمر تكليف ، وأنه قد وقع حوار بين الله وإبليس .

ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وعم المدبرون لأموال الأرض بإذن ربهم — مسخرين لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها بعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فالانتفاع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ،

وبذلك ظهرت حكمة الله تعالى وآياته فيها ، كما اصطفى بعض أفرادهم وخصهم بوحية ورسالته وجعلهم مبشرين بدينه وهدية ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدو له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله تعالى وإقامة سننه في صلاح الخلق ، وبين روح الجن الذين يغلب على شرارهم (وهم الشياطين) التمرد والعصيان .

كما أنه تعالى آتى الإنسان إرادة واختيارا إن شاء صعد إلى أفق الملائكة ، وإن أراد هبط إلى أفق الشياطين .

(قال فاهبط منها) أى اهبط من الجنة التى خلقتك الله فيها وكانت على مرتفع من الأرض حين كانت قرية العهد بالظهور فى وسط الماء ، نخير ما يصلح منها لسكنى الإنسان مرتفعاتها .

وقيل هى جنة الجزاء التى أسكنه الله فيها بعد خلقه فى الأرض ، ويرشد إلى هذا ما جاء فى سورتي البقرة وطه من أمره بالهبوط وأمر آدم وزوجه بذلك بعد قوله : « أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » .

(فما يكون لك أن تتكبر فيها) أى فما ينبغى لك أن تتكبر فى هذا المكان المعد للكرامة والتعظيم .

(فاخرج إنك من الصاغرين) أى فاخرج من هذا المكان ، فإنك من ذوى الذلة والهوان ، وقد أظهر حقيقتك الامتحان ، ودل على أنك من الأشرار لا الأخيار . وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى جازاه بصد ما أراد ، فقد أراد أن يرفع نفسه عن منزلتها فجوزى بالهبوط منها إلى ما دونها ، وجاء فى بعض الآثار : « إن الله تعالى يحشر المتكبرين يوم القيامة فى أحقر الصور ، إذ يطوهم الناس بأرجلهم ، كما أنه يبغضهم إلى الناس فى الدنيا ، فيحتقرونهم ولو فى أنفسهم » .

(قال أنظرنى إلى يوم يبعثون) أى قال رب أمهلى إلى يوم يبعث آدم وذريته فأكون أنا وذريتى أحياء ما داموا أحياء ، وأشهد انقراضهم وبعثهم .

وقد أراد بذلك أن يجد فسحة في الإغواء فيأخذ بالنار، ثم هو مع ذلك ينجو من الموت إذ لاموت بعد البعث .

(قال إنك من المنظرين) أى قال سبحانه : إني أجبتك إلى ما طلبت ، لما في ذلك من الحكمة التي أنا بها عليم .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى جعله من المنظرين إلى يوم يبعثون ، لكن جاء في سورة الحجر : « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ نِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » فهذا يدل على أن النظرة إلى وقت النفخة الأولى بالصور ، وهي النفخة التي يموت فيها أهل الأرض جميعا دفعة واحدة ، لا إلى وقت النفخة الثانية وهي التي يبعثون ، وورد أن بينهما أربعين سنة .

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفزع لقوله تعالى في سورة النمل : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ونفخة الصعق لقوله في سورة الزمر : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » .

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن هذه الآية : من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا ؟ قال : هم شهداء الله عز وجل ، أى هم حججه على خلقه بحسن سيرتهم واستقامتهم في الدنيا وهم يشهدون في الآخرة بضلال كل من خالف هديهم وسنتهم ، ويدخل في هؤلاء النبيون والصديقون ، فكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » وكذلك كل صديق شهيد .

والخلاصة — إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى التي يتلوها خراب هذه الأرض كما قال في سورة الحاقة : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » .

ولا يبقى إلى يوم البعث ، إلا إذا قلنا إن يوم البعث ويوم القيامة يطلقان تارة على ما يشمل زمن مقدمتهما ، وتارة أخرى على زمن الغاية وحدها .

(قال فبا أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) صراط الله المستقيم : هو الطريق الذي يصل سالكه إلى السعادة التي أعدها سبحانه لمن زكى نفسه بهدى الدين الحق الذي يكمل الفطرة كما جاء في الخبر : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

أى قال إبليس : فباغوائك إياى من أجل آدم وذريته ، أقسم لأقعدنّ لهم على صراطك المستقيم ، فأصدنهم عنه وأقطعنه عليهم بأن أزين لهم طرقاً أخرى أشرعها لهم من جوانب هذا الطريق حتى يضلوا عنه ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى ثم لأدع جهة من الجهات الأربع إلا هاجتهم منها مترصدا لهم كما يقعد قطاع الطريق للسابلة .

وخلاصة ذلك — لأسولنّ لهم ولأضلنهم قدر المستطاع ، وقد ضرب لذلك المثل بحال العدو يأتى عدوه من أى جهة أمكنته ويفترص الفرصة إذا سنحت له .

(ولا تجدأ أكثرهم شاكرين) أى ولا تجدأ أكثرهم مطيعين لك وشاكرين لنعمك عليهم فى عقولهم ومشاعرهم ومعايشهم وفى كل ما يهديهم إلى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك لهم ، بل الأقلون منهم هم الذين يتبعون ذلك ، وقد قال إبليس ذلك عن ظن فأصاب لقوله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وروى عن ابن عباس فى تفسير الجهات الأربع : من بين أيديهم أى أشككهم فى آخرتهم ، ومن خلفهم أى أرغبهم فى دنياهم ، وعن أيمانهم أى أشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم أى أستنّ لهم المعاصى ، ولا تجدأ أكثرهم شاكرين أى موحدين؛

وفي رواية أخرى عنه - من بين أيديهم أي من قبل الدنيا ، ومن خلفهم أي من قبل الآخرة ، وعن أيمنهم أي من قبل حسناتهم ، وعن شمائلهم أي من قبل سيئاتهم .

والرواية الثانية تخالف الأولى في تفسير ما بين الأيدي : هل المراد منه ما هو حاضر أو ما هو مستقبل ، وفي تفسير الخلف : هل المراد منه ما يتركه المرء ويتخلف عنه وهو الدنيا ، أو هو ما وراء حياته الحاضرة وهو الآخرة ، واللفظ محتمل لكلا التاويلين .

روى أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات : « اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي » .
(قال اخرج منها مذهب وما مدحورا) أي قال اخرج من الجنة وأنت مذموم مهان من الله وملائكته ومطروود من جنته .

(لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) أي أقسم إن من يتبعك من بني آدم فيما تزينه له من الشرك والفجور ، ويصدق ظنك عليه - ليكون معك في جهنم دار العذاب ، ولأملأنها منك ومن تبعك منهم أجمعين .
وفي قوله منهم إشارة إلى أن الملء يكون من بعضهم ، فإن بعض من يتبعه في بعض المعاصي من المؤمنين الموحدين يغفر الله لهم ويعفو عنهم .
ونحو الآية قوله في سورة ص : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

وقد استثنى في سورتي الحجر وص من إغوائه عباده المخلصين ، فقال في الأولى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » وقال في الثانية : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

وقد علمت أن المراد من هذا بيان طبيعة البشر وطبيعة الشيطان واستعدادهما واختيارهما في أعمالهما كما هو رأى بعض العلماء ، وأيد ذلك الحافظ ابن كثير .

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) .

شرح المفردات

أصل الوسوسة : الصوت الخفي المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة ، ووسوسة الشيطان للبشر : ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم ما يضرهم في أبدانهم أو أرواحهم ، ووورى الشيء : غطى وستر ، والسوءة : ما يسوء الإنسان أن يراه غيره من أمر شائن وعمل قبيح ، وإذا أضيفت إلى الإنسان أريد بها عورته

الفاحشة ، لأنه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطرى ، من الخالدين أى الذين لا يموتون أبدا ، وقاسمهما أى أقسم وحلف لها ، ودلى الشيء تدلية : أرسله إلى أسفل رويدا رويدا ، والغرور : الخداع بالباطل ، طفقا أى أخذا وشرعا ، يخلصان أى يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قولهم : خصف الإسكافي النعل : إذا وضع عليها مثلها .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث متصلا فى الكلام فى النشأة الأولى للبشر وفى شياطين الجن ، وقد ذكرت تمهيدا لهداية الناس بما يتلوها من الآيات فى وعظ بنى آدم وإرشادهم إلى مابہ تكمل فطرتهم ، وفى ذلك امتنان عليهم وذكرا لكرامة أيهم .

الإيضاح

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الجنة : هى التى خلق فيها آدم ، فأدم خلق من الأرض فى الأرض .

وقد تكررت هذه القصة فى سبعة مواضع من الكتاب العزيز ، ولم يرد فى موضع منها أن الله رفعه إلى الجنة التى هى دار الجزاء ، وإن كان الجمهور على أنها جنة الجزاء على الأعمال . ويرده أنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولا تكليف فى دار الجزاء ، ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس ، ولا نوم فى الجنة ، ولا خروج بعد الدخول ، ولا يمكن دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج .

والآية تدل على أن آدم كان له زوج فى الجنة ، وفى التوراة (إن الله ألقى على آدم سباتا انتزع فى أثنائه ضلعا من أضلاعه ، فخلق منه حواء امرأته ، وأنها سميت امرأة لأنها من امرئ أخذت) وليس فى القرآن ما يدل على هذا ، وما روى من ذلك مأخوذ من الإسرائيليات ، وما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم

« فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو من باب التمثيل على حد قوله : « خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ » والدليل على ذلك قوله بعد : « فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فإنه لاشك أن المراد منه - لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة والغلظة في المعاملة .

(فكللا من حيث شئنا) أى فكللا من ثمارها من أى مكان أردتما .

(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) النهى عن قرب الشيء أبلغ أثرا من النهى عن الشيء نفسه ، إذ أنه يقتضى البعد عن موارد الشبهات التى تغرى به كما جاء فى الحديث : « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

وقد أبهم سبحانه هذه الشجرة ، ولو كان فى تعيينها خير لنا لعينها ، وقد علل القرآن النهى عنها ، بأنهما إذا اقتربا منها كانا من الظالمين لأنفسهما بفعلهما ما يعاقبان عليه ولو بالحرمان من رغد العيش وما يعقبه من التعب والمشقة .

(فوسوس لها الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما) أى زين لهما ما يضرهما ويسوءهما إذا هما رأيا ما يؤثران ستره وألا يرى مكشوفاً ، والأرجح أن هذه الوسوسة كانت بأن تمثل الشيطان لآدم وزوجه وكلمهما .

(وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أى وقال لهما فيما وسوس به : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأحد أمرين : كراهة أن تكونا بالأكل منها كالمالكين فيما أوتى الملائكة من الخصاص والمزايا : كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بتأثيرات السكون المؤلمة المتعبة ، أو كراهة أن تكونا من الخالدين فى الجنة ، أى الذين لا يموتون البتة .

والخلاصة - إنه أوهمهما أن الأكل من هذه الشجرة إما أن يعطى الآكل صفات الملائكة وغرائزهم ، أو يقتضى الخلود فى الحياة .

وفى الآية إيماء إلى تفضيل الملائكة على آدم ، وخصه بعضهم بملائكة

السماء والعرش والكرسى من العالين والمقرين ، دون ملائكة الأرض المسخرين لتدبير أمورهما وإحكام نظامها.

(وقاسمهما إني لكأ لمن الناصحين) أى وأقسم إنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الأكل من الشجرة ، وأكد ذلك بأشد المؤكدات وأغلظها ، إذ كان عندهما محل الظننة فى نصحه ، لأن الله أخبرهما أنه عدو لهما .

(فدلأهما بغرور) أى فما زال يخدعهما بالترغيب فى الأكل من هذه الشجرة والقسم على أنه ناصح لهما حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة البارى لهما بما غرهما به وزين لهما ، وقد اغترا به واتخذوا بقسمه وصدقا قوله اعتقادا منهما أن أحدا لا يخلف بالله كاذبا .

ويرى بعض العلماء أن الغرور كان بتزيين الشهوة ، فإن من غرائز البشر وطبائعهم كشف الجهول والرغبة فى الممنوع ، فقد نفخ الشيطان فى نار هذه الشهوات الغريزية وأثار النفس إلى مخالفة النهى حتى نسى آدم عهد ربه ، ولم يكن له من قوة العزم ما يكفه عن متابعة امرأته ، ويعتصم به من تأثير شيطانه كما قال فى سورة طه : « وَوَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » وجاء فى الصحيح عن أبى هريرة : « ولولا حواء لم تكن أثنى زوجها » أى لأنها هى التى زينت له الأكل من الشجرة ، وقد فطرت المرأة على تزيين ما تشهيه للرجل ولو بالخيانة له .

(فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة) أى فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوءته وسوء صاحبه وكانت مستورة عنهما ، فدبت فيها شهوة التناسل بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفيا عنهما من أمرها ، فحجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يلزقان ويربطان على أبدانها من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها .

وهذه المواراة معنوية كما هو الظاهر ، وقد تكون حسية ويكون الساتر هذا الشعر الخلقى وإن كانت قد تظهر الشهوة ما يخفيه .

والخلاصة — إن الشيطان لما وسوس لها بقوله : مانها كما ربكما الخ ولم يقبلها منه ما قال — لجأ إلى اليمين كما دل على ذلك قوله : وقاسمهما ، فلم يصدقاه أيضا ، فعدل بعد ذلك إلى الخداع كما أشار إلى ذلك بقوله : فدلاهما بغرور أي إنه شغلها بتحصيل اللذات فجعلها نصب أعينها ونسيا النهي كما يدل على ذلك قوله : « فَذَسَّىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

وقد عاتبه الله على تركه التحفظ والحيلة والتدبر في عواقب الأمور فقال :

(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكا الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟) أي وناداهما ربهما معاتبها وموبخا لها وقال : ألم أنهكما عن أن تقربا هذه الشجرة وأقل لكما إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعتهما أخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء في العيش والتعب والنصب في الحياة .

ونحو الآية قوله في سورة طه : « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجه فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » .

(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أي قالا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان ومعصيتنا لأمرك وقد أنذرتنا ، وإن لم تغفر لنا ما ظلمنا به أنفسنا وترحمنا بالرضا عنا وتوفيقنا إلى الهداية وترك الظلم ، وبقبول توبتنا إذا نحن أئبنا إليك ، وإعطائنا من فضلك فوق ما نستحق — لنكونن من الخاسرين لأنفسنا وللغفور والفلاح بتزكيتها .

والخلاصة — إن الظفر بالمقصود والفوز بالسعادة لا ينالها بمغفرتك ورحمتك إلا من ينيب إليك ويتبع سبيلك ، ولا ينالها من يصر على ذنبه ويحتج على ربه كما فعل الذي أبى واستكبر فكان من الخاسرين .

ونحو الآية قوله في سورة البقرة : « فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ — إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو) يرى كثير من سلف الأمة أن هذا الخطاب لآدم وحواء ، وإبليس عليه اللعنة ، أى اهبطوا من هذه الجنة بعضكم عدو لبعض أى إن الشيطان عدو للإنسان ، فعلى الإنسان ألا يغفل عن عداوته ولا يأمن وسوسته وإغواءه كما جاء في قوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وهذا الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية التي بها ظلموا أنفسهم ، وقد قضت به سنة الله في الخلق ، إذ جعله أثرا طبيعيا للعمل السيئ مترتبا عليه ، أما العقاب الأخرى على عصيان الرب فقد غفره الله له بالتوبة التي أذهبت أثره من النفس وجعلتها محلا لاصطفائه كما قال في سورة طه : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أى ولكم في الأرض استقرار وبقاء إلى زمن مقدر في علم الله وهو الأجل الذي به تنتهى فيه أعماركم وتقوم فيه القيامة ، كما أن لكم فيها متاعا تنتفعون به في معيشتكم .
ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » .
ثم فصل هذا القول الجميل :

(قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) أى في هذه الأرض التي خلقتم منها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم وللنوع بأسره ، وفيها تموتون حين انتهائه ، ومنها تخرجون بعد موتكم كلكم ، وحين ما يريد المولى أن يبعثكم من مرقدكم للنشأة الآخرة .

ونحو الآية قوله تعالى في سورة طه : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

مغزى هذا القصص

قص الله سبحانه علينا خبر النشأة الأولى ليرشدنا إلى ما فطرنا عليه ، وإلى ما يجب علينا من شكره وطاعته ، ويبين لنا أنه خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض ، وجعله مستعدا لعلم كل شىء فيها وتسخير ما فيها من القوى لمنافعه وليهدينا إلى أنه كان في نشأته الأولى في جنة النعيم وراحة البال ، وقد جعله مستعدا للتأثر بالأرواح الملكية التي تجذبه إلى الحق والخير والأرواح الشيطانية التي تجذبه إلى الباطل والشر ، وعاقبة التأثر الأول سعادة الدارين ، ونتيجة الثانى الشقاء فيهما ، وهو أيضا محتاج إلى الوحي لإرشاده وهدايته .

فعلينا أن نعرف غرائزنا ونزبى أنفسنا على أن نتذكر عهد الله إلينا بأن نعبده وحده ولا نعبد معه أحدا سواه ، ولا ننسأه فنفسى أنفسنا ونغفل عن تزكيتها ونتركها كالريشة في مهابه أهواء الشهوات ووساوس شياطين الضلالات .

وعلينا أن نعرف أن آدم لم يكن نبيا ورسولا عند بدء خلقه ولا موضعا للرسالة فى ذلك الحين ، بل أنكر بعضهم أن يكون رسولا مطلقا ، وقال إن أول الرسل نوح عليه السلام كما تدل على ذلك الآيات الواردة فى الرسل والأحاديث الصحيحة ، وما ورد فى هذه القصة من التفسير بالمأثور فأكثره مدخول مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا فى الإسلام للكيد له وكان الرواة ينقلون عن الصحابى أو التابعى ما مصدره من الإسرائيليات فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لا بد له من أصل مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعرف بالرأى .

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ،
وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ
عَنَّهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ
لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

الريش: لباس الحاجة والزينة ، ولباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن
والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحرب، والفتنة: الابتلاء والاختبار، من قولهم: قن الصائع
الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار ، والقبيل : الجماعة
كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر أنه أمر سبحانه آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعل الأرض
مستقرا لهما ، وذكر أن الشيطان عدو لهما — ذكر هنا أنه أنزل له ولبنيه كل
ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم كاللباس الذي يسترون به عوراتهم ويتخذونه
للزينة ولباس الحرب كالمغافر والجواشن ونحوها ، فعليكم أن تشكروه تعالى على هذه
المنن العظام ، وتعبدوه وحده لا شريك له .

الإيضاح

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا) نادى الله بني آدم
وامتن عليهم بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وتعدد أنواعه ، من
الأدنى الذي يستر العورة عن أعين الناس إلى الأعلى من أنواع الحلال التي تشبه
ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد ، إلى ما فيها من الزينة والجمال .

والخلاصة — إنه يقول : يا بنى آدم ، بقدرتنا قد أنزلنا عليكم من سمائنا لتدبير أموركم لباسا يوارى سوءاتكم ، وريشا تزينون به فى المجالس والمجتمعات ، وهو أعلى اللباس وأكمله ، وما دون ذلك وهو ما يتقى الحر والبرد .

ومعنى إنزال ما ذكر من السماء — إنزال مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما ولدته الحاجة وافتن الناس فى استعماله ، بعد أن تعلموا وسائل صنعه بما أوجد فيهم من الغرائز والصفات التى بها غزلوا ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عدد ، ولا سيما فى هذا العهد الذى رقيت فيه الصناعات إلى أقصى مدى وأبعد غاية .

ولا شك أن امتنانه علينا بلباس الزينة دليل على إباحتها والرغبة فى استعمالها ، فالإسلام دين الفطرة ، وليس فيه ما يخالف ما تدعو إليه الحاجة ، وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله فى الخليقة .

(ولباس التقوى ذلك خير) المشهور من كلام التابعين أن لباس التقوى لباس معنوى لاحتسبى ، فقد قال ابن زيد : لباس هو التقوى ، وعن ابن عباس : إنه الإيمان والعمل الصالح ، فإنهما خير من الريش واللباس . وروى عن زيد بن على بن الحسين : أنه لباس الحرب كالدرع والغفر والآلات التى يتقى بها العدو ، واختاره أبو مسلم الأصفهاني ، ويدل عليه قوله تعالى : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ » .

(ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) أى ذلك الذى تقدم ذكره من النعم بإنزال الملابس من آيات قدرته ودلائل إحسانه وفضله على بنى آدم .

وهذه النعم تؤهلهم لتذكر ذلك الفضل والقيام بما يجب عليهم من الشكر ، والابتعاد من فتنه الشيطان وإبداء العورات أو الإسراف فى استعمال الزينة إلى نحو ذلك .

(يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) من سنن العربية تكرار النداء في مقام التذكير والوعظ : أى لا تغفلوا يا بني آدم عن أنفسكم فتمكنوا الشيطان من وسوسته لكم والتحيل في خداعكم وإيقاعكم في المعاصي ، كما وسوس لأبويكم آدم وحواء فزين لهما معصية ربهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما عنها ، وكان ذلك سببا في خروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها ، ودخولها في طور آخر يكابدان فيه شقاء المعيشة وهمومها .

(ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما) أى إنه أخرجهما من الجنة وكان سببا في نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة لأجل أن يريهما سوءاتهما .
وفي ذلك إيحاء إلى أنهما كانا يعيشان عريانين ، لأنه ليس في الأرض ثياب تصنع ، وليس هناك إلا أوراق الأشجار ، وعلماء العاديات والآثار يحكمون حكما جازما بأن البشر قبل اهتدائهم إلى الصناعات كانوا يعيشون عراة ، ثم اكتسوا بورق الشجر وجلود الحيوانات التي يصطادونها ، ولا يزال المتوحشون منهم إلى الآن يعيشون كذلك .

(إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) أى إن إبليس وجنوده من شياطين الجن يرونكم ولا ترونهم ، والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أشد ، ووجوب العناية باتقائه أعظم ، كما يرى ذلك في بعض الأوبئة التي ثبت وجودها في هذا العصر بالمجهر (التليسكوب) فإنها تنفذ إلى الأجسام بنقل الذباب أو البعوض أو مع الطعام أو الشراب أو الهواء ، فتتوالد وتمو بسرعة ، وقد تسبب للإنسان أمراضا مستعصية العلاج كالحمى الصفراء (الملاريا) والتفويد والتيفوس والسل والسرطان إلى نحو أولئك .

وفعل جنّة الشياطين في أرواح البشر كفعل هذه الجنة التي يسميها الأطباء (الميكروبات) في الأجسام ، فكلاهما يؤثر من حيث لا يرى فيتقى ، والثانية تتقى بالأخذ بنصائح الأطباء واستعمال الوسائل العلاجية الواقية .

والوقاية منها ضربان :

(١) اتخاذ الأسباب التي تمنع مجيئها من الخارج كالذي تفعله الحكومات في المحاجر الصحية في الثغور ومداخل البلاد .

(٢) تقوية الأبدان بالأغذية الجيدة والنظافة التامة لتقوى على مقاومة هذه الجنة والفتك بها إذا وصلت إليها ، كما يتقى وصول العُث إلى الصوف بمنع وصول الغبار إليه أو بوضع الدواء الذي يسمى (النفثالين) إذ يقتله برأئحته .

والأولى تتقى أيضا بإرشاد طب الأنفس والأرواح الذي يهتدى إلى الوقاية من فتك جنة الشياطين فيها بالوسوسة وتزيين الأباطيل والشورور المحرمة في هذا الطب لضررها ، فمداخلها في أنفسهم وتأثيرها في خواطرهم كدخول تلك الجنة في أجسادهم وتأثيرها في أعضائهم من حيث لا ترى .

والوقاية منها على ضربين :

(١) بتقوية الأرواح بالإيمان بالله وصفاته وإخلاص العبادة له والتخلق بالأخلاق الكريمة وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فتبتعد تلك الأرواح الشيطانية عنها ولا تستطيع القرب منها .

(٢) بمعالجة هذا الوسواس بعد طروئه كما يعالج المرض بعد حدوثه بالأدوية التي تقتله وتمنع امتداد ضرره .

والخلاصة - إن هذه الجملة (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) جاءت تعليلا للنهي عن تمكين الشيطان مما يبغى من الفتنة ، وتأكيذا للتحذير منه ، وتذكيرا بشديد عداوته وضرره (والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان شديد الأثر العظيم المخطر) .

(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أي إن سنتنا جرت بأن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته إيمان إذعان تزكوبه نفوسهم ، لما بينهما من التناسب والتشاكل .

واكتساب الكفار لولاية الشياطين جاءت بسبب استعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم وعدم احتراسهم من الخواطر الرديئة ، كما اكتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها وعدم احتراسهم من أسبابها كتناول الأطعمة والأشربة الفاسدة والوجود في جو مملوء بالجراثيم القتالة بعدم تعرضه للشمس والنور والهواء المتجدد .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْمَلُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ
 رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ
 لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
 مُهْتَدُونَ (٣٠) .

شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة المتناهية في القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراة
 كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون لا نطوف بيت ربنا في ثياب عصيناه بها ، والقسط :
 الاعتدال في جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط ، وإقامة الشيء : إعطاؤه
 حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط ، والوجه : قد يطلق على
 العضو المعروف من الإنسان كما في قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »
 وقد يطلق على توجه القلب وصحة التصديق كما في قوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا »

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسيطرين عليهم متمكنين من إغوائهم - ذكر هنا أثر ذلك التسليط عليهم وهو الطاعة لهم في أتبج الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبح .

الإيضاح

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أى وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله ممن جعلوا الشياطين أولياء لهم - قبيحا من الأفعال كتعريضهم حين الطواف بالبيت ، فلامهم الناس على ذلك ، قالوا وجدنا آباءنا يفعلون كما نفعل فنحن نتقدي بهم ونستنّ بسنتهم ، والله أمرنا بذلك فنحن نتبع أمره فيه . وقد رد الله عن الأمر الثانى بأمر رسوله أن يدحضه بقوله :

(قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) أى إن هذا الفعل من الفحشاء والله بكأله منزه أن يأمر بها ، وإنما يأمر بها الشيطان كما جاء فى قوله « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

ثم رد عليهم الوجه الأول ووبخهم على تقليد الآباء والأجداد بقوله :

(أتقولون على الله ما لاتعلمون) أى إنكم باتباعكم للآباء والأجداد فى الآراء والشرائع غير المسندة إلى الوحي تقولون على الله ما لاتعلمون أنه شرعه لعباده .

وإخلاصة - إنهم فى عملهم الفاحشة استندوا إلى أمرين أمر الله بهما وتقليد الآباء والأجداد ، وقد رد الله عليهما فى كل منهما ، فرد على الأول ببيان أن الله لا يأمر بفاحشة وأن الذى يأمر بذلك إنما هو الشيطان ، ورد على الثانى بأن التشريع لا يعلم إلا بوحي من عنده إلى رسول يؤيده بالآيات البينات وهو لم ينزل عليهم به ، فقولهم

هذا إنما هو اتباع للأهواء فيما هو قبيح تنفر منه الطباع السليمة ، وتستنقصه العقول الراجحة الحكيمة .

وبعد أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم بأمر الله فيما فعلوا - بين ما يأمر به من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والخصال بقوله لرسوله :

(قل أمر ربي بالقسط) أى قل لهم : إنما أمرني ربي بالاستقامة والعدل في الأمور كلها .

(وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أى وقل لهم أمرني ربي بالقسط ، فأقسطوا وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، أى أعطوا توجهكم إلى الله تعالى ، حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل عند كل مسجد تعبدونه فيه ، سواء كانت العبادة طوافاً أو صلاة أو ذكراً ، وادعوه وحده مخلصين له الدين ، ولا تتوجهوا إلى غيره من عباده المكرمين كالملائكة والأنبياء والصالحين زعماء منكم أنهم يشفعون لكم عند ربكم ويقربونكم إليه زلفى ، وقد جعلتم هذا من الدين افتراء على الله وقولا عليه بغير علم .

وبعد أن أبان أصل الدين ومناط الأمر والنهى فيه - ذكرنا بالبعث والجزاء على الأعمال فقال :

(كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) أى كما بدأكم ربكم خلقاً وتكويناً بقدرته تعودون إليه يوم القيامة وأنتم فريقان :

(١) فريق هداه الله في الدنيا ببعثة الرسل فاهتدى بهديهم وأقام وجهه له وحده في العبادة ودعاه مخلصاً له الدين لا يشرك به أحداً .

(٢) فريق حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان وإعراضهم عن طاعة بارئهم .

وكل فريق يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ، وإنما حقت

على الفريق الثانى الضلالة ، لأنهم اقرتفوا أسبابها فوجدت نتائجها ومسبباتها ، لا أنها جعلت غرائزهم فكانوا عليها مجبورين ، يرشد إلى ذلك قوله :

(إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) أى إنهم حين أطاعوا الشياطين فيما زينوا لهم من الفواحش والمنكرات ، فكأنهم ولوهم أمورهم من دون الله الذى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وهم مع عملهم هذا يحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات ، يجعل التوجه إلى غير الله والتوسل إليه فى الدعاء مما يقر بهم إلى الله زلفى ، قياسا على الملوك الجاهلين الذين لا يقبلون الصصح عن مذهب إلا بوساطة بعض المقرين عنده .

والكثير من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون ، وهم ما بين كافر جحود للحق كبرا وعناداً كأعداء الرسل فى عصورهم وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله كما حكى الله عن فرعون وملئه « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » وكالكبراء من قريش أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث فى جمع كثير منهم وهم الذين قال الله فيهم : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » وهؤلاء هم الأقلون عدداً - وكافر بالتقليد واتباع نزغات الشيطان ، أو باتباع الآراء الخاطئة والنظريات الفاسدة ، وهم الذين قال الله فيهم : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » وهؤلاء هم جمهرة الناس فى جميع الأمم .

وذهب كثير من العلماء إلى أن من بذل جهده فى البحث والنظر فى الحق ، ثم اتبع ما ظهر له أنه الحق على حسب ما وصلت إليه طاقته ، وكان مخالفاً فى شىء منه لما جاءت به الرسل - لا يدخل فى مدلول هذه الآية ونحوها ، بل يكون معذورا عند الله لقوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه في الآية السالفة أنه أمر عباده بالعدل في كل الأمور واتباع الوسط منها — طلب إلينا أن نأخذ الزينة في كل مجتمع للعبادة ، فنستعمل الثياب الحسنة في الصلاة والطواف ونحو ذلك ، كما أباح لنا أن نأكل ونشرب مما خلق الله بشرط ألا نسرف في شيء من ذلك .

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : كان الناس يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لانطوف في ثياب أذنبنا فيها ، فجاءت امرأة فألقت ثيابها فطافت ووضعت يدها على قبلها وقالت :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله
فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) الزينة ما يزين الشيء أو الشخص وأخذها التزيين بها ، والمراد بالزينة هنا الثياب الحسنة كما يدل على ذلك سبب نزول الآيات ، وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس وهو ما يستر عورته ، وهو الواجب لصحة الصلاة والطواف ، وما زاد على ذلك من التجمل بزينة اللباس عند الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة والعيدين فهو سنة لا واجب .

ويرى بعض العلماء وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد على حسب عرف الناس في تزينهم في الجامع والمحافل ، ليكون المؤمن حين عبادة ربه مع عباده المؤمنين في أجمل حال لا تقصير فيها ولا إسراف .

أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبه ، فإن الله عز وجل أحق من تزين له فإن لم يكن له ثوبان فليتزر إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود » .

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء » .

وعلى الجملة فالزينة تختلف باختلاف حال الإنسان في السعة والضيق ، فمن عنده ثوب واحد يستر جميع بدنه فليستر به جميع بدنه وليصل به ، فإن لم يستر إلا العورة كلها أو الغليظة منها وهي السوءتان فليستر به ما يستره ، ومن وجد ثوبين أو أكثر فليصل بهما .

وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصل من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين وكان سببا في تعليم القبائل المتوحشة القاطنة في الكهوف والغابات أفراداً وجماعات لبس الثياب عند دخولها في حظيرة الإسلام ، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراة الأجسام رجالا ونساء حتى ذكر بعض المنصفين من الإفرنج أن لانتشار الإسلام في إفريقية منة على أوربا بنشره للمدينة بين أهلها ، إذ ألزمهم ترك العري وأوجب لبس الثياب ، فكان ذلك سببا في رواج تجارة المنسوجات .

وبهذا نقل الإسلام أمما وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية .

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) أى خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات ، وكلوا واشربوا من الطيبات ، ولا تسرفوا فيها ، بل عليكم بالاعتدال في جميع ذلك ، لأن الله الخالق لهذه النعم لا يحب المسرفين فيها ،

بل يعاقبهم على هذا الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه من المضار والمفاسد ، لأنهم قد خالفوا سنن الفطرة وجنوا على أنفسهم في أبدانهم وأموالهم ، وجنوا على أسرهم وأوطانهم ، إذ هم أعضاء في جسم الأسرة والأمة .

روى النسائي وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مَخِيلَةٍ (كبر وإعجاب بالنفس) ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » .

وعن ابن عباس أنه قال : كل ما شئت ، واشرب ما شئت ، والبس ما شئت إذا أخطأتك اثنتان : سرف أو مَخِيلَةٍ .

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء ، والحدود منها :

(١) طبيعى كالجوع والشبع والظمأ والرى ، فمن أكل إذا أحس بالجوع أو كف عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستلذ الاستزادة ، أو شرب إذا شعر بالظمأ واكتفى بما يزيله ولم يزد على ذلك لم يكن مسرفا في أكله وشربه وكان طعامه وشرابه نافعين له .
(٢) اقتصادى وهو أن تكون النفقة على نسبة معينة من دخل الإنسان بحيث لا تستغرق كسبه .

(٣) شرعى فإن الشارع حرم من الطعام الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم من الشراب الخمر ، وحرم من اللباس الحرير الخالص ، أو الغالب على الرجال دون النساء ، وحرم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة وعده من السرف المنهى عنه ، فهذه الأشياء لا يباح استعمالها إلا لضرورة تقدر بقدرها .

والمعول عليه في الإتفاق في كل طبقة عرف المعتدلين فيها ، فمن تجاوز طاقته مباراة إن هم أغنى منه وأقدر كان مسرفا ، وكم جرّ الإسراف إلى خراب بيوت عامرة ولا سيما في المهور وتجهيز العرائس وحفل العرس والمآتم و (الزار) .

ثلاثة تشقى بها الدار العرس والمآتم والزار

وهذا السرف كبير الضرر عظيم الخطر على الأمم أكثر من ضرره على الأفراد

ولا سيما في البلاد التي تأتي إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية عنها ، إذ تذهب الثروة إلى غير أهلها ، وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استدلالهم والعدوان عليهم .
والخلاصة — إن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية ، ولكن ضل في ذلك فريقان :

(أ) فريق البخلاء والغلاة في الدين الذين تركوا الأكل والشرب من الطيبات المستلذة ، إما بخلا وشحا أو تخرجا وتأنما ، إما دائما أو في أوقات مخصوصة من السنة .
(ب) فريق المترفين الذين أسرفوا في اللذات البدنية وجعلوها جل همهم ، فهم يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ، وليس لهم غاية يقفون عندها ، أو نهاية ينتهون إليها .

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) إخراج الله للزينة خلق موادها وتعليم طرق صنعها بما أودع في فطرهم من حبها والميل إلى الافتتان في استعمالها ، إذ خلقهم مستعدين لإظهار آياته في جميع ما خلق في هذا العالم الذي يعيشون فيه ، بما أودع في غرائزهم من الميل إلى البحث في كشف المجهول والاطلاع على خفايا الأمور ، فهم لا يدعون شيئا عرفوه بحواسهم أو عقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى وأوجه لانهاية لها ، ولن تنتهى بحوثهم مادام الإنسان على ظهر البسيطة .
وغريزة حب الزينة وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب في اتساع أعمال الفلاحة والزراعة وورق ضروب الصناعة ، واتساع وسائل العمران ، ومعرفة سنن الله وآياته في الأكوان ، وهما لا يذمان إلا بالإسراف فيهما والغفلة عن شكر المنعم بهما .

والخلاصة — إن الدين لم يحرمهما إلا إذا كانا عاقلين عن الكمال الروحي والكمال الخلقى ، وإنه لم يجعل تركهما قربة إلى الله كما جرى على ذلك الوثنيون من البراهمة وغيرهم وقدم في ذلك بعض المسلمين وصاروا يبتون في الأمم الإسلامية

تعاليم تقضى بأن روح الدين ومخ العبادة في التقشف وحرمان النفس من التمتع بلذات الحياة ، وقد بين الله وجه الصواب في ذلك بقوله لرسوله :

(قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) أى قل أيها الرسول لأمتك : إن الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرهم تبعاً لهم وإن لم يستحقها مثلهم ، وهي خالصة لهم يوم القيامة .

وقصارى ذلك — إن الذين يورث أهلهم سعادة الدنيا والآخرة جميعاً كما يدل على ذلك قوله : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » وقوله : « وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا » . ذلك أن المؤمن يزداد علماً وإيماناً بربه وشكراً له كلما عرف شيئاً من سننه وآياته في نفسه أو في غيرها من الكائنات ، ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله من شكر الجوارح كشكر اللسان بالثناء عليه وشكر سائر الأعضاء كذلك ، ففي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي والحاكم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » والسرف في هذا أن الأكل والشرب من الطيبات بدون إسراف هما قوام الحياة والصحة ، وهما الدعامتان اللتان يتوقف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدينيوية من عقلية وبدنية ، ولهما التأثير العظيم في جودة النسل الذي به يكثر سواد الأمة .

والملايس الجيدة النظيفة لها فوائد :

- (١) حفظ الصحة .
- (٢) كرامة من يتجمل بها في نفوس الناس .
- (٣) إظهار نعمة الله على لابسها ، والمؤمن يثاب بنيته على كل ما هو محمود من هذه الأمور بالشكر عليها .

روى أبو داود عن أبي الأحوص قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

في ثوب دُونَ فقال : ألك مال ؟ قلت نعم . قال من أى المال ؟ قلت قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته لك .

وأخرج الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .
وقد كانت العرب تحرم زينة اللباس في الطواف تعبداً ، وتحرم الأدهان ونحوه حال الإحرام بالحج كذلك ، وتحرم من الأنعام والحرث ما ذكر في سورة الأنعام ، وحرم أهل الكتاب كثيراً من الطيبات .

فجاء الدين الإسلامى الجامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة والمطهر للنفوس والمهذب للأخلاق ، فأنكر هذا التحكم الخالف لسنن الفطرة وبين أن هذا التحريم لم يكن إلا من وساوس الشيطان ولم يوح به الله إلى أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار .
(كذلك فصل الآيات لقوم يعلمون) أى إن هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات الذى ضل فيه كثير من الأمم والأفراد ما بين إفراط وتفريط — لا يعقله إلا الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم ، ونحن قد فصلناه على لسان هذا النبي الأمى الذى لم يكن يعرف شيئاً من تاريخ البشر في أطوار بداوتهم وأطوار حضارتهم قبل أن نزلها عليه ، فكان ذلك آية دالة على نبوته ، إذ ما كان مثله أن يعلمها إلا بالوحى من عندنا ، ولولا الكتاب الكريم لما خرجت العرب من ظلمات الوثنية والجهالة إلى ذلك النور الذى صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والفنون والآداب وما أحييت من علوم الأوائل .

ولكن وا أسفاً قد أضحى المسلمون من أجهل الشعوب بسنن الله في الأكوام وبالعلوم والمعارف اللازمة لتقدم الحضارة والمدنية ، وأصبحوا في مؤخرة الأمم وصاروا مضرب الأمثال في التأخر والخلول والكسل ، وبذا استكانوا وذلوا وصاروا أفقر الأمم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم ، وخالفوا ما رسمه لهم ذلك الدين من أن لهم زينة

الدنيا وطيباتها وسعادتها وملكها ، وأن عليهم أن يشكروا الله على ما يؤتيهم من ذلك ، وأن عليهم أن يقوموا بما يرضيه من اتباع الحق والعدل وكل ما تقتضيه خلافتهم في الأرض .

ولقد بلغ الجهل بكثير منهم أن ظن (وبعض الظن إثم) أن دين الإسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم وذهاب ملكهم ، ولكن كتاب الله وسنة رسوله وتاريخ هذه الأمة شاهد صدق على فساد هذه القضية وتزييف تلك الدعوى ، فليس لها من دعائم تسند إليها ، وتقف بها على رجليها .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

الفواحش: واحدها فاحشة، وهي الخصلة التي يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ؛ ويطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح ، والإثم لغة : القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كباثرها كالفواحش وصغائرهما كالنظر بشهوة لغير الحليلة ، والبغى: تجاوز الحد، وقد قالوا بغى الجرح : إذا تجاوز الحد فى الفساد، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر - تقدست أسماؤه - فى الآية السالفة على المشركين وغيرهم من أرباب الملل الأخرى تحريم زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق - ذكره

أصول المحرمات التي حرمها الله على عباده لضررها ، وجميعها من الأعمال الكسبية لا من المواهب الخلقية ، ليستبين للناس أن الله لم يحرم على عباده إلا ما هو ضار لهم .

الإيضاح

(قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين وغيرهم ممن ظلموا أنفسهم وافتروا على الله الكذب فزعموا أن الله حرم على عباده ما أخرج لهم من الطيبات كما حرم عليهم الزينة : ما حرم ربي في كتبه على السنة رسله إلا هذه الأنواع الست الآتية لما لها من شديد الضرر وعظيم الخطر على أنفسهم وعلى الأمة جمعاء ، ومن ثم جعل تحريمها دائما لا يباح بحال ، وهي :

(١ - ٢) الفواحش الظاهرة والباطنة وتقدم بيانها وشرحها في سورة الأنعام وهي إحدى الوصايا العشر التي ذكرت هناك .

(٣) الإثم أى ما يوجب الإثم والذم — وعطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص .

(٤) البغى وهو الإثم الذى فيه تجاوز لحدود الحق أو اعتداء على حقوق الأفراد أو جماعاتهم ، ومن ثم قرن بالعدوان فى قوله : « تظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » . وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأن تجاوز الحدود المعروفة قد يكون فيما لا ظلم فيه ولا فساد ولا هضم لحقوق الأفراد والجماعات كما فى الأمور التى ليس لهم فيها حقوق أو التى تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبدلون عنها عن رضى وارتياح لمصلحة لهم يرجونها ببذلها .

(٥) الشرك بالله وهو أقبح الفواحش ، فلا تقوم عليه حجة من عقل ولا برهان من وحى ، وسميت الحجة سلطانا لأن لها سلطانا على العقل والقلب .

وفي هذا إيماء إلى أن أصول الإيمان لا تقبل إلا بوحى من الله يؤيده البرهان كما قال : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » . كما أن فيه إرشادا إلى عظم شأن الدليل والبرهان في الدين ، حتى كأن من جاء بالبرهان على الشرك يصدق ، وهذا من فرض المحال مبالغة في فضل الاستدلال كما قال : « أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

(٦) القول على الله بغير علم ، وهو من أسس المحرمات التي حرمت على السنة الرسل جميعا ، إذ هو منشأ تحريف الأديان المحرفة ، وسبب الابتداع في الدين الحق ، وقد انتشر الابتداع بين أهله وتحكمت بينهم الأهواء واتبعوا سنن من قبلهم كما جاء في الحديث : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ؛ قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » رواه الشيخان ورأس البلية في هذا الابتداع القول في الدين بالرأى ، فما من أحد يبتدع أو يتبع مبتدعا إلا استدل على بدعته بالرأى ، وقد ظهرت مبادئ هذه البدع والأهواء في القرون الأولى قرون العلم بالسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما زال أمرها يستفحل حتى وصلت إلى ما نراه الآن .

وما شرع من اجتهاد الرأى في حديث معاذ وغيره فهو خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته ، فقد أكمل الله دينه فلم يترك فيه نقصا يكمله غيره بظنه ورأيه بعد وفاة رسوله ، وليس لقاض ولا مفت أن يسند رأيه الاجتهادى إلى الله فيقول هذا حكم الله وهذا دينه ، بل يقول هذا مبلغ اجتهادى ، فإن كان صوابا فمن توفيق الله وإلهامه ، وإن كان خطأ فمضى ومن الشيطان .
والخلاصة — إنه لا ينبغى لأحد أن يحرم شيئا محرما دينيا على عباد الله أو يوجب عليهم شيئا إلا بنص صريح عن الله ورسوله ، ومن تهجم على ذلك فقد جعل نفسه شريكا لله ، ومن تبعه في ذلك فقد جعله ربا له ، ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين يتحامون القول في الدين بالرأى .

وقد أنكر الله على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان فقال: « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جماع المحرمات على بنى آدم لما فيها من المفسد والمضار للأفراد والمجتمع إثر بيان المباحات من الزينة والطيبات من الرزق بشرط عدم الإسراف فيها — ذكر هنا حال الأمم في قبول هذه الأصول أو ردها ، والسير على منهاجها بعد قبولها أو الزيغ عنها .

الإيضاح

(ولكل أمة أجل) أى قل أيها الرسول لقومك وغيرهم : لكل أمة أمد مضروب لحياتها مقدر لها على حسب السنن التى وضعها الخالق لوجودها . وهذا الأجل على ضربين ، أجل لوجودها فى الحياة الدنيا ، وأجل لعزها وسعادتها بين الأمم . (فالأول) أجل لأمة بعث فيها رسول لهدايتها فردوا دعوته كبرا وعنادا واقترحوا عليه الآيات فأعطوها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا فاستمروا فى تكذيبهم فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر ، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط وغيرهم . وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولى الدعوة الخاصة بأقوامهم ،

وقد انتهى ذلك ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه الله بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وقد مضت سنة الله في الأمم أن الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها ، ومن ثم لم يعط الله تعالى رسوله شيئا مما كانوا يقترحونه عليه .

(والثاني) أجل مقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة باستقلالها ومكاتها بين الأمم وهذا منوط بسنن الله في الاجتماع البشري وعوامل الرقي وال عمران .

وأسباب انتهاء هذا الاجتماع لا تعدو مخالفة ما أرشدت إليه الآيات السالفة كإسراف في الزينة أو إسراف في التمتع بالطيبات ، أو باقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس ، أو بالتوغل في خرافات الشرك والوثنية ، أو بالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه الله لها من الأحكام .

فالأثم التي ترتكب هذه الضلالات والمفاسد يسلبها الله سعادتها ويسلط عليها من يستذلها كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

وهاكم شاهد صدق ما نقول :

إن الأمم التي كان لها شأن يذكر في التاريخ كالرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم ممن سلب ملكهم كله أو بعضه — لم يكن لذلك من سبب سوى ما أسلفنا . وهذا الضرب من الأجل وإن عرفت أسبابه ، لا يمكن أن يحد بالسنين والأيام ولكن الله يعلم تحديده بما أوجده من الأسباب التي تنتهي بمسبباتها ، وبالمددمات التي تترتب عليها نتائجها ، كما قال :

(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الساعة لغة : أقل مدة من الزمن أي فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم وحلول العقاب بهم لا يتأخرون عنه بالبقاء في الدنيا أقل تأخر ، كما أنهم لا يتقدمون أيضا عن الوقت الذي جعله لهم وقتا للقضاء والهلاك .

وفي الآية إيماء إلى أن الأمة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيئه أى قبل أن تغلبها على إرادتها أسباب الهلاك ، بأن تترك الفواحش والآثام والظلم والبغى والإسراف المفسد للأخلاق وخرافات الشرك المفسدة للعقول وتترك البدع في التحريم والتحليل بمالم يخاطب به المولى عباده ، بأن يقوم فيها جماعة من المصلحين ، فيرشدوها إلى تغيير ما بأنفسها من الفساد ، فيغير الله ما بها .

وهذا من استئخار الهلاك أو منعه عنها قبل مجيء أجلها .

وتأثير الفسق والفساد في الأمم يشبه تأثيره في الأفراد ، فكما أن الأطباء متفقون على أن السكر من أسباب الأمراض البدنية والعقلية التي تفضي إلى الموت ، وعلى أن تأثيره في البدن القوي دون تأثيره في البدن الضعيف ، وعلى أن القليل منه يبطل تأثير ضرره عن تأثير ضرر الكثير منه - كذلك أطباء الاجتماع متفقون على أن الإسراف في الفسق والترف مفسد للأمم ، وأن الظلم والبغى والغلو في المطامع من أسباب الهلاك والدمار ، ولكن قد يكون لدى بعضها ما تقاوم به تأثير هذه الأدواء الاجتماعية كالنظام ومراعاة سنن الاجتماع حتى في إخفاء الظلم وإتقان الوسائل والأسباب في لباس الظلم لباس العدل وإبراز إفسادها في صورة الإصلاح وإيجاد أنصار من المظلومين يساعدون في بقاء هذا الظلم ، وإقناع الكثير منهم بأن هذا خير لهم وأبقى ، غير أن كل هذا لا يمنع انتقام الله منهم ، وإنما يؤخره على مقتضى سننه في عباده ، ولا يمنعه عنهم إلا الرجوع إلى الحق والاعتدال والصلاح والإصلاح .

والأجل المقدر بمقتضى نظام الخلق هو الذي يسميه العلماء بالعمر الطبيعي ، فالطبيب إذا فحص الجسم ورأى أعضائه الرئيسية ومقدار مناعتها أمكنه أن يقدر له مدة معينة من الحياة إذا عاش بنظام واعتدال على حسب ما وضعه الله من السنن ، فإذا هو قتل أو غرق قبل انتهاء العمر المقدر له يقال مات قبل انتهاء عمره الطبيعي أو التقديرى ولكن مات بأجله الحقيقي عند الله .

وما ورد من أن الدعاء وصلة الرحم يطيلان العمر ، فإنما ذلك بالنسبة للأجل التقديرى أو الطبيعى الذى هو مظهر سنن الله فى الأسباب والمسببات ، فإن الدعاء الذى منشؤه قوة الإيمان بالله والرجاء فى معونته وتوفيقه للمؤمن فيما يعجز عن أسبابه ، من أسباب طول العمر ، وكذلك صلة الرحم من أهم أسباب مناء العيش ، وهناؤه من أهم العوامل فى إطالة العمر .

كما دلت التجارب على أن الهموم والأكدار خصوصا ما كان منها داخليا كقطيعة الأرحام واليأس من روح الله ومعونته مما يضعف قوى النفس ويهزم الجسم قبل إبان هرمه ، وقد عرف هذه الحقيقة ذلك الشارع الحكيم حين قال :

والهم يخترم الجسم نخافة ويشيب ناصية الصبي ويهزم

ومثلها فى ذلك قلة الغذاء الذى يحتاج إليه البدن أو كثرته ، والإسراف فى كل لذة ، والسكنى فى الأمكنة التى لا يدخلها ضوء الشمس ولا يتخلها الهواء بالقدر الذى يقتل الجراثيم .

والأمم العريقة فى المدنية والحضارة والعالمة بالسنن الإلهية فى الصحة والسقم والقوة والضعف تحصى دائما عدد المرضى والموتى وتضع لذلك نسبا حسابية تعرف بها متوسط الأجال فى كل منها .

وكذلك قد ثبت ثبوتا لا ريب فيه أن من أسباب قلة الوفيات تحسين وسائل المعيشة والاعتدال فيها ، وتوقى الأمراض باجتنب أسبابها المعروفة قبل وقوعها ومعالجتها بعد حدوثها .

وكل ما يقع فالعلم الإلهى قد سبق به ، وكتاب الله وسنة رسوله يؤيدان ذلك أتم التأيد .

وخلاصة معنى الآية — إن لكل أمة أجلا لا يتأخرون عنه إذا جاء ، ولا يتقدمون عليه أيضا ، فهلكوا قبل مجيئه ، ونحو الآية قوله : « مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ » .

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ،
فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت أسماؤه أن لكل أمة أجلا لاتعدوه — حكى هنا ماخاطب
به كل أمة على لسان رسولها وبيّنه لها من أصول الدين الذى شرعه لهدايتها وتكميل
فطرتها ، وأرشدها إلى أنها إن كانت مطيعة تتقى الله فيما تأتى وتذر ، وتصلح أعمالها
فلا يحصل لها فى الآخرة خوف ولا حزن ، وإن هى تمردت واستكبرت وكذبت
الرسول كانت عاقبتها النار ، وبئس القرار .

الإيضاح

(يا بني آدم إنما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى يا بني آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من
البشر يتلون عليكم آياتي التى أنزلها عليكم لبيان ما أمركم به من صالح الأعمال وترك
ما أنهاكم عنه من الشرك والذائل وقبيح الأعمال — فمن اتقى منكم ما نهىته عنه
وأصلح نفسه بفعل ما أوجبه عليه فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة ، ولا هم
يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم .

وحكمة كون الرسول منهم أنه أقطع لعذرهم وأظهر فى الحججة عليهم ، إذ معرفتهم
بأحواله تبين لهم أن المعجزات التى ظهرت على يديه إنما هى بقدره الله لا بقدرته —
إلى ما فى ذلك من حصول الألفة ، فالجنس يألف الجنس ويركن إليه ، ومن ثم
قال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا »

(والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

الاستكبار عن قبول الآيات : رفضها كبرا وعنادا لمن جاء بها كما حدث من رؤساء قريش حين استكبروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم إماما لهم ، إذ رأوا أنفسهم أحق بالرياسة منه ، لأنهم أكثر منه مالا وأعز نفرا .

والمعنى — إن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدا له على الرياسة وتفضيلا لأنفسهم عليه ، أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها أبدا .

والمختلصة — إن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتقاهم لما يفسد فطرتهم من الشرك والمعاصي ، وإصلاح أنفسهم بالطاعة يوجب الأمن وعدم الخوف مما يتوقع وعدم الحزن على ما وقع منهم في الدار الأولى ، وأن تكذيب ما جاءوا به من الآيات والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه المكث في نار جهنم خالدين فيها أبدا كفاء ما فعلوا من التمرد وعصيان أوامر الديان .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هُوَ وَاوَّلَاءُ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في الآية السابقة عاقبة المكذبين بآياته المستكبرين عن قبولها والإذعان لها - ذكر هنا أن من أشدهم ظلما من يتقولون على الله الكذب ، فينسبون إليه ما لم يقله ، كمن يثبت الشريك لله سواء كان صنما أو كوكبا ، أو يضيف إليه أحكاما باطلة ، أو يكذب ما قاله كمن ينكر أن القرآن نزل من عند الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه ، أو حرم عليهم من الدين ما لم يحرمه ، أو عزا إلى دينه أحكاما لم تنزل على رسوله .

(أو كذب بآياته) المنزلة عليهم سواء أكان بالقول أو بما هو أدل منه كالاستهزاء بها أو الاستكبار عن اتباعها أو بتفضيل غيرها عليها بالعمل بها .

(أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) المراد بالنصيب هنا ما قدر لهم من خير أو شر وسعادة أو شقاء ، والمراد من الكتاب كتاب المقادير الذى كتب الله فيه نظام العالم كله ، ومنها أعمال الأحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الأسباب والدواعى وما يترتب عليها من المسببات كالسعادة والشقاء والصحة والمرض إلى نحو ذلك .

والمعنى - إن هؤلاء المفترين يصيبهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال ، فهم مع ظلمهم وافتراءهم على الله لا يحرمون مما قدر لهم إلى انقضاء آجالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « كَلَّا نُمَدُّهُ هُوَ لَاءَ وَهوَ لَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » وقوله :

« نَسْتَمْتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

(حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الرسل هنا هم الملائكة الموكلون بالتوفى أى قبض الأرواح من الأجساد ، أى إنهم ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم حتى إذا ما انتهى بانتهاء آجالهم وجاءتهم رسلنا يقبضون أرواحهم .

(قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟) أى سألهم رسل الموت حين التوفى على سبيل الزجر والتوبيخ : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم فى الدنيا من دون الله لقضاء الحاجات ودفع المضرات ؟ فلتدعوهم لينجوكم مما أنتم فيه من شدة وعذاب .
(قالوا ضلوا عنا) ضلوا: أى غابوا وذهبوا ، لاندرى أين مكانهم ، أى غابوا عنا فلا نرجو منهم النفع ولا دفع الضر .

(وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم إياهم وعبادتهم لهم كافرين ، إذ هم قد زعموا أنهم عنده تعالى كأعوان الأمراء والسلاطين ، وحاش لله أن يتخذ الأعوان والمساعدين ، فالله غنى بعلمه المحيط وقدرته الكاملة عن أن يحتاج إلى الأعوان ، وإنما يحتاج إليها من يجهل أمور الناس ويعجز عن معرفة أحوالهم .

وخلاصة هذا — زجر الكافرين عما هم عليه من الكفر وحملهم على النظر والتأمل فى عواقب أمورهم ، والتحذير من التقليد الذى سيرديهم فى الهاوية .
(قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار) أى يقول ملائكته بأمره يوم القيامة لهؤلاء الكافرين : ادخلوا بين أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ، أى أمم تقدم زمانهم على زمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى لا يسوق الكفار بأجمعهم إلى النار دفعة واحدة ، بل يدخلهم فوجا فوجا فيكون منهم سابق ومسبق ، ويشاهد الداخل من الأمة فى النار من سبقه .

(كلما دخلت أمة لعنت أختها) أى كلما دخلت جماعة منهم فى النار ورأت

ما حل بها من الخزي والنكال - لعنت أختها في الدين والملة ، إذ هي قد ضلت باتباعها والافتداء بها في كفرها كما قال : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » .

والمخالصة - إن المشركين يلعنون المشركين ، واليهود تلعن اليهود ، والنصارى تلعن النصارى ، وهكذا القول في سائر الديانات الضالة كاللجوس والصابئة .

(حتى إذا ادّاركوها فيها جميعا قالت أحرأهم لأولأهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتأهم عذابا ضعفا من النار) اداركوا ، أى تلاحقوا وأدرك بعضهم بعضا واستقر معه ، وضعفا أى مثلاً أى حتى إذا تتابعوا واجتمعوا كلهم فيها ، قالت أخرى كل منهم وهم أتباعهم وسفلتهم لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء : ربنا هؤلاء أضلونا عن الحق باتباعنا لهم وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من أمر الدين وسائر أعمالنا ، فأعطهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم فى أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفين : ضعفا للضلال ، وضعفا للاضلال .

ومعنى قوله لأحرأهم أى فى شأنهم ولأجل ضلالهم ، وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم ، لأنهم ما خاطبوا الله بل خاطبوا الله جات قدرته بهذا الكلام .

(قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون) أى يقول الله تعالى لهم : لكل منهم ضعف من العذاب بإضلاله فوق عذابه على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم ، فإن العذاب روحى ونفسى ، والأول أنكى وأشدّ ألماً ، فالرئيس العزيز فى قومه إذا دخل السجن مع السفلة وأوشاب الناس لا يكون ألمه كألمهم ، وإن كان يشركهم فيما يأكلون ويشربون وفى جميع ما يعملون ، إذ يشعر بعذاب النفس وقهر الذل مما لا يشعر به الآخرون ، وإن كانوا يظنون أن عقوبتهما واحدة فى ألمها كما هى فى صورتها .

ونحو الآية قوله فى الآية الأخرى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

(وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) أى إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضلناكم فما كان لكم علينا أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا مع أن الذنب واحد وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضى له ، فذوقوا العذاب بكسبكم له مهما يكن سببه ، وقد جاء فى سورة الصافات : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ . حَقَّقْنَا عَلَيْهِمْ قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاتُ قُنُونٍ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَأَنبَأَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) .

شرح المفردات

المراد بالآيات هنا : الآيات الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة على وجود الله ووحدته ، والأدلة على النبوة والبعث يوم القيامة ، والجمل هو البعير البازل أى الذى طلع نابه ، وسم الخياط : ثقب الإبرة ، وأصل الإجمام : قطع الثمرة من الشجرة ، ثم استعمل فى كل إفساد كإفساد الفطرة بالكفر وما يترتب على ذلك من انحرافات والمعاصى ، والمهاد : الفراش ، والغواش : واحدها غاشية ، وهى ما يغشى الشيء أى يغطيه ويستتره كاللحاف ونحوه .

المعنى الجملى

هذا من تمه ما سلف من وعيد الكفار وجزاء المكذبين بالقرآن المستكبرين عن الإيمان ، بين به أنهم خالدون فى النار ، وأنهم يلاقون فيها من الشدائد والأهوال ما لا يدرك العقل حقيقة كنهه ، وأن هذا كفاء ظلمهم لأنفسهم واستكبارهم عن طاعة ربهم واتباع أوامره .

الإيضاح

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) أى إن الذين كذبوا بأدلتنا ولم يتبعوا رسلنا وتكبروا عن التصديق بما جاءوا به ، وأنفوا من الانقياد لها - لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء ، ولا يصعد لهم فى حياتهم قول ولا عمل ، لأن أعمالهم خبيثة ، وإنما يرفع إلى الله الكلم الطيب والعمل الصالح كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » . (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) العرب تضرب المثل لما لا يكون بنحو قولهم : لأفعله حتى يشيب الغراب ، وحتى يبيض القار ، وحتى يدخل الجمل فى سم الخياط ، وهم يريدون بذلك أنهم لا يفعلونه أبدا ، والمراد هنا أن هؤلاء لا يدخلون الجنة بحال .

(وكذلك نجزي المجرمين) أى ومثل هذا الجزاء نجزي به كل من صار الإجرام وصفا لهم - لا من أجرموا جرما بشورة غضب أو نزوة شهوة ثم لا يلبثون أن يندموا على ما فرط منهم كما قال تعالى فى وصف المؤمنين : « ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ » وقال أيضا : « وَكَمْ يُبْصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) أى لهم من نار جهنم فرش من تحتهم ، ولهم من فوقهم منها لحف تغطيتهم ، والمراد أنها محيطة بهم مطبقة عليهم كما قال :

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ » وقال : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » وقال :
« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وكذلك نجزي الظالمين) أى ومثل هذا الجزاء نجزي به الظالمين لأنفسهم وللناس،
والآيتان تدلان على أن المجرمين والظالمين الراسخين فى صفتى الإجرام والظلم هم
الكافرون كما قال : « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » والمؤمنون لا يكونون كذلك بحال.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَفْضَلِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٢)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٣)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٤)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٥)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٦)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٧)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٨)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٤٩)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَن نَّصِفَهُمْ فِيهَا شَأْنَ كَيْفٍ نَّصِفُهُمْ (٥٠)

شرح المفردات

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان حال السعة والسهولة ، لاحال الضيق والشدة ،
والنزع : قلع الشيء من مكانه ، والغل : الحقد من عداوة أو حسد ، أورثتموها ، أى
صارت إليكم بلا منازع كما يصير الميراث إلى أهله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه وعيد أهل الكفر والمعاصى - أردفه بوعده أهل الطاعات
وقد جرت سنة القرآن بالجمع بينهما ، فيبدأ بأحدهما لمناسبة سياق الكلام قبله
ثم يقفوه بالآخر :

الإيضاح

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات - لانكف نفسا إلا وسعها - أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله وتنزيله وشرائع دينه وعملوا ما أمرهم به وتجنبوا ما نهاهم عنه - هم أهل الجنة دون سواهم ، وهم يخلدون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يسلبون نعيمها .

ومعنى قوله : (لانكف نفسا إلا وسعها) أننا لا نفرض على المكلف إلا ما يكون فى وسعه وما لا يشق عليه أداءه ولا يضيق به ذرعا - وقد جاءت هذه الجملة أثناء الكلام للتنبيه إلى أن العمل الصالح الذى يوصل إلى الجنة سهل غير صعب ، وميسور لا عسر فيه ولا مشقة .

(ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار) أى وأذهبنا ما كان فى قلوب هؤلاء الذين ذكرت صفتهم من حقد وضمن مما يكون عادة فى الدنيا . فهم لا يدخلون الجنة وفى قلوبهم أدنى عداوة أو بغضاء مما يكون من أسباب تنقيص النعيم فيها ، حال كون الأنهار تجرى من تحتهم فيرونها وهم فى غرفات قصورهم تتدفق فى جنانها و بساينها ، فيزدادون حبورا وسرورا لا تشوب صفاءهم شائبة كدر .

روى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يجبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم فى الدنيا ، فيدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غل » .

وروى عن قتادة أن عليا كرم الله وجهه قال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا » .

(وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله -) أى وقالوا شاكرين لله بالسنتهم معبرين عن غبطتهم وبهجتهم : الحمد لله الذى هدانا

في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح الذي كان جزاؤه هذا النعيم ، وما كان من شأننا ولا مقتضى فكرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله ومعونته لنا عليها ورحمته الخاصة بنا - إلى هدايته التي فطرنا عليها وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل .

(لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أى إنهم قالوا حين رأوا ما وعدهم به الرسل عيانا : لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وهذا مصداق ما وعدنا به في الدنيا على التوحيد وصالح العمل .

(ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) أى ونادتهم الملائكة قائلة لهم : تلکم هى الجنة التى وعدتم بوراثةها جزاء صالح أعمالکم .

أخرج ابن جرير عن السدى قال : ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله فى الجنة والنار منزل مبين ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هذه منازلکم لو عملتم بطاعة الله ، ثم يقال : يا أهل الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، فيقتسم أهل الجنة منازلهم .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

وفى الآية دلالة واضحة على أن الجنة تنال بالعمل ، وفى معناها آيات وأحاديث كثيرة .

أما حديث أبى هريرة الذى رواه الشيخان « لن يدخل أحدا عمله الجنة - قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته » فيراد منه أن عمل الإنسان مهما كان عظيما فلا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله ، حين جعل هذا الجزاء العظيم على ذلك العمل القليل ، فدخلوا الجنة بالعمل دخول بفضل

الله ورحمته ، ومن ثم قال بعده « فسددوا وقاربوا » أى لا تباعدوا ولا تغفلوا فى دينكم ولا تتكفروا من العمل مالا طاقة لكم به .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَاهِهِمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

الوعد خاص بما كان فى الخير ، أو يشمل الخير والشر وهو الصحيح ، والوعيد خاص بالشر أو السوء ، فتسمية ما كان لأهل النار وعدا إما من قبيل التهكم أو للمشكلة ، والتأذين رفع الصوت بالإعلام بالشيء ، واللعنة الطرد والإبعاد مع الخزي والإهانة ، وصدّ عن الشيء : أعرض عنه ، وعوجا أى ذات عوج أى غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد ، والعوج (بفتح العين) مختص بالمرئيات (وبكسر العين) مختص بما ليس بمرئى كالرأى والقول ، والحجاب هو السور الذى بين الجنة والنار كما قال فى سورة الحديد : « فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » والأعراف واحدها عرف (بزنة قفل) وهو أعلى الشيء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك والفرس

والسحاب ، والسيما والسيما : العلامة ، وصرفت أى حولت ، والتلقاء : جهة اللقاء ،
وهى جهة المقابلة يقال فلان تلقاء فلان إذا كان حذاءه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان -- عقب ذلك ببيان
بعض ما يكون بين الفريقين فريق أهل الجنة وفريق أهل السعير من المناظرة
والحوار بعد استقرار كل منهما فى داره .

وفىها دليل على أن الدارين فى أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع إشراف
أهل الجنة وهم فى أعلى عليين على أهل النار وهم فى هاوية الجحيم ، وأن بعضهم
يخاطب بعضا بما يزيد أهل الجنة عرفانا بقيمة النعمة : ويزيد أهل النار حسرة
وشقاء على ما كان من التفريط فى جنب الله .

وهذا التخاطب لا يقتضى قرب المكان على ما هو معهود فى الدنيا ، فعالم
الآخرة عالم تغلب فيه الروحانية على ظلمة الكثافة الجسدية ، فيمكن الإنسان أن
يسمع من بعيد المسافات ، ويرى من أقصى الجهات .

وإن ما جدّ الآن من المخترعات والآلات التى يتخاطب بها الناس من شاسع
البلاد وتفصل بينهما ألوف الأميال إما بالإشارات الكتابية كالبرق - التلغراف
اللاسلكى والسلكى - وإما بالكلام اللسانى كالمسرة - التليفون اللاسلكى
والسلكى - ليقرب هذا أتم التقريب ، ويزيدنا فهما له .

وقد تم لهم الآن أن يروا صورة المتكلم بالتليفون مطبوعة على الآلة التى بها
الكلام وأن ينقلوا الصور من أقصى البلدان إلى أقصاها بهذه الآلة .

الإيضاح

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل
وجدتم ما وعد ربكم حقا؟) أى إن أصحاب الجنة حين استقرارهم فى الجنة واستقرار

أهل النار في النار - إذا ما وجهوا أبصارهم إليهم يسألونهم سؤال افتخار على حسن حالهم ، وسؤال تهكم وتذكير بجناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل ، وسؤال تقرير لهم بصدق ما بانغهم الرسل من وعد ربهم لمن آمن واتقى بجنات النعيم قائلين لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا على السنة رسله من النعيم والكرامة حقا لا شبهة فيه ، وهانحن أولاء : نستمتع بما لآعين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - فهل وجدتم ما أوعدكم ربكم من الخزي والنكال حقا ؟

(قالوا نعم) أى قد وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقا كما بلغنا على السنة الرسل .

(فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) أى فكان رد السؤال والجواب وقيام الحجة عليهم - أن أذن مؤذن قائلا : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم ، وهذا المؤذن إما مالك خازن النار ، وإما ملك غيره يأمره الله بذلك .

ثم بين المراد من الظالمين فقال :

(الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) أى إنهم هم الذين يعرضون عن سلوك سبيل الله الموصلة إلى مرضاته وثوابه ، ويمنعون الناس عن سلوكها ، ويبغونها معوجة حتى لا يسلكها أحد .

وبنى الظالمين وطلبهم اعوجاج السبيل يجىء على ضربين شتى :

(١) تدسية أنفسهم بالظلم العظيم وهو الشرك فيشوبوا التوحيد بشوائب الوثنية في العبادة والدعاء ويشركوا مع الله غيره على أنه شفيع عنده ووسيلة إليه ، وهو ما نهى الله عنه بقوله : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ » وقوله تعالى « حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » .

(٢) ظلمهم لها بالابتداع إذ يبغونها عوجا بما يزيدون في الدين من البدع والمحدثات التي لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ومستندهم في ذلك تأويلات جدلية ومحاولات

للتوفيق بين الدين والفلسفة في الاعتقادات ، أو زيادات في العبادات والشعائر كحفل الموالد وترتيلات الجنائز وأذكار المآذن وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات من الرزق ، أو تحليل ما حرم الله كبناء المساجد على القبور وإيقاد المصابيح والشموع وغيرها عليها .

(٣) ظلمهم لها بالزندقة والنفاق إذ يبعونها عوجا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها .

(٤) ظلمهم لها في الأحكام فيبعونها عوجا بترك الحق ، وإقامة ميزان العدل ، والمساواة بين الناس بالتسوط .

(٥) ظلمهم لها بالغلو فيها يجعل بسرها عسرا وسعتها ضيقا بزيادتهم على ما شرعه الله من أحكام العبادات والمحظورات والمباحات ، مما نزل في كتابه وصح من سنة رسوله .

(وهم بالآخرة كافرون) وهم على ضلالهم وإضلالهم كافرون بالآخرة كفرا متأصلا في نفوسهم ، فلا يخافون عقابا على جرهم ، ولا ذما ولو ما على إنكارهم يوم البعث والجزاء .

والخلاصة - إنهم جمعوا بين الصد عن سبيل الله وبعيها عوجا ، وإنكار البعث والجزاء .

(و بينهما حجاب) أي وبين الفريقين فريق أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل كلا منهما من الآخر ويمنعه من الاستطراق إليه .

وهذا الحجاب هو السور الذي سيأتي ذكره في سورة الحديد بقوله : « يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » الآية .

(وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) أى وعلى أعلى ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيها ، فيعرفون كلا منهما بسيماهم التى وصفهم الله بها فى نحو قوله : « وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِمْ غَبْرَةٌ . تَرَاهُمْ قَائِرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ » .

وهؤلاء الرجال هم طائفة من الموحدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس ، فبيناهم كذلك إذ يطلع عليهم ربهم فيقول : قوموا ادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم ، أخرجهُ أبو الشيخ والبيهقى وغيرهما عن حذيفة ، وفى رواية عنه :

يجمع الله الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا ننتظر أمرك فيقال : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتى ورحمتى .

(ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) أى ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة قائلين لهم : سلام عليكم ، وهذا السلام إما تحية ودعاء وإما إخبار بالسلامة من المكروه والنجاة من العذاب ، هذا إن كان قبل دخول الجنة ، فإن كان بعدها فهو تحية خالصة تدخل فى عموم قوله تعالى « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا . إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا » .

(لم يدخلوها وهم يطمعون) أى نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها بعد وهم طامعون فى دخولها ، لما بدا لهم من يسر الحساب ، وقد جاء فى الآثار أن الناس يكونون فى الموقف بين الخوف والرجاء ، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها .

روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو نادى مناد يا أهل

الموقف ادخلوا النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى :
ادخلوا الجنة إلا رجلا واحدا نخشيت أن أكون ذلك الرجل .

(وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)
أى وكلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى
ألا يجعلهم مثلهم ، والمقصود من الآية الإنذار والتخويف ليتبصر المرء في عاقبة أمره ،
فيفوز بالثواب المقيم في جنات النعيم .

وفي التعبير بصرف الأبصار وتحويلها إيماء إلى أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب
الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، ويكرهون رؤية أهل النار ، فإذا
حولت أبصارهم إليهم عن غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها ، قالوا
ربنا لا تجعلنا معهم حيث يكونون ، وفي ذلك من استعظام حال الظالمين ، واستقطاع
مآلهم وشناعة أمرهم ما لا يخفى .

وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « يحاسب الله الناس يوم
القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته
أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ »
الآيتين ، ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح . ومن استوت حسناته
وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ، ثم عرض أهل الجنة
وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا : سلام عليكم ، وإذا صرفت أبصارهم
إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من
منازلهم . قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم
وبأيامهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا ، فإذا أتوا على الصراط سلب
الله نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون « قَالُوا رَبَّنَا أَتْمِمْ
لَنَا نُورَنَا » وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم ،
فهناك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) فكان الطمع دخولا .

قال سعيد : فقال ابن مسعود . على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم قال : هلك من غلب وُحْدَانَهُ أعشاره . اهـ .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَاهِهِمْ قَالُوا مَا آغَى
عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ
لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ
تَحْزَنُونَ (٤٩)

الإيضاح

(ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) هذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين كانوا يعتزون في الدنيا بغناهم وقوتهم ، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم أو لحرمانهم من عصبية تمنعهم وتذود عنهم ، ويزعمون أن من أغناه الله وجعله قويا في الدنيا فهو الذي يكون له نعيم الآخرة كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا مَنُ أَحْكَمُ الْأُمُورِ إِلَّا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ » .

ومن هؤلاء زعماء قريش وطغاتها الذين قاوموا الإسلام في مكة واضطهدوا أهله كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .

والسيما التي يعرفونهم بها هي سواد الوجوه وزرقة العيون وتشويه الخلق ؛ واختار أبو مسلم أنهم يعرفونهم بسيماهم الخاصة التي كانوا عليها في الدنيا ، وقيل بسيما

المستكبرين ؛ إذ قد جاء في الأثر ما يدل على أن لمن تغلب عليهم رذيلة خاصة - علامة يدل عليهم يُعرفون بها ؛ فقد روى البخارى « يلتقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قرة وغبرة فيعرفه فيشفع له ، فلا تقبل شفاعته ، ثم يمسخه الله ذئبا منتنا ليزول عن إبراهيم خزيه » فمسخه ذئبا مناسب لحاقته وبتن الشرك .

والخلاصة - إنهم نادوهم قائلين لهم : ما أغنى عنكم جمعكم للمال ولا استكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان ، إذ لم يمنع عنكم العقاب ، ولا أفادكم شيئا من الثواب .

ثم وجه إليهم سؤال توبيخ وتأنيب بحضرة هؤلاء المستضعفين فقيل لهم : (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟) أى وقالوا لهم مع الإشارة إلى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم ويعذبونهم فى الدنيا كصهيب الرومى وبلال الحبشى وآل ياسر ، والتهكم من خزيمهم وفوز من كانوا يحتقرونهم : أهؤلاء الذين حلقتم فى الدنيا إن رحمة الله لن تنالهم ؟ إذ لم يعطوا فى الدنيا مثل ما أعطيتم من الأتباع والأشباع وكثرة المال .

(ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) أى وقال الله تعالى لأصحاب الأعراف بعد أن يجلسوا على الأعراف ، وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى مستقبل أمركم ، ولا أنتم تحزنون مما ينقص عليكم حاضركم .

وفائدة هذه المقالة بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ، وليعرفوا أن كل أحد يعرف فى ذلك اليوم بسيماه التى يوسم بها ، سواء أكان من أهل الخير أم من أهل الشر ، فيزيد المحسن فى إحسانه ويرتدع المسيء عن إساءته ، وليعلموا أن العصاة يؤنبهم كل أحد حتى أقل الناس عملا .

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مقال أهل الجنة لأهل النار ومقال أصحاب الأعراف لأهل النار - أردف ذلك بمقال أهل النار لأهل الجنة وطلبهم منهم بعض ما عندهم من نعم الله عليهم .

الإيضاح

(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) إفاضة الماء: صبه، ثم استعملت في الشيء الكثير فيقال: فاض الرزق والخير، وأفاض عليه النعم، وقالوا أعطاه غيضا من فيض أى قليلا من كثير، وما رزقهم الله يشمل الطعام والأشربة غير الماء .

والمعنى - أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة و يطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام .

وعن ابن عباس ينادى الرجل أخاه فيقول: يا أخى أغثنى فإنى قد احترقت فأفرض على من الماء، فيقال: أجبه فيقول: إن الله حرمها على الكافرين .

وعن أبى الدرداء إن الله يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم فيستغيثون فيغاثون بالضريع (نبات رطبه يسمى شبرقا ، ويابسه يسمى ضريعا لا تقربه دابة لنتن ريحه) لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام

ذى غصة ، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلايب الحديد فيقطع ما في بطونهم ويستغيثون إلى أهل الجنة ، فيقول أهل الجنة : إن الله حرمهما على الكافرين .

وهذا طلب منهم مع علمهم باليأس من إجابته ، إذ هم يعرفون دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم أبدا ، ولكن اليأس من الشيء قد يطلبه كما قالوا في أمثالهم (الغريق يتعلق بالزبد) .

(قالوا إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم هوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا) التحريم المنع وهو إما تحريم تكليف كتحریم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وإما تحريم قهر كتحریم الجنة وما فيها على الكافرين في مثل هذه الآية .

والمعنى — إن أهل الجنة قالوا جوابا عن هذا الاستجداء : إن الله قد حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين ، كما حرم عليهم دخولها ، فلا سبيل لإفاضة شيء منهما عليهم وهم في النار ، إذ ليس لهم إلا ماؤها الحميم ، وطعامها من الضريع والزقوم .

وقد وصف أهل الجنة الكافرين بأنهم هم الذين كانوا السبب في هذا المنع والحرمان ، إذ جعلوا دينهم أعمالا لا تركزى الأنفس ولا تجعلها أهلا للتشريف والكرامة ، بل هي إما لهو يشغل الإنسان عن الجهد والأعمال المفيدة ، وإما لعب لا يقصد منه فائدة صحيحة فهو كأعمال الأطفال ، وقد غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها ولذاتها من الحرام والحلال ، أما أهل الجنة فقد سمعوا لها سعيها ، وعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ومن ثم لم يكن من قصدهم من التمتع بنعم الله إلا الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق والعدل ، والاستعداد لحياة أبدية لا نهاية لها .

والخلاصة — إن الدنيا شغلهم بزخارفها العاجلة وشهواتها الباطلة ، فغرتهم وضررتهم ، وهي من شأنها أن تغرّ وتضر وتُمِرّ .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى فالיום نعاملهم معاملة الشيء

المنسى الذى لا يبحث عنه أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، والمراد من النسيان عدم
إجابة دعائهم وتركهم فى النار .

(وما كانوا بآياتنا يجحدون) أى وكما كانوا منكربين أن الآيات من عند الله
إنكارا مستمرا ، ورفضوا ما جاءت به رسله ظلما وعلوا .

والخلاصة — فاليوم نتركهم فى العذاب كما تركوا العمل فى الدنيا لقاء الله يوم
القيامة ، وكما كانوا بآيات الله وحججه التى احتج بها عليهم الأنبياء والرسل يجحدون
ولا يصدقون بشىء منها .

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ
نَسُوهُ مِن قَبْلُ : قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ
فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) .

تفسير المفردات

الكتاب هو القرآن الكريم ، والتفصيل جعل المسائل المراد بيانها مفصولا
بعضها من بعض بما يزيل اشتباهها ، وينظرون أى ينتظرون ، وتأويله أى عاقبته ،
والحق هو الأمر الثابت ، والخسران : الغبن ، وضل عنهم ، أى غاب عنهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف وذكر الحوار الذى كان
بين هذه الفرق الثلاثة على وجه يحمل الناظر فيها على الحذر والاحتراس والتأمل

في العواقب امله يرعوى عن غيه ويهتدى إلى سبيل رشدته ، عقب ذلك بذكر حال الكتاب الكريم وعظيم فضله وجليل منفعته ، وأنه حجة الله على البشر كافة ، وأنه أزاح به علل الكفار وأبطل معاذيرهم ، ثم بذكر حال المكذبين وما يكون منهم يوم القيامة من الندم والحسرة وتمنى العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم .

الإيضاح

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى ولقد جئنا هؤلاء القوم بكتاب كامل البيان وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل ، تركية لنفوسهم وتطهيرا لقلوبهم ، وجعلناه سبب سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وهدى ورحمة لمن يؤمن به إيمانا يبعثه على العمل بما أمر به ، والانتفاء عما نهى عنه .

انظر إليه تجده قد أوضح أصول الدين العامة بما لا يطلب معه زيادة لمستزبد ، فنعى على المقلدين الأخذ بآراء من تقدمهم من آبائهم ورؤسائهم دون بحث ولا تمحيص في مثل قوله « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » . وكرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين ، وحث على النظر والاستدلال والاعتماد على البرهان في مثل قوله « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وبهذا كان الإسلام دين العقل والفطرة وينبوع الهدى والحكمة والرحمة .

وحين وجد الناس افتنوا في الشرك ، وفرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية . فظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الكون — كاف في الإيمان ولا يضر التوجه إلى غيره من المقر بين بالدعاء وطلب ما يعجز المرء عن نياله من طريق الأسباب ، ظنا منهم أن التوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه — أبطل هذه الشبهات . وأزال

هذه التعلمات و بسط ذلك كل البسط . وأطنب فيه أيما إطناب . إلى نحو ذلك من مسائل تبصّر المرء في دينه ودنياه . وتعرفه مبدأه ومنتهاه .

(هل ينظرون إلا تأويله) أى هل ينتظرون إلا عاقبة ما وعدوا به على السنة الرسل من الثواب والعقاب، أى ليس أمامهم شيء ينتظرونه فى أمره إلا وقوع تأويله وهو وقوع ما أخبر به من أمر الغيب الذى يقع فى المستقبل فى الدنيا ثم فى الآخرة مما وعد به المؤمنين من نصر وثواب ، والكافرين من خذلان وعقاب .

روى عن الربيع بن أنس أنه قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ .

(يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى يأتى تأويله ونهايته يوم القيامة وتزول كل شبهة ، فيقول الذين نسوه من قبل أى تركوه وجعلوه كالشيء المنسى وأعرضوا عنه فلم يهتموا به : قد جاءت رسل ربنا بالحق أى قد تبين أنهم قد جاءوا بما هو متحقق ثابت ، فتمارينا فيه وأعرضنا عنه حتى حق علينا الجزاء .

ثم ذكر حالهم فى ذلك اليوم وتلهفهم على النجاة فيتمنون إما شفاعاة الشافعين أو رجوعهم إلى الدنيا ليصلحوا أعمالهم .

(فهل لنا من شفاعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) أى إنهم يتمنون الخلاص بكل وسيلة ممكنة ، إما بشفاعة الشفاعاء وإما بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا فيها غير ما كانوا يعملون فى حياتهم الأولى فيكونوا أهلاً لمرضاة ربهم . وإنما تمنوا الشفاعاء وتساءلوا عنهم ، من حيث كان من أسس الشرك أن النجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفاعاء ، وعند ما يستبين لهم الحق الذى جاءت به الرسل وهو أن النجاة إنما تكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح يتمنون لو يردون إلى الدنيا ليعملوا بما أمرهم به الرسل .

(قد خسروا أنفسهم و ضل عنهم ما كانوا يفترون) أى هم قد غبنوا أنفسهم حظوظها و باعوا نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل ، ويومئذ يغيب

عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء ومقالاتهم التي كانوا يقولونها كقولهم في معبوداتهم (هُوَ لَأَشْفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) .

وخالصة ذلك — إنهم قد خسروا أنفسهم بتدريسها بالشرك والمعاصي وعدم تزكيتها بالفضائل والأعمال الصالحة ، فخسروا حظوظهم فيها .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) .

شرح المفردات

الرب: هو السيد والمالك والمدبر والمربي ، والإله: هو المعبود الذي يدعى لكشف الضر أو جلب النفع و يتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه ، والله: اسم خالق الخلق أجمعين ، ولا يثبت الموحدون ربا سواه ، وأكبر المشركين يقولون إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة ، وكان مشركو العرب لا يثبتون ربا سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ، والسماوات والأرض : يراد بهما العالم العلوي والعالم السفلي ، واليوم: الزمن الذي يمتاز عن غيره بما يحدث فيه كتمتياز اليوم المعروف بما يحده من النور والظلام ، وامتياز أيام العرب بما كان يقع فيها من الحرب والغصام ، وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض وهي التي مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة ، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يعدّ خلقها بأيام منها ، ولأن الله تعالى يقول « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » ويقول في وصف يوم القيامة « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » والعرش لغة: كل

شئ له سقف ، ويطلق على هودج للمرأة يشبه عرش الكرم ، وعلى سرير الملك وكرسيه في مجلس الحكم والتدبير ، والاستواء لغة: استقامة الشئ واعتداله ، واستوى الملك على عرشه أى ملك ، وثل عرشه أى هلك ، وغشى الشئ الشئ : ستره وغطاه ، وأغشاه إياه : جعله يغشاه أى يغطيه ويستره ، ومنه إغشاء الليل النهار ، وحيثا أى مسرعا ، من قولهم فرس حثيث السير أى سريعه ، بأمره أى بتدبيره وتصرفه، مسخرات أى مذلات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته ؛ وانخلق : التقدير والمراد هنا الإيجاد بقدر ؛ تبارك الله : تعاضمت بركاته ؛ والبركة : الخير الكثير الثابت .

المعنى الجملى

علمت مما سلف من قبل أن الأسس التى عنى القرآن الكريم بشأنها هى التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر ، وإثبات المعاد موقوف على إثبات الوجدانية لله والعلم الشامل والقدرة التامة .

ولما بسط القول فيما سلف فى أمر المعاد وبين فئات الناس فى ذلك اليوم وما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة — قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين وبيان مقدوراته تعالى وعظيم مصنوعاته لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لا معبود سواه .

الإيضاح

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) يخاطب سبحانه الناس كافة بأن ربكم واحد ؛ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ودبر أمرهما فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، إذ لا إله لكم غيره .

وقد جاء فى معنى الآية قوله فى سورة حم السجدة : « قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ

فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ
 لِلْسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا
 أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ
 سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «
 وَقوله في سورة الأنبياء . « أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
 رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ، أَفَلَا يُوْمِنُونَ ؟ » .

وبالتأمل في هذه الآيات نستخلص منها الأمور الآتية :

- (١) إن للمادة التي خلقت منها السموات والأرض كانت دخاناً أى مثل الدخان.
- (٢) إن هذه المادة الدخانية كانت واحدة ثم فتق الله رتقها أى التثامها بأن
 فصل بعضها من بعض ، فخلق منها هذه الأرض والسموات السبع .
- (٣) إن خلق الأرض كان في يومين ، وأن تكون اليابسة والجبال الرواسي فيها
 وأنواع النبات والحيوان كان في يومين آخرين تنمة أيام أربع .
- (٤) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية خلقت من الماء .
- (٥) إن اليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الزمن الذي كانت فيه كالدخان
 حين فتقت من رتق المادة العامة التي خلق منها كل شيء سواء أكان
 ذلك بواسطة أم بدونها .
- (٦) إن اليوم الثاني هو الزمن الذي كانت فيه مائية بعد أن كانت بخارية
 أو دخانية .
- (٧) إن اليوم الثالث هو الزمن الذي تكونت فيه اليابسة ونبأت منها الرواسي
 فتماسكت بها .
- (٨) إن اليوم الرابع هو الزمن الذي ظهرت فيه أجناس الأحياء من الماء وهي
 النبات والحيوان .

(٩) إن السماء - العالم العلوى بالنسبة إلى أهل الأرض - قد سويت أجرامها من مادتها اندخانية في يومين آخرين أى زمنين شبيهين بالزمنين اللذين خلق فيهما جرم الأرض .

وما استنبط من هذه الآيات يوافق ما أقره علماء الفلك في العصر الحديث، فقد قالوا: إن المادة التي خلقت منها الأجرام السماوية وخلقت منها الأرض كانت سديما، وكانت واحدة رتقا ثم انفصل بعضها من بعض، وكانت مؤلفة من أجزاء دقيقة متحركة تجتمع بعضها إلى بعض بمقتضى قانون الجاذبية فتكوّن منها كرة عظيمة تدور على محورها واشتعلت من شدة الحركة فكانت ضياء ونورا تصحبه حرارة شديدة، وهذه الكرة العظيمة في عالمنا هي التي نسميها بالشمس والكواكب الدرارى التابعة لها فيما نرى ونشاهد ومنها أرضنا، انفتقت من رتقها وانفصلت من جرمها وكانت مشتعلة مثلها وتدور على محاورها .

ثم إن الأرض تحولت من طور الغازية المشتعلة إلى طور المائية بنظام مقدر في أزمنة طويلة، إذ كان الأوكسجين والهيدروجين وهما العنصران اللذان يتكون منهما الماء يرتفعان في الجو لثقلتهما فيبردان فيكونان بخارا فماء وما زال أمرها كذلك حتى غاب عليها طور المائية .

ثم تكونت اليابسة في هذا الماء بسبب حركة أجزاء المادة وتجمع بعضها مع بعض بنسب ومقادير مختلفة، ثم تولدت فيها المعادن على أنواع شتى، وما زالت تبرد قشرتها الظاهرة وتجف شيئا فشيئا حتى صالحت لتولد النبات والحيوان فوجدت فيها الأحياء النباتية ثم الحيوانية .

ولاشك أن هذه الأقوال إن صحت كانت بياننا لما أجمل في الكتاب الكريم وإن لم تصح فالقرآن لا يناقض شيئا منها، ولكنها أقرب النظريات إلى سنن الكون. وصفة عناصره البسيطة وحركتها، وتعتبر تفصيلا لخلق العالم أطوارا بسنن ثابتة وتقدير منظم .

وقد أرشد الكتاب الكريم إلى مثل هذه الحقائق في نحو قوله : « إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وقوله حكاية عن رسوله نوح صلى الله عليه وسلم مخاطبا قومه : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا . وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ؟ » .

فهذه الحقائق العلمية التي بينها القرآن ولم يكن أحد من المخاطبين في عصر التنزيل يعرفها - من أكبر الأدلة على إعجازه وأنه من كلام العليم الخبير بكل شيء - لا من كلام البشر .

وهذا النظام والتدرج في الخلق من الدلائل على الإرادة والاختيار والحكمة ووحدانية الخالق ، فإن ما لانظام فيه قد يظن أن وجوده أمر اتفاقي أو من فعل الكثير لا من فعل الواحد ، فإنك ترى الفرق واضحا بين كومة من الحصى تراها في الصحراء وبين حصن شيد فيه جميع العُدد والآلات المعدة للقتال .

وما ورد في الأخبار مما يدل على أن هذه الأيام الستة هي من أيام دنيانا كحديث أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المسكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الرواسي يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فهو من الإسرائيليات التي لم يصح فيها حديث مرفوع - إلى أن هذا الحديث مردود من جهة متنه لمخالفته لنص كتاب الله ، ومن جهة سنده لأنه مروى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وقد اختلط عقله في آخر عمره ، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد الحديث في تفسيره : وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قال : « في ستة أيام » ولهذا تكلم البخاري

وغير واحد من الحفاظ فيه وجملوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا ه .

(ثم استوى على العرش) أى إنه تعالى قد استوى على عرشه بعد تكوين هذا الملك يدبر أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره الذى اقتضته حكمته .

وفى معنى الآية قوله فى سورة يونس : « إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » .

واستواؤه تعالى على العرش : هو استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرها والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقة ذلك التدبير ولا معرفة صفته ولا كيف يكون ، فالصحابه رضوان الله عليهم والأئمة من بعدهم لم يشبهه أحد منهم فيه ، وقد أثر عن ربيعة شيخ الإمام مالك أنه سئل عن قوله : « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق .

وقال الحافظ ابن كثير : مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث ابن سعد والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه . وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله - تشبيه ، فمن أثبت ماوردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى ه .

(يغشى الليل النهار يطالبه حينئذ) أى إنه تعالى جعل الليل وهو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض أى يتبعه ويغلب على المكان الذى كان فيه

ويستره حال كون الطلب حثيثا أى بسرعة ، والمراد أنه يعتمبه سريعا كالطالب له
لا يفصل بينهما شيء .

ويظهر ذلك الطلب السريع أتم الظهور بما أثبتته العلم حديثا من كروية الأرض
وأنها تدور على محورها حول الشمس ، فيكون نصفها مضيئا بنورها دائما ونصفها
الآخر مظلما دائما ، وقد قال بهذا القول كثير من علماء الإسلام كالغزالي والرازي
وابن تيمية وابن القيم وغيرهم .

وهذه الجملة كالدليل على ما قبلها ، فإنه بعد أن أخبر عباده باستوائه على العرش
وتدبيره لجميع المخلوقات - أراهم ذلك عيانا فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر
وتزول الشبه - إلى ما في تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة ،
إذ بتعاقبهما يتم أمر الحياة وتكمل المنفعة والمصلحة .

(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى وخلق هذه الأشياء حال
كونها مذلات خاضعات لتصرفه منقادات لحكمه .

(ألا له الخلق والأمر) أى ألا إن لله الخلق، فهو الخالق المالك لذوات المخلوقات
وله فيها الأمر أى التصرف والتدبير ، إذ هو المالك لها لا شريك له فى ملكه .

ومن هذا التدبير ما سخر له الملائكة من نظام العالم وتنفيذ سننه فى خلقه ،
كما جاء فى قوله : « فَاَلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » ومن ذلك الوحي الذى ينزل به الملائكة على
الرسل كما جاء فى قوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ
يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » .

وفى معنى الآية قوله : « إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ » وقوله : « فَأَلْحِكُمُ اللَّهُ الْعَلِيِّ
الْكَبِيرِ » وقوله : « اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » وجاءت هذه الجملة توكيدا
لما قبلها لبيان أنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى دبرها وصرّفهما على
حسب إرادته .

(تبارك الله رب العالمين) أى تعالى الله بوحدانته وأوهيته ، وتعظم بالتفرد برؤيته ، وأن كل مافى هذا العالم من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة فهو منه ، فيجب على عباده أن يشكروه عليها ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه وليس له من الخلق ولا من الأمر شيء .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) .

شرح المفردات

التضرع : التذلل ، وهو إظهار ذل النفس من قولهم ضرع فلان لفلان وتضرع له : إذا أظهر الذل في معرض السؤال ، والخفية : ضد العلانية من أخفيت الشيء أى سترته ، والاعتداء : تجاوز الحدود ، ومحبة الله للعمل : ثوابه عليه ، وللعامل رضاه عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على توحيد الربوبية - قفى على ذلك بالأمر بتوحيد الإلهية بإفراده تعالى بالعبادة ، وروحها ومحها الدعاء والتضرع له .

الإيضاح

(ادعوا ربكم تضرعا وخفية) أى ادعوا ربكم متولى أموركم حال كونكم متضرعين مبتهلين إليه مخفين دعاءكم .
وفى هذا إيحاء إلى أن الدعاء فى الخفية إن لم يكن واجبا فهو مندوب على الأقل ، ويدل على ذلك وجوه : .

(١) إنه تعالى أثنى على زكريا فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » أى إنه أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه .

(٢) روى أبو موسى الأشعري رضى الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » رواه مسلم .

(٣) روى أنه عليه السلام قال : « دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى » .

(٤) روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » اهـ .

(٥) إن النفس شديدة الرغبة فى الرياء والسمعة ، فإذا رفع صوته بالدعاء امتزج الرياء به ، فلا يبقى فيه فائدة البتة ، ومن ثم كان الأولى الإخفاء ليبقى مصونا عن الرياء .

وفصل بعض العلماء فقال : إن التضرع بالجهر المعتدل يحسن فى حال الخلو والأمن من رؤية الناس للداعى ومن سماعهم لصوته ، فلا جهره يؤذيهم ، ولا الفكر فيهم يشغله عن التوجه إلى الرب وحده ، أو يفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة ، ويحسن الإسرار فى حال اجتماع الناس فى المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية فى الحج وتكبير العيد .

وإذ كان الليل سترا ولباسا شرع فيه الجهر في قراءة الصلاة - إلى أنه يطرد الوسواس ، ويقاوم فتور النعاس ، ويعين على تدبر القرآن ، وبكاء الخشوع للرحمن لدى المهجدين في خلواتهم .

(إنه لا يجب المعتدين) أى المتجاوزين ما أمروا به ، ونحو الآية قوله : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .
وللاعتداء في الدعاء مظاهر شتى .

(١) اعتداء خاص بالألفاظ كالمبالغة في رفع الصوت والتكلف في صيغ الدعاء .
(٢) اعتداء خاص بالمعنى وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصى ومقاصدها كضرر العباد وطلب إبطال سنن الله في الخلق ، أو تبديلها كطلب النصر على الأعداء مع ترك وسائله كأنواع السلاح والعتاد ، وطلب الغنى بلا كسب ، وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب مع أن الله يقول « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

(٣) اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله ليشفع له عنده ، وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ومن طلب ذلك من غير الله فقد اتخذها إلهًا ، لأن الإله هو المعبود كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء هو العبادة » وروى الترمذى عن أنس مرفوعا « الدعاء مخ العبادة » وروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال : القرب من الله عز وجل ، ثم قرأ « يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ » وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه الله على لسان رسوله دون غيره .

وقد جاءت آيات كثيرة فى الإنكار على المشركين دعاء غير الله وكونه عبادة له وشركا بالله ، ولكن مدعى العلم الذين يتقوّلون على الله : يقولون لا بأس بدعاء

الأولياء والصالحين عند قبورهم والتضرع والخشوع لهم ، ويكون توسلا بهم إلى الله ليقرّبهم منه بشفاعتهم ، لا عبادة لهم .

وقد علمت أن التوسل إنما هو التقرب إلى الله بما يرتضيه وبما شرعه من عبادته دون غيرها ، وآيات الكتاب الكريم صريحة في ذلك .

نعم إن طلب الدعاء من المؤمنين مشروع من الأحياء لامن الأموات ، ويسمى ذلك توسلا لأنه قد شرعه الله كما توسل عمر والصحابه بالعباس بصلاة الاستسقاء وما بعدها من الدعاء .

وما ذم الله المشركين إلا لأنهم أشركوا مع الله غيره في الدعاء ، وهم كانوا يؤمنون بالله و بعضهم كان يؤمن باليوم الآخر ، ولكن طرأ عليهم الشرك الذي أحبط أعمالهم ، وهكذا يحبط إيمان من أشرك من المسلمين بدعاء غير الله .

(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) أى ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاح الله لها بما خلق فيها من المنافع وما هدى الناس إليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم وامتنانه بذلك في مثل قوله « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ » .

وهذا الإفساد شامل لإفساد النفوس بالقتل وقطع الأعضاء ، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ، وإفساد الأديان بالكفر والمعاصي ، وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنا ، وإفساد العقول بشرب المسكر ونحوه .

والمخالصة — إن الأفساد شامل لإفساد العقول والعقائد والآداب الشخصية والاجتماعية والمعيش والرافق من زراعة وصناعة وتجارة ووسائل تعاون بين الناس . وإصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين وإرسال الرسل ، وتم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان رحمة للعالمين ، فبه أصلحت عقائد البشر ، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد ، وما شرع لهم

من التعاون والتراحم ، وبما حفظ لهم من العدل والمساواة ، وبما شرع لهم من الشورى المقيدة بقاعدة درء المفاسد وحفظ المصالح ، وبذا امتاز دينهم عن بقية الأديان .

انظر إلى الأمم ذوات الحضارة والمدنية ترها أصلحت كل شىء من معدن ونبات وحيوان ، ولكنها عجزت عن إصلاح نفس الإنسان ، ومن ثم تحول كل ما هدوا إليه من وسائل العمران إلى إفساد نوع الإنسان ، وتعادت الشعوب وتنازعت على الملك والسلطان ، وأباحت الكفر والعصيان وبذل الثروة فى سبيل التنكيل بالخصوم والجناية على الأعداء ولو بالجناية على أنفسهم ، وما الحروب القائمة فى مشارق الأرض ومغاربها بين الدول الكبرى والتي أكلت الحرث والنسل وأزهقت أرواح الملايين من الناس بين حين وآخر إلا شاهد صدق على ما نقول .

وبعد أن بين فى الآية الأولى شرط الدعاء أعاد الأمر به إذانا بأن من لا يعرف أنه محتاج إلى رحمة ربه مفتقر إليها ، ولا يدعوا ربه تضرعا وخفية ولا يخاف من عقابه ولا يطمع فى غفرانه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح فقال :

(وادعوه خوفا وطمعا) الخوف توقع مكروه يحصل بعد ، والطمع توقع محبوب يحصل كذلك أى ادعوه خائفين من عقابه على مخالفتكم لشرعه المصالح لأنفسكم وأجسامكم ، طامعين فى رحمته وإحسانه فى دنياكم وآخرتكم .

ودعاء المولى حين الشعور بالعجز والافتقار إليه مما يقوى الأمل بالإجابة ويحول بينها وبين اليأس إذا تقطعت الأسباب وجهلت وسائل النجاح .

والدعاء مخ العبادة ولها ، وإجابته مرجوة متى استكملت شرائطها وآدابها ، فإن لم تكن بإعطاء الداعى ما طلبه فر بما كانت بما يعلم الله أنه خير له منه .

ثم بين فائدة الدعاء وعلل سبب طلبه فقال :

(إن رحمة الله قريب من المحسنين) أى إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم ، لأن الجزاء من جنس العمل كما قال «هَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» .

فمن أحسن في عبادته نال حسن الثواب ، ومن أحسن في الدعاء أعطى خيرا مما طلبه ، أو مثل ما طلبه .

وقد طلب الله الإحسان في كل شيء يهدى إليه دين الفطرة ، وحرّم الإساءة في كل شيء وجعل جزاءها من جنسها كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه مسلم . ومن هذا تعلم أنه طلب الإحسان إلى الحيوان والرفق به حين ذبحه حتى لا يتعذب ، كما حرّم أكل الموقوذة وهي التي تضرب بغير محدد حتى تنحل قواها وتموت .

وطلب الإحسان في قتال الأعداء ، لأنه في حكم الضرورات التي تقدر بقدرها ويتقى ما يمكن الاستغناء عنه كما قال « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْمَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

فقد طلب إلينا في هذه الآية أن نضرب رقاب الأعداء حين قتالهم ، لأنه أسرع إلى قتلهم وأبعد عن تعذيبهم بمثل ضرب الرؤوس وتقطيع الأعضاء ، حتى إذا ظهر لنا عليهم الغلب بالإيخان فيهم أمرنا بترك القتل وأن نعمل إلى الأمر وبعد ذلك إما أن نمن على الأسرى بالعتق ، أو نغاديبهم بمن أسر منا .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ

الطَّيِّبُ يُخْرَجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبِثَ لَا يُخْرَجُ إِلَّا نَكِدًا ،
كَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكِرُونَ (٥٨) .

شرح المفردات

الريح: الهواء المتحرك ، والرياح عند العرب أربع على حسب مهابها من الجهات الأربع: الشمال والجنوب، وسميا كذلك باسم الجهة التي يهبان منها والصبأ أو القبول، وهي الشرقية وقد ينسبونها إلى نجد كما ينسبون الجنوب إلى اليمن والشمال إلى الشام والدَّبُور، وهي الغربية. والريح التي تنحرف عن الجهات الأصلية فتكون بين اثنتين منها تسمى النكباء .

قال الراغب: كل موضع ذكر الله فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة، وفي الخبر « إنه صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه حين هبوب الرياح ويقول: اللهم اجعلها لنا رياحا ولا تجعلها ريحا، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك » وبشرا: مخفف بُشْرًا واحدها بشير: كغُدُر جمع غدِير، والرحمة: هنا المطر، وأقلت: رفعت؛ قال في المصباح: كل شيء حملته فقد أقلته، والسحاب: الغيم واحده سحابة، والثقال منه: المشبعة ببخار الماء، وسقناه: سيرناه، والبلد والبلدة: الموضع من الأرض عامرا كان أو خلاء، وبلد ميت: أرض لا نبات فيها ولا مرعى، والثمرات واحدها ثمرة، والثمرة واحدة الثمر: وهو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أولا، فيقال ثمر الأراك وثمر النخل والعنب، والنكد كل شيء خرج إلى طالبه بتعسر يقال رجل نكد (بفتح الكاف وكسرهما) وناقة نكداء: خفيفة الدر صعبة الحلب، والتصريف: تبديل الشيء من حال إلى حال، ومنه تصريف الرياح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه تفرد به بالملك والملكوت وتصرفه فى العالم العلوى والسفلى وتدييره الأمر وحده ، وطلب إلينا أن ندعوه متضرعين خفية وجهرا ، ونهانا عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، وأبان لنا أن رحمته قريب من الحسين . - قفى على ذلك بذكر بعض ضروب من رحمته ، إذ أرسل إلينا الرياح وما فيها من منافع للناس، فيها ينزل المطر الذى هو مصدر الرزق وسبب حياة كل حى فى هذه الأرض ، وفى ذلك عظيم الدلالة على قدرته تعالى على البعث والنشور .

الإيضاح

(وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) أى إن ربكم المدبر لأموال الخلق ، هو الذى يرسل الرياح بين يدى رحمته : أى بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها، فينشئ بها سحابا ثقالا لكثرة ما فيها من الماء ، حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء ساقها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعة ، ودرست مشاربه ، وأجذب أهله .

ونحو الآية قوله : « وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » .

(فأنزلنا به الماء) أى فأنزلنا بالسحاب الماء ، إذ قد ثبت أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة ، يرتفع فى الجو ويبرد لوصوله إلى منطقة باردة ، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد ، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء وتكون السحاب ، فالسحاب ناشئ من تكاثف بخار الماء من الهواء فى الطبقات العالية من الجو ، وهو لا يكون ثابتا فى مكان ، بل يسير فى اتجاه أفقى مدفوعا بقوة الريح ،

ويتراوح بعده عن الأرض بين ميل وعشرة أميال ، ويكون معتماً مُشْبَعاً بالماء إذا كان قريباً من سطح الأرض ، وهو الذي ينشأ عنه المطر لتجمع قطيرات الماء التي فيه بعضها مع بعض بتأثير البرودة ، فتتكون قطيرات كبيرة تسقط من خلاله نحو الأرض لثقلها على حسب سنة الله في جاذبية الثقل كما قال تعالى في سورة الروم : « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنَ خِلَالِهِ » وفي سورة النور : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي - يسوق - سَحَابًا ثُمَّ يُؤَافُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا - مجتمعا - فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرَاقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » والمراد بالسماء السحاب ، إذ هي لغة : كل ما علا الإنسان وأظله .

وقد أثبت العلم ودلت المشاهدة أن سكان الجبال الشاخنة يبلغون في العلو حذاء السحاب المطر أو يتجاوزونه إلى ما فوقه فيكون دونهم كما شاهد ذلك بعض النازلين في بعض الفنادق في جنيف بسويسرا .

(فأخرجنا به من كل الثمرات) أى فأخرجنا بالماء أنواع الثمار على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها ، فتخرج كل أرض أنواعاً مختلفة منها تدل على قدرة الله وعلمه ورحمته وفضله كما قال : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وبعد أن ذكرهم بهذه الآيات قفى على ذلك بما يزيل إنكارهم للبعث فقال : (كذلك نخرج الموتى) أى ومثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من الناس وغيرهم ، إذ القادر على هذا قادر على ذلك .

(لعلكم تذكرون) هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث بنحو قولكم « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولكم « أُنْذِرْنَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أُنْذِرْنَا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » وقولكم « أُنْذِرْنَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » .

فأمثال هذه المقالات الدالة على إنكار خروج الحى من الميت تزول إذا أتمت تذكركم خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لا فارق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، فكل منهما خاضع لقدرة الإله القادر على كل شىء .
والحياة فى عرف المخاطبين كانت تعرف بالتغذى والنمو فى النبات والحس والحركة فى الحيوان .

وما يقوله علماء الطبيعة الآن من أن الحى لا يولد إلا من حى سواء فى ذلك الحيوان والنبات ، فالنبات الذى يخرج فى الأرض الفراء بعد سقيها بالماء لا بد أن تكون له بذور فيها حياة كامنة لا تظهر إلا بالماء — فمثل هذه الحياة لم يكن معروفا عند واضعى اللغة ، على أنه لا ينفى صحة خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لولا تغذى البذور والجزور بمواد الأرض الميتة بسبب الماء لما نبتت .

والقرآن الكريم قد حدثنا بأن الأرض تفتى بتفرق مادتها ثم يعيدها الله كما بدأها فقال « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا » فهذه الرجة هى التى سميت فى الآيات الأخرى بالقارعة والصاخة إذ ربما يقرعها كوكب ويصطدم بها فتفتتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق فى الجو المسمى بالسديم .

إعادة الموتى

جاء فى الكتاب الكريم قوله « كَأَ بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » وقوله : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » وقوله « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

فأثبت في هؤلاء الآيات الإعادة وشبهها بالبدء ، وهو تشبيه في جملة ذلك لا في تفصيله ، فإنه كما خلق جسد الإنسان الأول خلقا ذاتيا مبتدأ ونفخ فيه الروح - يخلق أجسام أفراد الإنسان خلقا ذاتيا معادا ، ثم ينفخ فيها أرواحها التي كانت بها أناسى في الحياة الدنيا ، فما الأجساد إلا كالسكن للأرواح .

وليس بالبعيد على خالق العالم كله أن يعيد أجساد ألوف الملايين دفعة واحدة ، ولا سيما بعد أن أثبت العلم أنه يمكن تحليل بعض المواد المؤلفة من عناصر مختلفة ، ثم إعادة تركيبها ، وقد كان لتقدم الإنسان في العصر الحديث ومعرفته لكثير من ظواهر الكون أثر عظيم في تعرفنا لكثير من أخبار عالم الغيب وسهولة إدراك العقول لها ، ومن ثم قال كثير من علماء العصر الحديث : ليس في العالم شيء مستحيل .

ولا يراد بحشر الأجساد حشرها بأعيانها لأجل وقوع الجزاء عليها ، ألا ترى أن العلماء يقولون : إن الأجساد تتجدد في قليل من السنين . ومع ذلك لا يعتقد أحد من القضاة أن العقاب يسقط عن الجاني بالتحلل أجزاء بدنه التي زاول بها الجناية وتبدل غيرها بها ، فحقيقة الإنسان لا تتغير بهذا التبدل ، إذ ليس هذا إلا كتبدل الثياب ونحوها ، إذ المستحق للثواب والعقاب هو الروح ، لأن مبنى الطاعة والعصيان الإدراكات والإرادات والأفعال والحركات .

وإخلاصة — إن الإنسان الحقيقي هو الذرة التي تحمل في القلب وفيها تحمل الروح وتكسبها الحياة وتسرى منها إلى الهيكل الجسماني ، فهذا الهيكل هو آلة قضاء أعمال تلك الذرة في هذا الكون ، واكتساب العلوم والمعارف ، وهي مع الروح الحال فيها هما المخاطبان بالتكليف ، وهما المعادان والمنعمان والمعذبان إلى نحو ذلك .

وبعد أن ضرب الله إحياء البلاد بالمطر مثلا لبعث الموتى — ضرب اختلاف نتائج البلاد مثلا لما في البشر من اختلاف الاستعداد لكل من الهدى والكفر والرشاد والغى فقال :

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) قوله

والذي خبث أى والبلد الذى خبث لا يخرج نباته إلا نكدًا ، وأصل النكد هو العسر الممتنع من إعطاء الخير بخلا .

والمعنى — إن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التى يخرج نباتها بسهولة وينمى بسرعة ويكون كثير الغلة طيب الثمرة ، ومنها الخبيثة التربة كالخرقة — الحجرية — والسبخة التى لا يخرج نباتها على قننه وخبثه إلا بعسر وصعوبة .

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر أى للبر والفاجر اه أى إنه تعالى شبههما بالأرض الخيرة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، فالأرض الخيرة يحصل فيها بنزول المطر أنواع الأزهار والثمار ، والأرض السبخة إن نزل عليها المطر لا تنبت من النبات إلا النذر القليل ، فكذلك الروح الطيب النقى من شوائب الجهل ورذائل الأخلاق إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع الطاعات والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيث الكدر وإن اتصل به نور القرآن لا يظهر فيه من المعارف وجميل الأخلاق إلا النذر القليل .

روى أحمد والشيخان والنسائي من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وكان منها أجادب — التى لا تشرب ولا تنبت — أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنماء هى قيعان — أرض مستوية — لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به « وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القسم الأول وهو الذى نفع وانتفع بالهادى والمهتدى ، وفسر القسم الثالث وهو الذى لم ينفع ولم ينتفع بالجاحد ، وسكت عن القسم الثانى وهو الذى نفع غيره بعلمه ولم ينتفع به هو ، لأن له أحوالا كثيرة فمنه المنافقون ومنه المفرطون فى دينهم ، والمشاهدة تدل على أن الطيبى الأخلاق

يفعلون الخير والبر بلا تكلف ، وأن الخبيثين لا يفعلون الخير ولا يؤدون الواجب إلا نكدا بعد إلخاف أو إيذاء حين الطلب أو إدلاء إلى الحكام .

(كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) أى مثل ذلك التصريف البديع بردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ، ونكررها لقوم يشكرون نعمنا باستعمالها فياتم حكمتنا ، وبذا يستحقون منا المزيد ويكافئون بالثواب عليها .

وختم هذه الآية بالشكر ، إذ كان موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، والآية التي قبلها بالتذكر لما كان موضوعها الاعتبار والاستدلال .

قصص نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبَلْغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) .

شرح المفردات

اليوم هنا : يوم القيامة ، والملأ: أشراف القوم لأنهم يملئون العيون بهجة ورواء بتأنقهم في زيهم وتجميل منظرهم ، والنصح : الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية

من شوائب المكر ، والذكر : الموعظة ، وعلى رجل أى على لسانه ، منكم أى من جنسكم ، والفلك : السفينة ، وعمين واحدهم عم : وهو ذو العمى ، أو هو خاص بعمى القلب والبصيرة ، والأعمى : أعمى البصر كما قال زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

المعنى الجملى

بعد أن ذكر — عظمت آلاؤه — مبدأ الإنسان ومعاده وأن مرده إلى الله فى يوم تجازى فيه كل نفس بما كسبت — قفى على ذلك بذكر قصص الأنبياء مع أممهم وإعراضهم عن دعوتهم ، ليبين للرسول أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس بيدع فى قومك ، بل سبق به أقوام كثيرون ، وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم — إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله لا يهمل أمر المبطلين ، بل يمهلهم ، وتكون العاقبة للمتقين ، ومن العظة والاعتبار بما حل بمن قبلهم من النكال والوبال كما قال « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

الإيضاح

(لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية من أهل مكة ومن جاورهم من العرب بأنه سبحانه أرسل نوحا إلى قومه منذرا لهم بأسه ونخوفهم سخطه ، على عبادتهم غيره ، وقد كانوا ينكرون الرسالة والوحى ، إذ ليس عندهم من علوم الرسل والأمم شىء إلا ما يتلقونه من اليهود والنصارى فى بلاد العرب والشام .

ونوح أول رسول أرسله الله إلى قومه المشركين كما هو رأى كثير من المحققين كما ثبت فى حديث الشفاعة وغيره .

(فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى فدعا من كفر منهم إلى

عبادة الله تعالى وحده ، إذ ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه في عبادتهم بدعاء يطلبون به ما لا يقدرون عليه بكسبهم ، فربهم هو الخالق لكل شيء وبيده ملكوت كل شيء ، وهو الإله الحق الذى يجب أن تتوجه إليه القلوب بالدعاء وغيره . ثم ذكر السبب فى الأمر بعبادته وحده ، وترك أدنى شوائب الشرك ، مثبتا للبعث والجزاء فقال :

(إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى إني أخاف عليكم عذاب يوم شديد هوله وهو يوم البعث والجزاء إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به .

(قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين) أى قال له أشراف قومه : إنا لنراك فى ضلال بين عن الحق بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا ودّ وسُواع وبنوث ويعوق ونسر وهم شفعاؤنا عند الله ووسيلتنا إليه ، فببركتهم يتقبل منا صالح أعمالنا ، ويعطينا سؤلنا ، لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى ، ونحن لا نستطيع أن نوجه إليه دعواتنا دون وساطتهم ، لما نجترحه من السيئات التى تبعدنا عن حظيرة ذلك القدس الأعظم .

وخلاصة مقالهم — أنت فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، فجعلتك لا تجد إلى الصواب سبيلا .

(قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أى قال نوح مجيبا لهم : يا قوم لم آمركم بما أمرتكم به من توحيد الله وإخلاص الطاعة له دون الآلهة والأنداد خروجاً منى عن محجة الحق ، وضلالاً عن سبيل الرشاد ، ولكنى رسول من رب العالمين إليكم ، أهدىكم باتباعى إلى ما يوصلكم إلى السعادة فى دنياكم وآخرتكم ، وأقذكم من الهلاك الأبدى بالشرك بالله والمعاصى المدنسة للأنفس والمفسدة للأرواح .

ومن رحمة ربكم بكم ألا يدعكم فى عمائتكم وشرككم الذى ابتدعتموه بجهلكم

حتى يبين لكم الحق من الباطل على يد رسول من لدنه يسلك بكم السبيل السوى
الموصل إلى النجاة .

(أبلغكم رسالات ربي) أي أرسلني إليكم لأبلغكم ما طلب إليّ تبليغه من
التوحيد والإيمان وباليوم الآخر والوحى والرسالة والملائكة والجنة والنار والآداب
والمواعظ والأحكام العامة من عبادات ومعاملات إلى نحو ذلك .

(وأنصح لكم) بتحذيركم عقاب الله على كفركم به وتكذيبكم لي وردكم نصحي .
روى مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين
وعامتهم » .

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) أي وأنا في هذا التبليغ وذلك النصيح على علم من
الله أوحاه إليّ لا تعلمون منه شيئاً ، كما أني أعلم من أمر الله وشئونه ما لا تعلمون في نظام
هذا العالم وما ينتهي إليه ، كما أعلم ما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء - فإذا
نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شرككم من إنزال العذاب بكم في الدنيا إذا جحدتم
وعاندتم ، فإنما أنصح لكم عن علم يقيني لا تعلمونه .

(أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلمكم
ترحون) أي أ كذبتهم وعجبتهم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل
منكم ، ليحذركم عاقبة كفركم ويعلمكم بما أعد لكم من العذاب على ذلك ولتتقوا
بهذا الإنذار ما يسخط ربكم عليكم بالشرك في عبادته ، والإفساد في أرضه ، وليعدكم
بالتقوى لرحمته التي ترجى لكل من أجاب الدعوة واتقى .

وفي قوله : على رجل منكم ، بيان لشبهتهم على الرسالة وهي أن الرسول بشر مثلهم ،
فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك في البشرية والصفات العامة يقتضي التساوي
في جميع الخصائص والمزايا ويمنع الانفراد بشيء منها ، والمشاهدة أكبر برهان على
بطلان هذه القضية ، فالتفاوت في الغرائز والصفات الفاضلة والاختلاف في القوى

العقلية والمعارف والأعمال الكسبية - جد عظيم في البشر ، وليس في الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان في ذلك - إلى أنه لو فرض التساوى بينهم ، فهل هذا يمنع أن يختص الله بعباده بما هو فوق المجهود في الغرائز والمكتسب بالتعلم ؟ كلا ، إنه تعالى قدير على ذلك ، وقد قضت به مشيئته ، ونفذت به قدرته .

(فكذبوه فأنجيناهم والذين معه في الفلك) أى فكذب به جمهورهم وأصرّوا على ذلك وخالفوا أمر ربهم ولجوا في طغيانهم يعمهون ، فأنجيناهم من الفرق والذين سلكهم معه في الفلك من المؤمنين : « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » وقد جاءت القصة مفصلة في سورة هود ، قيل كانت عدتهم ثلاث عشرة : نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم وستة ممن كانوا آمنوا به .

(وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمن) أى وأغرقنا من كذب بآياتنا بالطوفان بسبب تكذيبهم ، وما كان ذلك التكذيب إلا لعمى بصائرهم الذى حال بينهم وبين الاعتبار بالآيات وفهمهم للدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته على إرسال الرسل وحكمته فى ذلك ، والثواب والعقاب فى يوم الجزاء ، يوم يحشر الناس لرب العالمين ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنهم من شدة العذاب حيارى .

قصص هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُمُ

ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ
 لِيُنذِرَكُمْ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
 فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا
 أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ
 وَغَضَبٌ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ
 بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ
 وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَمْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا
 مُؤْمِنِينَ (٧٢) .

شرح المفردات

الأخ هنا: الأخ في النسب ، وتقول العرب في أخوة الجنس يا أخا العرب ،
 والسفاهة: خفة العقل، والآلاء واحدها ألى: وهي النعمة، والرجس: العذاب، والغضب:
 الانتقام ، والمجادلة: المارة والمخاصمة، والسلطان: الحججة والدليل ، والدابر: الآخر ،
 ويراد به الاستئصال أى أهلكناهم جميعا .

المعنى الجملى

أخرج ابن إسحق من طريق الكلبي قال : إن عادا كانوا أصحاب أوثان
 يعبدونها - اتخذوها على مثال ود وسواع ويغوث ونسر ، فاتخذوا صنما يقال له صمود
 وآخر يقال له الكهتار ، فبعث الله إليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان

من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » .
وكانت منازلهم بالأحقاف - الرمل - فيما بين عُمان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله .

الإيضاح

(و إلى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم فى النسب هودا ، والحكمة فى كون رسول القوم منهم أن يفهمهم ويفهم منهم ، وأن يكونوا أقرب إلى إجابة دعوتهم لمعرفة شئنا وأخلاقه .

(قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى قال هود لهم : يا قوم أفردوا العبادة لله ولا تجعلوا معه إلهاً غيره .

(أفلا تتقون) ربكم وتبتعدون عما يسخطه من الشرك والمعاصى لتنجوا من عقابه ؟ وجاء فى سورة هود : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وقد يكون قال لهم هذا وذلك فى وقت واحد ، أو يكون قد قال لهم هذا مرة وذلك أخرى .

(قال للملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى قال الملأ الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة هود إليهم : إنا لنراك فى ضلال عن الحق والصواب بتركك ديننا وعبادة آلهتنا الذين اتخذت لهم الأمة الصور والتماثيل تخليداً لذكراهم والتقرب بشفاعتهم إلى ربنا وربهم .

ووصف الملأ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح ، لأن منهم من كان قد آمن .
(وإنا لنظنك من الكاذبين) فى قيلك إني رسول من رب العالمين ، وفى قولهم هذا إيماء إلى تكذيبهم كل رسول ، إذ هم قد عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحداً منهم .

(قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) أى ليس بي أى ضلالة عن الحق والصواب كما تدعون ، ولكني رسول من رب العالمين أرسلني إليكم ، لأبلغكم رسالات ربي وأوديتها إليكم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا يختار لها إلا من عرفوا برجحان العقل وحصافة الرأي وكمال الصدق .

ثم بين وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيما بلغ فقال :

(أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) أى أبلغكم ما أرسلت به من التكاليف ، وإني ناصح لكم فيما أبلغكم إياه وأدعوكم إليه ، أمين فيما أبلغ عن الله ، فلا أكذب عليه في وحيه إلى .

وفي إجابة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم بتلك الإجابة الصادرة عن الحكمة والإغضاء عما قالوا من وصفهم إياهم بالسفاهة والضلالة - أدب حسن وخلق عظيم وتعليم لعباده كيف يقابلون السفهاء ، وكيف يفضون عن قالة السوء التي تصدر عنهم .

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟) أى أ كذبتم وعجبتم أن أنزل ربكم وحيه بتذكيركم وعظمتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على لسان رجل منكم لينذركم بأسه ويخوفكم عقابه ؟ .

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة) أى واذكروا فضل الله عليكم ونعمته ، إذ جعلكم ورثة قوم نوح وزادكم بسطة في خلق أبدانكم (وقد كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان) واتقوا الله في أنفسكم واحذروا أن يحل بكم من العذاب مثل ما حل بهم ، فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سنته فيهم ، وقد جاء في سورة هود والشعراء وفصلت ما يدل على ما كان لهم من قوة وجبروت و بطش شديد .

(فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) أى فاذكروا نعم الله وفضله عليكم ، واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراف به ، و هجر الأوثان والأصنام

لعلكم تفوزون بما أعدّه للشاكرين لنعمه ، الراجين للمزيد منها ، وتدركون الخلود والبقاء والنعيم الأبدى فى دار القرار .

ثم ذكر ما ردوا به عليه فقال :

(قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يقال : جاء يعلم الناس كيف يحاربون ، وذهب يقيم قواعد العمران ، على معنى شرع يفعل ذلك .
والمعنى — أجبنا لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء وهم الوسيلة عنده ، وهم الذين يقربوننا إليه زلفى ، وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم .

و بعد أن استنكروا التوحيد واحتجوا عليه بما لا يصلح عقلا ولا شرعا أن يكون حجة من تقليد الآباء والأجداد استعمالوا الوعيد فقالوا .

(فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الإيمان بك ، والعمل بما جئت به من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده — إن كنت صادقا فى قولك ووعيدك .

فأجابهم هود على مقالتهم بقوله :

(قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أى قال هود لقومه : قد قضى عليكم ربكم مالك أمركم بعذاب وطرده من رحمته ، وقد كان عذابهم ريحا صرصرا (ذات صوت شديد) عاتية تنزع الناس من الأرض ثم ترميهم بها صرعى (كَأَنَّهُمْ أَجْجَارٌ نَّخَلٍ مُنْقَعِرٍ) أى قد قلع من منابته ، وزال من أماكنه .

(أنجادلوننى فى أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟) أى أنخصموننى فى أسماء وضعتموها أتم وآباؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولاهدى منكم ولا منهم ، لمسميات اتخذوها فاتخذتموها آلهة زاعمين أنها تقر بكم إلى الله زلفى وتشفع عنده لكم ، ما أنزل الله من حجة ولا برهان يصدق زعمكم بأنه رضى أن تكون واسطة بينه

و بينكم ، وكيف وهو الواحد الأحد الذى يصمد إليه عباده فى العبادة ، وطلب ما لم
يمكنهم بالأسباب العادية .

والتخلص — إنه هو الذى يتوجه إليه وحده ، ولا يشرك معه أحد من خلقه
كما قال إبراهيم : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وكل ما يتعلق بعبادة الله لا يعلم إلا بوحي منه ينزله على رسوله ؟ إذ لا يعلم إلا من
عباده المبلغين عنه .

(فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أى فانتظروا نزول العذاب الذى طلبتموه
بقولكم (فأتنا بما تعدنا) إني معكم من المنتظرين لنزوله بكم ، وفصل قضائه فينا
وفيكم ، وإني لموقن بذلك وأنتم مرتابون .

(فأنجيناهم والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا
مؤمنين) أى فلما جاء أمرنا ووقع ما وقع — أنجيناهم هودا والذين آمنوا به وبما دعا
إليه من توحيد الله وهجر الأوثان — برحمة عظيمة منا ، واستأصلنا دابر الذين جحدوا
بآياتنا ولم يبق منهم أحدا يريح صرصر عاتية : « تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا
لا يرى إلا ماساكنهم » .

قصص صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا

وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا
لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : اتَّعَمُّونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ
بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)
فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)
فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّ وَإِنِ اسْتَكْبَرْتُمْ
لَكُمُ الْعَذَابُ عَظِيمٌ (٧٩) وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) .

شرح المفردات

ثمود : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى
القرى ، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ؛ وأخوة صالح لهم : أخوة
في النسب كأخوة هود لقومه ، والبينة : المعجزة الظاهرة الدلالة ، واذكروا أى تذكروا ،
وبوأكم فى الأرض أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ، والأرض : أرض الحِجْر بين
الحجاز والشام ، والنحت : نجر الشيء الصلب ، والعيث والعثى : الفساد ، استكبروا : عتوا
وتكبروا ، وعقروا الناقة : نحروها ، وأصل العقر الجرح ، وعقر الإبل : قطع قوائمها ، وكانوا
يفعلون ذلك قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ، وعتوا : تمردوا مستكبرين ،
والعتو : التمرد ، والامتناع إمام عن عجز وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا : إذا أسنَّ وكبر ،
وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين ، ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية
يتمتع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود ، الرجفة : المرة من الرجف
وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه ، ورجفت

الأرض: زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف، ودار الرجل: ما يسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس: قعدوا لاحتراك بهم ، قال أبو عبيدة: الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

الإيضاح

(وإلى ثمود أخاهم صالحا) أى ولقد أرسلنا إلى بنى ثمود أخاهم صالحا .
 (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) أى قال صالح لثمود: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فما لكم من إله تعبدونه سواه .
 (قد جاءكم بينة من ربكم) أى قد جاءكم حجة وبرهان على صدق ما أقول وحقيقة ما أدعو إليه من إخلاص التوحيد له وإفراده بالعبادة دون سواه .
 وفي قوله: من ربكم، إيماء إلى أنها ليست من فعله ، ولا مما ينالها كسبه، وهكذا سائر ما يؤيد به الله الرسل من خوارق العادات .
 وهذه المقالة كانت لهم بعد نصحتهم وتذكيرهم بنعم الله وتكذيبهم له كما جاء في سورة هود من قوله: « هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » إلى آخر الآيات .
 (هذه ناقة الله لكم آية) أضاف الناقة إلى الله تعظيما لشأنها ، ولأنها لم تأت بنتاج معتاد وأسباب معهودة ، ومن ثم كانت آية . وأى آية ؟
 وإنما استشهد صالح على صحة نبوته بالناقة ، لأنهم سألوه إياها آية دالة على صدق دعوته وصحة نبوته .

ثم ذكر ما يترتب على كونها آية أنه لا ينبغي التعرض لها فقال :
 (فذرروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) أى إن الأرض أرض الله والناقة ناقة الله ، فاتركوها تأكل ما تأكل في أرض ربها ، وليس لكم أن تحولوا بينها وبينها ، ولا تتعرضوا لها بسوء في نفسها ولا في أكلها ،

فإنكم إن فعلتم ذلك أخذكم عذاب أليم ، وقد وصف في سورة هود بالعذاب القريب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بالسوء ، وكذلك كان ، وجاء في سورة القمر : « وَنَبَّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ » .

وجاء تفسير هذا في سورة الشعراء : « هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى إن الماء الذى كانوا يشربون منه قسمة بينهم وبين الناقة ، إذ كان ماء قليلا ، فكانوا يشربونه يوما وتشرب هي يوما ، وقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها .

ثم ذكروهم بنعم الله عليهم وبوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده فقال :

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) أى وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورا زاهية ، ودورا عالية ، بما ألهمكم من حذق فى الصناعة ، فجعلكم تضربون اللين وتمحرقونه آجرا (الطوب المحرق) وتستعملون الجص وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة ، وتنحتون من الجبال بيوتا ، إذ علمكم صناعة النحت ، وآتاكم القوة والجلد .

روى أنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول فى باقى الفصول للزراعة والعمل .

(فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا فى الأرض مفسدين) أى وتذكروا هذه النعم العظام ، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة ، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران وحيهود بفعل ما لا يرضى الله الذى خلقها لكم ، فما بالكم بالكفر والعشى فى الأرض بالفساد .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون

أن صالحا مرسل من ربه ؟) قد جرت سنة الله أن يكون الفقراء المستضعفون أسرع الناس إلى إجابة دعوة الأنبياء والرسل ، وإلى كل دعوة لإصلاح ، فإنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وأن يكفر بها أكبر القوم وأغنياؤهم المترفون ، إذ يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين لسواهم ، كما يصعب عليهم الامتناع عن الإسراف في الشهوات ، والوقوف عند حدود الاعتدال .

وعلى هذا السنن سار الملائم من قوم صالح إذ قالوا للمؤمنين منهم : أتعملون أن صالحا رسول من عند الله ؟ ومرادهم بهذا التهمك والاستهزاء بهم .

(قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) أى إنا بما أرسل به صالح من الحق والهدى مصدقون ومقرون بأنه من عند الله ، وأن الله أمر به ، وعن أمر الله دعانا صالح .

وفي جوابهم هذا دون أن يقولوا - نعم ، أو نعلم أنه مرسل منه ، أو إنا برسالة عالمون - إيماء إلى أنهم علموا بذلك علما يقينيا إذعانيا له السلطان على عقولهم وقلوبهم وما كل من يعلم شيئا يصل علمه إلى هذه المرتبة ، بل من الناس من يعلم الشيء بالبرهان ، لكنه يجحده ويحاربه وهو موقن به حسدا لأهله ، أو استكبارا عنه كما قال تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

(قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) أى قال الذين استكبروا عن أمر الله وأمر رسوله صالح : إنا بالذي صدقتم به من نبوة صالح وإن الذي جاء به هو الحق - جاحدون منكرون لانصدق به ولا تقر .

وإنما لم يقولوا إنا بالذي أرسل به صالح كافرون - لأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة ، فلو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بجحود الحق على علمهم به استكبارا وعنادا .

ثم ذكر ما فعلوه مما يدل على كفرهم بآيات ربهم فقال :
(فعقروا الناقة) أى فعقر أولئك المستكبرون الناقة ، ونسب الفعل إليهم جميعا والفاعل واحد منهم كما جاء في سورة القمر : « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »

وجاء في حديث البخارى مرفوعا «فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة في قومه كأبى زمعة» لأنهم لما اتفقوا عليه ورضوا به صاروا كأنهم فعلوه جميعا .

وفي ذلك تهويل وتفظيع لأمرهم ، وأن أضراره ستصيبهم جميعا ، ومثل هذا من الأعمال ينسب إلى الأمة في جملتها ، وتعاقب عليه جميعها كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(وعتوا عن أمر ربهم) أى وتمردوا وتجبروا عن اتباع الحق الذى بلغهم صالح إياه ، وهو ما سلف ذكره .

روى أحمد والحاكم عن جابر قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر قال (لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما ، فقروها فأخذتهم صيحة أخذ الله مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ — وهو أبو رغال — فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه) » .

(وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) الوعد يكون فى الخير والشر أى قالوا له : ائتنا بما وعدتنا به من عذاب الله ونعمته ، إن كنت رسولا إلينا ، وتدعى أن وعيدك تبليغ عنه ، فالله ينصر رسله على أعدائه ، فعجل ذلك لنا .

(فأخذتهم الرجفة) وفى سورة هود « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ » وفى سورة حم السجدة « فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ » وفى سورة الذاريات « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » والمراد بالجميع الصاعقة ، فإن لنزولها صيحة شديدة القوة ترجف من هولها الأفئدة وتضطرب الأعصاب ، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان .

وقد علم أن سبب حدوثها اتصال كهربائية الأرض بكهربائية الجوات التى يحملها

السحاب ، فتحدث صوتا كالصوت الذى يحدث باشتعال قذائف المدافع ، وهذا الصوت هو المسمى بالرعد .

وتحدث الصاعقة تأثيرات عظيمة كصعق الناس والحيوان وهدم المباني أو تصديعها وإحراق الشجر ونحو ذلك ، وقد هدى العلم إلى الطريق فى انتقاء أضرارها بالمباني العظيمة بوضع ما يسمونه (مانعة الصواعق) .

وقد يجوز أن الله سبحانه جعل هلاكهم فى وقت ساق فيه السحاب المشبع بالكهرباء إلى أرضهم على حسب السنن المعروفة ، وقد يجوز أن الله قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيهما كان قد وقع ، فقد صدق الله رسوله وحدث ما أنذرهم به .

(فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى لم يلبثوا أن سقطوا مصعوقين جثنا هامة حين نزلت بهم الصيحة فى أرضهم .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) أى قال لهم صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتما متحسرا كما يقول المتحسر على من مات جانبا على حياته بالانغماس فى شهواته : ألم أنكح عما يوردك ريب المنون . ألم أحذرك تلك العاقبة الوخيمة التى لم تتداركها قبل وقوعها ، فإذا أفعل ، إذ فضلت لذة الساعات والأيام على عيش هنيء يدوم عشرات الأعوام .

وروى مثل هذا مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم من ندائه بعض قتلى قريش بيدر بعد دفنهم فى القليب (البئر غير المبنية) .

« يا فلان بن فلان ، وفلان بن فلان : أيسركم أنكم أطعم الله ورسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » قال راوى الحديث أبو طلحة الأنصارى : قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟

أو فيها — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم » رواه البخارى وغيره عن طريق قتادة عن أبي طلحة الأنصارى رضى الله عنه ، ثم قال : قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وسلم توييخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما ه . قال العلماء ومثل هذا مما اختص به الأنبياء . وبهذا الحديث ونحوه مما ورد من حياة الأنبياء والشهداء في البرزخ ، يستدل زوار الأضرحة والقبور الذين يدعون أصحابها لقضاء حاجاتهم ويقولون : إن كل من دعا ميتا من الصالحين يسمع منه ويقضى حاجته ، قياسا على ذلك ، مع علمهم بأن الأمور الغيبية يقتصر فيها على ما سمع عن الأنبياء ولا يدخلها باب القياس .

قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) .

شرح المفردات

لوط: هو لوط بن حاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ولد في (أور الكلدانيين) في الطرف الشرقى من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة

قورا ، وهناك كانت مملكة آشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرقى الأردن لجودة مراعيها ، وكان فى ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط فى إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبائث ، ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك .

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ؟) أى واذا ذكر لوطا حين قال لقومه موبخا لهم : أتفعلون تلك الفعلة التى بلغت الغاية فى القبح والفحش .

(ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى ما عملها أحد قبلكم فى أى زمان ، بل هى من مبتدعاتكم فى الفساد ، فأنتم فيها أسوة وقدوة ، فتبوءون بأثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة .

وفى هذا بيان لأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة ، ومن ثم لم تتطلع إليه نفوس أحد من البشر قبلهم ، إلى ما فيه من مخالفة لهدى الدين .
(إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يراد بالإتيان الاستمتاع الذى عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين ، وداعيته الشهوة وقصد النسل .

وقد سجل عليهم هنا أنهم يبتغون الشهوة وحدها ، فهم أخس من سائر أفراد الحيوان ، لأن الذكور منها تطلب الإناث بدافع الشهوة والنسل الذى يحفظ النوع ، ألا ترى أن الطيور والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء الأعشاش فى أعلى الأشجار أو الوُكُن فى قلل الجبال أو الأبحار فى باطن الأرضين ، ولكن هؤلاء المجرمين لا غرض لهم إلا إرضاء شهواتهم ، ومن يقصد اللذة وحدها دون النسل أسرف فيها وانقلب نفعها ضرا وصار خيرها شرا .

وفى هذا مزيد تفريع وتوبيخ لهم ، كأن ذلك لا ينبغى أن يصدر من أحد .

وفى قوله: من دون النساء ، إيماء إلى أنهم تجاوزوا النساء اللاتى هن محل الاشتباه عند ذوى الفطر السليمة إلى غيرهن .

(بل أتم قوم مسرفون) أى إنكم لا تأتون هذه الفاحشة ثم تقدمون على ما فعلتم ، بل أتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ولا تتفون فيها عند حد الاعتدال ، وقد جاء فى سورة النمل « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مَّجْهُولُونَ » أى أتم ذوو سفه وطيش ، وفى سورة العنكبوت « أُنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ » .

وفى كل هذا دليل على أنهم كانوا مسرفين فى لذاتهم ، متعددين حدود العقل والفطرة ، لا يعقلون ضرر ما يفعلون بجنايتهم على النسل والصحة والآداب العامة ، فهم لو عقلوا ذلك لاجتنبوها ، ولو كان لديهم شىء من الفضيلة لانصرفوا عنها .

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتهم إنهم أناس يتطهرون) أى وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئاً من الجحجج المقنعة أو الأعذار المسكنة لثورة الغضب ، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم ، وما حجبتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا إن هؤلاء أناس يتطهرون ويتزهون عن مشاركتهم فى فسوقهم ورجسهم ، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم ، لما بينهم من الفوارق فى الصفات والأخلاق .

وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهمك ، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظوهم : أبعدوا عنا هذا المتكسف ، وأريحونا من هذا المتزهد .

وقد بلغ من قبحهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها ويحتقروا من يتزهد عنها ، وهذا أسفل الدرجات ، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .
(فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) يقال غير أى بقى ، وغير : ذهب

وهلك ، أى فأنجيئناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته ، فإنها لم تؤمن به ، بل خانته بولاية قومه الكافرين ، فكانت من جماعة المهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب فى الدنيا ، وبعده عذاب الآخرة .

(وأمطرنا عليهم مطرا) الإمطار حقيقة فى المطر مجاز فىما يشبهه فى الكثرة من خير وشر مما يجيء من السماء أو من الأرض أى وأرسلنا عليهم مطرا عجيبا أمره وهو الحجارة التى رجما بها ، وجاء فى سورتي هود والحجر إنها حجارة من سجيل مسومة أى معلمة ببياض فى حمرة .

وقد يكون سبب إمطار الحجارة عليهم إرسال إعصار من الريح حمل تلك الحجارة وألقاها عليهم ، أو أن تلك الحجارة من بعض النجوم المخطمة التى يسميها علماء الفلك الحجارة النيزكية وهى بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها إذا صار بالقرب منها ، وهى تحترق غالبا من سرعة الجذب وشدته ، وهى الشهب التى ترى بالليل ، فإذا سلم منها شئ من الاحتراق ووصل إلى الأرض ساخ فيها وكان لسقوطه صوت شديد ، وقد وجد الناس بعض هذه الحجارة ووضعوها فى دور الآثار .

(فانظر كيف كان عقاب المجرمين) أى فانظر أيها المعتبر هذا القصة وتأمله حق التأمل ، لتعلم عقاب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة .

وهذا العقاب أثر طبيعى لذلك ، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم ويذهبان ببأسها ويفرقان كلمتها ويجعلانها شيئا وأحزابا متعادية ، فيسلط الله عليها من يستذلها ويسلبها استقلالها ، ويسخرها لمنافعه ، ولا يزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من المهالكين .

وقد يكون هلاكها بسنن الله فى الأرض من إرسال الجوائح كالزلازل والمواد المصطهرة التى تقذفها البراكين من الأرض ، أو بالأوبئة والأمراض الفتاكة ، أو بالثورات والفتن والحروب ونحو ذلك مما يكون سببا فى انقراض الأمم وفنائها

وخلاصة القول في تحريم هذه الفاحشة :

- (١) إنها مفسدة للشبان بالإسراف في الشهوات .
 - (٢) إنها مفسدة للنساء اللواتي ينصرف أزواجهن عنهن ويقصرون فيما يجب عليهم من إحصانهم .
 - (٣) قلة النسل فإن من لوازم ذلك الرغبة عن الزواج والرغبة في إتيان الأزواج في غير مآتى الحرث .
- وفي الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين للآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه وجعل ذلك وسيلة للحياة الوالدية التي تنمو بها الأمة ويحفظ بها النوع البشرى من الزوال .

وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُنْتُمْ كَوْمًا ، وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) .

شرح المفردات

يقال بخسه حقه أى نقصه ، والإفساد : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق والآداب : بارتكاب الإثم والفواحش ،

وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران المحسنة لأحوال المعيشة ، والصراط : الطريق ، وتوعدون : تخوفون الناس ، وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعيبا كذاب ، فلا يفتنكم عن دينكم ، فكثركم أى بما بارك في نسلكم .

المعنى الجملى

شعيب نبي من أنبياء العرب ، وفي التوراة إن اسمه رعوثيل ؛ فقد جاء في سفر الخروج أن حمى موسى كان يدعى رعوثيل .

(رعو: صديق ، وثيل: الله) أى صديق الله أى الصادق في عبادته ، وفي موضع آخر من سفر الخروج إن موسى كان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مدين ، ويثرون لقب وظيفته ، وهو من نسل إبراهيم .

وفي الفصل الخامس من سفر التكوين إن زوجة إبراهيم قطورة ولدت له ستة أولاد منهم مدان أو مدين أو مديان (معناه خصام) وكانت أرضهم تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سينا ، وفي رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سينا إلى الفرات .

وقال الألوسى : ومدين وسمع مديان علم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم سميت به القبيلة .

الإيضاح

(وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم) تقدم مثل هذا في قصة صالح عليه السلام ، ولكن هناك بين الآية

بأنها النافذة ، ولم يذكر هنا ولا فى أى سورة أخرى آية معينة لشعيب عليه السلام ، ولكن لابد أن تكون له آية تدل على صدقه ، وتقوم بها الحجة عليهم .

فقد روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » أى إن كل نبى مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله .

والبينة كل ما يتبين به الحق ، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية ، والأمم القديمة لم تكن تدعن إلا لخوارق العادات .

وبعد أن أتى شعيب صلوات الله عليه بالمعجزات القاطعة للعدو ومكابرة الحق رتب على ذلك قوله :

(فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وقد ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا ، والنهى عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا بعد أن أمرهم بتوحيد الله ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصى ومن ثم اهتم به كما اهتم لوط بنهى قومه عن الفاحشة السوءى التى كانت فاشية فيهم ، فقد كانوا من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أى ينقصونه فيبخسونهم أشياءهم وينقصونهم حقوقهم .

والبخس يشمل نقص الكيل والموزون وغيرها من المبيعات كالمواشى والأشياء المعدودة ، ويشمل البخس فى المساومة والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق ، وفى الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل .

وقد فشا كل من هذين النوعين في هذا العصر ، فكثير من التجار باخسون مطففون فيما يبيعون وما يشتررون ، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة بخاسون لحقوق بني جلدتهم ، مدعون للتفوق عليهم ، منكرون لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسدا عليهم و بغيا .

وقد روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ويقولون هذه زيوف فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس أى بالنقصان .

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أى إنه تعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة ، ومكنهم فى الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح ، وبما أودع فى خلق الأرض من سنن حكيمة ، وقوانين مستقيمة ، وبما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم فى المعاملات والاجتماع ، وبما أرشد إليه المصلحين من العلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط ، ويهدون الناس إلى مافيه صلاحهم فى دينهم ، والعاملين من الزراعة والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة الذين ينفعون الناس فى دنياهم .

فعلیکم ألا تفسدوا فيها بیغى ولاعدوان على الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش ، ولا تفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام وبث الخرافات والجهالات التى تقوض نظم المجتمع ، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما استفاد من هذه الآية وما بعدها .

(ذلكم خیر لکم إن كنتم مؤمنین) أى ذلكم الذى تقدم من الأمر والنهى خیر لکم فى دینکم ودنیاکم ، فإن ربکم لا یأمر إلا بالنافع ولاینهى إلا عن الضار . وإنما یکون ذلك خیرا لکم إن كنتم مؤمنین بوحدانية الله وبرسوله وبما جاءکم من شرع وبما آتاکم به من هدى ، فالإیمان یقتضى الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله وإن خالف النفس والهوى .

والمؤمن الموحد لا يخضع إلا لربه ، وإنما يطيع رسوله لأنه مبلغ عنه كما قال :
 « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » وفي حديث أحمد بن خديج أن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال : « إنما أنا بشر مثلكم ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا
 أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » .

هذا والبشر لم يصلوا في عصر من العصور إلى عشر ما وصلوا إليه في هذا العصر
 من العلم بالمنافع والمضار ومعرفة المصالح والمفاسد في المعاملات والآداب ، ومع هذا فإن
 العلم وحده لم يفيئهم شيئا ، فكثرت في البلاد الجرائم من قتل وسلب وإفساد زرع
 وفسق وفجور ونحو ذلك مما كان سببا في تدهور نظم المجتمعات .

فخير وسيلة لإصلاح الأمم تربية الأحداث والناطقة تربية دينية بإقتناعهم بمنافع
 الفضائل كالصدق والأمانة والعدل ، وإقتناعهم بمضار الرذائل ، لأن الوازع النفسي
 أقوى من الوازع الخارجي .

(ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها
 عوجا) أى ولا تقعدوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل ، وقد روى عن ابن عباس
 أن بلادهم كانت خصبة وكان الناس يمتارون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق
 ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا ويقولون لهم إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم .

وقد رتب سبحانه هذه الأوامر والنواهي على حسب الترتيب الزمني ، فوجهت
 الدعوة أولا إلى أقرب الناس في بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب من الذين يزورون
 أرضهم ، وقد كان الأقربون دارا هم الأبعدين استجابة له ، وحين رأوا غيرهم يقبل
 دعوته ويهتدى بها شرعوا يصدون الناس عنه فلا يدعون طريقا توصل إليه إلا قعد
 بها من يتوعد سالكيها إليه ، ويصدونهم عن سبيل الله التي يدعوهم إليها ، ويطلبون
 بالتبويه والتضليل أن يحملوا استقامتها عوجا ، وهداها ضلالا .

والخلاصة -- إنه نهام عن أشياء ثلاثة :

(١) تعودهم على الطرقات التي توصل إليه مخوفين من يبيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته .

(٢) صدمهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين .

(٣) ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالظعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها ، وهم بعملهم هذا ارتكبوا ضلالتين التقايد والعصبية للأباء والأجداد ، وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي أباحت لهم الظعن في الأديان حتى بلغوا في ذلك حد الطغيان .

(واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) أى وتذكروا الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بما بارك فى نسلكم ، واشكروا له ذلك بعبادته وحده ، واتباع وصاياه فى الحق ، والإعراض عن الفساد فى الأرض . وقد روى أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها البركة والنماء فكثروا .

وقد يكون المعنى — إذ كنتم مقلين فقراء فجعلكم مكثرين موسرين — أو المراد : إذ كنتم أذلة قليلى العدد فأعزكم بكثرة العدد والعدد .

(وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح وعاد وثمود ، وكيف أهلكتهم الله بفسادهم وبغيهم فى الأرض ، فاعتبروا بما حل بهم ، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

(وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) حكم الله بين عباده ضربان :

(١) حكم شرعى يوحىه إلى رسله ، وعليه جاء قوله فى سورة المائدة بعد الأمر بالوفاء بالعقود وإحلال بهيمة الأنعام : « إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » .

(٢) حكم فعلى يفصل فيه بين الخلق بمقتضى سننه فيهم كقوله في آخر سورة يونس : « وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .
 والمعنى — وإن كان جماعة منكم صدقوا بالذي أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم في المكاييل والموازين ، واتبعوني في كل ذلك ، وجماعة أخرى لم يصدقوني وأصروا على شركهم وإفسادهم — فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ، وهو خير من يفصل ، وأعدل من يقضى ، لتنزهه عن الباطل والجور ، وليعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم وسيحل بهم مثل ما حل بأولئك على حسب السنن التي قدرها العليم الحكيم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

اللهم وفقنا للسير على سنن العدل والرشاد ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء في الثامن عشر من رجب المعظم سنة ثنتين وستين وثلاثمائة هجرية .

وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢٢

٢٣

٢٤

٢٥

٢٦

٢٧

٢٨

٢٩

فهرس

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	المستهزئون بالقرآن
٩	الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
١٥	الأصل في عبادة الأوثان
١٧	حكم ترك التسمية حين الذبح
١٧	حكم ما يذبح لدى استقبال أمير أو وزير
٢٠	جرت سنة الله أن يكون في كل عاصمة زعماء مجرمون
٢٤	عذاب الأمم بذنوبها في الدنيا مطرد دون عذاب الأفراد
٢٩	أثبتت السنة الاتصال بين الإنسان والأرواح الشريرة كما أثبتت وجود الجرائم — الميكروبات
٣٢	الإسلام وضع مبدأ الشورى في مهام الأمور
٣٣	الجن عالم غيبي لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص
٣٥	هلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من العصيان والفسوق
٣٩	أنار العلم في هذا العصر أمر البعث وقربه إلى العقول
٤٣	حكم العرب في التحليل والتحريم
٥١	تحريم التشريع لا يكون إلا لله
٥٧	أحلت لنا ميتتان ودمان
٥٨	ما حرم من الأنعام عقوبة على بني إسرائيل

الصفحة	المبحث
٦٦	الوصايا العشر التي أمر الرسول بتلاوتها على المشركين
٨٠	تمادي المشركين في تكذيب الرسول وعدم الاعتداد بما معه من الآيات
٨٣	أهل الكتاب فرقوا دينهم وجعلوه شيعاً
٨٤	أسباب التفرق في الدين في هذه الأمة
٨٦	من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها
٨٩	الدين القيم هو ملة إبراهيم لآما يدعيه أهل الكتاب والمشركون
٩٠	المؤمن حياته لله ومماته لله
٩٢	سعادة الناس وشقاؤهم بأعمالهم فحسب
٩٣	إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث
١٠٠	بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للدين داخل فيما أنزل علينا
١٠٦	الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت
١١١	معاذير إبليس في عدم سجوده لآدم عليه السلام
١١٣	هل الجنة التي هبطها آدم بستان أو هي جنة الجزاء
١١٩	الشیطان أو هم آدم وزوجه أن الأكل من الشجرة يقتضى الخلود
١٢٢	العقاب أثر طبيعي للذنب
١٢٦	فعل الجنة في أرواح البشر كفعل الميكروبات في الأجسام
١٢٩	معاذير المشركين في عمل الفاحشة
١٣٣	وجوب الزينة للعبادة
١٣٦	الدين يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة
١٣٧	أصبح المسلمون من أجهل الشعوب لسنن الله في الأكوان
١٤٠	الاجتهاد خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته
١٤٣	الأجل المقدر بمقتضى نظام الخلق هو العمر الطبيعي

الصفحة	المبحث
١٥٣	ينزع الغل والحسد من قلوب أهل الجنة
١٦١	يعرف المجرمون بسياهم يوم القيامة
١٦٣	يفاث المجرمون بالضرير الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع
١٧٠	الأيام الستة التى كانت حين انخلق
١٧١	السموات والأرض كانتا سديماً
١٧٢	ما ورد فى الخلق من الإسرائيليات لا يعول عليه
١٧٥	الدعاء خفية أفضل من الدعاء جهراً
١٧٧	الاعتداء فى الدعاء على ضرور
١٨٠	طلب الله الإحسان فى كل شىء
١٨١	أسماء الرياح لدى العرب
١٨٤	الحياة فى عرف العرب ولدى علماء الطبيعة
١٩٩	استدل العلماء على نظام مناوبات الرى بقوله تعالى : لها شرب ولكم شرب يوم معلوم
٢٠١	أسباب رجفة قوم صالح
٢٠٢	نادى النبي صلى الله عليه وسلم بعض قتلى قریش بيدر بعد دفنهم فى القليب
٢٠٤	ما فعله قوم لوط لم يفعله أخس أنواع الحيوان
٢٠٦	الفسق والفجور يفسدان أخلاق الأمم
٢٠٧	السبب فى تحريم فاحشة قوم لوط
٢١٢	نهى شعيب قومه عن ثلاثة أشياء
٢١٢	حكم الله بين عباده ضربان

تفسير المرائع

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المرائع
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء التاسع

كتاب

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

كتاب

كتاب

كتاب

الجزء التاسع

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَارِهِينَ ؟ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ
نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ،
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

هذه الآيات من تمة قصص شعيب ذكر فيها جواب الملا من قومه عما أمرهم به :
من عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وعدم الفساد فى الأرض، وعما ختم به
حديثه من التهديد والإنذار بقوله : فاصبروا حتى يحكم الله بيننا .

وتولى الرد عليه أشراف قومه كما هو الشأن في بحث كبريات المسائل
ومهام الأمور .

الإيضاح

(قال الملائكة استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من
قرينتنا أو لتعودنَّ في ملتنا) أى قال أشراف قومه الذين استكبروا عن الإيمان وعن
اتباع ما أمرهم به ونهاهم عنه : قسما لنخرجنك يا شعيب أنت ومن آمن معك - من
بلادنا كلها بغضا لكم ودفعا لفتنتكم ، أو لترجعنَّ إلى ديننا ومعتقداتنا التي ورثناها
عن آبائنا ، وتدخُلنَّ في زمرتنا وتندمجنَّ في غمارنا .

والخلاصة - ليكون أحد الأمرين : إخراجكم من البلاد، أو عودتكم في الملة ،
فاختاروا لأنفسكم ما ترونه أرفق بكم وأوفق لكم .

وشعيب عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه ، فساغ
لهم أن يطالبوه بالعود إلى ملتهم ، وكونه لم يشاركهم في شركهم ولا بنحس الناس
أشياءهم أمر سلبى لا يعده به جمهورهم خروجا عنهم - فلا منافاة بين هذا وعصمة
الأنبياء عن الكفر .

(قال أولو كنا كارهين) أى أتأمرؤنا أن نعود في ملتكم وتهددوننا بالنفي من
أوطاننا والإخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الأمرين ؟ .
إنكم لقد جهلتم أن الدين عقيدة وأعمال يتقرب بها إلى الله الذي شرعها لتكميل
الفطرة البشرية ، كما جهلتم أن حب الوطن لا يبلغ منزلة حب الدين لدى ولدى
قومي ، فظننتم فيّ وفيمن آمن معي أننا نؤثر التمتع بالإقامة في الوطن ، على مرضاة
الله بالتوحيد المطهر من أدران الخرافات ، وبالفضائل المهذبة للنفوس والمرقية لها
في معارج الكمال حتى تتم لنا سعادة الدنيا والآخرة .

فللدين منزلة في النفوس لا تسمو إليها منزلة أخرى ، فإن تمكن صاحبه من إقامته

فى وطنه وإصلاح أهله به فهم أحق به ، وإن قن فى دينه فيه كان تركه واجبا عليه ، فإن لم يُخرج منه شعيب ومن آمن معه إخراجا وهم كارهون ، كما أخرج خاتم النبیین مع صحبه السابقین الأولین إلى الإسلام - خرجوا مهاجرين كما فعل إبراهيم عليه السلام كما حكى الله عنه : « وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وقد أوجب الله الهجرة على من يستضعف فى وطنه ، فيمنع من إقامة دينه فيه ، فإن لم يفعل ذلك دخل تحت وعيد قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ - قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا » .

ثم بين أحق الأمرين بالرفض وأجدرهما بالبغض متعجبا من كلامهم فقال :
(قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) أى ما أعظم افتراءنا على الله إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم باتباع ملة إبراهيم .

وإذ كان اتباع ملتكم يعد افتراء على الله لأنه قول عليه لاعلم لنا به بوحي ولا برهان من العقل ، فكيف بمن يفتري عليه ويضل عن صراطه على علم ؟ ، فالكفر بالحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله فيه أفظع ضروب الافتراء التى لاتقبل فيها الأعذار بحال .

وفى قوله إذ نجانا أى نجا أصحابى منها فهو تغليب بإدخاله فى زمريهم ، أو نجانى من الالتئام إلى هذه الملة التى ما كنت أومن بعقيدتها ولا أعمل بعمل أهلها ، ولم أهد بعقلى ورأى إلى ملة خير منها فوقفت موقف الحيرة فى شأنها ، كما جاء فى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » وقوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ »

رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا السَّكِّتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا .

(وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) يقولون ما يكون لي أن
أفعل كذا على معنى أنه غير مستطاع لي ولا جار على السنن المعقولة .

أى ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا حال مشيئة ربنا
المتصرف في جميع شئونها ، فهو وحده القادر على ذلك ، لا أتم ولا نحن ، لأننا موقنون
بأن ملتكم باطلة ، وملتنا هي الحق التي بها صلاح حال البشر وعمران الأرض .

وهذه الجملة رفض آخر للعود إلى ملتهم مؤكداً ببلوغ التأكيد ، مؤيس لهم من
عودته ومن آمن معه إلى ملتهم ، فبعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفاهاً نفياً
مؤكداً بأنه ليس من شأنهم ولا يجيء من قبلهم بحال من الأحوال كالترغيب والترهيب
بالرجاء في المنافع والخوف من المضار كالإخراج من الديار إلا حالاً واحدة وهي مشيئة
الله ، ومشيئته تجري على حسب علمه وحكمته في خلقه ، وسنته في خلقه أن ينصر أهل
الحق على أهل الباطل ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم إليه منه .

وخلاصة ذلك — لا تطمعوا أن يشاء ربنا الخبيث بنا عودتنا في ملتكم بعد
إذ نجانا منها بفضلها ، فما كان الله ليدحض حجته ويغير سنته .

(وسع ربنا كل شيء علماً) فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصالحة ، ومشيئته
تجري على موجب الحكمة ، فكل ما يقع فهو مشتمل عليها ، وفي هذا إيماء إلى عدم
الأمن من مكر الله سبحانه : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

(على الله توكلنا) أى إلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ما أوجبه
علينا من الحفاظ على شرعه ودينه ، فهو الذى يكفيننا تهديدكم وما ليس في استطاعتنا
من جهادكم : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » إذ من شروط التوكل الصحيح
القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية ، فمن يترك العمل
بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور ، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله؟ «اعقلها وتوكل» رواه الترمذى، وقال تعالى مخاطباً رسوله بعد أن أمره بمشورة أصحابه في غزوة أحد: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» وإنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب فقد لبس من يومئذ درعين وأعد العدة لقتال أعدائه ورتب الجيوش على حسب القوانين المعروفة في ذلك العصر.

وخالصة رد شعيب على للملأ من قومه — إنه عجب من تهديدهم وإنذارهم، وأقام الأدلة على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم، وعدم استطاعة أحد إجبارهم عليه غير الله الفعال لما يريد. ثم ثنى بذكر توكله على الله الذى يكفى من توكل عليه ما أهمه مما هو فوق كسبه واختياره. ثم ثلث بالدعاء الذى لا يكون مرجو الإجابة إلا بعد القيام بعمل مافى الطاقة من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال:

(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) الفتح إزالة الأغلاق والأشكال، وهو قسمان: حسى يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والكلام الذى يكون من القاضى. ومعنوى يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق والمغلق من مسائل العلم والنصر فى وقائع الحرب والمبهم من قضايا الحكم، ويقال فتح الله عليه إذا جُدَّ وأقبلت عليه الدنيا، وفتح الله عليه نصره وفتح الحاكم بينهم وما أحسن فتاحته أى حكمه كما قال شاعرهم:

ألا أبلغ بنى وهب رسولا بأنى عن فتاحتهم غنى

ويقال بينهم فتاحات أى خصومات، وولى الفتاحة أى القضاء، وعن ابن عباس: ما كنت أدرى ما قوله تعالى: «ربنا افتح بيننا وبين قومنا» حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها: تعال أفتحك، وقالت أعرابية لزوجها يبنى وبينك الفتح.

والمعنى — ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك فى التنازع بين المرسلين والكافرين وبين المحقين والمبطلين، وأنت خير الحاكمين لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وتنزهك عن اتباع الظلم واتباع الهوى فى الحكم.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
 لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)
 الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مِنْهُمْ
 الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

شرح المفردات

الرجف: الحركة والاضطراب، والمراد بها الزلزلة، ومنه: «يَوْمَ تَرَجُفُ الْأَرْضُ
 وَالْجِبَالُ» وغنى بالمكان يغنى: كرضى يرضى، إذا نزل به وأقام فيه، والأسى:
 شدة الحزن.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه جواب الملائة من قوم شعيب وطلبهم منه العود إلى ملتهم،
 وبين بأسهم منه بما كان من جوابه لهم الدال على ثباته في مقارعتهم وأنه دائم
 النصح والتذكير لهم عليهم يرفعون عن غيهم .
 ذكر هنا أنهم حذروا من آمن منهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذ سيلحقهم
 الخسار في دينهم والخسار في دنياهم، لعل ذلك يثنيهم عن عزيبتهم ويردهم إلى الرشاد
 من أمرهم على حسب ما يزعمون، فكانت عاقبة ذلك أن أصبحوا كأمس الدابر
 وأصبحت ديارهم خرابا يبابا لا أنيس فيها ولا جليس .

الإيضاح

(وقال الملائة الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) أى
 وقال الكافرون من قوم شعيب وهم الملائة الذين جحدوا آيات الله وكذبوا رسوله وتمادوا

في غيرهم لآخرين منهم : لئن اتبعتم شعيبا فيما يقول وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله وأقرتم بنبوته إنكم إذا لخاسرون في فعلكم وترككم ملتكم التي أتم عليها مقيمون إلى دينه الذي يدعوكم إليه .

وعموا الخسران ليشمل خسران الشرف والمجد إذ يشارك ملته على ملة آبائكم وأجدادكم تعترفون بأنهم كانوا ضالين ومعذبين عند الله ، وخسران الثروة والربح بما تحترفونه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياءهم لا يتنازأ أموالهم .

ووصف الملاء - أولا بالاستكبار - لأنه هو الذي جرأهم على تهديده وإنذاره بالإخراج من القرية وإشعاره بأنهم أرباب السلطان فيها ، وثانيا : بالكفر لأنه هو الحامل على الإغواء وصددهم عن الإيمان والأخذ بما جاء به ، ثم عللوا لهم صددهم بأن في ذلك لهم مصلحة أيما مصلحة وفائدة أيما فائدة .

والخلاصة - إنه تعالى وصفهم أولا بالضللال ثم وصفهم ثانيا بالإغواء والإضلال .
(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) أى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم منكبين على وجوههم ميتين ، وقد عبر عنه هنا بالرجفة ، وفي هود بالصيحة كعذاب ثمود ، وقد علمت هناك وجه الجمع بينهما .

وقد جاء في سورة الشعراء إن الله أرسل شعيبا إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين في النسب ، وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » قال كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر ومدين - وفي ذلك دليل على أن الله أرسله إلى أهل مدين وإلى من اتصل بهم إلى ساحل البحر ، وأن حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة ، وكان ينذرهم متنقلا بينهم .

وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها ، وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم والحرق الشديد وقد انتهى ذلك بظلة من السحاب فرعوا إليها يتبردون بظلمها فأطبقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون .

(الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين)
 جاءت هذه الجملة بيانا من الله لما انتهى إليه أمرهم وكيف كانت عاقبة عملهم فكان
 سائلا سأل عما آل تهديدهم لشعيب وقومه بقولهم : « لنخرجنك يا شعيب والذين
 آمنوا معك من قريننا » وقولهم لقومهم : « لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون)
 فأجاب عن الأول جوابا مناقضا له بقوله : الذين كذبوا شعيبا الخ . أى الذين كذبوا
 شعيبا وأنذروه بالإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموها كأن لم
 يقيموا ولم يعيشوا فيها بحال ، وأجاب عن الثانى بقوله : الذين كذبوا شعيبا كانوا هم
 الخاسرين : أى الذين كذبوا وزعموا أن من يتبعه يكون خاسرا - كانوا هم الخاسرين
 لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم
 الفائزين المفلحين .

وفى الآية إيماء إلى أن الحريرى على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق
 تكون عاقبته الحرمان الأبدى منه ، كما أن الحريرى على الربح بأكل أموال الناس
 بالباطل ينتهى بالحرمان منه ومن غيره .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أى فأدبر
 شعيب عنهم وخرج من بين أظهرهم حين أتاهاهم عذاب الله ، وقال حزنا عليهم : يا قوم
 لقد أبلغتكم رسالات ربي وأدبت إليكم ما بعثنى به إليكم وقد تقدم مثل هذا فى قصة
 صالح ، وقد اتحد إعدار الرسولين لاتحاد حال القومين .

(فكيف آسى على قوم كافرين) أى فكيف أحزن على قوم جحدوا
 وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم بعد أن أعذرت إليهم وبذلت جهدى
 فى سبيل هدايتهم ونجاتهم فاختراروا ما فيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب
 عليه من النصح والإنذار .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا
قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

شرح المفردات

القرية: المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها (العاصمة) والبأساء: الشدة والمشقة
كالجرب والجذب وشدة الفقر، والضراء: ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه أو معيشته ،
والأخذ بها: جعلها عقابا لهم، والتضرع: إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع ، وعفوا
كثروا ونموا ، من قولك : عفا النبات والشعر إذا كثر، و بغتة : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال الأمم السابقة مع أنبيائها وبين ما في قصصهم من
العظة والعبرة فقد كانت العاقبة في كل حال للمتقين ، والدائرة تدور على المبطلين .
أشار هنا إلى سنة الله في الأمم التي تكذب رسلها أن ينزل بها البؤس وشظف
العيش وسوء الحال في دنياهم ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم
والتوبة من تكذيب أنبيائهم ، وفي هذا من التحذير لقريش والتخويف لهم ما لا يخفى .

الإيضاح

(وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون)
أى إن سنتنا قد جرت (ولا مبدل لها) أننا إذا أرسلنا نبيا في قوم وكذبوه أنزلنا
بهم الشدائد والمصائب لنعدمهم ونؤهلهم للتضرع والإخلاص في دعائنا بكشفها ،
وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق أن الشدائد تربي الناس وتصلح فساد

أحوالهم ، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى ربه ، لكن الشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدائها وتنبيهه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق المدبر لأموال الخلق وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام في الكون .
(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى ثم أعطينا بدل ما كانوا فيه من البلاء والحنّة ، الرخاء والسعة .

(حتى عفوا) أى حتى كثر عددهم ونموا ، إذ أن الرخاء مما يكون سبباً في كثرة النسل وبه تتم النعمة في الدنيا على الموسرين ، ومن هذه الحسنات ما حدث لقوم هود من النعم التي بطروا بها وذكرهم هود بها في قوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وكذا ما قاله صالح لقومه : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

(وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أى وقالوا قولاً يدل على أنهم لا يعتبرون بأحداث الزمان . قالوا قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وما نحن إلا مثلهم فيصيبنا مثل ما أصابهم ، والدهر بالناس قلب . وتلك عادة الدهر بأبنائه ، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب ، ولا السراء جزاء على صالحات تكسب .

وخلاصة هذا — إنهم لم يفهموا السنن التي وضعها المولى سبحانه في أسباب السعادة والشقاء في البشر والتي أرشد إليها قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ومن ثم لم يتذكروا ولم يعتبروا حين ذكرهم رسولهم ، بل أعرضوا ونأوا .

(فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) أى فكان عاقبة أمرهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم ، إذ هم قد جهلوا سنن الله التي وضعها في شئون

الاجتماع ، فلاهم اهتمدوا إليها بعقولهم ، ولاهم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به ، وجاء بمعنى الآية قوله تعالى في سورة الأنعام : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » .

فالكافرون إذا مسهم الشر ينسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير بطروا واستكبروا وبعثوا في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصائب تربية لهم وتمحيصا .

ولما ترك المسلمون هدى القرآن في حكوماتهم ومصالحهم العامة ، وفي أعمال الأفراد سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، فاتبعوا أهل الكتاب في خرافاتهم وحفلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم وطلب النفع والضر من دجالى الأحياء وقبور الأموات ، فغشيهم الجهل ، والناطقة منهم قلدوا الإفرنج في الفسق والجود وشر ما وصلوا إليه في طور فساد حضارتهم وقلدوهم حتى فيما لا يوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم .

وهكذا ضلت الفئتان عن هدى القرآن وأضاعتا ما بقى من ملك الإسلام .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ
أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ
الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرْتُدُّونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

بركات السماء : تشمل معارف الوحي العقلية ونفحات الإلهام الربانية ، والمطر ونحوه مما يوجب الخصب والخير في الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوهما ، والبأس : العذاب ، وبياتا : أى وقت ييات وهو الليل ، والضحي : انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، ويلعبون : أى يلهون من فرط غفلتهم ، المكر : التدبير الخفى الذى يفضى بالمكور به إلى ما لا يحتسب ، وهداه السبيل وهداه إليه وهداه له أى دله عليه ويثبته له .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أخذه لأهل القرى الذين كذبوا رسلهم وكفروا بما جاءوا به وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما افتنوا فيه من أفانين الشرك والمعاصي كما حكى الله في محاورتهم لرسولهم وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره .
ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل واهتدوا بهديهم واعتبروا بسنة الله في الأمم من قبلهم ، فإن سنته تعالى في الأمم واحدة لا تبدل فيها ولا تحويل .

الإيضاح

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)
أى ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه من عبادته تعالى وحده واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام - لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يعهدوها من قبل فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التي عهدوا في صفاتها ونماؤها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزلنا عليهم الأمطار النافعة التي تخصب الأرض وتكسب

البلاء رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفيهم سبب الكون ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل .

والخلاصة — إنهم لو آمنوا لوسعنا عليهم الخير من كل جانب ويسرناه لهم بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء وبعضها من الأرض .

والقاعدة التي أقرها القرآن الكريم أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ويشارك المؤمنين في المادى منها الكفار كما قال تعالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أى إن ذلك الفتح كان ابتلاء واختبارا لحالمهم ، وكان من أثره فيهم البطر والأشر بدلا من الشكر لأولى النعم فكان نقمة لانعمة ، وفتنة لابركة ، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم كان أثره فيهم شكر الله عليه والاعتباط بفضله واستعماله فى سبيل الخير دون الشر وفى الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم على ذلك زيادة النعم فى الدنيا وحسن الثواب عليها فى الآخرة .

(ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى .

وذلك الأخذ بالتقلب أثر لازم لكسبهم المعاصى على حسب السنن التى وضعها الله فى الكون وتكون فيها العبرة لأمثالمهم إن كانوا يعقلون هذه النواميس العامة التى لا تبدل فيها ولا تغير .

ثم تعجب من حالهم وذكرهم من غفلتهم فقال :

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون) أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة والذين ستبلغهم ما نزل بمن قبلهم وغيرهم ما هم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون .

(أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهكون فى أعمالهم التى كأنها لعب أطفال لعدم فائدة تترتب عليها .

والخلاصة — إنه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات إما حين النوم وإما وقت الضحى ، إذ يكثُر فيه تشاغل الناس باللذات .

(أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بيانا أو ضحى وهم غافلون عن مكر الله بهم بإتيانهم بيأسنا من حيث لا يحتسبون ولا يقدرُونَ ؟ إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهلا يورث الخسر فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل فى معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثُر من الدعاء بقوله : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » . وذكر سبحانه أن الراسخين فى العلم يدعونهُ فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » .

وكأن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة ، فاليأس من رحمة الله كذلك ، فكلاهما مفسدة تتبعها مفسد .

(أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) أى أكان ما ذكر آنفا مجهولا لأهل القرى وأنه هو سنة الله ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم فهم خاضعون لمشيئتنا ، فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها وأهلكناهم كما أهلكناهم ، فإن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون الحكم

والنصائح سماع تفقه وتدبر: « وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ » إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها فجعلتهم من: « الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » . وقد كان في مثل هذا القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم ويبين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب بعض الأفراد وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول فكان عليهم أن يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم وزالت بها الدولة لأعدائهم ، ولكنهم قصرُوا في وعظ الأمة بها وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها وترك الإعراض عن تدبرها ، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: « شيبنتي هود وأخواتها » وقوله تعالى: « أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » .

تِلْكَ الْقُرَى تَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) .

شرح المفردات

العهد : الوصية . والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها ، وأخرى يراد بها ما يوصى به، ويقال عهدت إليه بكذا أى وصيته بفعله أو حفظه، وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة ، وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشيء أو تلزم بشيء ، والميثاق هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد .

وقال الراغب: عهد الله تارة بكون بما ركزه في عقولنا ، وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب والسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجري مجراها اه .

والفسوق : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى ، ووجدنا الأولى بمعنى : ألقينا . والثانية بمعنى : علمنا .

المعنى الجملى

هذا خطاب وجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسلية وتثبيتا له على الصبر على دعوته بتذكيره بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من وجوه العبر والمواعظ ، وبيان أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء ليس بدعا بين الأمم بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، وقصصهم يدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم وطروق أرضهم فى حلهم وترحالهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

الإيضاح

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها) أى تلك القرى التى بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها وجهل قومك حقيقة حالها نقص عليك بعض أنبائها مما فيه العبرة لقومك ولك .

والمراد بها القرى المعهودة فى هذا القصص ، والحكمة فى تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب وما جاورها ، وكان أهل مكة وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها وهى جميعا طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل والممارسة فيما جاءوا به من النذر فحل بهم النكال وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فى جميعها واحدة ، ومن ثم فصلها من قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به وإنما كذب فرعون وملؤه فعدبوا .

(ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم وبالآيات التى اقترحوها عليهم لإقامة حججهم ، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، ولكن لم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد بحجىء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها حين بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصى .

ذاك أن شأن المكذبين عنادا أو تقليدا أن يصروا على التكذيب بعد إقامة البينة ، إذ لا قيمة لها فى نظرهم ، فهم إما جاحدون معاندون ضلوا على علم ، وإما مقلدون يابون النظر والفهم .

وفى معنى الآية قوله فى قصة نوح فى سورة يونس : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » .

(كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أى مثل ما ذكر من عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال وعدم تأثير الدلائل والبينات فى عقولهم يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم وصار العناد ديدنهم على حسب سنة الله فى أخلاق البشر وأحوالهم ، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله وتستحوذ أوهامه على عقولهم ويملا حب الشهوات أفئدتهم فلا يقبلون بحشا ولا فياهم عليه نقدا ، فما مثلها إلا مثل السكة التى طبعت على طابع خاص أثناء صهر معدنها وإذابته ثم جمدت فلا تقبل بعد ذلك نقشا ولا شكلا آخر .

وفى الآية تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وإعلام له بأن أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد وفساد الفطرة وإهمال النظر والعقل لا تؤثر فيها البينات وإن وضحت ، ولا الآيات وإن اقترحت .

وقد كانوا يقترحون عليه الآيات، وكان يتنى أن يؤتبه الله ما اقترحوا منها حرصا

على إيمانهم ، حتى بين الله له طباعهم وأخلاقهم ليعرف مبلغ أمرهم في قبول دعوته وأنه لا أمل له فيهم بحال .

(وما وجدنا لأكثرهم من عهد) أى وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدا ما يفون به سواء كان عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها (إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسطان غيبي فوق جميع القوى ، وعلى إيثار الحسَن واجتناب غيره وعلى حب الكمال وكراهة النقص) أم كان العهد الذى أخذه ربهم عليهم وهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكيهم وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، وقد جاء فى صحيح مسلم : « يقول الله : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

(وإن وجدنا أكثرهم لفاستين) أى وإننا وجدنا أكثرهم خارجين على كل عهد فطرى وشرعى وعرفى فهم ناكثون غادرون لليهود مرتكبون أفانين للمعاصى . وفى التعبير بالأكثر إيماء إلى أن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس .

وهذا من دأب القرآن فى تحقيق الحقائق على وجه الصدق بحيث لا تشوبها شبهات المبالغة بما يسلب أحدا حقه أو يعطى أحدا حق غيره .

قصص موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىَّ إِلَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ

بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ
بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ
قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ
أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَوَكُّبِكُمْ لِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢).

شرح المفردات

موسى: هو موسى بن عمران (بكسر العين) وأهل الكتاب يقولون: (عمرام)
بفتح أوله ، وإنما سمي موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالماء بالتبعية (مو)
والشجر: (سى) وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته في تابوت : (صندوق) وأقفلته
إقفاً محكماً وألقته في (نهر النيل) خوفاً من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه
إذ كانوا يذبحون ذكور بني إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم .
وفرعون لقب ملوك مصر القدماء كلقب قيصر ملوك الروم وكسرى ملوك الفرس ،
والراجح لدى كثير من يعنون بالتاريخ المصرى القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح
وكان يلقب بسليل الإله: (رع) أى الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذى بدار الآثار
الآية الكريمة: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَافَكَ آيَةً» والملا أشراف
القوم ، وظلموا بها : جحدوا بها وكفروا ، وحقيق : أى جدير وخليق به ، يقولون
أنت حقيق بكذا كما يقولون : أنت جدير به وخليق به ، والنزع: إخراج الشيء من
مكانه ، وتأمرؤن: أى تشيرون فى أمره، يقولون : مرنى بكذا على معنى: أشر على وأدل
برأيك ، وأرجى: أى أرجى أمره وأخره ولا تفصل فيه بادى الرأى ، وفى المدائن

أى مدائن ملكك ، وحاشرين أى جامعين ساتقين السحرة منها ، وعليم : أى بفنون السحر ، ماهر فيها .

المعنى الجملى

هذه هى القصة السادسة من قصص الأنبياء التى ذكرت فى هذه السورة وفيها من الإيضاح والتفصيل ما لم يذكر فى غيرها لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم ، وجهل قومه كان أخش . وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة ، وذكر اسمه فى سور كثيرة زادت على مائة وثلاثين مرة ، وسر هذا : أن قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبي صلى الله عليه وسلم إذ أنه أوتى شريعة دينية دنيوية ، وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها) أى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بالمعجزات التى تدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وأشرف قومه فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبرا وجحودا فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم ، وقال : «إلى فرعون وملئه» ولم يقل فرعون وقومه لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل وييدهم أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شىء لأنهم كانوا مستعبدين أيضا ، ولكن الظلم كان على بنى إسرائيل الغرباء أشد ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر المصريين لأنهم كانوا تبعاء لهم ، وقد كان موسى مرسلا إلى قومه بنى إسرائيل قصدا وإلى فرعون وملئه وسيلة .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين فى الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وكفروا بها .

وفي هذا تشويق وتوجيه للنظر إلى ما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم إذ نصر رسوله موسى وهو واحد من شعب مستضعف مستعبد لهم، على فرعون وملئه وهم أعظم أهل الأرض قوة وصولته بأن أبطل سحرهم وأقنع علماءهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من عند الله، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد ثم بإتقاد قومه وإغراق فرعون ومن تبعه من ملئه وجنوده. وهذه عبرة قائمة على وجه الدهر وحجة على أن الغلب ليس للقوة المادية فحسب كما يقوله المغرورون بعظمة الأمم الظالمة في الغرب لمن استضعفتهم من أهل الشرق.

وبعد التشويق والتنبيه المتقدم، قص الله تعالى ما كان من أولئك القوم في مبدأ أمرهم حتى انتهوا إلى تلك العاقبة.

(وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أي إن موسى صلى الله عليه وسلم بلغ فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم: أي سيدهم ومالكهم ومدبر جميع أمورهم، فهو لا يقول على الله إلا الحق إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء فهو معصوم من الكذب والخطأ فيه.

والخلاصة— إن كلامه اشتمل على عقيدة الوجدانية، وهي أن للعالمين ربا واحدا وعلى عقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية.

ثم ذكر بعد هذا أن الله أيده ببينة تدل على صدقه في دعواه فقال:

(قد جئكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل) أي قد جئكم ببرهان من ربكم شاهد على صدق ما أقول.

وفي قوله: من ربكم إيمانهم إلى أنهم مربوبون وأن فرعون ليس ربا ولا إلها وإلى أن البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام. ثم رتب على مجيئه بالبينة طلبه منه أن يرسل معه بنى إسرائيل أي يطلقهم من أسرهم ويعتقهم من رقهم وقهره ليذهبوا معه إلى دار غير داره ويعبدوا فيها ربهم وربهم.

وقد أجابه فرعون على طلبه بقوله :

(قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) أى قال فرعون لموسى إن كنت قد جئت مؤيدا بآية من عند من أرسلك كما تدعى فأتني بها وأظهرها لى إن كنت ممن يقول الصدق ويلتزم قول الحق .

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) أى فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت يمينه أمام فرعون فإذا هي ثعبان (ذكر الحيات) مبين ، أى ظاهر بين لاخفاء فى كونه ثعبانا حقيقيا يسمى وينتقل من مكان إلى آخر وتراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسمى ، وقوله : ونزع يده ، أى أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ لكل من ينظر إليها .

وقد ذكر رواة التفسير بالمأثور روايات غاية فى الغرابة فى وصف الثعبان ليس لها سند يوثق به وماهى إلا إسرائيليات تلقفها المفسرون من أهل الكتاب الذين كانوا يكيدون للإسلام وللعرب كروايات وهب بن منبّه وهو فارسى الأصل أخرج كسرى والده إلى بلاد اليمين فأسلم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان ابنه من بعده يختلف إلى بلاده بعد فتحها ، ومثله روايات كهب الأحبار الإسرائيلى ، وقد كان كلاهما كثير الرواية للفرائب التى لايعرف لها أصل معقول ولا منقول ، وقومهما كانوا يكيدون للمسلمين الذين فتحوا بلاد الفرس وأجلوا اليهود من الحجاز ، ألا ترى أن قاتل الخليفة الثانى فارسى مرسل من جماعة سرية لقومه ، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودى .

ويرى المحققون من أعلام المسلمين أن الفتن السياسية والأكاذيب التى حدثت فى الرواية فى الصدر الأول يرجع أمرها إلى جماعة السبئيين وجماعات الفرس التى كانت تزود هؤلاء الوضاعين بأسلحة من الغش والتدليس ليفسد الإسلام على أهله ولولا أن قويض الله للإسلام جماعة من أهل التجقيق أخرجوا البهرج والزيوف وألقوه

وراءهم ظهريا وأبقوا الجيد الذى لا لبس فيه ولا شك فى صحة روايته لكان خطبهم قد استفحل فى الإسلام وأفسدوا كثيرا منه على أهله ، ولكن الله قد حفظ الخنيفية لأهلها بيبضاء نقيه سمحة لاعنت فيها ولا إرهاب :

(قال الملاء من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون) أى قال الأشراف من قوم فرعون وهم أهل مشورته ورؤساء دولته : إن هذا لساحر عليم : أى ماهر فى فنون السحر قد وجه كل همه لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره ، إذ به يستميل الشعب ويتزغ منكم الملك ، ثم يخرج الملك وعظاء رجاله من البلاد حتى لا يباؤوه فى شئون الملك واستعادته منه .

وقد أبان هذا المعنى بوضوح بقوله فى سورة يونس حكاية عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه : « قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ » .

ولم يكن هذا القول منهم إلا صدق لما قاله فرعون وقد حكاه الله عنه فى سورة الشعراء بقوله : « قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » وقد رددوه بعده وصار بعضهم يلقبه إلى بعض كما هى عادة الناس فى ترديد كلام الملوك والرؤساء إظهارا للموافقة عليه وتعميا لتبليغه ، وبعد أن أتموا مقالاتهم موافقين ما قاله فرعون تشاوروا فى أمره وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد نار دعوته متخوفين أن يستميل الناس بسحره ، فاتفقت كلمتهم على ما حكاه الله عنهم بقوله :

(قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين) أى قال الملاء لفرعون حين استشارهم بقوله : فما تأمرون ؟ آخر الفصل فى أمره وأمر أخيه وأرسل فى مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك حاشرين : أى جامعين لك السحرة منها وساتقيهم إليك .

وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا ، ومن ثم خيل إلى كثير منهم أن ما جاء به موسى من قبيل ما تشعبذ به سحرتهم فهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات كما حكى الله عن فرعون حيث قال : « أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » ،

(يأتوك بكل ساحر عليم) أى فإن ترسلهم يأتوك بكل ساحر مجيد لفنون السحر ماهر فيها فيكشفوا لك حقيقة ما جاء به موسى فلا يفتن به أحد .
وإنما قال فى المدائن لأن السحر من العلوم التى توجد فى المدائن الجامعة المأهولة بدور العلم والصناعة ، وإنما نصحوه بإحضار السحرة الماهرين ، لأنهم الجديرون أن يأتوا موسى بمثل ما أتى به من الأمر العظيم .

فذلكة فى السحر وضروره

السحر أعمال غريبة وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها .
وقد كان فنا من الفنون التى يتعلمها قدماء المصريين فى مدارسهم الجامعة مع كثير من العلوم السكونية ، واقتفى أثرهم فى ذلك البابليون والهنود وغيرهم ولا يزال يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مدهشة من السحر اهتم بعض الإنكليز وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها فعرفوا بعضها وجاهلوا تعليل الأكثر .
والسحر لا يروج إلا بين الجاهلين وله مكانة عظيمة فى القبائل الهمجية ، والبلاد ذات الحضارة تسميه بالشعوذة والاحتيال والدجل ، وهو أنواع ثلاثة :
(١) ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر بمجهولة عند من يسحرهم بها كالزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى جباهم وعصيتهم كما سذكروه بعد ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر السحر فى أواسط

إفريقيا وغيرها من البلاد التي يروج فيها السحر لأروهم العجب العجاب من غرائب الكهرباء وغيرها حتى لو ادعوا فيهم الألوهية لخضعوا لهم فضلا عن النبوة والولاية .
(٢) الشعوذة التي ملاك أمرها خفة اليدين في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض وإراءة بعضها بغير صورها وغير ذلك مما هو معروف في هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدنية .

(٣) ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية في الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام والانفعالات التي يسميها علماء النفس : (بالأنفس المستيرية) وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ومنهم من يكتب الأوقاف والطلسمات للحب والبغض إلى نحو ذلك .

ومن ذلك ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسى .
وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم وبالاختبار الذي لم يبق فيه شك بين العلماء في هذا العصر .

قال أبو بكر الرازى المعروف بالخصاص وهو من فقهاء الحنفية في القرن الرابع :
زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه : (إنه يخيل إلى أنى أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله وإن امرأة يهودية سحرته في جُفّ طلعة : (وعاء طلع النخل) ومشط ومشاطة حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته في جُفّ طلعة وهو تحت راعوفة البئر^(١) . فاستخرج وزال عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك العارض .

إلى أن قال : ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدین تلعبا بالحشو الطغام واستجرارا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام والقدح فيها ، وأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة وأن جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين

(١) المشاطة : بالضم الشعر الذي يسقط حين تسريحه بالمشط ، وراعوفة البئر : الحجر الثابت الذي يغف عليه المستقي من البئر ، أى لأنها وضعت المشط والمشاطة في جف طلعة تحت حجر البئر .

تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم و بين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله ، وجاز أن تكون المرأة اليهودية بجهلها فعلت ذلك ظنا منها بأن ذلك يعمل في الأجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها وأظهر جهلها فيما ارتكبت وضنت ليكون ذلك من دلائل نبوته ، لا أن ذلك ضره ، وخلط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره ، وإنما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له اه .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَمُنُّ الْغَالِبِينَ
(١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ
وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ
النَّاسِ وَاسْتَزْهَبُوا بِهِمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنهم طلبوا إليه تأخير الفصل في أمره حتى يحضر السحرة ليفسدوا عليه أعماله ويبينوا خبيء حيله - ذكر هنا أن السحرة جاءوا وطلبوا المثوبة من فرعون إن هم نفذوا ما طلبه فأجابهم إلى ذلك ففعلوا أفاعيلهم السحرية التي أوتعت الرهب في قلوب المشاهدين .

الإيضاح

(وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) أى وجاء السحرة الذين حشرهم أعوان فرعون وشرطته إليه ، وحين جاءوا قالوا لفرعون : هل لنا من أجر كفاء ما نقوم به من العمل العظيم الذى يتم به الغلب على موسى .

(قال نعم وإنكم لمن المقربين) أى قال فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا : نعم إن لكم أجراً عظيماً على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل ، وأنتم مع ذلك تكونون من المقربين منا فتجمعون بين المال والجاه وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسعادتها .

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) أى قال السحرة لموسى بعد عدة فرعون لهم : إما أن تلقى ما عندك أولاً ، وإما أن نلقى ما عندنا ؛ وفي هذا التخيير منهم له - دليل على اعتدادهم بسحرتهم وثقتهم بأنفسهم وعدم المبالاة بعمله ، ولولا ذلك لما خيروه . إذ المتأخر فى العمل يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى جهد خصمه .

(قال ألقوا) أى قال موسى عليه السلام وهو واثق بشأنه محتقر لهم غير مبال بهم : ألقوا ما أنتم ملقون وهو عليه السلام لم يأمرهم بفعل السحر ابتداء وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاءوا لأجله ولا بد لهم منه ، وأراد بذلك التوسل إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن هناك وسيلة للإبطال إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه : « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّعُ مَعْمَلِ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » .

(فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) استرهبه أوقع فى قلبه الرهب والخوف ، أى فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصبيهم سحروا أعين النظارة ومنهم موسى عليه السلام كما جاء فى سورة طه : « فَإِذَا حَبَّأَهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » وجاءوا بسحر عظيم فى مظهره كبير فى تأثيره فى أعين الناس .

قال ابن كثير أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال .

قال ابن عباس رضى الله عنه: إنهم ألقوا حبلا غلاظاً وخُشْباً طويلاً فأقبلت يخيل إلى من سحرهم أنها تسعى .

قال ابن اسحق إن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر وأن الحيات التى أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادى . وقال السدى : إن السحرة كانوا بضعا وثلاثين ألفا هـ .

وكل هذا مبالغات إسرائيلية وتهويلات لم يصح شىء منها وليس فى التوراة ما يؤيدها .

وقال الجصاص فى تفسيره : سحروا أعين الناس ، يعنى موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، كما قال : « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » فأخبر أن ما ظنوه سعيا منها لم يكن سعيا وإنما كان تخيلا . وقد قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا وكذلك الحبال كانت معمولة من جلد محشوة زئبقا ، وقيل حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملئوها نارا فلما طرحت عليه وحى الزئبق حركها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير اهـ .

فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها . ويمكن أن تكون هناك حيلة أخرى كإطلاق أبخرة أثرت فى الأعين فجعلتها تبصر ذلك ، أو أن الحبال والعصى جعلت على صورة الحيات وحركت بمحركات خفية سريعة لاتدركها أبصار الناظرين .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
(١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا

صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

لقف الشيء وتلقفه : تناوله بحذق وسرعة ، والمأفوك : المصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ، ومن ثم يقال للرياح التى عدلت عن مهاها مؤتفكة كما قال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ » وقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق فى المقال إلى الكذب ، وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح ، فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون ، وانقلبوا عادوا ، وصاغرين أى أذلة بما رزقوا به من الخذلان والخيبة ، وألقى السحرة ساجدين : أى خروا سجدا لأن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود .

الإيضاح

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون) أى أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم الذى قرن فيه بين الحق والباطل - أن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه فإذا هى تتلع ما يلقون ويوهمون به أنه حق وهو باطل - قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشى من حبالهم ولا خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شىء من السماء وليس بسحر فخرؤا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

ويرى جماعة من المفسرين أن تلقفها لما يأفكون - هو أنها أتت عليه حتى أظهرت بطلانه وبيان حقيقة أمره فى نفسه بسرعة فإن كان إفكهم بما أحدثوه من التأثير فى الأعين فلقفها إياه إزالته وإبطاله برؤية الحبال والعصى على حقيقتها وإن

كان تحريكها لها بمحركات خفية سريعة فكذلك ، وإن كان قد حصل يجعلها مجوفة محشوة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة : (سواء كانت نارا أعدت لها أو الشمس حين أصابتها) فلقفها لذلك يكون بعمل من الحية أخرجت به الزئبق من الحبال والعصى فانكشفت به الحيلة ، ولو كانت قد ابتلعها لبقى الأمر ملتبسا على الناس إذ قصاراه أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمرا غريبا ولكن أحد الفريقين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم ، وهذا لا ينافي كونهما من جنس واحد - ولكن زوال غشاوة السحر وتخيله حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التي ألقاها السحرة ليست إلا حبالا وعصيا لا تسمى ولا تتحرك ، وأن عصا موسى لم تزل حية تسمى هو الذي ماز الحق من الباطل وعرفت به الآية الإلهية والحيلة الصناعية وقد فعلت ذلك بسرعة ومن ثم عبر عنه بالقف ، ولكن لا يعرف بما كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية لا أمر صناعي حتى تدرك حقيقته .

(فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون) أي ثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره ، إذ تبين لمن شاهده وحضره أن موسى رسول من عند الله يدعو إلى الحق وأن ما عملوه ما هو إلا إفك السحر وكذبه وتخايله .

(فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) أي غلب موسى فرعون وجوعه في ذلك الجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ضرب به موسى موعدا لهم كما جاء في سورة طه : « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » وعادوا من ذلك الحفل صاغرين أذلة بما رزقوا به من خيبة وخذلان .

(وألقى السحرة ساجدين) أي وألقى السحرة حينما عاينوا عظيم قدرة الله ساقطين على وجوههم سجدا لربهم ، لأن الحق قد بهرهم واضطرهم إلى السجود ، حتى كأن أحدا دفعهم وألقاهم .

والخلاصة - إن ظهور بطلان سحرهم وإدراكهم فجأة لآية موسى وعلمهم بأنها من عند الله لا صنع فيها مخلوق ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم إيمانا فكأن هـ

اليقين الحاكم على الأعضاء والجوارح هو الذى ألقاهم على وجوههم سجدا لرب العالمين الذى بيده ملكوت كل شىء - وزالت من نفوسهم عظمة فرعون الدنيوية الزائلة بعد أن ظهر لهم صفاره أمام هذه الآية فنطقوا .

(قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون) أى قالوا صدقنا بما جاءنا به موسى ، وأن الذى علينا أن نعبده هو رب الإنس والجن وجميع الأشياء المدبر لها رب موسى وهارون .

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرٌ مُّمُوهُ
فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَا صَلْبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) .

شرح المفردات

المكر : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة ، وهو نوعان : محمود ويراد به الخير . ومذموم يقصد به الشر ، وتقطع الأيدي والأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس بالعكس ، والصلب الشد على خشبة ونحوها وشاع في تعليق الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم - وتقت الشيء : إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى « وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » - « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » وأفرغ علينا : أى أفض علينا صبورا يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب .

المعنى الجملى

فى هذه الآية إخبار بما توعد به فرعون السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وبما عزم عليه من التنكيل بهم وبما رد به السحرة عليه من استسلامهم لأمر الله لا لأمره ودعائهم ربهم بالتوفى على ملة الإسلام .

الإيضاح

(قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) آمنتم إما خبر يراد به التوبيخ ، وإما استفهام يراد به الإنكار والتوبيخ .

والمعنى — أ آمنتم به واتبعتموه مذعنين لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ .
(إن هذا مكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) أى إن هذا الذى فعلتموه أتم وهو ليس إلا مكر مكرتموه واتفاقا دبرتموه من قبل بما أظهرتم من المعارضة والرغبة فى الغلب عليه مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته كما جاء فى سورة طه : « إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » فأجمعتم كيدكم لنا فى هذه المدينة لأجل أن تخرجوا المصريين منها بسحركم ، ويكون لكم فيها مع بنى إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والرياسة والتصرف فى البلاد .

وكل ذى لب وفطنة يعلم أن هذه مقالة لانصيب لها من الصحة ولا ظل لها من الحقيقة ، فإن موسى إثر مجيئه من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة ، فلم يكن من فرعون إلا أن أرسل رسله فى المدائن حاشرين ووعدهم بالمطاء الجزيل ، وموسى لا يعرف منهم أحداً ولا رآه ولا اجتمع به ؛ وفرعون يعلم ذلك وإنما قال ذلك تسترا وتدليسا على رعاى دولته وجهلهم كما قال تعالى « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ » .

(فسوف تعلمون) ما أصنع بكم من العذاب جزاء على هذا المكر والخداع .

ثم بين ذلك بقوله :

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) أى أقسم
لأنكانن بكم أشد التنكيل ، لأقطعن الأيدي والأرجل من خلاف ثم لأصلبن كل
واحد منكم وهو على تلك الحال لتكونوا عبرة لمن تحدته نفسه بالسكيد لنا والترفع
عن الخضوع لعظمتنا .

والخلاصة — إن اتهامه السحرة بالتواطؤ مع موسى إنما كان تمويها على
قومه المصريين إذ خاف عاقبة إيمان الشعب بموسى فادعى أنه لا ينتقم من السحرة
إلا حباً فيهم ودفاعاً عنهم وإبقاء لاستقلالهم في وطنهم كما هو شأن كل رئيس
أو ملك في شعب يخاف أن ينتفض عليه وتجتمع كلمته على اختيار زعيم آخر يقوم
بدعوة دينية أو سياسية .

وعندما سمع السحرة هذا التهديد والوعيد من ذلك الجبار المتكبر أجابوه .
(قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) أى إنهم لا يأبهون بقتلهم ، لأنهم راجعون إلى
ربهم ، راجون مغفرته ورحمته ، فتعجيل القتل يكون سبباً لقرب لقائه والتمتع بجزائه .
وقد يكون المعنى — إنا وإياك سننقلب إلى ربنا وما أنت بمخلد بعدنا ، فلئن
قتلتنا فسيحكم الله بعدله بينك وبيننا .

إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

وفى هذا إيماء إلى تكذيبه فى دعوى الربوبية وتصريح بإيثار ما عند الله على
ما عنده من الشهوات الدنيوية الزائلة وما جاء فى سورة الشعراء من قولهم « قَالُوا
لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ » يؤيد المعنى الأول .

(وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى وما تعيب منا وما تنكر
إلا خير الأعمال وأصل المفاخر وهو الإيمان بالله ، ومثل هذا لا يمكن العدول عنه
مرضاة لك ولا طلباً للزلفى إليك .

وفيه تبيس له وكأنهم قالوا لا مطمع لك في رجوعنا عن إيماننا ، وإلى أن تهديك لا يجدى فائدة .

وما ذكره السحرة من تقم فرعون منهم كان بالقول بالاستنكار التوبيخي لإيمانهم والتهمة فيه والوعيد عليه ، وهل نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل ، الظاهر نعم بدليل قوله « فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » يعني فرعون وملاه .
وقد ختم سبحانه كلام السحرة بدعائمهم بقولهم :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » أى ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفرغه علينا وأيدنا بروحك حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك ولا من الرجاء فى سوى فضلك ، وتوفنا إليك مدعين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون ولا مطيعين له فى قوله ولا فعله . وقد ذكر المؤرخون قديماً وحديثاً أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من كل ملة ودين يكونون أعظم شجاعة وأكثر صبراً على مشاق الحروب من غيرهم ، ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَيَذُرَكَ وَآلِهَتِكَ؟ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا
فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ
الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا
أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ
عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

المعنى الجملى

يخبر سبحانه عما تملأ عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى وقومه من الأذى والبغض وما كان من تأثير جوابه فى موسى وقومه ؛ لقد نصح موسى قومه ودار بينهم حوار قصه الله علينا فى تلك الآيات .

الإيضاح

(وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟) أى قال الأشراف من قوم فرعون لفرعون : أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين فتكون عاقبتهم أن يفسدوا عليك قومك بإدخالهم فى دينهم ، أو يجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ويتركك مع آلهتك فلا يعبدوك ولا يعبدوها فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها ولا يعيننك عنك إيمان السحرة فقد يكون مقدمة لما بعده .

والتاريخ المصرى المستمد من العاديات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس ويسمونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها .
(قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم) أى قال فرعون مجيبا للملأ سنقتل أبناء قومه تقتيلا كما تناسلوا ونستحي نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته حتى ينقرضوا ويعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة .

(وإنا فوقهم قاهرون) أى وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل ، فلا يقدر على أذانا ولا الإفساد فى أرضنا ولا الخروج من عبوديتنا وقد جاء فى سورة المؤمن « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

ولما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد خافوا من فرعون فطمأنهم موسى كما حكى الله عنه بقوله :

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى قال لهم يا قوم اطلبوا معونة الله وتأيدته على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولا تحزنوا فإن الأرض (فلسطين) التى وعدكموها ربكم هى لله الذى بيده ملكوت كل شىء يورثها من يشاء من عباده لالفرعون، فهى على مقتضى سننه دول وأيام ، والعاقبة الحسنى لمن يتقون الله ويراعون سننه فى أسباب إرث الأرض باتحاد الكلمة والاعتصام بالحق وإقامة العدل والصبر على الشدائد والاستعانة بالله لدى المكاره ، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب ودلت عليه الشرائع .

والمخالصة — إن الأمر ليس كما قال فرعون ، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله ولمن وعده الله تعالى تورث الأرض ونحن الموعودون بذلك ولكن بشرط أن نقيم شرعه ونسير على سننه فى الخلق .

وليس الأمر كما يظن فرعون وقومه من بقاء القوى على قوته ، والضعيف على ضعفه اعتمادا على أن الآلهة ضمنت له بقاء ملكه وعظمته وجبروته .

لكن هذه الوصية وتلك النصائح لم تؤثر فى قلوبهم ففزعوا من فرعون وقومه .
 و (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) فقد كان بنو إسرائيل قبل مجيء موسى مستضعفين فى يد فرعون يأخذ منهم إتاوات مختلفة ويستعملهم فى الأعمال الشاقة ويمنعهم من الترف ويقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ، فلما بعث الله موسى لم يستطع أن ينقذهم من ظلم فرعون إذ كان يؤذيههم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيههم من قبل ذلك أو أشد .

ولما ذكروا ذلك لموسى أجابهم :

(قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون)
 أى قال موسى إن رجائى من فضل الله أن يهلك عدوكم الذى ظلمكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض التى وعدكم إياها ومنعكم فرعون من الخروج منها فينظر سبحانه كيف

تعملون بعد استخلافه إياكم فيها — أتشكرون النعمة أم تكفرون؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون، ويكون جزاؤكم في الدنيا والآخرة على وفق ما تعملون .

وعبر بالرجاء دون أن يجزم بذلك لثلاثا يتركوا ما يجب من العمل ويتكلموا على ذلك ، أو لثلاثا يكذبوه لأن أنفسهم قد ضعفت بما طال عليها من النذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لقومه وملكه .

وقد جاء في الفصل السادس من سفر الخروج من التوراة : فقال الرب لموسى : ألا ترى ما أصنع بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقكم ، وبيد قديرة سيطردهم من أرضه - وأعلمه بأنه أعطى إبراهيم وإسحق عهدا بأن يعطيهم أرض كنعان وأنه سمع أنبن بنى إسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهده - ثم قال : لذلك قل لبنى إسرائيل أنا الرب لأخرجنكم من تحت أثقال المصريين ، وأخلصنكم من عبوديتهم وأفدينكم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة وأتخذنكم لى شعبا وأكون لكم إلهًا وتعلمون أنني أنا الرب إلهكم المخرج لكم من تحت أثقال المصريين وسأدخلنكم الأرض التي رفعت يدي مقسمًا أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثًا أنا الرب فكلم موسى بذلك بنى إسرائيل فلم يسمعوا لموسى لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة؟ اهـ.

وعلينا أن نعرف أن جل ما كتبه للفسرون عن بنى إسرائيل إما منقول مما سمعوه ممن أسلم منهم وليس كل من أسلم منهم كان حافظا ثقة صادقا في النقل وإما مأخوذ من كتب غير موثوق بها ، ومن ثم كان أكثر ما كتبه في التفسير منها مهوشا مضطربا حجة لأهل الكتاب علينا .

وإذا كان هذا حال علمائنا في أخبارهم بعد انتشار العلوم في البلاد الإسلامية ، فما بالك بأخبارهم لدى أهل مكة عند ظهور الإسلام ولم يكن في مكة كتاب يقرأ ولا أحد يعرف القراءة والكتابة إلا ستة نفر من التجار يعرفونها معرفة ساذجة لا تشفى غليلا ولا تفيد في تحقيق حادثة ولا حل مشكلة .

فأنى لمحمد بن عبد الله أن يعرف حقائق أخبارهم ومعرفة أحوالهم لولا الوحي الإلهي والفيض الرباني من لدن عليم خبير .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَّأَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَتَأْتِنُنَا لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) .

تفسير المفردات

كثر استعمال الأخذ في العذاب كقوله « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وآل فرعون : قومه وخاصته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملائم من قومه ولا يستعمل هذا اللفظ إلا فيمن يختص بالإنسان بقرابة قريبة كما قال عز اسمه (وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ) أو بموالاة ومتابعة في الرأي كما قال « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » والسنون ، واحدها سنة : وهي بمعنى الحول ولكن أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الجذب كما هنا بدليل نقص الثمرات ، والمراد بالحسنة هنا : الخصب والرخاء ، وبالسيئة : ما يسوءهم من جذب وجائحة أو مصيبة في الأبدان والأرزاق ، ويطيروا بنشأموها ، وسر إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت بها ورجت الخير والبركة ، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت

الشر ويسمى الطائر الأول السانح ، والثاني البارح ، وسموا الشؤم طيرا وطاقرا والتشاؤم تطيرا ، الطوفان لغة : ما طاف بالشيء وغشيه، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض ، والقمل (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) هو السوس الذي يخرج من الخنطة ، وقيل هو صغار الجراد ، وقال الراغب : هو صغار الذباب ، والدم : هو الرعاف ، وقيل هو دم كان يحدث في مياه المصريين .

المعنى الجملي

بعد أن حكى الله وعد موسى لقومه بقوله . عسى ربكم أن يهلك عدوكم - ذكر هنا مبادئ الهلاك الموعود به بما أنزله على فرعون وقومه من المحق حالا بعد حال ، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال تنبيها للسامعين وزجرا لهم عن الكفر وتكذيب الرسل حذر أن ينزل بهم من الشر مثل ما نزل بهؤلاء .

الإيضاح

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) أى إنه تعالى أخذ آل فرعون بالجذب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم العالى الجبار وعجز آلهتهم ، ايرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل ويحيبوا دعوة موسى عليه السلام ، إذ قد دلت التجارب على أن الشدائد ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه والعمل على مرضاته والتضرع له دون غيره من المعبودات متى اتخذوها وسائل إليه وشفعاء عنده .

فإن لم تُجِدِ المصائب في تذكر المولى وبلغ الأمر بالناس أن يشركوا به حتى في أوقات الشدائد فهم في خسران مبين وضلال بعيد ، وكذلك كان دأب آل فرعون بعد أن أنذرهم موسى عليه السلام .

(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)

أى فإذا جاءهم خصب وثمار ومواش وسعة فى الرزق والعافية قالوا لنا هذه أى نحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس فبلادنا بلاد خصب ورخاء ، وقد غاب عنهم أن يعلموا أن هذا من الله فعليهم أن يشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه - وإن أصابهم قحط وجدب ومرض وبلاء تشاءموا بموسى ، وقالوا إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى توها منهم أن ذلك حق من حقوقهم .

ومثل هذه المعاملة هى التى يجب أن يعامل بها الأجنبي فى الوطن والدين كما هى الحال الآن فى معاملة أهل المغرب للبلاد الشرقية المستعمرة لهم .

(ألا إنما طأثرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى إن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وتقديره وهو الذى وضع لنظام الكون سننا تكون فيه المسببات على وفق أسبابها ، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل عليهم البلاء ويكون امتحانا واختبارا لهم ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بنى إسرائيل وعن طغيانهم وإسرافهم فى جميع أمورهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة تصرف الخالق فى هذا الكون ولا أسباب الخير والشر ، ولا أن كل شىء فيه جاء بمشيئته وتدييره .

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات لم تردعهم عما هم فيه من الطغيان - ذكر أنه أصابهم بضروب أخرى من العذاب وهى فى أنفسها آيات بينات - وهم مع ذلك لم يرجعوا عن كفرهم وعنادهم .

(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أى إنك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على أنك محق فى دعوتك لأجل أن تسحرنا بها وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك فى خدمتنا ، فما نحن بمصدقين لك ولا بمتبعين رسالتك .

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم تلك المصائب والنكبات ، وهى آيات بينات على صدق رسالة موسى إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل لتكون دلائلها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته ، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم فى الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته .

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمسا وفى سورة الإسراء تسعا وهى :

(١) الطوفان فقد نزلت عليهم أمطار أغرقت أرضهم وأنلفت زرعهم وثمارهم وجاء وصفها فى التوراة ، وفى الفصل التاسع فى سفر الخروج (ثم قال الرب لموسى : بكر فى الغداة وقف بين يدي فرعون وقل له : كذا قال الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدونى فإنى فى هذه المرة منزل جميع ضرباتى على قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكى تعلم أنه ليس مثلى فى جميع الأرض وأنا الآن أمد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض ، غير أنى لهذا أبقىك لكى أريك قوتى ولكى يخبر باسمى فى جميع الأرض ، وأنت لم تزل مقاوما لشعبي ، هاأنا ممطر فى مثل هذا الوقت من غد برّدا عظيما جدا لم يكن مثله فى مصر منذ يوم أسست إلى الآن .

ثم ذكر فيها وقوع البرّاد مع نزول نار من السماء ، ووصف عظمتة وشموله لجميع بلاد مصر وأن فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئهما وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما بإطلاق بنى إسرائيل وجاء فى ختام هذا الفصل .

نفرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فكفت الرعود ولم يعد المطر يهطل على الأرض .

(٢) الجراد وقد ذكر فى التوراة بعد الطوفان فقد جاء فيها (إن فرعون قسا قلبه فلم يطلق بنى إسرائيل فأخبر الرب موسى فأمره بأن يندره بإرسال الجراد عليهم

فياً كل ما سلم من النبات والشجر ويملاً بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل - فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والأولاد والمواشى ، فرد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحا شرقية ساقط الجراد على أرض مصر ففطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شئ من الخضرة في الشجر ولا في عشب الصحراء في جميع أرض مصر ، وجاء فيها : إن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما الصفح والشفاعة إلى الرب إلهما أن يرفع عنه هذه التهلكة فعلا فأرسل الله ريحا غربية فحملت الجراد كله فألقته في بحر القلزم .

(٣) القمل : وهو صغار الذباب - وقد جاء في التوراة - إن البعوض والذباب كان من الضربات العشر التي ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بنى إسرائيل مع موسى ، ففي الفصل الثامن من سفر الخروج : إن موسى أئذ فرعون أن الذباب سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل بيوت بنى إسرائيل المقيمين في أرض جاسان وأن ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذباب .

(٤) الضفادع : وفي سفر الخروج - وقال الرب لموسى : ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب - أطلق شعبي ليعبدونى وإن أبيت أن تطلقهم فهأنذا ضارب جميع تخومك بالضفادع فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر في بيتك وفي مخدع فراشك وعلى سريرك وفي بيوت عبيدك وشعبك وفي تنانيرك ومعاجنك الخ .

وكذلك كان - وفيها - إن فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابه إلى ذلك قال : ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت والأقبية والحقول فجمعوها أكواما وأنتنت الأرض منها .

(٥) الدم : فقد كانت مياه المصريين تتحول إلى دم وقد جاء في الفصل السابع من سفر الخروج : « إن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل ، ثم قال الرب

لموسى قل لهرون : خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلّجهم ومنافعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دما ، ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة » وفيها أن موسى وهارون فعلا ذلك وأن سمك النهر مات وأنن النهر فلم يستطيع المصريون أن يشربوا منه .

هذه هي الآيات الخمس التي أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام وليس فيها ما ينفي مافى التوراة ولا ما يؤيدها ، وعلينا أن نقف عندما أثبتته القرآن فقط دون زيادة عليه .

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْفُؤُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ .
(١٣٥) فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ (١٣٦) .

شرح المفردات

الرجز : العذاب الذي يضطرب له الناس في شئونهم ومعايشهم ، وذلك شامل لكل نعمة وجاءحة أنزلها الله على قوم فرعون كالحبس التي ذكرت قبل ، والعهد : النبوة والرسالة ، والنكث لغة : تقض ما غزل أو ما قتل من الحبال ثم استعمل في الخنث في اليهود والموثيق ، واليم : البحر في اللغة المصرية الموافقة للغة العربية في كثير من مفرداتها مما يدل على أن أصل الأمتين واحد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الآيات الخمس التي سبق ذكرها ، بين هنا ما كان من أثرها في نفوس المصريين جميعا وطلبهم من موسى أن يرفع الله عنهم العذاب ، فإذا هو فعل

آمنوا به ثم تبين نكثهم وخلفهم للوعد كل مرة حدث فيها الطلب حتى حل بهم عذاب الاستئصال بالفرق في البحر .

الإيضاح

(ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) أى ولما وقع ذلك العذاب الذى ذكره فى الآية السالفة اضطربوا وفرغوا أشد الفزع وقالوا حين نزول كل نوع بهم : يا موسى ادع لنا ربك وتوسل إليه بعهد عندك ورسالته لك أن يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، وفى التوراة : إن فرعون كان يقول لموسى حين نزول كل آية منها : ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده بأن يرسل معه بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم ويذبحوا له ثم ينكث .

(فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذ هم ينكثون) أى فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد أخرى إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه وهو الفرق الذى هلكوا فيه - إذ هم ينكثون عهدهم ويخثون فى قسمهم فى كل مرة .

والخلاصة - إنه كشف العذاب عنهم إلى حين من الزمان هم واصلون إليه ولا بد ، فمعدبون فيه أو مهلكون وهو وقت الفرق كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم فى البحر ، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم تفكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها .

والخلاصة - إنهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها

كلها وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدنيا والآخرة إذ كانت فى نظر الكثير منهم من قبيل السحر والصناعة ، ومن ثم كانوا يكابرون أنفسهم فى كل آية منها ويحاولون أن يأتى سحرتهم وعلمائهم بمثلهما .

ومنهم من اهتدى إلى الحق وظهر له صدقه فأمن به جبهة ككبار السحرة ، ومنهم من كتم إيمانه كالذى عارض فرعون وملاؤه بالحجة والبرهان فى قتل موسى كما جاء فى سورة غافر ، ومنهم من جحد بها كبرا وعلوا فى الأرض كفرعون وأكابر وزرائه ورؤسائه .

وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا
وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

شرح المفردات

مشارق الأرض ومغاربها : يراد بها جميع نواحيها والمراد بها أرض الشام ، وتنام
الشيء : وصوله إلى آخر حده ، وكلمة الله : هى وعده لبنى إسرائيل بإهلاك عدوهم
واستخلافهم فى الأرض : « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ
فِي الْأَرْضِ » والتدمير: إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر، والعرش: رفع
المباني والسقائف للنبات والشجر المنسلق كعرائش العنب : ومنه عرش الملك .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حل بالمصريين من الفرق عقوبة لهم على تكذيبهم
بموسى بعد وجود الآية تلو الآية الدالة على صدقه - ذكر هنا ما فعله بنى إسرائيل

من الخيرات إذ أصبحوا أعزة بعد أن كانوا أذلة وملكوا الأرض المقدسة التي بارك الله فيها ، وهي بلاد الشام .

الإيضاح

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)
 أى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بقتل الأبناء واستحياء النساء وأخذ الجزية واستعمالهم في الأعمال الشاقة الأرض التي باركنا فيها بالخصب والخير الكثير ، مشارقها من حدود الشام ، ومغاربها من حدود مصر تحقيقا لما وعدنا به : « وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

وعن كعب الأحبار أنه قال : إن الله بارك في الشام من الفرات إلى العريش ، ويؤيد ذلك قوله في إبراهيم عليه السلام : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وقوله : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » .

(وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) أى ونفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه ، وقد كان وعد الله تعالى إياهم بما وعد مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغا عن ربه : « وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى .

(ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى وخرّبنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور التى كانوا يبنونها للمصريين والمساكن السحرية والصناعية التى كان يصنعها السحرة لإبطال آياته والتشكيك فيها كما قال تعالى : « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ » وما كانوا يعرشون من الجنات والبساتين ، وأسباب هذا التدمير لتلك المصانع والعروش أمور :

(١) الآيات التى أيد الله تعالى بها موسى من الطوفان والجراد وغيرها ، وسمتها التوراة : الضربات العشر .

(٢) إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم فى أعمالهم .
 (٣) هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم فى العمران ، وقد أندرهم موسى عاقبة ذلك فكذبوا بالآيات وأصرروا على الجود والعناد فظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله .

ووجه العبرة فى هذه الآيات ما كان للايمان فى قلب موسى وهارون من التأثير إذ تصديا لأكبر ملك فى أكبر دولة فى الأرض استعبدت قومه فى خدمتها عدة قرون ، وما زالوا يكافئونه بالحجج والآيات حتى أظفرهما الله تعالى به وأتقدا قومهما من ظلمه ، ولهذا يجدر ألا تستعظم قوة الدول الظالمة أمام قوة الحق كما قال :
 « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » وقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هُوَ لَأَمْتَبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)
 قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ

أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

شرح المفردات

جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه : عداه وانتقل عنه ، والعكوف على الشيء :
الإقبال عليه وملازمته تعظيماً له ، والأصنام واحدها صنم : وهو ما يصنع من الخشب
والحجر أو المعدن مثلاً لشيء حقيقي أو خيالي ليعظم تعظيم العبادة ؛ وقد اتخذ بعض
العرب في الجاهلية أصناماً من عجوة التمر فعبدوها ثم جاعوا فأكلوها ، والتمثال لا بد
أن يكون مثلاً لشيء حقيقي ، وقد يكون للعبادة فيسمى صنماً ، وقد يكون للزينة
كالذي يكون على جدران بعض القصور أو أبوابها أو في حدائقها ، وقد يكون للتعظيم
غير الديني كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار العلماء والقواد للتذكير بتاريخهم
وأعمالهم للاقتداء بهم .

والتعظيم الديني يكون الغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر
أو جلب منفعة من طريق الغيب باعتقاد أن له سلطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من
صورة أو تمثال أو قبر أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به
في الأمور التي لاتنال بالأسباب العامة ، وكل ذلك عبادة ظاهرة فإن قصد التقرب به
إلى الله ليحملة بجاهه على إعطائه ما يريد كانت العبادة له والله بالاشتراك ، وهذا مظهر
من مظاهر الشرك الجلي التي تعتبر كفراً مهما اختلفت تسميتها ، والتبار والتبر : الهلاك ،
والتتبير : الإهلاك والتدمير ، فيقال تبره : أهلكه ودمره ، وباطل : أى هالك وزائل
لابقاء له ، وبغى الشيء وابتغاه : طلبه .

المعنى الجملي

بعد أن بين سبحانه أنواع نعمه على بني إسرائيل بأن أهلك عدوهم وأورثهم
أرضهم وديارهم أتبع ذلك بالنعمة الكبرى عليهم وهي أنه جاوز بهم البحر آمين ،

ثم ارتدوا وطلبوا من موسى أن يعمل لهم آلهة وأصناما ، وفي هذا تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه من اليهود بالمدينة ؛ فإنهم جروا معه على دأب أسلافهم مع أخيه موسى صلوات الله عليه ، وإيقاظ المؤمنين ألا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة نعم الله تعالى عليهم فإن بنى إسرائيل وقعوا فيما وقعوا فيه من جراء غفلتهم عما من الله تعالى به عليهم من النعم .

الإيضاح

(وجاوزنا بينى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة) أى إنهم تجاوزوه بعناية الله وتأيدته فكأنه معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم فأتوا عقب تجاوزهم إياه ودخولهم فى بلاد العرب من البحر الأسيوى على قوم يعبدون أصناما لهم : فقالوا يا موسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة حينئذ منهم إلى ما ألفوا فى مصر من عبادة المصريين وتمائيلها وأنصابها وقبورها .

وسر هذا الطلب أنهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، إذ أن السحرة كانوا من العلماء فأمكنهم التمييز بين آيات الله التى لا يقدر عليها غيره والسحر الذى هو من صناعات البشر وعلومهم .

ولم يذكر القرآن شيئا يعين شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل ، والراجح أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر ، روى عن قتادة أنهم من عرب نخم ، وعن ابن جرير أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس .

وقد جاء آخر الفصل الثالث عشر من سفر الخروج (وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من غمام ليهديهم الطريق ، وليلا فى عمود من نار ليضىء لهم ليسيروا نهارا وليلا ، لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب) .

ثم جاء فى الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر أتباع فرعون ومن معه من بنى إسرائيل (فانتقل ملك الله السائر أمام عسكر بنى إسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام من

أمامهم فوقف وراءهم ، ودخل بين عسكر المصريين ، وعسكر بنى إسرائيل ، فكان من هنا غماما مظالما ، وكان من هناك ينير الليل ، فلم يقترب أحد الفريقين من الآخر طول الليل .

ولاشك أن هذا الطلب دليل على الضعف البشرى فى كل زمان ومكان ، فلا عجب أن روى عن بعض حديثى العهد من الصحابة بالإسلام مثل ما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام لما كان للوثنية فى قلوبهم من التأثير - روى أحمد والنسائى عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ حُنَيْنٍ فمررنا بِسِدْرَةِ فقلت يارسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط فقال (الله أكبر) هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) إنكم تركبون سنن من قبلكم » .

وللمسلمين عبرة فى هذا فإن لهم الآن ذوات أنواط فى بلاد كثيرة كشجرة الحنفي بمصر ، وقد اجتثت أخيرا وشجرة (ست المنصورة) ونحو ذلك مما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار التى يعكفون عليها ويطوفون حولها ويقبلونها ويترغون بأعتابها ويتمسحون بها خاشعين ضارعين راجين شفاء الأدواء والانتقام من الأعداء وحبل العقيم ورد الضالة وغير ذلك من النفع ، وكشف الضر ، وهذا مخالف لنصوص كتاب الله وسنة رسوله ، إذ هذا عبادة وإن كانوا لا يسمونها بذلك ، فلا فرق بينه وبين شرك الجاهلية (إلا بالتسمية) إذ حقيقة العبادة كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضره وحده ، وقد أجابهم موسى عن طلبهم بقوله :

(إنكم قوم تجهلون) أى إنكم تجهلون مقام التوحيد ، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل أيس والتعابين - فالله قد كرم البشر وجعلهم أهلا لمعرفة ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقر به إليهم فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

وبعد أن بين لهم جهلهم وسفههم بين لهم فساد ما طلبوه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال :

(إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) أى إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق فى هذه الديار ، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذى الجلال ، فإنما بقاءه الباطل فى ترك الحق له وبعده عنه .

وفى هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض ، وقد حقق الله ما قال :

(قال أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) أى قال لهم موسى : أطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض ، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، فإذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ .

والمخالصة : إن موسى بدأ جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، وثى ببيان فساد ما طلبوه وكونه عرضة للتبار والزوال لأنه باطل فى نفسه ، ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لاتصح البتة سواء أكان المعبود أفضل المخلوقات كالملائكة والنبين أو أخسها كالأصنام ؛ ثم أنكر عليهم أن يكون هو الواسطة فى هذا الجعل الذى دعا إليه الجهل ، ليعلمهم أن طلب هذا الأمر المنكر منه عليه السلام جهل بمعنى رسالته ، وأيد إنكاره لكلا الأمرين بما يعرفون من فضل الله عليهم بتفضيلهم على أهل زمانهم ممن كانوا أرقى منهم مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب ، وهم فرعون وقومه - برسالة موسى وهرون منهم وتجديد ملة إبراهيم فيهم وإيتائهما من الآيات ما تقدم ذكره .

(وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى واذكروا إذ أنجيناكم

بإرسال موسى وبما أيدناه به من الآيات - من آل فرعون الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب يجعلكم عبيدا مسخرين لخدمتهم ، ويقتلون ما يولد لكم من الذكور ويستبقون نساءكم لتزادوا ضعفا بكثرتهن ، وفي ذلكم العذاب والإنجاء منه بفضل الله عليكم وتفضيله إياكم على غيركم من سكان مصر ، وسكان الأرض المقدسة التي سترثونها - بلاء عظيم أى اختبار لكم من ربكم المدبر لأموركم ليس هناك اختبار أعظم منه ، فلا أجدد بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد النعمة ، وأحق الناس بمعرفة الله وإخلاص العبادة له من يرى في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون فيه شركة لغير الله ، وإن أعجب العجب أن تطلبوا بعد هذا كله ممن رأيتم على يديه هذه الآيات أن يجعل لكم آلهة من أخس الخلوقات - تجعلونها واسطة بينكم وبين الله ، وهو قد فضلكم عليها وعلى من يعبدونها ومن هم أرقى منهم .

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ
 أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا
 تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ
 رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ
 مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى
 صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)
 قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ
 مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ

شَيْءٌ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

شرح المفردات

الميعات : الوقت الذى يقرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج ، اخلفنى أى
كن خليفتى ، وجلا الشئ والأمر وانجلى وتجلى وجلاه فتجلى : إذا انكشف ووضح
بعد خفاء فى نفسه أو على مجتليه وطالبه ، والدك: الدق ، وانخر وانخرور: السقوط من
علو ، والانكباب على الأرض كما قال «يَخْرُونَ لِلذَّقَانِ سُجَّدًا» وصعقا أى صاعقا
صاعقا مغشيا عليه ، وأفاق أى رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان: والاصطفاء
اختيار صفوة الشئ أى خالصة الذى لا شائبة فيه ، بقوة أى بجهد وعزيمة وحزم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما أنعم به على بنى إسرائيل من النجاة من العبودية ومن
جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات والأحكام - ذكر
هنا بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام ممتنا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم
موسى وإعطائه التوراة ، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقربهم من ربهم من
الأحكام ، وقد روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن
أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يندرون ، فلما هلك
فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب
وهو التوراة .

الإيضاح

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بمشركم ميقات ربه أربعين ليلة) أى
ضرب الله تعالى موعدا لموسى لسكنته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة

ثلاثين ليلة، قيل هي شهر ذى القعدة وأتم الثلاثين ليلة بعشر ليال فتم الموعد بذلك أربعين ليلة، صعد جبل سيناء في أوله وهبط في آخره، وروى عن أبي العالية أنه قال في بيان زمان الموعد: يعنى ذى القعدة وعشرا من ذى الحجة فكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة فى الألواح فقربه الرب نجيا، وكله وسمع صريف القلم. وجاء فى التوراة من سفر الخروج (وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم، فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله تعالى. وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا هاهنا، وهو ذا هارون وحور معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما، فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب وكان ينظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل، ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل، وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة). وفى الفصل الرابع والثلاثين ما نصه (وقال الرب لموسى: اكتب لنفسك هذه الكلمات، قطعت عهدا معك ومع بنى إسرائيل وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد (الكلمات العشر).

(وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) أى وقال موسى حين أراد الذهاب لميقات ربه لأخيه هرون وكان أكبر منه سنا، كن خليفتى فى قومي وراقبهم فيما يأتون وما يذرون، وكانت الرياسة فيهم لموسى وكان هرون وزيره ونصيره بسؤاله لربه « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي » وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم، ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد فى الأرض، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ومساعدتهم عليها ومعاشرتهم والإقامة معهم حال اقرار الإفساد.

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك) أى لما جاء موسى للميقات الذى وقت له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب بغير واسطة ملك استشرفت نفسه للجمع بين فضيلتى الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة واجعل لى من القوة على حمل تجليتك ما أقدر به على النظر إليك وكال المعرفة بك .

(قال لن ترانى) أى إنك لا ترانى الآن ولا فيما يستقبل من الزمان إذ ليس لبشر أن يطبق النظر إلى في الدنيا ثم أتى بما هو كالعلة لذلك (ليخفف عن موسى شدة وطأة الرد بإعلامه ما لم يكن يعلم من سننه) وهو أن شيئاً فى الكون لا يقوى على رؤيته كما جاء فى حديث أبى موسى الذى رواه مسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم « حجاباه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه » فقال :

(ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) أى فإن ثبت لدى التجلى وبقى مستقراً فى مكانه فسوف ترانى إذ هو مشارك لك فى مادة هذا العالم الفانى ، وإذا كان الجبل فى قوته وثباته لا يستطيع أن يثبت ويستقر لأن مادته غير مستعدة لقوة تجلى خالقه وخالق كل شئ - فاعلم أنك لن ترانى أيضاً وأنت مشارك له فى كونك مخلوقاً من هذه المادة وخاضعاً للسنن الربانية فى ضعف استعدادها وقبولها للفناء .

وروى عن ابن عباس أنه قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى : « أرني أنظر إليك » قال له يا موسى إنك لن ترانى ، قال يقول : ليس ترانى ، لا يكون ذلك أبداً ، يا موسى إنه لن يرانى أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إلى من ألا أراك ثم أحيا ، فقال الله يا موسى انظر إلى الجبل الطويل العظيم الشديد « فإن استقر مكانه » يقول فإن ثبت مكانه لم يتضعع ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمى : « فسوف ترانى » أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبل يتضعع وانهد بقوته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذل .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً) أى فلما تجلى ربه للجبل

أقل التجلي وأدناه انهد وهبط وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء ، وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه كمن أخذته الصاعقة ، والتجلى إنما كان للجبل دونه فما بالك لو كان له .

روى أنه ساخ : أى غاص فى الأرض : أى أنه رج بالتجلى رجا ، بست به حجارته بسا ، وساخ فى الأرض كله أو بعضه فى أثناء ذلك حتى صار ربوة دكاء وكان كالرمل المتلبد .

(فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) أى فلما أفاق من غشيه قال سبحانك : أى تنزيها لك وتقديسا عما لا ينبغي فى شأنك مما سألت .
وأكثر المفسرين يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى فتاب ورجع عما طلب .

قال مجاهد : « تبت إليك » أن أسألك الرؤية : « وأنا أول المؤمنين » أى من بنى إسرائيل ، وفى رواية عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد .

والخلاصة — إن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل تاقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته التى منها كلامه ، ولكن الله تبارك وتعالى قال له : « لن ترانى » ولكى يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل ما فهم منه أن المانع من جهته لا من جانب الفيض الإلهى ، حينئذ نزه الله وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له كما قال :

(قال يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي) أى اصطفتك بتكليمي لك بلا توسط ملك وإن كان من وراء حجاب ، وقد طلب موسى رفع هذا الحجاب لتحصل له الرؤية مع الكلام .

(أخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أى أخذ ما أعطيتك من الشريعة وهى التوراة وكن من جماعة الشاكرين لنعمتى عليك وعلى قومك ، بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها ، وأداء حقوق نعمى جميعها عليك تنل المزيد من فضلى: « لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

وقد تقدم أن قلنا إن الوحي إلى الرسل أنواع ثلاثة بينها الله بقوله: « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ » .

والخلاصة — إن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح فى القرآن الكريم فى آيات عدة لاتعارض بينها ، وأما الرؤية فففيها آيات متعارضة كقوله تعالى : « لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » وقوله : « لَنْ تَرَانِي » وهما أصرح فى النفى من دلالة قوله تعالى: « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » على الإثبات فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير فى القرآن وكلام العرب كقوله: « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » وقوله: « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً » وفى الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلا ، والمرفوع منها مروى عن أكثر من عشرين صحابيا ، ولم يرد فى معارضتها شىء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها يا أمه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج؟ فقالت : لقد فف شعرى مما قلت ، أى أنت من : « ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ، وفى رواية فقد أعظم الفرية ثم قرأت : « لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » — وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » ومن حدثك أنه كتم شيئا من الدين فقد كذب ثم قرأت : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » قال مسروق : وكنت متكئا فجلست وقلت : ألم يقل

الله : « وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى » فقالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فقال : « إنما هو جبريل » .

ومن هذا تعلم أن عائشة تنفى دلالة سورة النجم على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه بالحديث المرفوع وتنفى جواز الرؤية مطلقا أوفى هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » وقوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » وهذا الاستدلال ليس نصا فى النفى حتى يرجح على الأحاديث الصريحة فى الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة .

والمتبتون للرؤية يقولون : إن استنباط عائشة إنما هو لنى الرؤية فى الدنيا فقط كما قال بذلك الجمهور ، ولا تقاس شئون البشر فى الآخرة على شئونهم فى الدنيا ، لأن لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى فى الأمور المادية كالأكل والشرب ، والمأكل والمشروب ، فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره فى مقره أو جوّه ، قال ابن عباس ليس فى الدنيا شئ مما فى الجنة إلا الأسماء .

وجمهرة المسلمين أن رؤية العباد لربهم فى الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل للنعم الروحانى الذى يرتقى إليه البشر فى دار الكرامة ، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهى المعبر عنها بقولهم : إنها رؤية بلا كيف .
وبعد أن أخبر سبحانه فى الآيات السالفة أنه منع موسى رؤيته فى الدنيا وبشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه أخبرنا فيما بعد بما آناه يومئذ بالإجمال فقال :

(وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ) أى إننا أعطيناه ألواحا كتبنا له فيها أنواع الهداية والمواعظ التى تؤثر فى القلوب ترغيبا وترهيبا

وتفصيلا لأصول الشرائع وهى أصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام .
والراجع أن هذه الألواح كانت أول ما أوتيته من وحى التشريع الإجمالى . أما
سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات المدنية والحربية والعقوبات فكانت
تنزل عليه وقت الحاجة كالتقرآن .

وقد اختلفوا فى عدد الألواح فمن مقل قال إنها اثنان ومن مكثر قال إنها عشرة أو سبعة .
وجاء فى التوراة فى شأن الألواح فى سفر الخروج : « قال الرب لموسى اصعد إلى
الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتهما لتعلمهم
الكلمات العشر » وجاء فيها أيضا : « ثم اثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة
فى يده . لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كأننا مكتوبين ، واللوحان
هما صفة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين » وجاء فيها : « وقال الرب
لموسى أكتب لك هذا الكلام لأنى بحسبه عقدت عهدا معك ومع بنى إسرائيل
وأقام هناك عند الرب أربعين يوما وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب
على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر » ومن هذا تعلم أن ما كتبه المفسرون عن
الإسرائيليات مخالفا لذلك فهو باطل ، أراد به واضعوه الكذب والافتراء ، فيجب
علينا أن نمحص تلك الروايات ونحققها من كتبهم .

(فخذها بقوة) أى وكتبنا له فى الألواح ما ذكر وقلنا له : هذه وصاياانا وأصول
شريعتنا وكتابتها ، فخذها بقوة وجدّ وعزم ، ذلك أنك ستكوّن بها شعبا جديدا
بعادات جديدة وأخلاق جديدة مخالفة فى جوهرها وصفاتها لما كان عليه من النذل
والعبودية لدى فرعون وقومه ، وما كان عليه من الشرك والوثنية التى ألفها وراضت
نفسه لقبولها ، فأنى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد ويربأ بذلك الصدع إذا لم
يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم فى أوامره ونواهيه ؟ .

(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة
والأحكام المفصلة فى الألواح التى هى منتهى السكّال والحسن كالإخلاص لله فى العبادة .

إذ به يتحلى العقل وتزكى النفس ، مع ترك اتخاذ الصور والتماثيل لأنها ذرائع للشرك وسبب للوصول إليه .

(سأريكم دار الفاسقين) أى إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم ، ونصركم عليهم وسيرىكم ما حل بهم بعدكم من الفرق .

قال ابن كثير : أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار .

قال ابن جرير : وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخالفه : سأريك غدا ما يصير إليه حال من خالف أمرى - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

وفى الآية عبرة لمن يقرؤها ويتدبر أمرها من وجوه :

(١) إن الشريعة يجب أن تتلقى بعزيمة وجدّ لتنفيذ ما بها من الإصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً ، ومظهر ذلك الرسول المبلغ لها والداعى إليها والمنفذ لها بقوله وعمله فهو الأسوة والقدوة ، وهذه سنة الله فى كل انقلاب ، وتجديد اجتماعى وسياسى وإن لم يكن بهدى الله ، فما بالك بالدين وهو أحوج ما يكون إلى إصلاح الظاهر والباطن ، وقد أخذ سلفنا الصالح القرآن بقوة بالعمل بهداية دينهم لا بالتبرك بالمصاحف والتغنى بالقرآن فى المحافل ، فسادوا جميع الأمم التى كانت لها القوة الحربية والصناعية والمالية والعديدية ، وسعدوا به فى دنياهم وسيكونون كذلك فى آخرتهم ، وخلف من بعدهم خلف أعرضوا عنه وتركوا هدايته فشقوا فى دنياهم وآخرتهم كما قال « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

(٢) أن شعب إسرائيل عظم ملكه حين أقام شريعته بقوة حتى إذا غلبه الغرور وظن أن الله ينصره لنسبه وأنه شعب الله ففسق وظلم فأنزل الله به البلاء وسلط عليه البابليين فأزالوا ملكه ، ثم تاب إلى رسله فرحمه وأعاد إليه بعض ملكه ، ثم ظلم وأفسد فسلط عليه النصارى فمزقوه كل ممزق .

(٣) إن المسلمين الذين اتبعوا سننهم قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب (الإسلام) ولقب (أمة محمد) ولم يثوبوا إلى رسلهم ، فزالت دولتهم وذهب ربحهم وامتلك عدوهم ناصيتهم وجدّ في إفساد عقائدهم وأخلاقهم وإيقاع الشقاق فيما بينهم وتولى تربيتهم وتعليمهم كما يحب ويهوى ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ،
وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

شرح المفردات

التكبر: التكبر من الكبر ، وهو غمط الحق بعدم الخضوع له ويصعبه احتقار الناس ، فصاحبه يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق أو يساوى نفسه بشخص ، والرشد والرشد والرشاد كالسقم والسقم والسقام: الصلاح والاستقامة ، وضده الغى والفساد ، والآيات الأولى : هي الينيات والدلائل ، والثانية: هي الآيات المنزلة من حيث اشتغالها على الهداية وتزكية النفوس .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة ما لحق فرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه وفساده فى الأرض - ذكر هنا سنته تعالى فى ضلال البشر بعد مجيء البينات وتكذيبهم لدعاة الحق والخير من الرسل وأتباعهم ، وأبان أن السبب الأول لذلك هو التكبر ، فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى ، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه ، ومن الغافلين عنه كما هى حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه .

وفى هذا إيماء للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الطاغين المستكبرين من صناديد قومه لن ينظروا فى دعوته ولا فى آيات القرآن الدالة على وحدانية الله بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة من آيات كونية ، وآيات فى الآفاق وفى أنفسهم .

وجملة الموانع الصادة لهم عن اتباعه ترجع إلى التكبر فإنهم بزعمهم يعتقدون أنهم سادة قريش وكبرائها وأقرباؤها فلا ينبغي أن يتبعوا من دونهم سناً وقوة وثروة وعصبية .

الإيضاح

(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) أى سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتى وعلى الناس بغير حق - فهم الأدلة والحجج الدالة على عظمتى وعلى ما فى شرائعى من هدى وسعادة لهم كما قال « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » كما منعت فرعون وقومه عن فهم آيات موسى التى أوحيتها إليه ، وقوله بغير الحق أى بتلبسهم بالباطل وانغماسهم فيه - إذ لا قيمة للحق لدى هؤلاء فهم لا يبحثون عنه ولا يطلبونه ، وقد تظهر لهم آياته ويحججونها وهم بها موقنون كما قال تعالى فى قوم فرعون « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

ثم بين صفات المستكبرين وأحوالهم فقال :

(١) (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى إنهم إذا رأوا الآيات التى تدل على الحق وثبته لا يستفيدون منها فائدة ما فلا يؤمنون بها ، لأن كثرة الآيات وتعدد أنواعها إنما تفيد من تكون نفسه تواقفة لمعرفة الحق لكنه يجهل الوصول إليه أو يشك فى الطريق الموصلة إليه لتعارض الأدلة لديه خلفاء دلالتها أو لسوء فهمه لها ، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره فتتكشف الحقيقة واضحة أمامه وتسفر له عن وجهها ، وفى هذا إيماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه لا يقصدون استبانة الحق وإيضاحه بل يريدون إحداث الشغب والتعجيز ، فإن هم أجيبوا إلى طلبهم لم يؤمنوا بما جئت به .

(٢) (وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً) أى وهم ينفرون من سبيل الهدى والرشاد وهى السبيل المعبدة الواضحة ، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يختارها لنفسه ولا يفضلها على ما هو عليه من سبيل الغى ، وهذا منتهى ما يكون من الطبع على القلب والخروج عن جادة العقل والفضيلة ، ومن الناس من يسلك هذه السبيل عن جهل فإذا رأى لنفسه مخرجاً منها ارعوى وتركها واختار لنفسه سبيل الرشاد .

(٣) (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً) أى إنهم إذا رأوا سبيل الغى والضلال هرعوا إليها وخبثوا فيها وأوضعوا بما تزينه لهم نفوسهم من سلوكها والسير فيها إلى آخر الحلبنة ، وهذه حال لهم شر من سابقتيها ، وهؤلاء الذين اجتمعت لهم هذه الصفات هم الذين طبع الله على قلوبهم وختم على سمعهم وقلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فسبل الحق بغيضة إليهم ، وطرقه مكروهة لديهم .

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر فى الآيات وعدم اعتبارهم بها فقال :

(ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى إننا عاقبناهم على تكذيبهم بالآيات والغفلة عن النظر إلى الأدلة الموصلة إلى الحق فيما أمرنا به ونهينا عنه - بانختم على قلوبهم ، والغشاوة على أعينهم حتى لا يجد الحق منفذاً فى الوصول إليها .

والخلاصة — إن الله لم يخلق هؤلاء مطبوعين على النقي والضلال طبعاً ، ولم يجبرهم إجباراً ويكرههم عليه ! كراها بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم ، إذ هم آثروا التكذيب بالآيات والصد عن السبل الموصلة إلى الرشاد وغفلوا عن النظر في أدلتها لشغلهم بأهوائهم واتباع شهواتهم وبذا لجوا في الطغيان وتمادوا في العصيان واحتقروا ما سوى ذلك مما يهدى عقولهم إلى صوب الحق وسلوك طريقه .

وأمثال هؤلاء هم الذين عناهم الله بقوله « وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَلَئِن لَّا يَفْقَهُونَ » .

ولا شك أن كثيرا من المسلمين الذين تعلموا التعاليم الغربية ورأوا زخرف المدينة الأوروبية وغرهم بهرجها وخلبتهم زينتها تنطبق عليهم هذه الصفات ، فهم يحتقرن هداية الدين الروحية وأوامره ونواهيها وسائر تعاليمه وماله من تأثير عظيم في النفوس وتوجيه لها إلى الخير وصدّها لها عن الشر والبعد عن الفواحش والمنكرات .

ذاك أنهم رأوا أنفسهم بعيدين عن الفنون والصناعات وزخرف الحياة الذي وصل فيه الغربيون إلى الغاية القصوى وهم عبيد شهواتهم منصرفون عن هداية الأديان إلى أبعاد غاية ، فحدثتهم أنفسهم أن يتهجوا نهجهم ويسيروا على سنتهم علّهم يصلون في ذلك إلى بعض ما وصلوا إليه ، ولو ساغ لبنى إسرائيل ألا يتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا ومن الفنون والصناعات ومن رائع المدنية مثل ما كان عند فرعون وقومه لساغ لهم أن ينحدروا في تلك الهوة ويقعوا في تلك الحفرة . والله في خلقه شئون وهو يصرف الأمور بيده وله الأمر من قبل ومن بعد .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا ، فلم يؤمنوا بها ولم يهتدوا بهديها ، وكذبوا بما يكون في الآخرة من الجزاء على الأعمال من ثواب

على الخير وعقاب على الشر - تحبط أعمالهم وتذهب سدى لأنهم عملوا لغير الله وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضى الله فتصير أعمالهم وبالاً عليهم ولا يجوزون إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصى ، فأثر في نفوسهم وأرواحهم حتى دساها وأفسدها ، فقد مضت سننه تعالى يجعل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل مرتباً عليه كترتيب المسبب على السبب ، ولا يظلم ربك أحداً في جزائه مثقال ذرة .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَارٌ ،
أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا
ظَالِمِينَ (١٤٨) وَمَا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا
لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

شرح المفردات

الْحُلِيِّ (بالضم والتشديد) واحدها حَلِيٌّ (بالفتح والتخفيف) . والعجل: ولد البقرة من العراب أو الجواميس كالخوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس ، والجسد: الجثة وبدن الإنسان والشئ الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ، والخوار: صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل ، وسقط في يده وأسقط في يده (بضم أولهما على البناء للمفعول) أى ندم ، ويقولون فلان مسقوط في يده وساقط في يده أى نادم . قال في العُباب وتاج العروس : هذا نظم لم يُسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب ، وذكرت اليد لأن الندم يحدث في القلب وأثره يظهر فيها بعضها أو الضرب بها على أختها كما قال سبحانه في النادم « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا » ولأن اليد هى الجارحة العظمى وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر خبر مناجاة موسى لربه واصطفائه إياه برسالاته وبكلامه وأمره بأخذ الألواح بقوة - ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه بنى إسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة ، ثم عبادته من دون الله - لما رسخ في نفوسهم من نخامة المظاهر الوثنية الفرعونية في مصر - وقد ذكرت هذه القصة عقب تلك لما بينهما من العلاقات الظاهرة وللإشتراك في الزمن .

الإيضاح

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) أى وصاغ بنو إسرائيل من بعد ما فارقتهم موسى ماضيا إلى ربه لمناجاته ووفاء للموعد الذى وعده به - من حلى القبط التى كانوا استعاروها منهم عجلا جسدا له خوار أى تمثالا له صورة العجل وبدنه وصوته ثم عبدوه .

والذى فعل ذلك كما سيأتى فى سورة طه هو السامرى ، وكان رجلا مطاعا فيهم ذا منزلة واحترام ، وإنما نسبه إليهم لأنه عمل برأى جمهورهم الذين طلبوا أن يجعل لهم إلها يعبدونه .

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحما ودماله خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين والله أعلم اه .

ويرى الرأى الأول قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم أن السامرى رأى جبريل حين جاوز بينى إسرائيل البحر راكبا فرسا ما وطئ بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضر نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة وصار ينحور كما ينحور العجل .

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون : إن خواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه ، ذلك أنه صنع تمثال عمل مجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على طريق فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهب الرياح فتى دخلت الريح فى جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

وقال آخرون بل ذلك الخوار كان تمويهها وعملا منه يشبه عمل : (الحواة)

ذلك أنه جعل التمثال أجوف وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا فى النافورات التى تجرى فيها المياه ، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم أتى فى رُوع الناس أن هذا العجل إلههم وإله موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن .

ثم رد الله عليهم ضلالاتهم وأبان لهم فساد آرائهم وقرّعهم على جهالاتهم فقال : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) أى ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق من تكليمه لمن يختاره من البشر لرسالته لتعليم عباده ما يجب عليهم معرفته من صفاته وسبيل عبادته كما كلم رب العالمين موسى وألقى إليه الألواح التى فيها من الشرائع ما يركى النفوس وتقوم بها مصالح العباد وعليها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

وخلاصة ذلك — إنه فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق وهى صفة الهداية والإرشاد للعباد بانزال الرسل الذين يختارهم إلى الناس — ومرجعها صفة الكلام .

(اتخذوه وكانوا ظالمين) أى إنهم لم يتخذوه عن دليل وبرهان بل اتخذوه عن تقليد للمصريين إذ رأوهم يعبدون العجل : (أيس) من قبل وعن تقليد لما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعدُ فعبدوه مثلهم .

وبهذا كانوا ظالمين لأنفسهم إذ هم يعملون ما يضرهم ولا ينفعهم بشيء .

(ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحننا ربنا ويفر لنا لنكونن من الخاسرين) أى ولما اشتد ندمهم وازدادت حسرتهم على ما فرط منهم

في جنب الله وعلّموا أنهم قد ضلوا ضلّالا بعيدا بعبادة العجل قالوا إن ذنبنا لعظيم وإن جرمنا لكبير ، وإنه لن يسمعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ولئن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا لنكونن من الذين خسروا سعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد ، وخسروا سعادة الآخرة وهي دار الكرامة والنعيم المقيم وجنات النعيم .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بَنِيَ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْمَعْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

شرح المفردات

الأسف : الحزن والغضب ، ويقال أسف من باب تعب حزن وتلف ، وأسف كغضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال : أسفته ، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب : « وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يَوسُفَ » وبمعنى الغضب قوله : « فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ » وعجله : سبقه ، وأعجله : استعجله ، وألقى : طرح ، والشامة : الفرع بالمصيبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أحدثه السامري من اتخاذ العجل لبني إسرائيل وعبادتهم له ثم ندمهم على ما فرط منهم في جنب الله وطلبهم الرحمة من ربهم - ذكر هنا

ما حدث من موسى من الأسى والحزن حين رأى قومه على هذه الحال من الضلال والنقى ، ومن التعنيف واللوم لهرون على السكوت على قومه حين رأهم في ضلالتهم يعمهون .

الإيضاح

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى ولما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هرون ، إذ رأى أنه لم يكن فيهم صليب الرأى قوى الشكيمة نافذ الكلمة ، حزينا على ما وقع منهم من كفر الشرك وإغضاب الله والتفريط في جنبه .

(قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي وقد كنت لقتكم التوحيد وكففتكم عن الشرك وبينت لكم فسادة وسوء مغبته وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تمثيل البقر .

وقد كان من الحق عليكم أن تقتفوا أثرى وتتبعوا سيرتى ، بيد أنكم سلكتم ضد ذلك فصنعتم صنما كأحد أصنامهم فعبده بعضكم ولم يردعكم عن ذلك باقاكم . (أمجلمت أمر ربكم ؟) قال صاحب الكشاف : المعنى أمجلمت عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثكم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . وروى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال : « هذا إلهكم وإله موسى » إن موسى لن يرجع وإنه قد مات اه .

(وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) أى وطرح الألواح من يديه وأخذ برأس أخيه يجره إليه بذواته ظنا منه أنه قد قصر في ردهم وتأنبهم وكفهم عن عبادة العجل كما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم إن قدر ، أو أن يتبعه إلى جبل

الطور إن لم يستطع كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه : « قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ » .

ولاشك أن سياسة الأمم تختلف باختلاف أحوال رعاتها وسائسها ، فالقوى منهم الشديد الغضب للحق كموسى يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهرون عليه السلام .

ثم ذكر سبحانه جواب هرون لموسى فقال :

(قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى) أى يابن أمى لا تعجل بلومى وتعنيفى وتظننّ تقصيرى فى جنب الله فابنى لم آل جهدا فى الإنكار على القوم والنصح لهم لكنهم قد استضعفوني ولم يرعوا لنصحى ولم يمشلوا لأمرى بل أوشكوا أن يقتلونى .

(فلا تسمت بى الأعداء ولا تجملنى مع القوم الظالمين) أى فلا تفعل بى من اللوم والتقريع ما يجعل الأعداء يشمتون بى ، ولا تجملنى فى زمرة القوم الظالمين لأنفسهم وهم الذين عبدوا العجل فتنضب منى كما غضبت منهم وتواخذنى كما آخذتهم فابنى لست منهم فى شىء ، وفى هذا دليل على أن هرون كان دون موسى فى شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم ، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الكتاب .

ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف فى قلب موسى عليه السلام فقال :

(قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) أى قال رب اغفر لى ما فرط منى من قول وفعل فىهما غلظة وجفاء ، واغفر له ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذه القوم على ما اجترموه من الآثام خوفا مما توقعه من الإيذاء الذى قد يصل إلى القتل ، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء واغمرنا بمجودك وفضلك فانت أرحم بعبادك من كل من رحم .

والآية صريحة فى براءة هرون من جريمة اتخاذ العجل وفى إنكاره على متخذيّه

وعابديه من قومه ، وبهذا قد صححت ما وقع في التوراة التي بين يدي أهل الكتاب من نسبة اتخاذ العجل إلى هرون وجعله هو الفاعل لذلك كما جاء في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج قال :

(ولما رأى الشعب أن موسى قد أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا : قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن موسى الرجل الذى كان قد أصدنا من أرض مصر لانعلم ما قد أصابه ، فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم واثتوني بها فبزع كل الشعب أقراط الذهب التي كانت في آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدتلك من أرض مصر ، فلما نظر هرون بنى مذبحا أمامه ونادى هرون وقال : غدا عيد للرب فبكرروا في الغد وأصدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة ، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب ، فقال الرب لموسى : اذهب انزل ، لأنه قد فسد شعبك الذى أصدته من أرض مصر ، زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به صنعوا عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبخوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل الذى أصدتلك من أرض مصر - ثم قال : وكان عند ما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فغضى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل وقال موسى لهرون : ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة فقال هرون : لا يحتم غضب سيدى على ، أنت تعرف الشعب إنه في شر ، فقالوا اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ... ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه ، وأمر الرب إياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه وإن بنى لاوى فعلوا ذلك فقتل منهم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل) - وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا
مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)

شرح المفردات

الغضب هنا: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم ، والذلة : هي ما يشعرون به من
هوانهم على الناس واحتقارهم لهم ، وقيل هي الذلة التي عرّتهم عند تحريق إلههم
ونسفه في اليم نسفامع عدم قدرتهم على دفع ذلك عنه .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عتاب موسى لأخيه هارون عليهما السلام ثم استغفاره لنفسه وله -
قفى على ذلك بذكر ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل وهو مما أوحاه الله
إلى موسى يؤمئذ .

الإيضاح

(إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا) أى
إن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامري وأشياعه - سيصيبهم غضب
من ربهم بالألا يقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ، وذلة عظيمة في الحياة الدنيا
بالخروج من الديار والغربة عن الوطن .

(وكذلك نجزي المفتريين) أى ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفتريين على
الله في كل زمان إذا فضحوا بظهور افتراءهم كما فضح هؤلاء .
قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغال
وطقطقت بهم البراذين .

وروى عن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية وقال هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة .

(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله بأن رجع الكافر عن كفره والمعاصى عن عصيانه وأخلص الإيمان وزكاه بالعمل الصالح - إن ربك من بعد ذلك لغفور لهم ستار لذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم .

وينتظم فى هذا السلك متخذو العجل وسواهم من المجترحين للسيئات ، عظمت ذنوبهم أو حقرت ، لأن الذنوب وإن جلت وعظمت فغفو الله وكرمه أعظم وأجل على شريطة التوبة والإنابة ، وبدونها الطمع فيه طمع فى غير مطمع ، ألا ترى أن طمع الفساق فى المغفرة بدون الإنابة إلى ربهم قد ذهب بكثير من حرمة الأوامر والنواهى من قلوبهم وجعلهم يستحلون كثيرا من المحرمات وكانوا شرا من قال الله فيهم : « وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً » ولم يكن طمعهم ثمرة إيمان وعمل صالح بل هى أمانى جبر إليها الحق والغفلة عما يجب من تعظيم تلك الأوامر والنواهى : « إن الأمانى والأحلام تضليل » .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

شرح المفردات

السكوت فى اللغة : ترك الكلام ، نسب إلى الغضب على تصويره بصورة شخص ذى قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع ، قال فى الكشاف : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء اه . وفى نسختها أى ما نسخ وكتب منها فهى من النسخ كالخطبة من الخطاب ، وهدى : بيان للحق ، ورحمة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح ، والرهبه : أشد الخوف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال القوم وقسمهم قسمين : مصر على الذنب وعبادة العجل .
وتائب منيب إلى ربه ، وبين مآل كل من القسمين - ذكر هنا بيان حال موسى
بعد أن سكنت سورة غضبه وهدأ رَوْعُه .

الإيضاح

(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين
هم لربهم يرهبون) أى ولما سكن غضب موسى باعتذار أخيه إليه ولجأ إلى رحمة
ربه وفضله وجأ بالدعاء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما عاد إلى الألواح فأخذها ،
وفيها الهدى والرشاد من بارئ النسم لمن يرهب الله ويخشى عقابه ويرجو ثوابه .

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِئَاسَةً فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ
مِنَّا ، إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ، أَنْتَ وَابْنُ
عَادٍ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَعَزَّزُوا وَنَصَرُواهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

شرح المفردات

يقال اختاره من الرجال وانتقاه : اصطفاه من بينهم ، والرجفة: الصاعقة ، والفتنة :
الاختبار والامتحان مطلقا أو بالأمر الشاق ، والولى : المتولى أمور غيره القائم عليها ،
والحسنة فى الدنيا : هى العافية وبسطة الرزق وعز الاستقلال والملك ، وفى الآخرة
دخول الجنة ونيل الرضوان ، وهاد يهود وتهود : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد وقوم
هود ، والنبي من النبأ : وهو الخبر المهم العظيم الشأن ؛ وفى لسان الشرع من أوحى الله
إليه وأنباه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم به يعلم علما ضروريا أنه من الله عز
وجل ، والرسول : نبي أمره الله بتبليغ شرع ودعوة دين و بإقامته والعمل به ولا يشترط
أن يكون كتابا يقرأ وينشر ولا شرعا جديدا يعمل به ويحكم بين الناس ، بل قد يكون
تابعا لشرع غيره كله كالرسل من بنى إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملا وحكما ،
والأُمى : الذى لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم ، وأهل الكتاب يلقبون العرب بالأميين
كما حكى الله عنهم : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » . والمعروف :
ما تعرف العقول السليمة حسنه لموافقته للفطرة والمصلحة بحيث لا تستطيع أن ترده
أو تعترض عليه إذا ورد به الشرع ، والمنكر ما تنكره القلوب وتأباه على الوجه المذكور ،
والطيب : ما تستطيه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، والخبيث
من الأطعمة : ما تمجه الطباع السليمة كالميتة والدم المسفوح ، أو تصد عنه العقول
الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذى تتولد من أكله الدودة الوحيدة ، أو لضرره
فى الدين كالذى يذبح للتقرب به إلى غير الله على سبيل العبادة ، والخبيث من الأموال :

ما يؤخذ بغير حق : كالرياء والرشوة والغلول والسرقة والغصب ونحو ذلك ، والإصر :
الثقل الذي يَأْصِرُ صاحبه : أى يجبسه من الحراك لثقله ، والأغلال : واحدها غل
(بالضم) وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ويقال لها جامعة أيضا ، والتعزير :
الإعانة والنصرة حتى لا يقوى عليه عدو .

الإيضاح

(واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) أى وانتخب موسى واصطفى سبعين
رجلا من خيار قومه للميقات الذي وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه إلى حيث
يناجي ربه من جبل الطور .

(فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) أى فلما
أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى رب إننى أتمنى أن لو كانت سبقت مشيئتك
أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان فأهلكتهم وأهلكتنى معهم
حتى لا أقع فى شديد الحرج مع قومى فيقولوا قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم وإن لم
تفعل فإنى أسألك برحمتك ألا تفعل الآن .

وقد اختلف المفسرون فى أن هذا هل كان بعد أن أفاق موسى من صعقة تجلى
ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية إذ كان معه شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان
وضعهم فيه غير مكان المناجاة - أو كان بعد عبادة العجل حين ذهبوا للاعتذار
وتأكيد التوبة وطلب الرحمة .

قال محمد بن إسحق : اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا انخبر فانخبر
وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من
قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، نخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته ربه
وكان لا يأتية إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به
وخرجوا معه للقاء ربه : يا موسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفل ، فلما دنا

موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى : يأمره وينهاه افعل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فأتلفت أرواحهم فأتوا جميعا ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي » قد سفهوا ، أتهلك من ورأى من بني إسرائيل اه .

ولاشك أن هذه الرواية ونحوها مأخوذة عن الإسرائيليات وليس فيها شئ مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى قال موسى لربه مستعظفا : لآتهلكنا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب أو من عبادة العجل ، وفي هذا إيماء إلى أن عقلاء بني إسرائيل وأصحاب الرواية منهم لم يعبدوه وإنما عبده السفهاء وهم الأكثرون . (إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى ما تلك الفعلة التي كانت سببا في أخذهم بالرجفة إلا محنة منك وابتلاء جعلته سببا لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية وما يستحقون عليه العقوبة أو المثوبة على حسب سنتك في خلقك بالعدل والحق ، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بالظالم لهم في تقديرك ، وتهدى من تشاء ولست بالحجابي لهم في توفيقك ، فأمرهم دائر بين العدل والفضل .

(أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) أى أنت المتولى أمورنا والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا ، فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك والتقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، وارحمنا وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا ، فكل غافر سواك إنما يغفر لغرض كحب الثناء ودفع

الضرر وأنت تغفر لا لطلب عوض بل لمحض الفضل والكرم ، وأنت خير الراحمين
رحمة وأوسعهم فيها فضلا وإحسانا ، فرحمة من سواك نفعه مفاضة على قلوبهم
من رحمتك .

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) أى وأثبت لنا برحمتك وفضلك
حياة طيبة في هذه الدنيا من عافية وبسطة في الرزق وتوفيق للطاعة ، ومثوبة حسنة
في الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك فهو بمعنى قوله فيما علمنا من دعائه :
« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً » .

(إنا هدنا إليك) أى إنا تبنا إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة
العجل ومن تقصير عقلائنا في الإنكار عليهم - مستغفرين مسترحمين كما فعل من
قبل آدم إذ تاب إليك من معصيته فثبت عليه واجتبيته فكانت تلك سنتك
في ولده .

(قال عذابي أصيب به من أشياء ورحمتي وسعت كل شيء) أى قد كان من
سبق رحمتي غضبي أن جعلت عذابي خاصا أصيب به من أشياء من الكفار والعصاة ؛
أما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين فهي من صفاتي التي قام بها أمر العالم منذ
خلقته ، والعذاب من أفعالي المترتبة على صفة العدل، ولولا الرحمة العامة المبدولة لكل
أحد لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا
مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ » .

ثم ذكر من ستكتب لهم الرحمة فقال :

(فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى فأثبت
رحمتي بمشيقتي للذين يتقون الكفر والمعاصي ويؤتون الصدقة التي تنزكي بها أنفسهم ،
وخص الزكاة بالذكر دون ما عداها من الطاعات ، لأن النفوس شحيحة ففتنته تقتضى
أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات ، كما أن في ذلك

إيماء إلى أن اليهود أشربوا في قلوبهم حب المال وفتنوا بجمعه ومنع بذله في سبيل الله، كما أنى سأ كتبها كِتْبة خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التي تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إيقان مبني على العلم الصحيح دون تقليد للأباء والأجداد .

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) أي إن كتابة الرحمة كتابة خاصة لمن يتصفون بالصفات الثلاث المتقدمة : وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وهو وصف خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيه غيره من النبيين . فالأمية آية من آيات نبوته فهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة التي بها يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم ، فغير نظم البشر في تلك الحُقبَة الطويلة وأثر في حياة الأمم التي حوله أكبر الأثر بما شهد له المنصفون في كل الأديان .

وقد وصف الله ذلك الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من بني

إسرائيل بصفات :

(١) إنه نبي أمي .

(٢) إنه هو (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) أي يجد الذين يتبعونه من بني إسرائيل وصفه مكتوبا في التوراة والإنجيل بحيث لا يشكون أنه هو . فقد جاء في الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلى من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار ، في يمينه قبس من نار » فجيئته من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراته من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلاؤه من جبال فاران إنزاله القرآن لأن فاران من جبال مكة .

وجاء في الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا : « فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق فهو يشهد لي وأتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء - والفارقليط بالعبرية معناه أحمد - كما قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا

بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» وجاء في سفر التكوين : « فلا يزول القضيبي من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هو له وإليه تجتمع الشعوب » وفي هذا دلالة على مجيء محمد عليه السلام بعد تمام حكم موسى وعيسى، لأن المراد من الحاكم موسى لأنه ما جاء بعد يعقوب صاحب شريعة إلهو، والمراد من الراسم عيسى وبعدهما ما جاء صاحب شريعة إلا محمد عليه السلام .

وعلى الجملة ، فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يتناقلون خبر بعثته صلى الله عليه وسلم فيما بينهم ويذكرون البشارات من كتبهم ، حتى إذا ما بعثه الله بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون وكان علماءهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين استكبروا فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ويؤولون كثيرا منها ويكتمونهم عن لم يطلع عليه ، وقد قبض الله عالما من علماء الهند يسمى الشيخ رحمة الله في القرن الماضي فحقق هذه البشارات في كتاب سماه : (إظهار الحق) وتناول به مسائل غاية في الأهمية ويجدر بمن يريد التوسع في هذه المسائل أن يطلع عليه وهو مطبوع متداول بين أيدي الناس .

(٣ ، ٤) إنه (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) أى لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فأرعبها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه اه .

ومن أهم ما أمر به عبادة الله وحده لا شريك له ، ومن أهم ما نهى عنه عبادة ما سواه كما هو شأن جميع الرسل في ذلك كما قال . « وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

(٥ ، ٦) إنه (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) أى إنه يحل لهم ما تستطيعه الأذواق من الأطعمة وفيه فائدة في التغذية ، ويحرم عليهم ما استقدره

النفوس : كالميتة والدم المسفوح وما يؤخذ من الأموال بغير حق كالربا والرشوة والغصب والخيانة .

(٧) إنه (يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) أى إنه يضع عنهم التكاليف الشاقة كاشتراط قتل الأنفس في صحة التوبة والقصاص في القتل العمد أو الخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وقطع موضع النجاسة من الثوب وتحريم السبت .

وقال ابن كثير : أى إنه جاء بالتيدير والسماحة كما ورد في الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلعا » .

والخلاصة — إن بني إسرائيل كانوا أخذوا بالشدة في أحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات فكان مثلهم مثل من يحمل أثقالا يئط منها وهو موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه ، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية وشدد في الأحكام الروحية إلى أن جاءت الشريعة الوسطى السمحة التي بعث بها خاتم الرسل محمد صلوات الله عليه . ثم بين سبحانه وتعالى كيفية اتباعه عليه السلام وعلو مرتبة متبعيه واغتنامهم مغنم الرحمة في الدارين إثر بيان نعوته الجليلة فقال :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) أى إن الذين آمنوا بالرسول الأسمى حين بعث — من قوم موسى ومن كل أمة ، وعزروه بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والإجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشتمزاز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا النور الأعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرحمة والرضوان دون سواهم من حزب الشيطان الذين خذلهم الله في الدنيا والآخرة .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

الإيضاح

بعد أن حكى عز اسمه ما فى التوراة والإنجيل من نعوته صلى الله عليه وسلم وذكر
شرف من يتبعه من أهلها ونيهلها سعادة الدنيا والآخرة - قفى على ذلك ببيان عموم
بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوة الناس كافة إلى الإيمان به ؛ فقال :

(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) أى قل لجميع البشر من عرب وعجم
إني رسول الله إليكم كافة لا إلى قومية خاصة فهو بمعنى قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » وقوله : « وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَ كُمْ بِهِ
وَمَنْ بَلَغَ » أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين وقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ » .

وجاءت أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة
كحديث جاء فى الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم
يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا
وطهورا ، فأىما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد
قبلى ، وأعطيت لى الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى
الناس عامة » .

ثم وصف الله تعالى نفسه بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وبالإحياء
والإماتة فقال :

(الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت) أى إن الله

الذى أنا رسوله هو من له التصرف فى السموات والأرض وتدير العالم كله ، إذ وحدة النظام فى جملة المخلوقات وعدم التفاوت فيها دليل على وحدة مصدرها وتديرها ، فهو المعبود وحده لا إله إلا هو .

وتوحيد الربوبية بالإيمان ، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل : أى بعبادة الله وحده - هما أصل الدين والركن الأول فى العقيدة . والركن الثانى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والركن الثالث عقيدة البعث بعد الموت وهى تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب فى خلقه .

وقد بنى على تقرر هذه الأمور الثلاثة الدعوة إلى الإيمان فقال :

(فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ) أى فآمنوا أيها الناس جميعا بالله الواحد فى ربوبيته وألوهيته الذى يحيى كل ما تحل به الحياة ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة ، وهذا أمر مشاهد كل يوم .

وآمنوا برسوله النبى الأمى الذى بعثه فى الأميين رسولا إلى الخلق أجمعين يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويطهرهم من خرافات الشرك والجهل والتفرق والتعاضد ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الإخاء البشرى العام ، وقد بشر بهذا النبى الأنبياء صلوات الله عليهم لأنه المتمم لما بعثوا به من هداية الناس .

(الذى يؤمن بالله وكلماته) أى يؤمن بتوحيد الله وكلماته التشريعية التى أنزلها لهداية خلقه على السنة رسوله وهى مظهر علمه ورحمته ، وكلماته التكوينية التى هى مظهر إرادته وقوته وحكمته .

وبعد أن أمرهم سبحانه بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال :

(واتبعوه لعلكم تهتدون) أى واسلكوا طريقه واقتنوا أثره فى كل ما يأتى وما يندر من أمور الدين رجاء اهتدائكم بالإيمان واتباعه إلى ما فيه سعادتك فى الدنيا والآخرة ، وتلك هى الثمرة التى تجنى منها ، فما آمن قوم بنبى إلا كانوا بعد الإيمان

به خيرا مما كانوا قبله من العزة والكرامة في دنياهم وسعادتهم في الآخرة بنيل رضوان ربهم والحظوة بالقرب منه .

وليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي - ما لا تعلق له بحق الله ولا حق خلقه من جلب مصلحة أو دفع مفسدة كسائل العادات والزراعات والصناعات والعلوم والفنون المبنية على التجارب ، وما جاء فيها من أمر ونهى فهو إرشاد لا تشريع - وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب من قبيل التشريع كاستناعتهم عن تلقيح النخل حين نهام عنه فأشاص : (أى خرج ثمره شيصا رديئا) فراجعوه فأخبرهم أن ما قاله كان عن ظن ورأى لاعن تشريع ووحى وقال لهم : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) والحكمة في ذلك تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية متروكة لمعارف الناس وتجار بهم .

وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه كتابته للرحمة لمن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم من قوم موسى ووصفهم بأنهم هم المفلحون - ذكر هنا حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع وعطفهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) الأمة : الجماعة الكثيرة ، ويهدون : يرشدون ويدلون ، والعدل الحكم بين الناس بالحق - يقال هو يقضى بالحق ويعدل وهو حكم عادل ؛ أى ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق

الذى جاءهم به من عند الله ويعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس ، فلا يتبعون هوى ولا يأكلون سحتا ولا رشى ، وهؤلاء من كانوا فى عصر موسى ومن بعد عصره حتى بعد ما ضاع أصل التوراة ووجدت النسخ المحرفة بعد السبى ، فإن الأمم الكبيرة لا تخلو من أهل الحق والعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » .
وقد ورد فى خيار أهل الكتاب ثلاثة أنواع من الآيات :

(١) ما كان منها صريحا فى الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآمنوا به كقوله فى سورة البقرة : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(٢) ما كان صريحا فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واتبعوه أو اتبعوا من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كآية التى نحن نفسرها .
(٣) ما كان محتملا للتسمين كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) .

وَقَطَعْنَا لَهُمْ آيَاتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ، كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

شرح المفردات

قطعناهم أى صيرناهم قطعا وفرقا كل فرقة منها سبط ، والسبط : ولد الولد مطلقا ، وقد ينخص بولد البنت ، وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أى ما عدا لاوى

وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما إفرايم ومنسى ، إذ سلائل لاوى نيظت بها خدمة الدين في جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا ، والأمة : الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، والاستسقاء : طلب الماء للسقيا ، والانجاس والانفجار واحد ، يقال : بجسه فانجس وبجسه فتبجس كما يقال فجره : أى شقه فانفجر ، وقال الراغب الانجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع ، والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق ، والمن مادة بيضاء تنزل من السماء كالطلح حلوة الطعم شبيهة بالعسل وإذا جفت كانت كالصمغ ، والسلوى : طير يشبه الشناني (السمان) لكنه أكبر منه .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه في هذه الآية حالين من أحوال بنى إسرائيل ، أولاهما : أنه قسمهم اثنتى عشرة فرقة بعدد أسباطهم الاثنى عشر ، ثانيتهما : أنهم لما استسقوا موسى ضرب الحجر فانجس منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط وقد تقدم ذكر هاتين الواقعتين في سورة البقرة .

الإيضاح

(وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما) أى وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ومنهم الظالمون والفاسقون فجعلناهم اثنتى عشرة فرقة تسمى أسباطا : أى أمما وجماعات يمتاز كل منهم بنظام خاص في معيشته وبعض شئونه . (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانجست منه اثنتا عشرة عينا) أى وأوحينا إلى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم - أن اضرب بعصاك الحجر فضر به فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، وخص كل واحد بعين منها للزحام وحفظا للنظام ، وفى سفر

العدد من التوراة أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بنى إسرائيل كان يزيد على ستمائة ألف من ابن عشرين فما فوق وعلى هذا فيكون عددهم جميعا يزيد على ألفى ألف (مليونين) وابن خلدون قال فى مقدمته : إن هذا العدد لا يتصور بقاؤه فى صحراء مجدبة قليلة المياه بحال فلا ينبغى للمؤرخين اعتماد هذا ، كذلك ما ورد من حجم الحجر وشكله ككون رأسه ك رأس الشاة أو أكبر وكونه يوضع فى الجوائق أو يحمل على نور أو حمار فكل ذلك من الخرافات الإسرائيلية التى تلقاها المفسرون بالتبولى على غرابتها .

(وظلنا عليهم الغمام) أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفتح الشمس من حيث لا يجرمون فأندة نورها وحرها المعتدل ، ولولا السحاب فى التيه لأحرقتهم حرارة الشمس إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به .

(وأنزلنا عليهم المن والسلوى) فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه وكان المنّ يقوم مقام الخبز عندهم ويكفى الألوف من الناس ، وتقوم السماوى مقام اللحوم والطيور الأخرى .

(كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وأنزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم . (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ، وقد كان ذلك من دأبهم وعاداتهم آنا بعد آن ، وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر مرفوعا « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » .

ولا شك أن من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنه ظلم لها ، إذ يتجلى له فى صورة المنفعة وإنما تكون عاقبته مضرة ، وهكذا الحال فى جميع

الظالمين والمجرمين فهم يظنون أنهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم جهلا منهم للعواقب وقلة تدبر ما ينبغي أن يتفطن له .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْمُرُونَ (١٦٢).

الإيضاح

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة غير أن بين الموضعين فروقا :

(١) إنه قال هنا : اسكنوا القرية ، وفي سورة البقرة : « ادخلوا » والفائدة هنا أتم ، لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس .

(٢) إنه قال هنا : (وكلوا منها حيث شئتم) وفي سورة البقرة « فكلوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا » ، فجاء العطف هناك بالفاء لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول كأكل الثمرات والفواكه التي تكون في كل ناحية من القرية - أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل في أثناءه لاعتقابه ، كما وصف هناك الأكل بالرغد وهو : الواسع الهنيء لأن الأكل في أول الدخول يكون ألد وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك .

(٣) إنه قال هنا : (وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا) وقدم هنا ما أخر هناك وأخر ما قدمه ، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين ، فالاختلاف في التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه إذ لا فارق بين أن يدعوا بقولهم : (حطة) أي حط عنا أوزارنا وخطايانا الذي هو بمعنى قولنا اللهم غفرا -

في حال التلبس بالتواضع والخضوع وتنكيس الرؤوس شكراً لله على نعمه عند دخول القرية، وبين أن يبدؤوا بتنكيس الرؤوس والخضوع والتواضع ثم يدعوا بقولهم (حطة).
 (٤) إنه قال هنا : (سنزيد المحسنين) بدون واو، وهناك : «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» بالمعطف والمعنى واحد وترك الواو أدل على أن الزيادة تفضل من الله ليست مشاركة للمغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار .
 (٥) إنه قال ها هنا : (فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم) فزيد منهم على مثله في سورة البقرة .

ومعنى تبديلهم قولاً غير الذى قيل لهم : أنهم عصوا بالقول والفعل وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلاً فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ ولا الفحوى والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منه غير الذى قيل لهم .

وما روى في الإسرائيليات من هذا التبديل من الألفاظ العبرانية أو العربية - فلا ثقة به ، وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعاً كحديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما - قيل لبني إسرائيل : (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : (حطة) حبة في شعيرة إذ هو مروي من طريق همام بن منبه أخى وهب وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات ، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبي صلى الله عليه وسلم فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه .

(٦) إنه قال هنا : (فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون) وقال هناك « وَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْلاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » فالاختلاف بين الإنزال والإرسال وهو خلاف لفظي ، وبين عليهم وعلى الذين ظلموا ، وبين يظلمون ويفسقون ، وفائدته بيان أنهم كانوا يجمعون بين الظلم الذى هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير ، والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ، والرجز كما تقدم العذاب الذى تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شئونهم ومعايشهم .

والعبرة في هذا القصص أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل أن يعذبها في الآخرة ، وأن نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق ، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا ككثرة الأنبياء فيهم وتفضيلهم على العالمين كما تقدم .

وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا؟ قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَعَلَّمَهُمْ يُتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْمِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) .

شرح المفردات

القرية : هي أَيْلَةٌ ، وقيل مدين ، وقيل طبرية ، والعرب تسمى المدينة قرية ، حاضرة البحر : أى قرية منه على شاطئه ، ويعدون في السبت : أى يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ، وحيثانهم : سمكهم ، ويوم سبتهم : أى تعظيمهم للسبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ، وشرعًا : واحدها شارع كركع وراكع : أى ظاهرة على وجه الماء ، ونبلوهم : نختبرهم ، وأمة منهم : أى جماعة منهم ، والمعذرة : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب ، فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى ، ونسوا ما ذكروا به :

أى تركوه ترك الناسى وأعرضوا عنه إعراضا تاما ، والسوء : العمل الذى تسوء عاقبته ،
والبئيس : الشديد من البأس وهو الشدة ، أو من البؤس وهو المسكروه أو الفقر ،
والعتو : الإباء والعصيان ، وخاسئين : أى أذلاء صاغرين .

المعنى الجملى

قد ذكرت هذه القصة فى سورة البقرة إجمالا وها هنا ذكرت تفصيلا إذ كانت
سورة الأعراف نزلت بمكة فى أوائل الإسلام ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم لقى
أحدا من اليهود وقد كان أميا لا يقرأ كتابا كما قال تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ
قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » فكان ذلك أدل
على الإعجاز .

الإيضاح

(وأسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والسؤال للتقرير المتضمن للتقريع والتوبيخ وبيان أن كفر أهل الكتاب بمحمد
صلى الله عليه وسلم وبمعجزاته ليس بدعا جديدا منهم ، فإن أسلافهم أقدموا على هذا
الذنب القبيح والمعصية الفاحشة واعتدوا هذا الاعتداء الشائن الذى قص الله خبره .
والمعنى — وأسأل بنى إسرائيل عن أهل المدينة التى كانت قريبة من البحر
راكبة على شاطئه .

(إذ يعدون فى السبت) أى أسألهم عن حالهم حين كانوا يعتدون فى السبت
ويعاوزون حكم الله بالصيد فيه وقد نهوا عنه .

(إذ تأتيتهم حيثانهم يوم سبتهم شرعا) أى يأتيتهم السمك ظاهرا على وجه الماء
يوم تعظيمهم للسبت بترك العمل والتفرغ للعبادة فيه ابتلاء من الله واختبارا لهم .
(ويوم لا يسبتون لآتائهم) أى لا تأتيتهم يوم لا يسبتون كما كانت تأتيتهم يوم

السبت حذرا من صيدهم لاعتيادها أحوالهم : قيل إنها اعتادت ألا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت فأمنت وصارت تظهر فيه وتخفى في الأيام التي لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيداتها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغرام ذلك بالاحتيال على صيدها فيه .

(كذلك نبوهم بما كانوا يفسقون) أى مثل هذا البلاء بظهور السمك يوم السبت نبتليهم ونعامهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر على أمر ربهم واعتدائهم حدود شرعه ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور الدنيا وأجزل له الثواب في الآخرة ، ومن عصاه : ابتلاء بأنواع المحن والبلاء .

(وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟) أى وأسألهم عن حال أهل تلك القرية حين قالت جماعة منهم هذه المقالة ، وفي ذلك دلالة على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لاجمعهم وأن أهلها كانوا فرقا ثلاثا :

- (١) فرقة العادين في السبت التي أشير إليها في الآية الأولى .
- (٢) فرقة الواعظين لهؤلاء العادين لينتهوا عن عدوانهم ويكفوا عنه .
- (٣) فرقة اللاتمين للواعظين التي قالت لهم : لم تعظون قوما قد قضى الله عليهم بالهلاك بالاستئصال أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المراد مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة .

(قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) أى قال الواعظون للاتمين لهم : نعظكم عظة اعتذار نعتذر بها إلى ربكم عن السكوت على المنكر ، فإذا طولبنا بإقامة فريضة النهي عن المنكر قلنا قد فعلنا فنكون بذلك معذورين - إلى أنا نرجو أن ينتفعوا بالموعظة فيحماهم ذلك على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه ، إذ نحن لم نياس من رجوعهم إلى الحق كما أتم منهم يائسون .

(فلما نسوا ما ذكروا به) أى إنهم لما تركوا ما ذكروا به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمسئى فى كونه لا تأثير له .

(أنجيننا الذين ينهون عن سوء) أى أنجيننا الذين ينهون عن العمل السئ وهما الفريقان الآخران .

(وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون) أى وأخذنا الذين ظلموا أنفسهم بشديد العذاب بسبب تماديهم فى الفسق حتى صار ديدنهم وهجيرهم .
والخلاصة — إنه لما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجيننا الأولين وأخذنا الآخرين .

وقد جرت سنة الله بالأى يؤخذ كل ظالم فى الدنيا بكل ما يقع منه من ظلم ولو كان قليلا فى الصفة أو العدد كما يدل على ذلك قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ولكنه يؤخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم يظهر أثره بالاستمرار عليه كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » كما عاقب الله بنى إسرائيل كافة بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلمهم ملكهم حين عم فسقهم ولم يدفع ذلك وجود بعض الصالحين فيهم .

وعلى الجملة فالآية صريحة فى هلاك الظالمين الفاسقين ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل سوء وارتكاب المنكر ، وسكت عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظهم وإنكارهم ، وهى ناجية أيضا لأنها كانت منكرا للمنكر مستقبحة له بدليل أنها لم تفعله ، وإنما لم تنه عنه لياسها من فائدة النهى واعتقادها أن التوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم على الفسق فلا يفيدهم الوعظ وهذا رأى ابن عباس .

(فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى فلما تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهواهم عنه الواعظون قلنا لهم كونوا قردة صاغرين أذلاء بعداء عن الناس : أى تعلق إرادتنا بأن يكونوا كذلك .

وفي الآية إيماء إلى أن هذا المسخ لم يكن لخصوص الحوت بل لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان وهذا الجزاء تفصيل للعذاب البئيس الذي في الآية السالفة ، وقيل إنه عذاب آخر فقد عاقبهم الله أولا بالبؤس والشقاء في المعيشة ، إذ من الناس من لا يريه ولا يهذبه إلا الشدة والبؤس ، ولما لم يزدحم البؤس إلا اعتوا وإصرارا على الفسق والظلم مسخهم الله مسخ خلق وجسم فكانوا قردة على الحقيقة وهذا ما يراه جمهرة العلماء أو مسخ خلق ونفس فكانوا كالقردة في الطيش والشر والإفساد لما تصل إليه أيديهم وهذا رأى مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوقفوا نفهم الحق .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَعْنَا هُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا، مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَالِدَارُ الْأَخْرَءُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

شرح المفردات

قال سيبويه: أذَّن: أعلم، وأذَّن: نادى وصاح للإعلام ومنه « فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ » ومثله تأذن ، ليعثن : أى ليلطن ، ويسومهم : يذيقهم ويوليهم ، وقطعناهم : فرقناهم

أما : أى جماعات ، دون ذلك : أى منحطون عنهم ، وبلوناهم : امتحانهم ،
والحسنيات : النعم ، والسيئات : النقم ، والخلف : (بسكون اللام) يستعمل فى الأشرار
(وبالتحريك) فى الأخيار ، والكتاب : التوراة ، والعرض (بالتحريك) متاع
الدنيا وحطامها ، والأدنى : أى الشئ الأدنى والمراد به الدنيا ، ودرسوا ما فيه : أى
قرأوه فهم ذاكرون له ، ويمسكون : أى يتمسكون به ويعملون ، وتقفنا الجبل : أى
رفعناه كما روى عن ابن عباس ، أو زلزلناه وهو مرفوع ، يقال نتق السماء : إذا هزه
ونفضه ليخرج منه الزبد ، أو اقتلعناه كما هو رأى كثير من العلماء ، والظلة : كل
ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلل وظلال .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى قبائح طائفة من اليهود وذكر عقابهم على ذلك بالمشخ
قردة - ذكر هنا أنه كتب على اليهود جميعا الذلة والصغار إلى يوم القيامة عقابا لهم
على أفعالهم ، وهذه سنة الله فى عقاب الأمم التى تفسق عن أمره وتخالف أوامر دينه ،
وهى كما تنطبق على اليهود تنطبق على غيرهم من الأمم التى لاترعى عن غيرها ، بل
تتمادى فى فجورها وطغيانها وتسير قُدُما فى غوايتها وضلالها .

الإيضاح

(وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)
أى واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنه قضى عليهم
فى علمه وفقا لما قام عليه نظام الاجتماع ، ليلسطن عليهم إلى يوم القيامة من يوقع بهم
العقاب الشديد على ظلمهم وفسقهم وفسادهم فى الأرض ، والآية بمعنى قوله فى سورة
الإسراء : « وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّاتٍ
كَثِيرًا وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » إلى أن قال : « وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » أى وإن عدتم بعد عقاب

المرّة الآخرة إلى الإفساد عدنا إلى التعذيب والإذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصرارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد أن نجوا من سبى البابليين وقهرهم واستذلّاهم - إلى أن جاء الإسلام ، فعاداه منهم الذين هربوا من الذل والنكال ولجئوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها آمنين أعزاء لكنهم نكثوا العهد الذى أعطوه للنبي صلى الله عليه وسلم وبه آمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فنصروا المشركين عليه فسلطه الله عليهم فقاتلهم ونصره عليهم فأجلى بعضهم وقتل بعضا وأجلى عمر البقية الباقية منهم إلى سورية ، ولما فتحها انتقل اليهود من حكم الروم الجائر إلى سلطة الإسلام العادلة ولكنهم فقدوا الملك والاستقلال فى جميع الحالات .

(إن ربك لسريع العقاب) أى إن الله سريع العقاب للأُم التى تنسق عن أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد ، يؤيد هذا قوله : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » أى وإذا أردنا هلاك قرية من القرى أمرنا سادتها وكبراءها بالحق والعدل والرحمة فعصوا أمر ربهم وأفسدوا وظلموا فى الأرض فحق عليهم القول بمقتضى سنته فى خلقه فحل بهم الهلاك وحق بهم النكال جزاء بما كانوا يعملون .

(وإنه لغفور رحيم) لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى ربه وأصلح ما كان قد أفسد فى الأرض قبل أن يحل به عذاب الله ، والآية بمعنى قوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

وقلما ذكر عذاب الفاسقين إلا قرنه بذكر الرحمة والمغفرة للمحسنين حتى لا يئأس صالح مصلح من رحمة ربه بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بغفوه وكرمه وهو مصرّ على ذنبه .

وقد فصل سبحانه عقابهم فذكر بدء إذلالهم بإزالة وحدتهم وتمزيق جامعتهم فقال :

(وقطعناهم فى الأرض أمما) أى وفرقنا بنى إسرائيل فى الأرض وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها فلا يخلو منهم قطر وليس لهم شوكة ولا دولة ، وهذا من معجزات الكتاب الكريم .

(منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) أى منهم الصالحون كالذين نهوا من اعتدوا فى السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بالأنبياء من بعد موسى ، والذين آمنوا بمحمد عليه السلام ، ومنهم من دونهم فى الصلاح لم يبلغوا مبلغهم ، ومن أولئك الغلاة فى الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبیین بغير حق ، ومنهم السامعون للكذب الأكلون للسحت والرشا لتبديل الأحكام والقضاء بغير ما أنزل الله كما هو شأن الأمم فإنها تفسد تدريجاً لا دفعة واحدة كما نشاهد ذلك فى المسلمين .

(و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) أى وامتحانهم واختبرنا استعدادهم بالنعم التى تحسن فى عيونهم وتقربها أفئدتهم ، وبالنقم التى تسوءهم وإن كانت قد تحسن بالصبر عاقبتها لديهم رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم وينيبوا إلى ربهم فيعود إليهم فضله ورحمته .

(فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى نبتت من أولئك الذين منهم الصالح والطاق نابذة ورثوا التوراة : أى وقفوا على ما فيها وكانوا عالمين بأحكامها بعد أسلافهم والحال أنهم يؤثرون حطام الدنيا ومتاعها بما يأكلونه من السحت والرشا والاتجار بالدين والمحاباة فى الحكم ، ويقولون سيغفر لنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا فإننا أبناء الله وأحباؤه وسلائل أنبيائه وشعبه الذى اصطفاه من سائر البشر إلى نحو ذلك من الأمانى والأضاليل وهم والغنون فى خطاياهم مصرون على ذنوبهم ، فإن يأتهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أولاً بالباطل يأخذوه ولا يتعففوا عنه - وهم يعلمون أن الله إنما وعد بالمغفرة التائبين الذين يقلعون عن ذنبهم ندما وخوفاً من ربهم ويصلحون ما كانوا قد أفسدوا .

ثم رد الله عليهم ما زعموه بقولهم : سيغفر لنا ، وهم مقيمون على ظلمهم وفسادهم
وحبهم للدنيا فقال :

(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه)
أى قد أخذ الله العهد والميثاق عليهم فى كتابه ألا يقولوا عليه غير الحق الذى بينه
فيه ، فمنهم من تحريفه وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشا وهم قد درسوا الكتاب
وفهموا ما فيه فهم ذاكرون لما أخذ عليهم من تحريم أكل أموال الناس بالباطل
والكذب على الله إلى نحو أولئك .

(والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) أى والدار الآخرة وما أعد الله
فيها من نعم للذين يتقون المعاصى ما ظهر منها وما بطن - خير من حطام الدنيا الفانى
الذى يؤخذ بالرشا والسحت وغير ذلك ، أفلا تعقلون ذلك وهو واضح لا يخفى على
كل ذى عقل لم تطمسه الشهوات ولم يغم بصيرته حطام الدنيا العاجل ، وبذا يرجح
الخير على الشر والنعم المقيم على المتاع الزائل .

وفى هذا إيماء إلى أن الطمع فى متاع الدنيا هو الذى أفسد على بنى إسرائيل
أمرهم واستحوذ عليهم حب العاجلة فأذهب عنهم رشدهم .

وفى هذا عبرة للمسلمين الذين سرى إليهم كثير من هذا الفساد وغلب عليهم
الطمع وحب الدنيا وعرضها الزائل وهم قد درسوا كتابهم الكريم ، لكن التحلى
بقلب الإسلام والتعلل بأمانى المغفرة مع الإصرار على الذنوب اتكالا على الشفاعات
والمكفرات - هو الذى غرهم وجعاهم يتمادون فى غيرهم ، وكتابهم ينهاهم عن الأمانى
والأوهام وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كما قال : « وَلَا يَشْفَعُونَ
إِلَّا لِمَنْ أَرَادَتْهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ » .

(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين) أى
والذين يستمسكون بأوامر الكتاب ويعتصمون بحبله فى جميع شؤونهم ، ويقومون

الصلاة التي هي عماد الدين وركن منه متين كعبد الله بن سلام وأصحابه - لانضيق أجرهم لأنهم قد أصلحوا أعمالهم والله لا يضيع أجر المصلحين ، وهي بمعنى قوله : « إِنَّ الدِّينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

ثم ختم سبحانه هذه القصة مذكرا بيده حالهم في إنزال الكتاب عليهم عقب بيان مخالفتهم لأمر دينهم والخروج عنه فقال :

(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم) أى واذكر أيها الرسول إذ رفعتنا جبل الطور فوقهم كما روى عن ابن عباس أو اقتلعناه وجعلناه فوقهم كأنه غمامة وأيقنوا أنهم إن خالفوا أوامر دينهم وقع لأمحالة عليهم .

ذاك أنه أخذ عليهم الميثاق لياخذن الشريعة بقوة وعزم فخالفوا الميثاق فرفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب خوف وقوعه بهم ، فخر كل واحد منهم ساجدا لربه وقبل العمل بالميثاق ، روى أن بنى إسرائيل أبوا أن يقبلوا التوراة ، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم إن قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم فوق كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به اه .

وفي الآية تعريض بأنهم إذا كانت حالهم في مبدأ أمرهم بمخالفتهم لكتابه ما عرفت - فلا عجب إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب والأنس بالمعاصى والذنوب .

(خذوا ما آتيناكم بقوة) أى وقلنا لهم في هذه الحال : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بعزم واحتمال للمشاق والتكاليف .

(واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) أى واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهي فإن ذلك يعدكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فإن قوة العزيمة في إقامة الدين تزكى

النفوس وتهذب الأخلاق ، كما أن التهاون فيها يدسبها ويغيرها على اتباع الشهوات
« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا
كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) .

شرح المفردات

الظهور : واحدها ظهر ، وهو ما فيه العمود الفقري لهيكل الإنسان الذي هو قوام
بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد ، والذرية : سلالة الإنسان من الذكور
والإناث ، والشهادة تارة تكون قولية كما قال : « قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا » الآية
وتارة تكون حالية كما قال : « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ » أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه هدايته للبشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بنى
إسرائيل - قفى على ذلك بذكر هدايته لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من
الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى - فهو سبحانه بعد أن
أظهر تَمَادَى هَوْلَاءِ الْيَهُودِ فِي النِّى بِعَدِّ أَخْذِ الْمِيثَاقِ الْخَاصِ الَّذِى دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :
وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ () وَقَوْلُهُ : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا

فَوَقَّكُمْ الطُّورَ » ذكر هنا أنهم تقضوا أيضا الميثاق العام الذى أخذه على بنى آدم جميعا وهم فى صلب آدم وأشركوا بالله وقالوا : عزيز ابن الله .

الإيضاح

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا) أى واذا ذكر أيها الرسول للناس كافة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة إذا استخراج من بنى آدم ذريتهم بطننا إثر بطن، وخلقهم على فطرة الإسلام بما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان اليقيني بأن كل فعل لا بد له من فاعل وأن فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطانا أعلى على جميع الكائنات هو المستحق للعبادة وحده ، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلا بعد جيل على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداده قائلا لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحى وتبليغ : ألست بربكم ؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة ، فالكلام من قبيل التمثيل وله نظائر فى القرآن الكريم وأساليب العرب كقوله تعالى بعد ذكر خلق السماء : « فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » وقوله : « إِنَّمَا أَمْرُنَا لِيَشَاءَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقول بعض العرب : قال الجدار لو تدم لم تشقى ؟ قال سل من يدقنى ، فإن الذى ورأى ، ما خلا نى ورأى : أى رأى .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية : يخبر الله تعالى أنه استخراج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله الا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة »

وفي رواية : « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله إنى خلقت عبادة حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » اه .

وقال ابن القيم في كتاب الروح في سياق البحث في خلق الأرواح قبل الأجساد ما خلاصته : إن الله سبحانه استخرج صور البشر وأمثالهم ، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم والآثار متظاهرة به مرفوعة ، وإن الله أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم برؤيته واستشهد عليهم ملائكته كما تدل على ذلك الآية .

قال أبو إسحاق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التي أخرجها فهماً تعقل به كما قال : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير . وقال ابن الأنباري : مذهب أهل الحديث وكبراء العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون له ، فاعترفوا بذلك وفعلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب ، وكما فعل بالبعير لما سجد ، وبالنخلة حتى سمعت وانتادت حين دعيت اه .

وقال الحسن بن يحيى الجرجاني : إنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلثات المنقولة إليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحدا منهم بالطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين أدركوا الأمر والنهي ، وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجور في حكمه ، وحكيم

لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين اه .

ثم بين سبحانه سبب هذا الإشهاد وعلته فقال :

(أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى إنا فعلنا هذا منعا لاعتذاركم يوم القيامة ، بأن تقولوا إذا أشركتم إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين ، إذ لم ينبهنا إليه منبه ، ومآل هذا أنه لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل لأنهم نبهوا بنصب الأدلة وجعلوا مستعدين لتحقيق الحق وإبعاد الشرك عن قلوبهم .

(أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى أو تقولوا في ذلك اليوم : إن آباءنا اخترعوا الإشراك وسنوه من قبل زماننا وكنا جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ولم نهتد إلى التوحيد ، أفنؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب بما فعله المبطلون من آباءنا المضلين ، فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ؟ .

والخلاصة — إن الله لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد الآباء والأجداد إذ التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا يركن إليه ولا ينبغي لعاقل أن يلجأ إليه ، كما أن الاعتذار بالجهل بعد ما أقام عليهم من البيئات الفطرية والعقلية مما لا يقبل .

(وكذلك فصل الآيات ولعلمهم يرجعون) أى ومثل ذلك التفصيل المستتبع للمنافع الجليلة — فصل لبنى آدم والآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم في التبصر فيها والتدبر في أمرها ، لعلمهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليد آباءهم وأجدادهم .

وفي الآية إيماء إلى أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة في الشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والموبقات التي تنفر منها الفطر السليمة وتدرك ضررها العقول الحصيفة ، بل يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه ألا يعرف إلا منهم وهو

تفاصيل العبادات وعالم الغيب وما سيكون في اليوم الآخر من أحوال العاصين وشئون النبيين والصدّيقين من عقاب وثواب وكنه ذلك على الحقيقة .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَاخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظَاهِمُونَ (١٧٧) .

شرح المفردات

التلاوة : القراءة ، والنبأ : الخبر الذي له شأن ، وانسلاخه منها : كفره بها ونبذها لها من وراء ظهره ، ويقال لكل من فارق شيئاً بحيث لا يتحدث به نفسه بالرجوع إليه : انسلاخ منه ، وأتبعه : أدركه ولحقه ، قال الجوهري يقال أتبعته القوم إذا سبقوك فلحقته ، ومن الغاوين : أي الراسخين في الغواية بعد أن كان مهتدياً ، أخلد إلى الأرض : أي ركن إلى الدنيا ومال إليها واللّهث (بالفتح) واللّهات (بالضم) التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش وللكلب في كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وتحمل عليه : أي تشد عليه وتطرده ، وساء الشيء : يسوء فهو سيء إذا قبح ، وساءه يسوءه مساءة ، والمثل : الصفة :

المعنى الجملي

بعد أن ذكر تقدست أسماؤه أخذ العهد والميثاق على بني آدم جميعاً وأشهدهم على أنفسهم بأن الله ربهم لا يكون لهم العذر يوم القيامة في الإشراف بالله جهلاً

أو تقليدا - قفى على ذلك بضرب المثل للمكذبين بآياته المنزلة على رسوله بعد أن أيدها بالأدلة العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها قادرا على بيانها والجدل بها لكنه لم يؤت العمل مع العلم بل كان عمله مخالفا لعلمه ، فسلبها لأن العلم الذى لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبهه الحية تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى واتل على اليهود ذلك النبأ العجيب ، نبأ ذلك الذى آتيناه حجج التوحيد وأفهمناه أدلته حتى صار عالما بها فانسلخ منها وتركها وراءه ظهريا ولم يلتفت إليها ليهتدى بها ، وفى التعبير بالإنسلاخ إيماء إلى أنه كان متمكنا منها ظاهرا لا باطنا .

(فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) أى وبعد أن انسلخ منها باختياره لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور البصيرة ولا أمارات الهداية ما يحول بينه وبين قبول وسوسته وسلوك فهمه ، فصار من الضالين المفسدين .
والخلاصة - إنه أوتى الهدى فانسلخ منه إلى الضلال ومال إلى الدنيا فتلاعب به الشيطان وكانت عاقبته البوار والخذلان وخاب فى الآخرة والأولى .

وفى الآية عبرة وموعظة للمؤمنين وتحذير لهم من اتباع أهوائهم حتى لا ينزلقوا فى مثل تلك الهوة التى انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا وركونه إلى شهواتها ولذاتها .
(ولو شئنا لرفعناه بها) أى ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات والعمل بها إلى درجات الكمال والعرقان لفعلنا بأن نخلق له الهداية خلقا ونلزمه العمل بها طوعا أو كرها إذ لا يعجزنا ذلك ولكنه مخالف لسنتنا .

(ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه) أى ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها وجعل كل خطوة من حياته تتمتع من لذائذها الجسدية ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية عزيمة ، وركب رأسه فلم يراع الاهتداء بشيء مما آتينا من آياتنا .

وقد قضت سنة الله في الإنسان أن يجعله مختاراً في عمله المستعد له على حسب فطرته ليكون جزاؤه كفاء ما قدمت يداه من خير أو شر ، وأن يمتحنه بما خلق في هذه الأرض من زينة وتمعن كما قال : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » ثم يولى كل امرئ منهم وجهة هو موليا فيختار منها ناحية على حسب استعداده وميله الفطري كما قال : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا نُمِدُّ هُنَا وَهُنَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » كما مضت سنته أيضا بأن جعل ميل الإنسان مع شهواته في جميع أعماله دون رعاية للفائدة يضلّه عن السبيل الموصلة إلى السعادة الأخروية وينحرف به إلى سبل الغواية المردية في التهلكة كما قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » وقال مخاطبا خاتم أنبيائه : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا » .

وخلاصة ذلك — إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضرة على عمل النافع وما فيه فائدة روحية له ، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة كما جاء في الحديث : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفي نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئا وسرعان ما ينسلخ منها .

(فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى إن هذا الرجل كالكلب فى صفته هذه وهى أقبح حالاته وأخسها ، فهو لإخلاذه وميله إلى الدنيا واتباعه هواه يكون كذلك فى أسوأ حال ، فهو فى هم دائب وشغل شاغل فى عرض الدنيا وزخرفها ، يُعنى بمخسيس أمورها وجليلها كشأن عبّاد الأهواء وطلاب الأموال ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنى به حقيرا لا يتعب ولا يعيب ، وتراه كلما أصاب سعة وبسطة فى الدنيا زاد طمعا فيها كما قال الأول :

فما قضى أحد منها لبائته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ذلك المثل البالغ الحد فى الغرابة مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها جهلا بها وتقليدا للآباء والأجداد ، فهم قد ظنوا أن إيمانهم بها يسلبهم العزة ويحط من أقدارهم ويحول بينهم وبين ما يتمتعون به من اللذات ، فكان ذلك حجابا حائلا بينهم وبين النظر فيها نظر تبصر واستدلال ، وإن كانوا نظروا إليها من تلك الناحية التى تروق لهم وهى : حرمانهم من التمتع بالحظوظ والشهوات ، إلى ما فيها من الاعتراف بضلال السلف من الآباء والأجداد فما أشبه حالهم بحال من أوتى الآيات فانسخ منها وذلك ليس بعيب فيها بل العيب عليه باتباعه هواه الذى حرّمه من الانتفاع بها .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) أى فاقصص أيها الرسول الكريم قصص ذلك الرجل الذى تشبه حاله حال أولئك المكذبين بما جئت به من الآيات البينات رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم على إطالة التأمل والتفكير فى المخلص مما هم فيه ، والنظر فى الآيات بعين البصيرة لابعين الهوى والعداوة . وفى الآية إيماء إلى تعظيم ضرب شأن تلك الأمثال فى الإقناع وكونها أقوى أثرا

من سوق الحجج والأدلة دون أن تكون هي من بينها - كما أن فيها رمزا إلى تعظيم شأن التفكير وأنه مبدأ العلم والسبيل للوصول إلى الحق ، ومن ثم حث الله عليه في مواضع كثيرة من كتابه كقوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » وقوله : « كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

(ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) أى قبحت صفة أولئك القوم في الصفات ، وساء مثلهم في الأمثال بإعراضهم عن التفكير في الآيات والنظر إليها نظر عداوة و بغضاء ، وهم بعملهم هذا إنما يظلمون أنفسهم وحدها بجرمانها من الاهتداء بها وجعلها السبيل الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

ولم يعين الكتاب الكريم اسم من ضرب به المثل ولا جنسه ولا وطنه ولا جاء في السنة الصحيحة شيء من ذلك ، فلا حاجة لنا في العظة إلى بيانه .
ولرواة التفسير بالمأثور روايات كثيرة في شأنه .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها ، وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو أنه هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وفي لفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت ، وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غابتنا من رأس نجرانا

قال : ثم خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثمانين سنين ، ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها فوثب أمية يجر رجله فتبعته قریش تقول : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد إنه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره ، فخرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع

إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله : (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية : (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء ، وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبي الصلت .

وذكر البستاني في دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال : وبعض مفسري الكتاب المقدس المدققين ذهب إلى أن قصة بلعام المدرجة في سفر العدد من الإصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة ، وعلى الجملة فهذه الروايات الإسرائيلية لا يعتد بها كما لم يعتد بها ابن جرير .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)
 وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ،
 وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ
 بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) .

شرح المفردات

الذرة : لغة الخلق ، يقال ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم ، والخلق : التقدير أى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافا ، والجن : الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس ، والقلب : يطلق أحيانا على المضغة الصنوبرية الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان - وأحيانا على العقل والوجدان الروحى الذى يسمونه أحيانا : (بالضمير) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى لما يلائم

أو يؤلم وهو كثير بهذا المعنى في الكتاب الكريم: «سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ». «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ».

وسر استعمال القلب في هذا المعنى ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز أو حين السرور والابتهاج ، والفقهاء: العلم بالشئ والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم غائب ، وقد استعمله القرآن في مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق في العلم ليرتب عليه أثره وهو الانتفاع به ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنهه المراد مما نفى فقهه عنهم نفقاتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقص قصص المنسلخ عن آيات الله على أولئك الضالين الذين حالهم كحاله ليتفكروا فيه ويتركوا ما هم عليه من الإخلاق إلى الضلالة ويعودوا إلى حظيرة الحق - قفى على ذلك ببيان أن أسباب الهدى والضلال ينتهيان للمستعد لأحدهما إلى إحدى الغايتين بتقدير الله والسير على سنته في استعمال مواهبه وهداياته الفطرية من العقل والحواس في أحد السبيلين كما قال: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ». «فَإِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا».

الإيضاح

(من يهد الله فهو المهتدى) أى من يوفقه الله لسلك سبل الهداية باستعماله عقله وحواسه فيما خلقا له بمقتضى الفطرة وإرشاد الدين فهو المهتدى الذى شكر نعم الله عليه وأدى حقه عليه ففاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

(ومن يضل فأولئك هم الخاسرون) أى ومن يخذله ويحرمه التوفيق فيتبع شيطانه وهواه ويترك استعمال عقله وحواسه فى فقه آيات الله وشكر ما أنعم به عليه ، فهو الكفور الضال الذى خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، إذ هو قد خسر تلك المواهب التى كان بها إنسانا مستعدا للسعادتين الدنيوية والأخروية .

ولا شك أن الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان الذى ثمرته العمل الصالح ، أما أنواع الضلال فلا حصر لها ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

ثم فصل سبحانه ما أجمله فى الآية السالفة مع بيان سببه فقال :

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أى تقسم إنا قد خلقنا فى العالم كثيرا من الجن والإنس لسكنى جهنم والمقام فيها ، وخلقنا للجنة مثل ذلك بمقتضى استعداد الفريقين كما قال : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » وقال : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

ثم بين سبب كونهم معدّين لجهنم وصفاتهم المؤهلة لذلك فقال :

(لهم قلوب لا يفقهون بها) أى إنهم لا يفقهون بقلوبهم ما تركى به أنفسهم من توحيد الله المبعد لها عن الخرافات والأوهام وعن الذلة والصغار ، فإن من يعبد الله وحده تسمو نفسه بمعرفته فلا تذلل بدعاء غيره ولا تخوف منه ولا الرجاء فيه والاتكال عليه ، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه ، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه مع مراعاة سننه فى خلقه ، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه كالأطباء ل مداواة الأمراض وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال والعلماء الراسخين للفتوى فى المسائل العلمية وحل إشكال ما غمض من حقيقتها ولا يتوجه فى طلبه إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة

كالرقى والعزائم والتبخيرات وكرامات الصالحين من الأحياء والأموات والدعاء إليهم بما يعد من العبادات فالله يقول : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ويقول : « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » .

كما لا يفقهون بقلوبهم الحياة الروحية والذات المعنوية الموصلة إلى السعادة الأبدية : « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

ولا يفقهون أن ترك الشرور والمنكرات والحرص على فعل الخيرات هو مناط السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية البدنية الصحيحة .

ولا يفقهون سنن الله في الاجتماع وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعة ولا سيما في عهد النبوات وزمن المعجزات ، ولا يفقهون معنى الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علمية وكونية وما أودعه منها كتابه . (ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) أى وكذلك لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من آياته المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سنته تعالى في خلقه ، فيهتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم .

فالأذان إنما خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع ، والأبصار خلقت لينتفع بكل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك بتوجيه الإرادة إلى استعمال كل منهما فيما خلق له كما قال تعالى : « أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ . أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ » .

ولكن المسلمين وأسفا أصبحوا أشد الناس إهمالا لاستعمال أسماعهم وأبصارهم

وأفئدتهم فى النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وصاروا أجهل الشعوب بالعلوم التى تعرف بها آياته فى مشاعر الإنسان وانفعالاته النفسية وقواه العقلية ، وآياته فى الحيوانات والنبات والجماد والهواء والماء والبخار وسنن النور والكهرباء والعلوم الفلكية .

ومن أصاب منهم حظا من معرفتها فإنما يعرفها للانتفاع بها فى الحياة الدنيا من غير مراعاة أنها آيات دالة على أن لها رباً خالقا مدبرا عليما قديرا رحيا يجب أن يعبد وحده وأن يُحشى ويُحِب فوق كل أحد ، وأن تكون معرفته منتهى كل غاية من هذه الحياة .

(أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما ذكر من الصفات : كالأنعام من إبل وبقر وغنم ، فهم لاحظ لهم من عقولهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة ، بل هم أضل سبيلا منها ، إذ هذه لا تجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها وجميع حاجاتها ، لكن عبید الشهوات يسرفون فى كل ذلك إسرافا عظيما قد تتولد منه الأمراض الكثيرة كما قد يجاهدون هذه الشهوات جهادا يفرطون فيه بحقوق البدن فلا يعطونه ما يكفيه من الغذاء أو يقصرون فى الحقوق الزوجية فيجنون على أشخاصهم أو على النوع بالتفريط كما يجنى عليهما عبید الشهوات بالإفراط ، وهداية الإسلام تحظر هذا وذلك وتوجب الأكل من الطيبات بشرط عدم الإسراف ، ولو سلك الناس مسلك الاهتداء بالقرآن فى فهم أسرار الخلق ومعرفة منافعه لاستفادوا السعادة فى معاشهم والاستعداد لمعادهم، وأولئك هم الغافلون عما فيه صلاحهم فى الحياتين . وهم فى الغفلة على درجات ، فمنهم الغافلون عن آيات الله فى الأنفس والآفاق التى تهدي العبد إلى معرفة ربه ، والغافلون عن استعمال مشاعرهم وعقولهم فى أفضل ما خلقت لأجله ، والغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية والقومية والدينية .

والتحلاصة — إن أهل النار هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور وأبصارهم وأسماعهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ولا في معرفة آيات الله الكونية وآياته التنزيلية ، وهما سبب كمال الإيمان والباعث النفسى على كمال الإسلام .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) .

شرح المفردات

الأسماء : واحدها اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات أو عليها مع صفة من صفاتها ،
والحسنى : مؤنث الأحسن ، فادعوه بها : أى سموه ونادوه بها للثناء عليه أو للسؤال
وطلب الحاجات ، وذرُوا : اتركوا ، والإلحاد : الميل عن الوسط حسا أو معنى ، والأول
هو الأصل فيه ، ومنه لحد القبر : وهو ما يحفر في جانب القبر مائلا عن وسطه ،
وأحد السهم الهدف : أى مال فى أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ومن الثانى
أحد فلان : مال عن الحق ، سيجزون : أى سيلقون جزاء عملهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله فى الآية السالفة أن المخلوقين لجهنم لم يستعملوا عقولهم ومشاعرهم
فى الاعتبار بالآيات والتفقه فى تزكية أنفسهم بالعلم النافع ، فأورثهم ذلك الإهمال
الغفلة التامة عن صلاح أنفسهم بذكر الله وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات
الكمال — ففى على ذلك بذكر الدواء لتلك الغفلة والوسائل التى تخرج إلى ضدها
وهى ذكر الله ودعاؤه فى السر والعلن بكرة وعشيا .

الإيضاح

(والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) أى والله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فاذكروه ونادوه إما لمجرد الثناء نحو : « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » ونحو : هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » وإما لدى السؤال وطلب الحاجات .

وللذكر فوائد : منها تغذية الإيمان ومراقبة الله تعالى والخشوع له والرغبة فيما عنده واحتقار آلام الدنيا وقلة المبالاة بما يفوت المؤمن من نعيمها ، ومن ثم جاء فى الحديث « من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وروى الحاكم فى المستدرک عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمى ما أوصيك به ؟ أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

وأسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى لدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها على ما يطلق منها على المخلوقين : كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم .

وروى الشيخان من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » وفى رواية له : « إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر » وقد سرد الأسماء التسعة والتسعين الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم قال :

هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط

الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم
الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب
الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد
الحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواحد الماجد الواحد الصمد القادر
المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفو
الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع
النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور .

وقد اختلف المحدثون فى سرد هذه الأسماء هل هو مرفوع أو مُدْرَج فى الحديث
من بعض الرواة؟ والثانى هو الراجح ، ولم يخْرِجْهُ الشيخان لتفرد الوليد به واحتمال
الإدراج كما قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح .

(وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) أى ادعوه أيها المؤمنون واتركوا جميع الذين
يلحدون فى أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن نهج الحق الوسط إلى متفرق السبل
من تحريف أو تأويل أو شرك أو تكذيب أو زيادة أو نقصان أو ما ينافى وصفها
بالحسنى كأن يوصف بما لا يصح وصفه به أو تناول أوصافه على ما لا يليق به .

ثم بين العلة فى تركهم فى خوضهم يلبعون فقال :

(سيجزون ما كانوا يعملون) أى لأنهم سيلقون جزاء عملهم وتحل بهم العقوبة
فى الدنيا قبل الآخرة ، فاجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم مثل ما يصيبهم .
والإلحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافى الإيمان ويبطله ، وإلحاد إلى
الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيرها أو يعتقد
أنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى ، وهذا يوهن عرا الإيمان ولا يبطله .

والخلاصة — إن الإلحاد فى أسمائه الحسنى أقسام :

(١) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه فى كتابه أو ما صح من حديث رسوله

صلى الله عليه وسلم ، فقد اتفق أهل الحق على أن أسماء وصفاته تعالى توقيفية : أى تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة إطلاقها عليه تعالى ، وكل ما ورد فى الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفا له وإخبارا عنه يصح إثباته له ويُمنع كل ما دلت على منعه ، قال فى الكشاف كقول أهل البدو : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، ياسخى .

(٢) ترك تسميته بما سمى به نفسه أو وصفه بما وصفها به أو ترك إسناد ما أسنده تعالى إلى نفسه من الأفعال بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى أو أنه يوم نقصا فى حقه ، كأن هؤلاء الملحدون أعلم منه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم بما يليق به وما لا يليق .

(٣) تغيير أسمائه لوضعها لغيره مما عبد من دونه كاللوات والعزى .

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضرب من التأويل ، فقد ذهب جماعة من المسلمين إلى جعل الرب القدوس الذى ليس كمثلته شىء - كرجل من خلقه لأنه تعالى وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك : كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب ، وذهب آخرون إلى تأويل جميع صفاته تعالى حتى جعلوها كالعدم .

(٥) إشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن ورب العالمين ، وما فى معناه كرب السماء والأرض أو رب الكعبة أو رب البيت (الكعبة) كما قال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » .

(٦) إشراك غيره فى كمال أسمائه كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره رحمة كرحمته ورافة كرافته وغير ذلك من معانى أسمائه كالمجيب مثلا كما قال تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

و بعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون أنهم أسرع وأقرب فى إجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين شركين : شرك دعاء غير الله مع اعتقاد

إجابته للدعاء ، وشرك الكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة الإجابة مع أن الله يقول : « أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ الشُّوْءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ » أى لا يجيب المضطر إلا هو فهو المستحق وحده للعبادة .

وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ
إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) .

شرح المفردات

الاستدراج مأخوذ : إما من درج الكتاب والثوب وأدرجه : إذا طواه ، وإما من الدرجة وهى المرقاة ، فعلى الأول سنستدرجهم : أى سنطويهم طوى الكتاب ونغفل أمرهم كما قال : « وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » وعلى الثانى سنأخذهم درجة بعد درجة بإدناهم من العذاب شيئاً فشيئاً كالمراقى والمنازل فى ارتفاعها ونزولها ، والإملاء : الإمداد فى الزمن والإمهال والتأخير من الملوة والملاوة ، وهى الطائفة الطويلة من الزمن ، والمألوان : الليل والنهار ، والكيد كالمكر : هو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع للكيد بمظهره فلا يفتن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة : ككيد

يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، والمتين : القوى الشديد ، والجنة (بالكسر) نوع من الجنون ، والإنذار : التعليم والإرشاد المقترن بالتخويف من مخالفته ، والملكوت : الملك العظيم ، وملكوت السموات والأرض : مجموع العالم ، والحديث : كلام الله وهو القرآن ، والظنانيان : تجاوز الحد في الباطل والشر من الكفر والفجور والظلم ، والعمّة : التردد في الحيرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه ذرأ جهنم كثيرا من الثقلين : الجن والإنس وأبان أهم أسباب ذلك ، وهى أن هؤلاء أفسدوا فطرتهم بإهمال مواهبهم من العقل والحواس ، ثم أرشدنا إلى ما يصلح الفطرة من دعائه بأسمائه الحسنى ، قفى على ذلك ببيان وصف أمة الإجابة ، وثنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلت بتفنيد ما عرض لهم من الشبهة ، ثم أرشد إلى التفكير الموصل إلى الفقه في الأمور ومعرفة الحقائق ، وإلى النظر الهادى إلى الحجة ، والبرهان الموصل إلى معرفة صدق الرسول ، ثم ختمها ببيان عدم الطمع في هداية من قضت سنة الله بضلاله وتركه يعمه في طغيانه .

الإيضاح

(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) أى وبعض ممن خلقنا جماعة كبيرة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق ويدلون الناس على الاستقامة ، وبالحق يحكمون فى الحكومات التى تجرى بينهم ولا يجورون ، فسبيلهم واحدة لأن الحق واحد لا يتعدد ، وهؤلاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح فى قوله تعالى : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق » قال : ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هذه أمتى ، بالحق يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها : وهذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، يقول الله (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة اه .

(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أي والذين كذبوا بآيات الله سندعهم يسترسلون في غيهم وضلالهم ولا يدرون شيئا من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله في المنازعة بين الحق والباطل وأن الحق يدفع الباطل ، وما ينفع الناس يتغلب على ما يضرهم كما قال تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » وقال : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ » .

وقد صدق الله وعده فقد كان كفار قريش وصناديدها يبالغون في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ، اغترارا بكثرتهم وثروتهم لا يعتدون به ولا يغيره ممن آمن به أولا وأكثرهم من الضعفاء الفقراء ، فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتالهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غرورا تغلبهم عليه آخر معركة أحد حتى قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر - إلى أن كان الفتح الأعظم : فتح مكة فأظهر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنته تعالى .

وأثر عن عمر رضی الله عنه أنه قال لما حملت إليه كنوز كسرى : اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإني سمعتك تقول (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

(وأمل لهم إن كيدى متين) أي وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والتدرّب على الحرب بمقتضى سنن في نظام الاجتماع البشري

كيدا لهم ومكرا بهم لا حبا فيهم ونصرا لهم كما قال تعالى : « فذَرَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ، نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » وروى الشيخان من حديث أبي موسى : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وخلاصة ذلك — إن سنة الله قد مضت في الأمم والأفراد بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق ، فالظالم إذا لم ينزل به العقاب عقب ظلمه ليزداد بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيسترسل في ظلمه إلى أن تحيق به عاقبة ظلمه في الدنيا بأخذ الحكام له أو بوقوعه في المصائب والمهالك ، وله في الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

(أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ؟) أى أ كذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من بدء نشأته وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية الله وقدرته على إعادة خلقه كما بدأهم .

إنهم إن تفكروا في ذلك مليا أوشكوا أن يعرفوا الحق ، وما الحق إلا أن صاحبهم ليس به جنة ، وقد حكى الكتاب الكريم عنهم أنهم رموه بالجنون كقوله في كفار مكة : « أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » وقوله : « وَيَقُولُونَ أَنِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتاده قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قام على الصفا فدعا قريشا فحذا فحذا : يا بنى فلان يا بنى فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : إن صاحبكم هذا لجنون : بات يهوت (يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ

مِنْ جِنَّةٍ » وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون ، لأنهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشرا كغيرهم لا يمتازون من سائر الناس بزعمهم ، ولأنهم ادعوا ما لم يعهد له نظير عندهم ، فقد حكى الله عن قوم نوح أنهم اتهموه بالجنون فقالوا : « إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَمَتَّبِعُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » وقال في شأنهم : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » وقال حكاية عن فرعون في موسى عليه السلام : « قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام فقال : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » .

(إن هو إلا نذير مبين) أى إنه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح ومبلغ عن الله ، فهو يندرکم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم إلى مافيه صلاحكم في الدنيا بجمع الكلمة وصلاح حال الفرد والمجتمع والسيادة على من سواكم ، وصلاحكم في الآخرة ببقاء ربكم وأنتم في جنات النعيم .

والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم (بصاحبهم) لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا في سيرته ليعلموا أنه ليس من دأبه الكذب ولا هو مما عهد عنه كما شهد بذلك بعض زعمائهم فقال : إن محمدا لم يكذب قط على أحد من الناس ، أفيكذب على الله ؟ ومن ثم قال تعالى في أولئك الزعماء : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » .

ولو تأمل مشركو مكة في نشأته صلى الله عليه وسلم وما جربوا من أماته وصدقه إلى أن اشتهل ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته وحده ، وما دعاهم إليه من إصلاح في حالهم الدينية والمدنية والاجتماعية لعلموا أن هذا كله لا يصدر من مجنون ، بل الذى يقتضيه العقل ويسرع إليه الفكر أن هذا ليس من رأى ذلك النبي الأمي الناشئ بين الأميين ، وأن ما أقامه من الحجج والبراهين العقلية والكونية

على ما يدعى لا يصدر ممن لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحدا فيما مضى ، إن هو إلا وحى من الله ألقاه في رُوعه ونزل من لدنه على روح القدس ، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

(أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) أى أ كذبوا الرسول الذى علموا صدقه وأمانته وقالوا إنه مجنون ، وهو الذى شهر لديهم بالروية والعقل ، ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال فى هذا الملكوت العظيم من السموات والأرضين ، فيروا ذلك النظام البديع فيهما وفى كل ما خلق الله ، وإن دق وصغر ، إنهم لو تأملوا فى كل ذلك لرأوا آثار قدرته وعلمه وفضله ورحمته وأنه لم يخلق شيئا من ذلك عبثا ، ولا ترك الناس سدى .

إن كل ذرة فيهما لدليل لأخ على الصانع الجيد ، وسبيل واضح إلى التوحيد .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

إنهم لو نظروا فى شيء من ملكوت السموات والأرض لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ، كذلك لو نظروا فى توقع قرب أجلهم وقدومهم على ربهم بسوء عملهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من الحكمة أن يقبلوا إنذاره صلى الله عليه وسلم لهم ، فما جاءهم به لا ينكرون أنه خير لهم فى الدنيا ، وهو خير لهم فى الآخرة إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء ، وهو صدق وحق لاشك فيه .

(فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) أى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به ، وهو أكل كتب الله بيانا وأقواها برهانا ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع فى إيمانه بغيره .

(من يضل الله فلا هادى له) أى إن الله قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين وللجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهانا وأكملهم عقلا وأجملهم أخلاقا ، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول فهو الذى أضله الله : أى هو الذى قضت سنته فى خلق الإنسان وارتباط

أعماله بأسباب تترتب عليها مسبباتها ، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال ، وإذا كان ضلاله بمتضى تلك السنن فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها .

(ويذرم في طغيانهم يعمهون) أى وهو جلت قدرته يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم يترددون حيرة ولا يهتدون سبيلاً للخروج مما هم فيه ، بما كسبت أيديهم من الطغيان وتجاوز الحد في الظلم والفجور .

والخلاصة — إنه ليس معنى إضلال الله لهم أنه أجبرهم على الضلال وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم جبراً لا اختياراً ، بل المراد أنهم لما مرت قلوبهم على الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمى في الطغيان ، فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضاهاها من الهدى والإيمان فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى وقلوبهم لا ترعوى لدى الذكرى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) .

شرح المفردات

الساعة لغة : جزء قليل غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين : جزء من أربع وعشرين جزءاً متساوية يضبط بألة تسمى (الساعة) وقد كان ذلك معروفاً عند العرب وجاء في الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر

وبمعنى الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل فى الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمانية ، وبأل بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب العالم وموت أهل الأرض جميعا ، وجاء المعنيان فى قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون فيه الحساب والجزاء ، والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الأحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ، فالساعة مبدأ ، والقيامة غاية ، وأيان : بمعنى متى ، فهى للسؤال عن الزمان ، ومرساها : أى إرساؤها وحصولها واستقرارها ، ويقال رسا الشيء يرسو : إذا ثبت وأرساه غيره ، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التى تلتقى فى البحر فتمنعها من الجريان كما قال تعالى : « بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمَرُسَاهَا » وجلى فلان الأمر تجلية : أظهره أتم الإظهار ، ولوقتها : أى فى وقتها كما يقال كتبت هذا لغرة رمضان : أى فى غرته ، وبقته : فجأة من غير توقع ولا انتظار ، وحنى من قولهم : أحنى فى السؤال ألحف ، وهو حنى عن الأمر : بليغ فى السؤال عنه ، واستحفيتته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة ، وتحنى بك فلان : إذا تلطف بك وبالغ فى إكرامك .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد تعالت أسماؤه من كانوا فى عصر التنزيل وعصر نزول السورة إلى النظر والتفكر فى اقتراب أجلهم بقوله : « وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ » قفى على ذلك بالإرشاد إلى النظر والتفكر فى أمر الساعة التى ينتهى بها أجل جميع الناس .

والخلاصة — إن هذا كلام فى الساعة العامة بعد الكلام فى الساعة الخاصة بكل فرد وهى انتهاء أجله .

الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أى يسألونك أيها الرسول عن الساعة - يقولون متى إرساؤها واستقرارها ، والسائلون هم قريش لأن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود، وسؤالهم عن هذا الوقت استبعاد منهم لوقوعه وتكذيب بوجوده كما جاء حكاية عنهم : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقال تعالى : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . »

وفي التعبير عن زمن وقوعها بالإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والاضطراب - إيماء إلى أن قيام الساعة هو انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بما فيها من العوالم المتحركة المضطربة .

(قل إنما علمها عند ربى) أى قل لهم إن علم الساعة عند ربى وحده لا عندى ولا عند غيرى من الخلق ، وقد جاء بمعنى الآية قوله : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا » وقوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا . »

وفي قوله عند ربى إشارة إلى أن ماهو من شأن الرب لا يكون للعبد، فالله قدأعد نبيه ليكون منذرا ومبشرا ، والإنذار إنما يكون بالساعة وأهوالها ، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها ، إذ تحديد ذلك ينافى هذه الفائدة بل فيه مفسد ، إذ لو وقت الرسول ميعاد الساعة بتاريخ معين لاستهزأ به المكذبون ولألخوا في تكذيبه وازدادوا ارتيابا ، حتى إذا ما وقع الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ويشنج أعصابهم فلا يستطيعون عملا ولا يسيغون طعاما ولا شرابا وسخر الكافرون من المؤمنين ، وقد حدث أن أخبر بعض رجال الكنيسة فى أوربة

أن القيامة ستكون في سنة كذا فهلمت القلوب واختلت الأعمال وأهمل أمر العيال ولم تهتدأ النفوس إلا بعد أن ظهر كذب النبأ .

والخلاصة — إن هناك حكمة بالغة في إيهام أمر الساعة العامة للعالم ، والساعة الخاصة بالأفراد والأمم والأجيال ، بجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به .

(لا يجليها لوقتها إلهو) أى لا يكشف حجاب الخفاء عنها ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الله تعالى إلهو ، إذ لا وساطة بينه وبين عباده في إظهارها ولا الإعلام بميقاتها ، وإنما وساطة الرسل في الإنذار بها .

(ثقلت في السموات والأرض) أى ثقل وقتها وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلها من الملائكة والإنس والجن ، لأن الله أنبأهم بأهوالها ولم يشعرهم بميقاتها ، فهم دائماً يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجئهم وقوعه .

وقال السدى : خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وقال ابن عباس ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وروى عن ابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (إذا الشمس كورت، وإذا الكواكب انتثرت) إلى نحو ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها .

(لا تأتكم إلا بغتة) أى لا تأتكم إلا فجأة وعلى حين غفلة بلا إشعار ولا إنذار وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يلبط (يطل حجارته بخص ونحوه ليمسك الماء) حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم ، فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم ذلك على مراقبة الله تعالى في أعمالهم بأن يلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشر والمعاصي ولا يجعلوا حظههم من أمر الساعة ، الجدل فيها وكثرة القيل والقال في شأنها وفي تعيين ميقاتها .

(يسألونك كأنك حفي عنها) أى يسألونك كأنك حفي مبالغ في سؤال ربك عنها. وقد يكون المعنى : يسألونك عنها كأنك حفي بهم ، وبينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن عباس قال : لما سأل الناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة - سأله قوم كأن محمدا حفي بهم ، فأوحى الله إليه - إنما علمها عنده استأثر به فلا يُطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا . وما روى عن قتادة قال : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فأشر إلينا متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا » .

(قل إنما علمها عند الله) هذا تكرار للجواب إثر تكرير السؤال مبالغة في التأكيد ، وإيثاس لهم من العلم بوقت مجيئها وتخطئة من يسألون عنه . وعبر هنا بلفظ الجلالة (الله) إشارة إلى أنه استأثر بعلم هذا لذاته ، كما أشعر ما قبله بأنه من شئون ربوبيته ، وكلاهما مستحيل على خلقه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ولا أدب السؤال ولا نحو ذلك مما ينبغى أن يعلم في هذا الباب ، وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء في كتاب الله من أخبارها وبما سمع من رسوله صلى الله عليه وسلم كمن حضروا تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، ثم عن الساعة ، وإجابة النبي صلى الله عليه وسلم له عن سؤاله الأخير بقوله : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى إنا سواء في جهل هذا الأمر فلا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة .

قال الألوسي : وإنما أخفي سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك ، وظاهر الآيات أنه عليه السلام لم يعلم وقتها ، نعم علم عليه الصلاة والسلام قربها على الإجمال وأخبر صلى الله عليه وسلم به فقد أخرج الترمذى وصححه أنس

مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى » وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » اه .

عمر الدنيا

ألف السيوطى رسالة سماها : (الكشف، عن مجاوزة هذه الأمة الألف) أخرج فيها عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأن مدة هذه الأمة تزيد على ألف ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، وسمى بعضهم الألف الثانية بالألف الخضرمة لأن نصفها دنيا ونصفها الآخر أخرى .

ولا شك أن ما جاء في هذا الباب كله مأخوذ من الإسرائيليات التي كان ينسب زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى روهه مرفوعا ، وقد اغترت بها من لا ينظر في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها ، وقد هدمها الزمان وهدم كثيرا مثلها من الأوهام والخرافات التي أريد بها الكيد للإسلام .

والتلخيص — إن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بسبعة آلاف لم يثبت في نص يعتمد عليه ، وإن كانت قد رويت عنه آثار عن السلف أكثرها مأخوذ عن أهل الكتاب وفي أسانيدها مقال :

وعلماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في هذا العصر يميزون بأن عمر الدنيا الماضى يعدّ بالوف ألوف السنين بناء على ما عرف بالخفر في طبقات الأرض ، وبناء على ما وجد من آثار للبشر منذ مئات الألوف من السنين ، وذلك ينقض ما جاء في سفر التكوين من التوراة ، ولا ينقض من القرآن شيئا : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ولا من الأحاديث القطعية التي لا شبهة فيها للدسائس الإسرائيلية ولا المكاييد الفارسية المجوسية .

قال ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ : أما نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ،

ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لفظه تصح بل صح عنه خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمدا لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه : « مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أتم في الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الإسلام ونسبة ما بأيديهم من معمر الأرض وأنه الأكبر ، علم أن للدنيا أمدا لا يعلمه إلا الله اه .

وعلى الجملة فبطلا الإسرائيليات وينبوع الخرافات في تحديد عمر الدنيا: هما كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد جعلاه ستة آلاف وهو في التوراة سبعة آلاف غشا للمسلمين .

أشراط الساعة وأماراتها

الأشراط : واحدها شَرَطٌ كأسباب وسبب وهي العلامات والأمارات الدالة على قربها ، وقد ثبت في الكتاب والسنة أن للساعة أشراطا كما قال تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » ومن أعظم أشراطها بعثة خاتم النبيين بآخر هداية الوحي الإلهي للناس أجمعين ، فبعثته قد كمل بها الدين ، وبكمله تكمل الحياة البشرية الروحية ، ويتلوها كمال الحياة المادية ، وما بعد الكمال إلا الزوال .

وقد وردت أحاديث في أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية فيكون لها الغلب زمنًا ثم تنتصر الهداية الروحية ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر حتى تقوم الساعة على شرار الخلق . وقد قسموا أشراطها ثلاثة أقسام :

- (١) ما وقع بالفعل منذ قرون خلت كقتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية .
- (٢) ما وقع بعضه وهو لا يزال فى ازدياد كالقتل والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبههن بالرجال والكفر والشرك حتى فى بلاد العرب .
- (٣) ما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى :

المهدى المنتظر

أشهر الروايات أن اسمه محمد بن عبد الله ، والشيعه يقولون إنه محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون إنه دخل السرداب فى دار أبيه فى مدينة (سرّ من رأى) التى تسمى الآن (سامرا) سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين وأنه لا يزال فى السرداب حيا ، وزعمت الكينسانية أنه محمد بن الحنفية وأنه حىّ مقيم بجبل رضى (جبل بالمدينة) بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان تفيضان عسلا ولبنا ومعه أربعون من أصحابه .

والمشهور فى نسبه أنه علوى فاطمى من ولد الحسن ، وهناك رواية مصرحة بأنه من ولد العباس فقد روى الرافعى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للعباس : ألا أبشرك يا عم ؟ إن من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدي فى آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفىء نيران الضلالة إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يحتم ، ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعا « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثا) يا عم أما علمت أن المهدي من ولدك موقفا مرضيا » وفى معناها أحاديث أخرى لأبى هريرة وأم سلمة وعلى .

وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث ويقولون إنها موضوعة لانصيب لها من الصحة ، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان ، ومن هؤلاء ابن خلدون فقد ذكر الأحاديث التى وردت فى المهدي وضعفها وضعف أسانيدھا وانتهت به خاتمة المطاف إلى أنه

لم يصح فيه شيء يوثق به - إلى أن قال : إن الله سننا في الأمم والدول والعمران ، مطردة في كل زمان ومكان ، كما ثبت في مصحف القرآن ومصحف الأكوان ، ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية ، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من قریش والعترة النبوية ، فإن صحت أخبار هذا المهدي فلا يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية ولو سمعوا وعقلوا لسعوا وعملوا ولكن استعدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله رحمة لهم تجاه ما كانوا في أخباره من الفتن والنقم فيهم ، وربما أغنهم عن بعض ما يروجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله .

هذا والمسلمون لا يزالون يتكلمون على ظهور المهدي ويزعم دهاؤهم أنه سينقض لهم سنن الله أو يبدلها تبديلاً وهم يتلون قوله تعالى : « فَيَلْهَى بِنَظَرِهِنَّ الْأُولِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » فإذا كان من أشراف الساعة آيات وكان في زمانها خوارق عادات فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم وإقامة شرعهم في عزة وسلطان في أرضهم ... وكان لكعب الأخبار جولة وسعة في تليق تلك الأخبار اه .

وقد كانت هذه المسألة أكبر مثرات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ومن أدياء الولاية لدعوى المهديوية في الشرق والغرب وتأييد دعواتهم بالقتال والحرب وبالبدع والإفساد في الأرض حتى خرج أوف الأوف من هداة الدين ومرقوا من الإسلام .

وقد كان من حصافة الرأي أن يكون خروج المهدي باعثاً لهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبية قوية بزعامته تجدد الإسلام وتنشر العدل في الأنام لكنهم لم يفعلوا بل تركوا ما يجب من حفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة وإعداد ما استطاعوا من حول وقوة واتكلوا على قرب ظهور المهدي وأنه هو الذي سيرد إليهم ملكهم بالكرامات وخوارق العادات لا بالمدافع والدبابات والطائرات والقاذفات والأساطيل

والغواصات ، وقد فاتهم أن الحرب كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين سجالاتاً وكان المؤمنون ينفرون منه خفافاً وثقالاً ، فهل يكون المهدي أهدى منه أعمالاً وأحسن منه حالاً ومآلاً .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) .

شرح المفردات

الغيب قسمان : حقيقى لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإضافى يعلمه بعض الخلق دون بعض ، والخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية : كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوءهم ويضرهم ، والإنذار : تبليغ مقترن بتخويف من العقاب على الكفر والمعاصى ، والتبشير : تبليغ مقترن بتغيب فى الثواب مع الإيمان والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى خاتم رسله أن يجيب السائلين عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده، قفى على ذلك بأمره أن يبين للناس أن كل الأمور بيده وحده وأن علم الغيب كله عنده .

وهذه الآية أس من أسس الدين وقواعد عقائده إذ بينت حقيقة الرسالة وفصلت بينها وبين الربوبية وهدمت قواعد الشرك واجتثت جذور الوثنية .

الإيضاح

(قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) أى قل بأيتها الرسول للناس فيما تبلغه لهم من أمر دينهم : إنى لا أملك لنفسى ولا لغيرى جلب نفع ولا دفع ضرر

مستقلا بقدرتي على ذلك ، وإنما أملكهما بقدره الله ، فإذا أقدرني على جلب النفع جلبته بفعل أسبابه ، وإذا أقدرني على منع الضرر منعتة بتسخير الأسباب كذلك .

وقد كان المسلمون ولاسيما حديثو العهد بالإسلام يظنون أن منصب الرسالة يقتضى علم الساعة وغيرها من علم الغيب، وأن الرسول يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرر عن نفسه وعن من يحب أو عن من يشاء أو منع النفع وإحداث الضرر بمن يكره أو بمن يشاء ، فأمره الله أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضى ذلك، وأن وظيفة الرسول إنما هي التعليم والإرشاد لا الخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه، وأنه فيما عدا ذلك بشر كسائر الناس : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ » .

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) أى لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ولا أعلم الغيب ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير كالمال ونحوه ، ولما مسنى السوء الذى يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب .

قال ابن كثير : أمره الله تعالى أن يفوض الأمر إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب فى المستقبل ولا اطلاع له على شىء من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه كما قال : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا » وقوله : « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » وروى الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال ، وفى رواية « لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر » . وقال ابن جرير : أى لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجذبة من الخصب ولوقت الغلاء من الرخص . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واقعيته اه .

ثم علل نفي امتيازهِ من البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن الله في الخلق ونفي امتيازهِ عنهم بعلم الغيب فقال :

(إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) أى إنه لا امتياز له عن جميع البشر إلا بالتبليغ عن الله عز وجل بالإنذار والتبشير ، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة والآيات فى ذلك كثيرة نحو : « لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » وقوله : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ » .

وإخلاصة — إن الرسل عليهم الصلاة والسلام عباد مكرمون لا يشاركون الله فى صفاته ولا فى أفعاله ولا سلطان لهم على التأثير فى علمه ولا فى تدبيره ، وإنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحية واصطفائهم لتبليغ رسالته لعباده وجعلهم قدوة صالحة للناس فى العمل بما جاءوا به عن الله من الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ
إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ
رَبَّهُمَا لَنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا
صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيهَا آتَاهُمَا، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيْ شُرِكُونَ
مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَضِيْعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ
يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاهِ عَلَيْنِكُمْ
أَدْعُوا نَعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) .

شرح المفردات

من نفس واحدة : أى من جنس واحد ، ليسكن إليها : أى لىأنس بها ويطنن إليها ، وتغشاهما : آتاها كغشيها ويراد بالتغشى أداء وظيفة الزوجية ، ومقتضى الفطرة

وآداب الدين أن يكون ذلك في السر ، حملت : أى علفت منه والحمل (بالفتح) ما كان في بطن أو على شجرة (وبالكسر) ما كان على ظهر ونحوه ، فمرت به : أى استمرت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق ، واستمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئقال ، وأثقلت : أى حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ، صالحا : أى نسلا سليما من فساد الخلق كتنقص بعض الأعضاء ، فتعالى الله : أى ارتفع مجده وتعالى جده وتنزهه عن شرك هؤلاء الجهلاء .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح الله السورة بالدعوة إلى التوحيد واتباع ما أنزل الله وتلاه بالتذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين والعداوة بينه وبين الشيطان .
اختتم السورة بهذه المعاني ، فذكر بالشأة الأولى ونهى عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان وأمر بالتوحيد واتباع ما جاء به القرآن .

الإيضاح

(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) أى هو الذى خلقكم من جنس واحد وجعل زوجه من جنسه فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال فى آية أخرى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » .
وهكذا خلق من كل الأنواع ومن كل أجناس الأحياء زوجين اثنين كما قال عز من قائل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .
والمشاهد أن كل خلية من الخلايا التى ينمو بها الجسم الحى تنطوى على نواتين ذكر وأنثى إذا اقترنتا ولدتا خلية أخرى وهلم جرا .

وفى التوراة : إن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم ، وعليه حمل بعض العلماء الحديث : « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء فى الضلع

أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسمرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا »
رواه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعا .

ولكن المحققين ذهبوا في تفسيره إلى أن المراد أنها ذات اعوجاج وشذوذ
تخالف به الرجل ، ويؤيده ما رواه ابن حبان عن أبي هريرة « إن المرأة خلقت من
ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى : « خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ مَّجَلٍ » .

وفي التعبير عن ميل الزوج الجنسي إلى زوجه هنا وفي الروم بالسكون إشارة
إلى أن المرء متى بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا لا يسكن إلا إذا اقترن
بزوج من جنسه واتحدا ذلك الاتحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به .

(فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به) أي فلما تغشى الذكر الأنثى علق
منه وكان الحمل أول عهده خفيفا لا تكاد تشعر به ، وقد تستدل على وجوده بارتفاع
الحيض فحَسْبُ ، ومن ثم استمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئثار .

(فلما أتت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) أي
فلما حان قرب وضعها وكبر الولد في بطنها ، توجهت : أي آدم وحواء إلى الله ربهما
بدعواته أن يعطيها ولدا صالحا : أي تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال النافعة التي
يعملها البشر ، وأقسما على ما وطننا عليه أنفسهما من الشكر له إزاء هذه النعمة قولاً
وعملاً واعتقاداً .

(فلما آتاها صالحا جملا له شركاء فيما آتاها) أي فلما أعطاهما ما طلبا وجاء
الولد بشرا سويا لا نقص فيه ولا فساد في تركيب جسمه جملا له شركاء فيما أعطاه :
أي أظهر ما كان راسخا في أنفسهما منه .

وقد نسب هذا الجميل إلى آدم وحواء والمراد أولادهما ، قال الحسن البصري :
هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهو دوا ونصروا .

وقال الحافظ ابن كثير : أما نحن فملى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه

ليس المراد من السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال : « فتعالى الله عما يشركون » ثم قال فذكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدها من الوالدين ، وهو كالاتطراد من ذكر الشخص إلى الجنس اه .

وقال صاحب الانتصاف : إن المراد جنس الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين وكأن المعنى والله أعلم : خلقكم جنسا واحدا وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم كقوله : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أُنْذَا مَا مِثُّ لَسَوَفَ أَخْرَجُ حَيًّا » وقوله : « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ » اه .

وقال صاحب الكشاف : إن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان ، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله والجنس يصدق ببعض أفراداه اه .

وبهذا تعلم أن ما روى عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية في آدم وحواء وما روى في حديث سمرة بن جندب مرفوعا قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحى الشيطان » ونحوه آثار كثيرة في هذا المعنى مفصلة ومطولة - فهو خرافة من دس الإسرائيليين نقلت عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فلا يوثق بها ، لأن فيها طعنا صريحا في آدم وحواء عليهما السلام ورميا لهما بالشرك ، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين ، وقال الحافظ ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام :

(١) فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله .

(٢) ومنها ما علمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا .
 (٣) ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا
 عن بنى إسرائيل ولا حرج » وهو لا يصدق ولا يكذب لقوله : « فلا تصدقوهم
 ولا تكذبوهم » .

ثم بين سبحانه فساد رأيهم وسخافة عقولهم لهذا الشرك فقال :

(أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) أي أيشركون به سبحانه وهو الخالق
 لهم ولأولادهم ولكل مخلوق ما لا يخلق شيئا وإن كان حقيرا كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » بل هم مخلوقون أيضا
 ولا يليق بذي العقل السليم أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر .

والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام عامة ، وينتظم فيهم مشركو مكة
 وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم ، وتوبيخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التي
 تنافي ما اعتقدوه .

(ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون) أي ولا يستطيعون لعابديهم
 معونة إذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرا على من
 يعتدى عليهم بإهانة لهم أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلى كما قال تعالى :
 « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

والخلاصة — إنهم يحتاجون إليكم في تكريمهم وفي النضال عنهم وأنتم
 لا تحتاجون إليهم .

(وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) أي وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى
 ما تحصلون به رغباتكم أو تنجون به من المكاره التي تحيق بكم ، لا يتبعوكم فلا يستجيبوا
 لكم ولا ينفعوكم .

ثم أكد عدم نفعهم فقال :

(سواء عليكم أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) أى مستو لديكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، فإنه لا يتغير حالكم فى كلتا الحالين ، إذ هم لا يفهمون دعاءكم ولا يسمعون أصواتكم ولا يعقلون ما يقال لهم .

والخلاصة — إنه لا ينبغى أن يعبد من كانت هذه صفته ، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الناصر وليه ، الخاذل عدوه ، الهادى إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه .

ولاشك أن هذه الحججة قائمة على من يقصدون قبور الأولياء والصلحاء ويعظمونها ويطلبون منها قضاء الحاجات ، لأن هذه الأوصاف التى سيقمت فى معرض التوبيخ والانكار تنطبق على حالهم أشد الانطباق ، فهم لا ينفعون ولا يضررون (وسواء عليكم أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) وقد روى البخارى عن ابن عباس فى أصنام قوم نوح التى انتقلت إلى العرب ، أنها لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء والصالحين وقد كانت اللات صخرة لرجل يلت عليها السويق ويطعم الناس .

والخلاصة — إن الأصنام والتماثيل والقبور التى تعظم تعظيما دينيا ، عمل لم يأذن به الله ، وكلها سواء فى كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح وكانوا هم المقصودين بالدعاء تخيلا من عابديها بأن لها تأثيرا فى إرادة الله أو التصرف الغيبى فى ملك الله ، وذلك من أخس الشرك وأقبحه ، ولا فرق بين إشراك الصنم والوثن وإشراك الولى أو النبى أو الملك .

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَمَا تُنظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وِلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ

الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
لَا يَسْتَجِيبُونَ نَضْرَكُمْ وَلَا أُنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨).

المعنى الجملى

هذه الآيات الكريمة من تمة ما قبلها مؤكدة له ومقررة لما تضمنه وهو إثبات
التوحيد ونفى الشرك ، وهو رأس الإسلام وركنه المتين ، فلا غرو أن يتكرر الكلام
فيه فى القرآن ، نفيًا وإثباتًا ليتأكد فى النفوس ويثبت فى القلوب وبه تخلع جذور
الوثنية ويحل محلها نور الوجدانية .

الإيضاح

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) الدعاء هو النداء لدفع الضر
وجلب النفع الذى يوجه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه
إما بذاته وإما بحمله الرب الخالق على ذلك : أى إن الذين تدعونهم من دون الله
هم عباد أمثالكم فى كونهم مخلوقين لله خاضعين لإرادته وقدرته ، وإذا كانوا أمثالكم
كان من المستحيل عقلا أن تطلبوا منهم ما لا يستطيعون نياله بأنفسكم ولا بمساعدة
أمثالكم ، وإنما يدعى الرب الخالق لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق ، والذى
تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها .
(فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) أى إن كنتم صادقين فى زعمكم
أنهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشرية من نفع أو ضرر فادعوهم فليستجيبوا
لكم إما بأنفسهم وإما بحملهم الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون .
ثم ارتقى سبحانه فى الرد عليهم وأثبت أنهم ليسوا أمثالهم بل أحط منهم منزلة
ودونهم رتبة ، ووبخهم وأنهم على عبادة هذه الأحجار والأصنام فقال :

(أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبِطْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا ؟) أى إن هؤلاء فقدوا وسائل الكسب التى يناطق بها النفع والضرر فى هذه الحياة ، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لهم أيدي يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ولا آذان يسمعون بها أقوالكم ويعرفون بها مطالبكم ، فهم ليسوا مثلكم بل دونكم فى الصفات والقوى التى أودعها الله فى الخلق ، فكيف ترفعونهم عن مماثلتكم وهم دونكم بالاختبار والمشاهدة .

و إنكم تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول ويقول بعضكم لبعض : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَا كُلُّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا نَخَّسِرُونَ » .

فما بالكم تأبون قبول الحق والخير من مثلكم وقد فضله الله عليكم بالعلم والهدى ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية مع انحطاطه عن درجة المثالية .

(قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يحتقرون نعم الله عليهم : نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء ، ثم تعاونوا على كيدى جميعا وأوقعوا الضرر بى سرىما ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار . والحكمة فى مطالبتهم بهذا ، أن العقائد الموروثة يتضائل دونها كل برهان ولا يجدى معها دليل ، ومن ثم طالبهم بأمر عملى ينزع هذا الوهم من أعماق القلوب ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء ويستنجدوا بهم لصد دعوة الداعين إلى الكفر بها وإثبات العجز لها وإنكار مالها من سلطان غيبى وتدبير كامن ، فإن كان لها حقا سلطان فى أنفسها أو من عند الله فهذا إبان ظهوره ، وإلا فتى يظهر ليساعد أبطال عبادتها وينصر عابديها ومعظمى شأنها ، ومن الجلى أن القوم كانوا ينكرون البعث فنكل ما يرجونه منها من خير أو يخافونه منها من شر فهو فى هذه الحياة .

ثم بين حقارة هذه المعبودات وعابديها على ما كان به من ضعف وقلة ناصر وهو بمكة حين نزول هذه السورة فقال :

(إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أى إن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل على الكتاب المؤيد لوحدانيتته ووجوب عبادته ودعائه عند الشدائد والملمات ، والناعى على المشركين عبادة غيره من وثن أو صنم ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم من صلحت أنفسهم بصحيح العقائد وسلمت من الأوهام والخرافات ، والأعمال التى تصلح بها شئون الأفراد والجماعات ، فينصرهم على ذوى الخرافات والأوهام وفاسدى العقائد والأحكام والأحلام تصديقا لقوله : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) أى وإن من تدعونهم لنصركم وجلب النفع لكم ودفع الضر عنكم عاجزون فلاهم بالمستطيعين نصركم ولا نصر أنفسهم على من يحقر شأنهم أو يسلبهم شيئا مما وضع عليهم من طيب أو حلى ، فقد كسر إبراهيم صلوات الله عليه الأصنام فجعلهم جذاذا فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ولا أن ينتقموا منه لها .

وقد روى عن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما - وكانا شابين من الأنصار قد أسلما لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة - أنهما كانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرثوا لأنفسهم رأيا آخر .

وكان لعمر بن الجموح (وكان سيد قومه) صنم يعبده فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخاناه بالعدرة فيجىء عمرو فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه

أيضا ، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في جبل في بئر هناك ، فلما جاء ورأى ذلك علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد :

تالله لو كنت إلهما مستدرن لم تك والكلب جميعا في قرآن

ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدا رضى الله عنه .

وبعد أن نفى عنهم القدرة على النصره قفى على ذلك بنفى قدرتهم على الإرشاد إلى الهدى والرشاد فقال :

(وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون) أى وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ماتحصلون به مقاصدكم وتنتصرون به : من أسباب خفية أو ظاهرة - لا يسمعون دعاءكم فضلا عن مد يد المعونة والمساعدة .

والآية كقوله : « إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ » .
(وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) أى وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضع لهم من أعين صناعية وحدق زجاجية أو جوهرية موجهة إلى من يدخل عليها كأنها تنظر إليه وهم لا يبصرون بها ؛ لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة ، وإنما هي من خواص الحياة التي استأثر الله بها .

وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاء ممن يعبدونهم ولا من غيرهم وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله وحال خصمه ، فكيف يرجى منهم نصر وشد أزر أو أى معونة أخرى ، أو كيف يخشى منهم إيصال ضرر وأذى لمن يحتقرهم ؟ .

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الله هو الذى يتولى أمره وينصره ، وأن الأصنام وعابديها لا يقدرُونَ على إيذائه وإيصال الضرر إليه يَبَيِّنُ فى هذه الآية النهج القويم والصراط المستقيم فى معاملة الناس .

وهذه الآية تشمل أصول الفضائل فهي من أسس التشريع التي تلى في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد الذي تقرر فيما سلف بأبلغ وجه وأتم برهان وحجة .

الإيضاح

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) أمر الله نبيه في هذه الآية بثلاثة أشياء هي أسس عامة للشريعة في الآداب النفسية والأحكام العملية .

(١) العفو : وهو السهل الذي لا كلفة فيه : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تطالب منهم ما يشق عليهم حتى ينفروا ، وهذا كما جاء في الحديث « يسروا ولا تعسروا » وقال الشاعر :
خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
وقيل إن المعنى خذ العفو وما تسهل من صدقاتهم .

والخلاصة — إن من آداب الدين وقواعده اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس ، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما .
(٢) الأمر بالمعروف : وهو ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه ، ولا شك أن هذا مبنى على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها .

وإجمال القول فيه — إنه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس .

وقد ذكر المعروف في السور المدنية في الأحكام الشرعية العملية كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » وقوله : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَاللَّيْرُ جَالٍ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةً » وفي أحكام الطلاق كقوله : « فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » وقوله : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ »
ومن ذلك ترى أن هذا اللفظ (المعروف) لم يذكر إلا في الأحكام الهامة ، وأن المراد به
ما هو معهود بين الناس في المعاملات والعادات ، ولا شك أنه يختلف باختلاف الشعوب
والبلاد والأوقات ، ومن ثم قال بعض الأئمة : المعروف ما يستحسن في العقل فعله
ولا تنكره العقول الصحيحة ، ويكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة ، إذ لا يمكن
المؤمن أن يستنكر ما جاء عن الله ورسوله ، وليمكن للجماعة الإسلامية بعده رأى فيما
يعرفون وينكرون ويستحسنون ويستهمجنون ، ويكون عمدتهم في ذلك جمهور
العقلاء وأهل الفضل والأدب في كل عصر .

(٣) الإعراض عن الجاهلين ، وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ،
ولعلاج اللوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم ، وقد روى عن جعفر الصادق رضى الله
عنه أنه قال : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، وروى الطبرى وغيره
عن جابر أنه لما نزلت هذه الآية سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عنها فقال :
لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال : إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من
حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولين في الكلام لكل الأنام فستحسن من ذوى الجاهلين

وقال بعض العلماء : هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة ، فلم يبق فيها حسنة
إلا وعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها فقوله : « خذ العفو » إيماء إلى جانب اللين ونفى
الخرج في الأخذ والإعطاء وأمور التكليف ، وقوله : « وأمر بالعرف » تناول جميع
للأمورات والمنهيات ، وأنها ما عرف في الشريعة حكمه ، وانفتحت القلوب على علمه

وقوله : « وأعرض عن الجاهلين » تناول جانب الصفح بالصبر الذى يتأتى للعبد به كل مراد فى نفسه وغيره اه :

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ
مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٣) .

شرح المفردات

النزغ كالنخس والنفز والوكر : إصابة الجسد برأس شىء محدد كالإبرة والمهماز والرمح ، والمراد به هنا نزغ الشيطان بإثارته داعية الشر والفساد فى النفس بداعية غضب أو شهوة بحيث تلجىء صاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع ، والاستعاذة بالله الالتجاء إليه ليقيك من شر هذا النزغ ، والطوف والطواف بالشىء : الاستدارة به أو حوله ، وطيف الخيال : ما يرى فى النوم من مثال الشخص ، والمس : يراد به هنا ما ينال الإنسان من شر وأذى ، فقد ذكر فى التنزيل مس الضر والضراء والبأساء والسوء والعذاب . والمد والإمداد : الزيادة فى الشىء من جنسه ، واستعمل فى القرآن فى الخلق والتكوين كقوله : « وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » وفى مدّ الناس فيما يذم ويضر كقوله : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . والإبصار : التقصير ، ويقال أقصر عن الأمر : تركه وكف عنه وهو قادر عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة أمثل الطرق فى معاملة الناس بعضهم بعضاً مما لو عملوا بهديه لم يجد الفساد إلى نفوسهم سبيلاً - ففى على ذلك بالوصية التى

تتضمنها هذه الآيات الثلاث، وهي اتقاء إفساد الشياطين : أى شياطين الجن المستترة - فالآية السالفة أمرت بالإعراض عن الجاهلين وهم السفهاء اتقاء لشرهم - وهذه الآيات أمرت بالاستعاذة بالله من الشياطين اتقاء لشرهم .

الإيضاح

(وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم) أى وإن يثربك الشيطان داعية الشر والفساد بسبب غضب أو شهوة ، فيجعلك تتأثر وتتحرك للعمل بها كما تتأثر الدابة إذا نخصت بالمهماز فتسرع - فالجأ إلى الله وتوجه إليه بقلبك ليعيدك من شر هذا النزغ ، حتى لا يحمك على ما يزعمك من الشر ، وعبر عن ذلك بلسانك فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإنه سميع لما تقول ، عليم بما يحدثك به نفسك ويحيش به صدرك ، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر ، وقد دلت التجربة على أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكركه بالقلب واللسان يصرف عن النفس وسوسة الشيطان كما قال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وان الخطاب فى الآية وما مائلها من الآيات موجه إلى كل مكلف يبلغه ، وأولهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنه موجه إلى الرسول والمراد أمته ، وقد روى مسلم عن عائشة وابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن - قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم منه . » ثم بين سبحانه وجه سلامة من يستعيز من الشيطان من الوقوع فيها فقال :

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) أى إن خيار المؤمنين وهم الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون - إذا ألم بهم طائف من الشيطان ليحملهم بسوسته على المعصية أو إيقاع البغضاء بينهم تذكروا أن هذا من إغواء الشيطان عدوهم الذى أمر الله بالاستعاذة منه والالتجاء إليه فى الحفظ

من غوايته فإذا هم أولو بصيرة يرثون بأنفسهم أن تطيعه ، فهو إنما تأخذ وسوسته الغافلين عن ربهم الذين لا يراقبونه في شئونهم وأعمالهم ، ولا شيء أقوى على طرد وساوس الشيطان من ذكر الله ومراقبته في السر والعلن من قبل أنه يقوى في النفس حب الحق وداعى الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الشرور والآثام ، فما مثل المؤمن المتقى الذى لا يتمكن الشيطان من إغوائه وإن تمكن من مسه ، إلا مثل الصحيح الجسم القوى المزاج النظيف البدن والثوب والمكان لا تجد النسم (الميكروبات) طريقا للإفساد مزاجه وإصابته بالأمراض ، فإن مسه شيء منها بدخوله في جسمه فتكت بها نسم الصحة فحالت دون فتكها به ، وهذا ما يسميه الأطباء (المناعة) .

فقوى الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشيطان في نفسه ، لكن الشيطان دائما يتحين الفرص وعروض بعض الأهواء النفسية من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، حتى إذا وجد الفرصة سانحة افترصها ولا بس النفس وقوى فيها داعى الشر كالحشرات القذرة التى تعرض للنظيف إذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، وإذا تداركها نجا من شرها وضرها ، وما سرّ هذا إلا المناعة النفسية أو الروحية .

وإن الإنسان يشعر بتنازع دواعى الخير والشر في نفسه ، وأن نداعية الخير والحق ملكا يقويها ، ولداعية الشر والباطل شيطانا يقويها ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله « إن للشيطان لمةً بابن آدم وللملأمة ، فأما لمة الشيطان فإبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملأ فإبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُْ بِالْفَحْشَاءِ » .

(وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) أى إن إخوان الشياطين وهم الجاهلون الذين لا يتقون الله - يتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم في غيرهم وإفسادهم ، لأنهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر ولا يستعيذون به من

تزرع الشيطان ومسه ، إمالأنهم لا يؤمنون بالله وإمالأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس إليه ويفريه بالشر - ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم ، فلذلك يصرون على الشر والفساد لفقد الوازع النفسى والواعظ القلبي .
 والخلاصة - إن المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على المعاصى تذكروا فأبصروا وحذروا وسلموا وإن ذلوا تابوا وأتابوا ، وإن إخوان الشياطين تتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم في غيهم ، ولا يكفون عن ذلك ، ومن ثم تراهم يستمرون في شرورهم وآثامهم لفقد الوازع النفسى .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ
 إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَافُةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون فى الإغواء والإضلال - ففى على ذلك بذكر نوع خاص من هذا الإغواء وهو طلبهم آيات معينة ومعجزات مخصوصة تعنتا كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » أى إذا لم تأتهم بما طلبوا قالوا هلا افتعلتها وأتيت بها من عند نفسك ، لأنهم كانوا يقولون : « إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى » .

الإيضاح

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) قال الفراء تقول العرب : اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلمته إذا افتعلته من قبل نفسك : أى وإذا لم يأتهم الرسول بآية قرآنية بأن تراخى نزول الوحي زمنا ما - قالوا لولا افتعلت نظمها وتأليفها واختراعها

من تلقاء نفسك ، وقد يكون المعنى : وإذا لم تأت بهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا : هلا حباك الله بها بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ، إن كنت صادقاً في أن الله يقبل دعاءك ويحب التماسك .

(قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي) أى إنه ليس لى أن أقترح على ربي أمراً من الأمور وإنما أنتظر الوحي فكل شيء أكرمنى به قلته وإلا وجب على السكوت وترك الاقتراح ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ » .

وقد يكون المعنى ما أنا بقادر على إيجاد الآيات الكونية ولا بمفتات على الله في طلبها وإنما أنا متبع لما يوحى إلى فضلا من ربي على إذ جعلنى مبلغا عنه .
وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف :

(١) (هذا بصائر من ربكم) بصائر أى حجج يدنه وبراهين نيرة للعقول فى الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد : أى إن هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى بصائر وحجج من ربكم ، من يتأملها حق التأمل يكن بصير العقل بما تدل عليه من الحق ، فهى أدل عليه مما تطالبون من الآيات الكونية .
ونحو الآية قوله : « قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » .

(٢) (وهدى) أى وهو هدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(٣) (ورحمة لقوم يؤمنون) أى ورحمة فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به كما قال تعالى : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

وهذه الأوصاف له بالنسبة إلى معتنقيه ، ذلك أن منهم من بلغ فى معارف التوحيد والنبوة والمعاد مرتبة أصبح بها كالمشاهد لها وهم السابقون الأولون من المهاجرين

والأنصار والقرآن لهؤلاء بصر، ومنهم من دون ذلك والقرآن لهم هدى ، وهو في حق المؤمنين عامة رحمة لاجرم قال لقوم يؤمنون .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)
وَإِذْ كُرِّرَتْ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ
لَإِيسْتِكْبَارُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) .

شرح المفردات

الاستماع : أخص من السمع ، لأنه إنما يكون بقصد ونية أو توجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه ، أما السمع : فيحصل ولو بغير قصد ، والإنصات : السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ ، والتضرع : إظهار الضراعة ، وهي الذلة والضعف والخضوع ، والخيفة : حالة الخوف والخشية ، ودون الجهر أي ذكر دون الجهر برفع الصوت وفوق التخافت والسر : بأن يذكر ذكرا وسطا ، والغدو : جمع غدوة ، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والآصال : جمع أصيل ، وهو العشي من وقت العصر إلى غروب الشمس ، ويسبحونه : ينزهونه عما لا يليق به ؛ ويسجدون : أي يصلون .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه مزايا القرآن الكريم وأنه آيات بينات للمؤمنين وهدى ورحمة لهم - قفى على ذلك بذكر الدلائل على الطريق الموصلة لنيل الرحمة به والفوز بالمنافع الجليلة التي ينطوى عليها وهي الإنصات له إذا قرئ .

الإيضاح

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) أى وإذا قرئ القرآن عليكم أيها المؤمنون فأصغوا له أسماعكم لتتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه ، وأنصتوا له لتعقلوه وتتدبروه ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه ، ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه واعتباركم بعبده واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه ؛ فمن استمع وأنصت كان جديراً أن يفهم ويتدبر، ومن كان كذلك كان حرياً أن يُرحم .

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن إذا قرئ سواء أكان ذلك في الصلاة أو في خارجها وهو المروى عن الحسن البصرى، لكن الجمهور خصوه بقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم في عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، ذلك أن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم ، إذ يقتضى أن يترك له المشتغل بالعلم علمه والمشتغل بالحكم حكمه وكل ذى عمل عمله .

أما قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضها تليفاً للتنزيل وبعضها وعظاً وإرشاداً ، فلا يسع أحداً من المسامحين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ، وهكذا شأن المصلى مع إمامه وخطيبه ، إذ هذا هو المقصود من الصلاة والواجب فيها .

وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة - فكروه كراهة شديدة ولا سيما لمن كانوا على مقربة من التالى ، ولا يجوز لقارىء أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، وإن كان أكثرهم يستمع وينصت فشد بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب بلا تهويش على القارىء ولا على المستمعين كانت المخالفة سهلة لا تقتضى ترك القراءة ولانفاى الاستماع . والواجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته وأن يتأدب في مجلس التلاوة .

وجملة الأمر في ذلك ألا يصدر من السامع ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس أنه مناف للأدب : ولا بأس بقراءة القرآن حال القيام والعقود والاضطجاع والمشى والركوب ، ولا تكره مع حدث أصغر ولا مع نجاسة ثوب أو بدن ، وإن كان يستحب الوضوء حين القراءة حال الحدث ولا سيما للقارى في المصحف .

وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع من غير تكلف ولا تصنع ، فقد روى أبو هريرة مرفوعا « ما أذن (استمع) الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن » رواه الشيخان .

(واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال)
أى واذكر ربك الذى خلقك ورباك بنعمه فى نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآلائه وفضله عليك وحاجتك إليه ، متضرعا له خائفا منه راجيا نعمه ، واذكره بلسانك مع ذكره فى نفسك ذكرا دون الجهر برفع الصوت من القول وفوق التخافت والسر بل ذكرا قصدا وسطا كما قال تعالى : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » .

وذكر اللسان وحده دون ذكر القلب وملاحظة معانى القول لا يجدى نفعاً ، فكم رأينا من ذوى الأوراد والأدعية الذين يذكرون الله كثيرا بالمئين والآلاف ولا يفيدهم ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، لأن ذلك أصبح عادة لهم تصحبها عادات أخرى منكورة ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب و ذكر اللسان .

وأجمل الأوقات لهذا الذكر وقتان أول النهار وآخره لأنهما طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما ، ويكون هذا الذكر فى صلاتى الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله بما وجدا عليه العبد كما ورد فى صحيح الآثار .

(ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله بل أشعر قلبك الخضوع له والخوف من

قدرته عليك إذا أنت غفلت عن ذلك ، ومن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه وضعف إيمانه واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه .

ثم ختم سبحانه هذه الآيات بما يؤيد به الأمر والنهي السابقين فقال :

(إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) أى إن ملائكة الرحمن المقربين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون ، وينزهونه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله ومن اتخذ الند والشريك كما يفعل الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأندادا يحبونهم كحبه وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحدا ، فالواجب على كل مؤمن أن يجعل خواص الملائكة والمقربين إليه تعالى من حملة عرشه والحافين به أسوة حسنة له في صلاته وسجوده وسائر عبادته .

وقد شرع الله لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاماً لمن أبى ذلك من المشركين واقتداءً بالملائكة المقربين ، ومثلها آيات أخرى ستأتى في مواضعها ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده لذلك : « اللهم لك سجد سوادى ، وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علماً ينفعنى ، وعملاً يرفعنى » .

وفي الآية إرشاد إلى أن الأفضل إخفاء الذكر وقد روى أحمد قوله صلى الله عليه وسلم : « خير الذكر الخفى » فأين هذا مما يفعله جهلة زماننا الذين يجأرون في ذكركم بأصوات منكرة يستقبحها الدين والعقل والعرف ، ولا علاج لمثل هذا إلا حملة نكراء من رجال الدين عليهم حتى يتفهموا ما طالبه الدين وما رعى إليه من التضرع إليه تعالى خفية ودون الجهر بالقول ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

خلاصة لما اشتملت عليه السورة من الأغراض والمقاصد

يمكن إجمال القول في الأغراض التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة فيما يلى :

(١) التوحيد : وهو يتضمن دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه

بالعبادة فإنه شارع الدين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع الأولياء من دونه في العقائد والعبادات ولا التحليل والتحرير الديني كما قال: « اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » .
 وأن القول عليه بغير علم بتشريع أو غيره لا يجوز لأحد كما قال: « أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

وأن جميع ما يشرعه لعباده حسن وما سواه قبيح : « قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » ونحن مأمورون بذكره تضرعا وخفية سرا وجهرا .
 (٢) الوحي والكتب، ويتضمن ذلك إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم للإبصار به والأمر باستماعه والإنصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به وأمر المؤمنين باتباع المنزل عليهم من ربهم .

(٣) الرسالة والرسول، ويشمل ذلك بعثة الرسل إلى جميع بني آدم كما قال :
 « يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي » وسؤالهم يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة - ومحجى الرسل بالبينات من الله تعالى تأييدا منه لهم - وعقاب الأمم على تكذيب الرسل كما ذكر في قصص نوح وهود وصالح وشعيب .

(٤) عالم الآخرة : ويتضمن ذلك البعث والإعادة في الآخرة كما قال: « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » ووزن الأعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها ، وأن الجزاء بالعمل ، وإقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار، والحجاب بين أهل الجنة وأهل النار، ونداء أصحاب النار أصحاب الجنة ، واعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل، وصفة أهل النار ، وقيام الساعة وكونها تأتي بغتة .

(٥) أصول التشريع : ويتضمن هذا وجوب اتباع الدين على أنه قرينة يثاب فاعلها عليها ويعاقب تاركها في الآخرة ، وتحريم التقليد فيه ، والأخذ بأراء البشر وتمظيم شأن النظر العقلي ، والتفكير لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به ، ومعرفة آيات الله وسننه

في خلقه والأمر بالعدل في الأحكام والأعمال كما قال : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ » وحصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ » الخ ، وبيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية في قوله : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(٦) آيات الله وسننه في الكون - ويتضمن ذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام واستواءه على العرش ونظام الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره - وخلق الرياح والمطر وإحياء الأرض به وإخراجه الثمرات من الأرض - خلق الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد الزوجين للتناسل - وتفضيل الإنسان على من في الأرض جميعا - خلق بني آدم مستعدين لمعرفة الله وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم بما منحوه من العقل وحجته تعالى عليهم بذلك - خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات - ضرب الأمثال لاختلاف الاستعداد لكل من الخير والشر وعلامة كل منهما فيهم يكون بما يرى من ثماره - وفي ذلك تعليم لنا بطلب معرفة الشيء بأثره ومعرفة الأثر بمصدره - عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم وإغوائهم بالفساد مع ذكر حكمة ذلك ، بيان أن الشياطين أولياء للمجرمين الذين لا يؤمنون - منة الله على البشر بتسهيل أسباب المعاش لهم - آيات الله تعالى ونعمه على بني إسرائيل إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر في دينهم ودنياهم .

(٧) سننه تعالى في الاجتماع وال عمران البشرى - ويتضمن ذلك إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها وأن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عنها بما اقتضته السنن الإلهية العامة - ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة وبالرخاء والنعماء أخرى - وأن الإيمان بما دعا إليه والتقوى في العمل بشرعه فعلا وترك سبب لكثرة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا »

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ « وَأَنْ لِّلَّهِ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَاسْتِخْلَافِ الْأُمَمِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الشُّعُوبِ سِنَنًا لَا تَبْدُلُ كَمَا قَالَ : « قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » أَيْ إِنْ الْأَرْضُ لَيْسَتْ رَهْنٌ تَصْرَفُ الْمُلُوكَ وَالِدُولَ بِقُدْرَتِهِمُ الذَّانِيَّةِ فَتَدُومُ لَهُمْ وَإِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ ، وَلِلَّهِ سِنَنٌ فِي سَلْبِهَا مِنْ قَوْمٍ وَجَعَلَهَا إِرْثًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ - وَقَدْ جَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْبَابَ الضَّعْفِ وَالتَّخَاذُلِ وَالفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَيَتَصَفُونَ بِضِدِّهَا وَبِسَائِرِ مَا تَقْوَى بِهِ الْأُمَمُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ كَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .

وإنا نرى أن بعض الشعوب الإسلامية المستضعفة في هذا العصر باستعمار الدول الأوربية لها يأسه من استقلالها وعزتها لما ترى من رجحان ذوى السيادة عليها في القوى المادية جهلا منهم بسنة الله التي بينها للناس فإن رجحان فرعون وقومه على بني إسرائيل كان فوق رجحان قوى السائدين وقهرهم إياهم .

وقد كان ينبغي للمسلمين أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم حتى دالت دولتهم وزال ملكهم ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سورة الأنفال

آياتها خمس وسبعون، نزلت بعد البقرة، وهى مدنية إلا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فكية .
ومناسبتها لسورة الأعراف أنها فى بيان أحوال النبى صلى الله عليه وسلم مع قومه .
وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوامهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ يَدَيْكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
(١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَرِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ
دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) .

شرح المفردات

الأنفال : واحدها نفل (بالتحريك) من النفل (بالسكون) وهو الزيادة على
الواجب، ومنه صلاة النفل، والمراد به هنا الغنيمة - وقيل الغنيمة كل ما حصل مستغنا
بتعب أو بغير تعب وقبل الظفر أو بعده ، والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من
الغنيمة ، والبين : يطلق على الاتصال والافتراق وعلى كل ما بين طرفين كما قال :
« لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » وذات البين : الصلة التى تربط بين شيئين ، والوجل :
الفرع والخوف ، والدرجات : منازل الرفعة ومراقى الكرامة .

المعنى الجملى

نزلت هذه الآيات فى غنائم غزوة بدر إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة فقد روى أبو داود والنسائى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم رداء ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاختمتموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت : (يسألونك عن الأنفال؟ قل الأنفال لله والرسول) » وروى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن أبى وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبى صلى الله عليه وسلم ففعله إياه ، وأن الآية نزلت فى ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(يسألونك عن الأنفال) أى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هى ؟ الشبان أم للشيوخ ؟ أو للمهاجرين هى ، أم للأتصار ؟ أم لهم جميعا ؟ .

(قل الأنفال لله والرسول) أى قل لهم الأنفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها على حسب حكم الله تعالى وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء .

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله، ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها فى آية الخمس : « وَأَغْلَمُوا أُمَّمًا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » الخ، وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخصيس وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فحُتت به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه السلام : ليس هذا لى ولالك ، اطرحه فى القبض فطرحته

وَبِى مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخَذِ سَلْبِي فَمَا جَاوَزْتَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا سَعْدُ سَأَلْتَنِي السِّيفَ وَيَسْأَلُنِي لِي وَقَدْ صَارَ لِي نَخْذَةٌ» .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ) فَاجْتَنَبُوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْمَشَاجِرِ وَالْتِنَازِعِ وَالْإِخْتِلَافِ الْمَوْجِبِ لِسَخَطِ اللَّهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَضَارِّ وَالْإِسْيَاءِ فِي حَالِ الْحَرْبِ .

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أَي أَصْلِحُوا مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ حَتَّى تَكُونَ أَحْوَالُ أَلْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَاتِّفَاقٍ ، وَهَذَا الْإِصْلَاحُ وَاجِبٌ شَرْعًا وَعَلَيْهِ تَتَوَقَّفُ قُوَّةُ الْأُمَّةِ وَعِزَّتُهَا وَبِهِ يُحْفَظُ وَحْدَتُهَا ، رَوَى عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ نَدْرِ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا لِيَجْعَلَهُ لِرَسُولِهِ فَنَقَسَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى السَّوَاءِ وَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَةٌ لِرَسُولِهِ وَإِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أَي فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ وَيَقْضِي وَيَحْكُمُ فَاللَّهُ تَعَالَى مَالِكُ أَمْرِكُمْ وَالرَّسُولُ مَبْلَغُ عَنْهُ وَمُبِينٌ لَوْحِيهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْحُكْمِ .

وَعَلَى هَذِهِ الطَّاعَةِ تَتَوَقَّفُ النِّجَاةُ فِي الْآخِرَةِ وَالْفَوْزُ بِشَوَابِهَا ، وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطَاعُ فِي اجْتِهَادِهِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا الْمُتَعَلِّقِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَةِ وَالْإِسْيَاءِ فِي الشُّؤْنِ الْحَرْبِيِّ ، لِأَنَّهُ الْقَائِدُ الْعَامُ فَمُخَالَفَتُهُ تَحُلُّ بِالنِّظَامِ وَتُؤَدِّي إِلَى الْفَوْضَى الَّتِي لَا تَقُومُ لِلْأُمَّةِ مَعَهَا قَائِمَةٌ ، وَالْأُمَّةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ فِي تَنْفِيزِ الشَّرْعِ وَإِدَارَةِ شُؤْنِ الْأُمَّةِ وَقِيَادَةِ الْجُنْدِ مَا كَانَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرَطِ عَدَمِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَشَاوَرَةِ أَوْلَى الْأَمْرِ .

(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أَي إِنْ كُنْتُمْ كَامِلِي الْإِيمَانِ فَامْتَثِلُوا هَذِهِ الْأَوَامِرَ الثَّلَاثَةَ إِذْ كَمَالُهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ أَوْجِبَهُ ، فَالْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ حَقًّا يَكُونُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَازِعٌ يَسُوقُهُ إِلَى الطَّاعَةِ وَاتِّقَاءِ الْمَعَاصِي إِلَّا أَنْ يَعْضُ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ عَلَيْهَا أَحْيَانًا مِنْ ثَوْرَةِ شَهْوَةٍ أَوْ سُورَةِ غَضَبٍ ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ مِمَّا عَرَضَ لَهُ .

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بخمس صفات تدل على وجوب التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله فقال :

(إنما المؤمنون) أى إنما المؤمنون حقاً المخلصون فى إيمانهم هم الذين اجتمعت فيهم خصال خمس :

(١) (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى الذين إذا ذكروا الله بقلوبهم فرعوا لعظمته وسلطانه أو لوعده ووعيده ومحاسبته خلقة، والآية بمعنى قوله : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

(٢) (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) أى وإذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم زادتهم يقيناً فى الإيمان وقوة فى الاطمئنان ونشاطاً فى الأعمال؛ إذ أن تظاهر الأدلة وتعاقد الحجج يوجب زيادة اليقين ، فأبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمناً بإحياء الله الموتى حين دعا ربه أن يريه كيف يحييها كما قال تعالى : « أَوَلَمْ تُوْمِنْ ؟ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي » فمقام الطمأنينة فى الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكلاً . ويروى أن علياً المرتضى قال : لو كشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً ، والعلم التفصيلى فى الإيمان أقوى من العلم الإجمالى ، فمن آمن بأن الله علماً محيطاً بالمعلومات ، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات ، ورحمة وسعت جميع المخلوقات ، علماً إجمالياً ولو سألته أن يبين لك شواهدة فى الخلق لعجز - لا يوزن إيمانه بإيمان صاحب العلم التفصيلى بسنن الله فى الكائنات فى كل نوع من أنواع المخلوقات ولا سيما فى العصور الحديثة التى اتسعت فيها معارف البشر بهذه السنن ، فعرفوا منها ما لم يكن يخطر على مشاعره لأحد من العلماء فى القرون الخوالى .

وفى معنى الآية قوله تعالى فى وصف الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم

القرح في غزوة أحد : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » وقوله : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

(٣) (وعلى ربهم يتوكلون) أى إنهم يتوكلون على ربهم وحده ولا يفوضون أمرهم إلى سواه ، فمن كان موقفا بأن الله هو المدبر لأموره وأمور العالم كله لا يمكن أن يكل شيئا منها إلى غيره .

وإذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للانسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه على حسب ما وضعه الله في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات وأن هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله الذى سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك ، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل على الله وحده وإليه يتوجه فيما يطلبه منه .

أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله في الخلق فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التى لا تتبدل ولا تتحول .

(٤) (الذين يقيمون الصلاة) أى يؤدونها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر وفي معناها وروحها الباطن من خشوع وخضوع في مناجاة الرحمن ، واتعاظ وتدبر في تلاوة القرآن ، وبهذا كله تحصل ثمرة الصلاة من الاتهاء عن الفحشاء والمنكر .

(٥) (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون بعض ما رزقناهم في وجوه البر في الزكاة المفروضة وبالنفقات الواجبة والمندوبة للأقربى والمعوزين وفي مصالح الأمة ومرافقها العامة التى بها يعلو شأنها بين الأمم ويكون عليها تقدمها وعمرانها .

(أولئك هم المؤمنون حقا) أى أولئك الذين اتصفوا بتلك الصفات هم دون

من سواهم هم المؤمنون حق الإيمان ، وهو نتيجة لتصديق إذعاني له أثر في أعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله .

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضى الله عنه أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا . قال : انظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاعفون فيها ، فقال : يا حارثة عرفت فالزم (ثلاثا) » وروى عن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت ؟ قال الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألنى عن قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله الخ فوالله لا أدري أنا منهم أم لا . وبعد أن ذكر سبحانه أوصافهم ذكر جزاءهم عند ربهم فقال :

(لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) أى لهم درجات من الكرامة والزلفى لا يقدر قدرها عند ربهم الذى خلقهم وسواهم وهو القادر على جزائهم على جميل أعمالهم فى دار الجزاء والثواب، والله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات فى الدنيا وفى الآخرة وعند الله تعالى كما قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَابُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » وقال تعالى فى الرسل : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » الآية . وقال فى درجات الدنيا وحدها : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولهم مغفرة من الله لذنوبهم التى سبقت وصولهم إلى درجة الكمال ، ولهم رزق

كريم وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة ، والكريم تصف به العرب كل نبيء حسن لا قبح فيه ولا شكوى .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى
الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ
وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) .

شرح المفردات

الشوكة : الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح ،
والطائفتان : طائفة العير الآتية من الشام ، وطائفة النغير التي جاءت من مكة
للنجدة ، وغير ذات الشوكة : هي العير ، ودابر القوم : آخرهم الذي يأتي في دبرهم
ويكون من ورأهم ، ويحق الحق : أى يعز الإسلام لأنه الحق ، ويبطل الباطل :
أى يزيل الباطل وهو الشرك ويمحقه .

المعنى الجملى

بدئت القصة بغزوة بدر الكبرى التي كانت أول فوز للمؤمنين وخذلان
للمشركين مع بيان أحكام الغنائم التي غنمها المسلمون منهم - ثم ذكر هنا أول القصة
وهو خروج النبي صلى الله عليه وسلم من بيته وكرهة فريق من المؤمنين لذلك ، وقد
كان من مقتضى الإيمان الإذعان لطاعته والرضا بما يفعله بأمر ربه وما يحكم أو يأمر به .

الإيضاح

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) أى إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ، ولرسوله أن يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ممن كانوا يرون أنهم أحق بها ، كما خراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين ، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك لعدم استعدادهم للقتال ولنحو هذا من الأسباب التي تعلم مما يلي .

وبيان ذلك — أن رسول الله لما سمع بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فحف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا — وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » ولكن اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغياد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آبائنا ونساءنا ، وكان رسول الله صل الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا بمن دمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ؛ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال أجل ، فقال قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقتنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لنن استعرضت بنا هذا البحر نخضته لخصناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول سعد ونشطه ذلك ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتي من مكة لنجدتهم وعلى رأسهم أبو جهل والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

(يجادلونك في الحق بعد ما تبين) أى يجادلوك المؤمنون في الحق وهو تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير كراهية للقاء المشركين وإنكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم بعد أن تبين لهم الحق بإخبارك أنهم سينصرون أينما توجهوا - ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال .

وبيان هذا أن المسلمين كانوا في حال ضعف ، فكان من حكمة الله أن وعدم أولاً إحدى طائفتي قريش تكون لهم على طريق الإيهام لا على طريق التعيين ، فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة في إحرازه لضعف الحامية ، فلما ظهر لهم أنها فاتتهم ونجبت إذ ذهبت من طريق سيف البحر (طريق الشاطئ) وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل مالدى قريش من قوة ،

وأنها قد قربت منهم ووجب عليهم قتالها إذ تبين أنها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالى بالنصر عليها - صعب على بعضهم لقاءها على قتلهم وكثرتها وضعفهم وقوتها وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يخرجوا إلا للغير لأنه لم يذكروا قتالاً فيستعدوا له .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبين للجدل فيه وجه - فلا ينبغي أن يقال إن طائفة الغير هي مراد الله لأنها نجت، ولا بأن يقال إننا لم نعد للقتال عدته لأنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعده الله بالظفر عليها ، فإذا لا وجه للجدل إلا الجبن والخوف من القتال .

(كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) أى كأنهم لشدة ما هم فيه من جزع ورهب يساقون إلى موت محقق لا مهرب منه لوجود أماراته وأسبابه حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم من التفاوت في القوة والعدد والخيل والزاد قاض بذلك ولكن الله تعالى وعده رسوله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم (ووعده لا يتخلف) أما هذه الأسباب العادية فكثيرا ما تتخلف، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله الذي بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء ، وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم وكان هذا نصرا مؤزرا للمسلمين على المشركين ، وبه علا ذكرهم في البلاد العربية وها بهم قاصيها ودانيها .

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) أى واذكروا حين وعد الله إياكم أن إحدى الطائفتين لكم تتسلطون عليها وتتصرفون فيها .

(وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أى تتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة : (وهي الغير) تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ، وعبر عنها بذلك تعريضا لكرهتهم للقتال وطمعهم في المال .

(ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يثبت الحق الذي أراده بكلماته ، أى بآياته المنزلة على رسوله في محاربة ذات

الشوكة ، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قلب (بئر) بدر .

(ويقطع دابر الكافرين) أى يهلك المعاندين جملة ويستأصل شأقتهم ويمحق قوتهم، وقد كان الظفر بيدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة .

قال صاحب الكشاف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وألا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، والله عز وجل يريد معالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين، وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وغلب كثرتهم بقلتمكم وأعزكم وأذلهم اه .

(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) أى وعد الله بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق وهو الإسلام ويثبتته ويبطل الباطل وهو الشرك ويزيله ، ولو كره المجرمون أولو الاعتداء والظغيان ، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم .

إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ
 الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ
 وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ
 النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ بِكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ
 رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي
 رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤).

شرح المفردات

الاستغائة : طلب الغوث ، وهو التخليص من الشدة والنقمة ، وممدكم : ناصركم
 ومغيشكم ، ومردفين : من أردفه إذا أركبه وراهه ، وتطمئن تسكن بعد ذلك
 الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم ، وعزيز : أى غالب على أمره ، حكيم
 لا يضع شيئاً في غير موضعه ، ويفشيكم : يجعله مغطياً لكم ومحيطاً بكم ، والنعاس :
 فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كله
 فإذا أزاله كان نوماً ، والرجز والرجس والركس : الشيء المستقدر حساً أو معنى ، ويراد
 به هنا وسوسة الشيطان ، والربط على القلوب تثبيتها وتوطئتها على الصبر ، والرعب :
 الخوف الذي يملأ القلب ، فوق الأعناق : أى الرؤوس ، والبنان : أطراف الأصابع
 من اليدين والرجلين ، شاقوا : أى عادوا وخالفوا ، وسميت العداوة مشاقة لأن كلا من
 المتعادين يكون في شق غير الذى يكون فيه الآخر .

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : حدثني
 عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى
 أصحابه وهم ثلثمائة رجل و بضعة عشر رجلاً ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون
 فاستقبل نبي الله القبلة ثم مديده وجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتني ،
 اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً
 القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه

وقال يانبي الله ، كفالك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون . وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك ، فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في القتال أسبابا حسية ومعنوية، وأن لله سننا مطردة وهو مع ذلك يعلم أن الله توفيقا يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه ، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية التي تكون أجدر بالنصر من القوة المادية، وكان كل من علم بدعائه يتأسى به في هذا الدعاء ويستغيث به كما استغاث .

الإيضاح

(إذ تستغيثون ربكم) أى اذ كروا وقت استغاثتكم ربكم قائلين ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا ، والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجأهم إليه إذ ضاقت عليهم الحيل وطلبوا مخلصا من تلك الشدة فاستجاب دعاءهم كما قال :

(فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى فأجاب دعاءكم بأنى ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضا ويتبعه ، وهذا الألف هى وجوههم وأعيانهم - وبهذا يطابق ما جاء فى سورة آل عمران : « بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) أى وما جعل ذلك الإمداد إلا بشرى لكم بأنكم تنصرون ولتسكن به قلوبكم من الزلزال الذى عرض لكم فكان من مجادلتكم للرسول فى أمر القتال ما كان وبذا تلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر .

(وما النصر إلا من عند الله) أى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب ، فهو سبحانه الفاعل للنصر والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية ، ولا سيما مالا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتفيد أرواحهم الثبات والاطمئنان .

(إن الله عزيز حكيم) أى إنه تعالى غالب على أمره ، حكيم لا يضع شيئا فى غير موضعه .

وظاهر الآية يدل على أن لإنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية ، فهو يؤثر فى القلوب فيزيدها قوة وإن لم يكونوا محاربين ، وهناك روايات تدل على أنهم قاتلوا فعلا .

وفى يوم أحد وعدهم الله وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن الشرط الأخير قد انتفى فانتفى ما علق عليه .

(إذ يغشىكم النعاس أمانة منه) أى إنه تعالى ألقى عليهم النعاس حتى غشيهم وغلب عليهم تأميناً لهم من الخوف الذى كان يساورهم من الفرق الشاسع بينهم وبين عدوهم فى العدد والعدة ونحو ذلك ، إذ من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف ، كما أن الخائف لا ينام ولكن قد ينعس إذ تفتر منه الحواس والأعصاب .

روى البيهقى فى الدلائل عن على كرم الله وجهه قال : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تحت شجرة حتى أصبح » ، والمتبادر من الآية أن النعاس كان فى أثناء القتال ، وهو يمنع الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر .

(وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام) روى ابن المنذر من طريق ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه : أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين ، وكان بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبيا وأنكم أولياء وتصلون مجنبيين محدثين فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (أى على الرمل اللين لتلبده بالمطر) وذهبت وسوسته .

وقال ابن القيم : أنزل الله في تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلا طهرهم به وأذهب عنهم رجز الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب الرمل ، وثبت الأقدام ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم ، فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه ونزل رسول الله وأصحابه على الحياض وبني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش على تل مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده (هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى فما تعدى أحد منهم موضع إشارته) اه .

وقال ابن إسحاق : « إن الحباب بن المنذر قال يا رسول الله : رأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : (بل هو الحرب والرأى والمكيدة) قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فنزله ثم نغور ما وراءه من القُلب (الآبار غير المبنية) ثم بنى عليها حوضا فمملؤه ماء ثم تقاتل القوم فشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأى ، وفعلوا ذلك » .

وقد فهم من الآية أنه كان لهذا المطر أربع فوائد :

(١) تطهيرهم حسيا بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر .

(٢) إذهاب رجس الشيطان ووسوسته .

(٣) الربط على القلوب : أى توطين النفس على الصبر وثبيتها كما قال :

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا »

وهذا لما للمطر من المنافع التي تكون أثناء القتال .

(٤) تثبيت الأقدام به ، ذلك أن هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص

فيه أرجلهم فقدروا على المشى كيف أرادوا ، ولولاه لما قدروا على ذلك .

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) أى يثبت الله

الأقدام بالمطر وقت الكفاح الذى يوحى فيه ربك إلى الملائكة أمرا لهم أن يثبتوا

به قلوب المؤمنين ويقووا عزائمهم فيلهموها تذكر وعد الله لرسوله وأنه لا يخلف الميعاد ،

فالمراد بالمعية فى قوله (أنى معكم) معية الإغاثة والنصر والتأييد فى مواطن الجِد

ومقاساة شدائد القتال .

وهذه منة خفية أظهرها الله تعالى ليشكروه عليها . وقد أخرج البيهقي فى الدلائل

أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول : أبشروا فإنهم ليسوا بشيء

والله معكم ، كرتوا عليهم .

وقال الزجاج : كان ذلك بأشياء يلتقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد

جدهم ، وللملك قوة إلقاء الخير ويقال له إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال

لها وسوسة .

(سألتى فى قلوب الذين كفروا الرعب) هذا تفسير لقوله إنى معكم كأنه قيل

إنى معكم فى إعاتكم بإلقاء الرعب فى قلوبهم .

(فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أى فاضربوا الهام وافلقوا

الرءوس واحتزوا الرقاب وقطعوها وقطعوا الأيدي ذات البنان التى هى أداة التصرف فى الضرب وغيره .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمر بين القتلى ببدر بعد انتهاء المعركة ويقول (نفلق هاما) فيتم البيت أبو بكر رضى الله عنه وهو :

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وفى ذلك دليل على ألمه صلوات الله عليه من الضرورة التى ألجأته إلى قتل صنائيد قومه ، فالمشركون هم الذين ظلموه هو ومن آمن به حتى أخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها .

ثم بين سبب التأييد والنصر فقال :

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك الذى ذكر من تأييد الله للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله : أى عادوها فكان كل منهما فى شق غير الذى فيه الآخر ، فالله هو الحق والداعى إلى الحق ، ورسوله هو المبلغ عنه ، والمشركون على الباطل وما يستلزمه من الشرور والآثام وانحرافات .

(ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) أى ومن يخالف أمر الله ورسوله فهو الحقيق بعقابه فلا أجدر بالعقاب من المشاقين له الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت على توحيدته تعالى وعبادته ، ويعتدون على أوليائه بمحاولة ردّهم عن دينهم بالقوة والقهر وإخراجهم من ديارهم ثم إبتاعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه .

(ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) أى هذا العقاب الذى عجلت لكم أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله فى الدنيا من انكسار وانهزام مع الخزى والذل أمام فئة قليلة العدد والمُعدّد من المسلمين ، فذوقوه عاجلا ، واعلموا أن لكم فى الآخرة عذاب النار إن أصررتم على كفركم ، وهو شر العذابين وأبقاها .

يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
 الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا
 إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ
 تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ
 الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
 مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ
 تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا
 وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) .

شرح المفردات

الزحف : من زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دب على مقعده كالصبي
 أو على ركبتيه ، أو مشى بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف صغار
 الجراد والعسكر المتوجه إلى العدو لأنه لكثرتة وتكاثفه يرى كأنه يزحف إذ الكل
 يرى كجسم واحد متصل فتحسّ حركته بطيئة وإن كانت في الواقع سريعة ،
 والأدبار : واحدها دبر وهو الخلف ، ومقابله القبل ومن ثم يكنى بهما عن السوءتين ،
 وتولية الدبر والأدبار : يراد بهما الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوجها إلى دبره
 ومؤخره ، والمتحرف للقتال وغيره : هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، من الحرف وهو
 الطرف ، والفئة : الطائفة من الناس ، والمأوى : الملجأ الذي يأوى إليه الإنسان ،
 والموهن : المضعف ، من أوهنه إذا أضعفه ، والكيّد : التدبير الذي يقصد به غير ظاهره
 فتسوء عاقبة من يقصد به ، والاستفتاح : طلب الفتح ، والفصل في الأمر ؛ كالنصر
 في الحرب .

المعنى الجملى

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات حكماً عاماً لما سيقع من الوقائع والحروب فى مستأنف الزمان ، وجاء به فى أثناء قصة بدر عناية بشأنه وحثاً للمؤمنين على المحافظة عليه .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفاً ، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر .

(فلا تولوهم الأدبار) أى فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عدداً وعُدّة ، ولكن اثبتوا لهم فإن الله معكم عليهم .

(ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير) أى ومن يولهم حين تلقونهم ظهره إلا متحرفاً لمكان رآه أحوج إلى القتال فيه ، أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو كأن يولم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه حتى إذا انفرد عن أنصاره كره عليه فقتله - أو منتقلاً إلى فئة من المؤمنين فى جهة غير التى كان فيها ليشد أزرهم وينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج إليه ممن كان معهم - من فعل ذلك فند رجع متلبساً بغضب عظيم من الله ، وماواه الذى يلجأ إليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير هى :

ذلك أن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه الهلاك فعوقب بجعل عاقبته دار الهلاك والعذاب الدائم وجوزى بضد غرضه .

وفى الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى ، وجاء التصريح بذلك فى صحيح الأحاديث فقد روى الشيخان عن أبى هريرة مرفوعاً « اجتنبوا

السبع الموبقات (المهلكات) قالوا يا رسول الله وما هن؟ . قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين . قال الشافعي : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ، ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة . وروى عن ابن عباس قال : من فرّ من ثلاثة فلم يفر ، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ .

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أى بأيها الذين آمنوا لا تولوا الكفار ظهوركم أبداً فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، انظروا إلى ما أوتيتم من نصر عليهم على قلة عددكم وعُدتكم وكثرتهم واستعدادهم ، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم وربطه على قلوبكم وثبتت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذى أفنى كثيرا منهم بقوتكم وعُدتكم ، ولكن قتلهم بأيديكم ، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وإلقائه الرعب فى قلوبهم ، وهذا بعينه هو ما جاء فى قوله تعالى : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِرُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » .

والمؤمن أحرى بالصبر الذى هو من أجلّ عوامل النصر من الكافر ، إذ هو أقلّ حرصا على متاع الدنيا وأعظم رجاء لله والدار الآخرة ، يؤيد هذا قوله تعالى : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرَجُّونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرَجُونَ » .

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم إلى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو قائدهم الأعظم فقال :

(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) أى وما رميت أيها الرسول أحدا من المشركين فى الوقت الذى رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها فى الهواء فأصابت وجوههم فإن مافعلته لا يكون له من التأثير مثل ما حدث ، ولكن الله رمى وجوههم كلهم بذلك التراب الذى ألقيته فى الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته .
 فقد روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال : شأهت الوجوه ثلاثا ، فأعقبت رميته هزيمتهم » .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال فى استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم ، ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره وفه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

والفرق بين قتل المسلمين للكفار وبين رمى النبى صلى الله عليه وسلم إياهم بالتراب : أن الأول فعل من أفعالهم المندورة لهم على حسب سنن الله فى الأسباب الدنيوية ، وأن الثانى لم يكن سببا عاديا لإصابتهم وهزيمتهم ، لامشاهدا كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد إذ هو لا يكون سببا لشكاية أعينهم وشوهة وجوههم لقلته وبعده عن راميه وكونهم غير مستقبلين له كلهم ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى بيان نقص الأول وعدم استقلاله بالسببية وبيان أنه لولا تأييد الله ونصره لما وصل كسبهم المحض إلى هذا القتل ؛ لأنك قد علمت ما كان من خوفهم وكراحتهم للقتال وبمجادلة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهم لو ظلوا على هذه الحال مع قتلهم وضعفهم لكان مقتضى الأسباب العادية أن يمحهم المشركون محقا .

فالفرق بين فعله تعالى فى القتل وفعله فى الرمى - أن الأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل كما هو الحال فى جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل فى حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم ، وللأسباب التى لا يصل إليها كسبهم عادة كما بين ذلك سبحانه بقوله « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ . ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ

أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ « فالإنسان يحرث الأرض ويلقى فيها البذر ولكنه لا يملك إنزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بمختلف عناصر التربة ولا دفع الجوائح عنه .
 وأن الثاني من فعله تعالى وحده بدون كسب عادى للنبي صلى الله عليه وسلم في تأثيره ، فالرمي منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلى الله عليه وسلم فامثله في ذلك إلا مثل أخيه موسى صلى الله عليه وسلم في إلقائه العصا « فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » .

(وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى فعل الله ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة .
 (إن الله سميع عليم) أى إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام ، عليم بنياتهم الباعثة عليه والعواقب التي تترتب عليه .

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى ذلكم البلاء الحسن هو الذى سمعتم - إلى أنه تعالى مضعف كيد الكافرين ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن يقوى أمرها وتشتد .
 وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم - انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك منه استفتاحا . وقال السدى : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين فأجابهم الله بقوله :

(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أى إن استنصروا لأعلى الجندين وأهداها فقد جاءكم الفتح ونصر أعلاهما وأهداها .

وهذا من قبيل التهكم بهم ؛ لأنه قد جاءهم الهلاك والنزلة .

(وإن تنتهوا فهو خير لكم) أى وإن تنتهوا عن عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وقتاله فالإنتهاء خير لكم ؛ لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان .

(وإن تعودوا نعد) أى وإن تعودوا إلى حربيه وقتاله نعد إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الأعظم الذى به تدول الدولة للمؤمنين عليكم وبه يذل شرككم وتذهب ريحكم .

(ولن تغنى عنكم فتنتكم شيئا ولو كثرت) أى ولن يدفع عنكم رهطكم شيئا من بأس الله وشديد نعمته ولو كثرت عددا ، إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة إلا إذا تساوت مع القلة فى أمور كثيرة كالصبر والثبات والثقة بالله تعالى ، فهو الذى بيده النصر والقوة .

(وأن الله مع المؤمنين) بمعونته وتوفيقه فلا تضرهم قتلهم ولا كثرة عددهم فهو يؤتى النصر من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد الله المشركين بقوله : وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فتنتكم شيئا - ففى على ذلك بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الرسول وإجابة دعوته إذا دعا للقتال فى سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف فى طريق تبليغ دعوته فقال :

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّمَّ تَسْمَعُونَ) أى أطيعوا الله ورسوله فى الإجابة إلى الجهاد وفى الإجابة إلى ترك المال إذا أمر الله بتركه ولا تعرضوا عن طاعته وعن قبول قوله وعن معوته فى الجهاد وأنتم تسمعون كلام الله الداعى إلى وجوب طاعته وموالاته ونصره ، ولا شك أن المراد بالسمع هنا سماع الفهم والتصديق بما يسمع كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) وهؤلاء القائلون فريقان : فريق الكفار المعاندين ، وفريق المنافقين الذين قال فى بعض منهم « وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ » .

(إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) الدواب ، واحدها دابة : وهى كل مادب على الأرض كما قال « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ » وقل أن يستعمل فى الإنسان بل الغالب أن يستعمل فى الحشرات ودواب الركوب ، فإذا استعمل فيه كان ذلك فى موضع الاحتقار ، أى إن شر مادب على الأرض فى حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة فهم يفقدون لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته ، البكم الذين لا يقولون الحق ، ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا المنطق ، الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل والخير والشر ؛ إذ هم لوعقلوا لطلبوه واهتدوا إلى مافيه المنفعة والفائدة لهم كما قال « إِنَّ فِي ذَلِكَ لِدِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

والخلاصة — إنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى بأن خلقوا خداجا ناقصى هذه المشاعر أو طرأت عليهم آفات

أذهبت هذه القوى بل هم شر منهم ، لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف .

(ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) أى ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهداية بنور النبوة ولم يفسد قيس الفطرة سوء القدوة وفساد التربية، لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم ، ولكنه قد علم أنه لاخير فيهم فهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم .

(ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أى ولو أسمعهم - وقد علم أنه لاخير فيهم - لتولوا عن القبول والإذعان وهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به كراهة وعنادا للداعى إليه ولأهله ففقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير نقداً تاماً، لافقدا عارضا موقوتا .

والخلاصة - إن للسمع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه :

(١) أن يتعمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادية ذى بدء خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم .

(٢) أن يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويتدبر كالمناققين الذين قال الله فيهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفاً » .

(٣) أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفى كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه .

(٤) أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه ، وهذا هو المنصف ، وممن السامعين أو القارئین آمن بعد أن نظر وتأمل ؛ فقد نظر طيب فرنسى فى ترجمة القرآن فرأى أن كل النظريات الطبية التى فى كالتطهارة والاعتدال فى المآكل والمشرب وعدم الإسراف فىهما ونحو ذلك من المسائل التى فيها محافظة على الصحة

توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأى الأطباء في هذا العصر فرغب في هذا كله وأسلم؛ ورأى ربان بارجة انكليزية ترجمة القرآن واستقصى كل ما فيها من الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من كبار الملاحين في البحار، وبعد أن سأل عن ذلك وعرف أنه لم يركب البحر قط، وهو مع ذلك أمي لم يقرأ كتابا ولا تلقى عن أحد درساً قال: الآن علمت أنه كان بوحي من الله لأن فيه حقائق لا يعلمها إلا من اختبر البحار بنفسه، أو تلقاها عن غيره من المختبرين، ثم أسلم وتعلم العربية.

وكثير من المسلمين يستمعون القراء ويتلون القرآن فلا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه، بل يستمعون للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغم، أو يقصدون بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده في ليالي رمضان، ويجلسهم في حجرة البوايين أو غيرهم من الخدم تشبهاً بالأكابر والوجهاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا
فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
(٢٥) وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن
يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم التولى حين الجهاد، أرفده بالأمر بالاستجابة له إذا دعاهم لهدى الدين وأحكامه عامة لما في ذلك من

تكميل الفطرة الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة ، وكرر النداء بلفظ المؤمنين تنشيطاً لهم إلى الإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهي ، وإيماء إلى أنهم قد حصلوا ما يوجب عليهم الاستجابة وهو الإيمان .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) أى إن الرسول قد دعاكم بأمر ربكم لما فيه حياتكم الروحية: من علم بسنن الله في خلقه وحكمته وفضيلة ترفع نفس الإنسان وترقى به إلى مراتب الكمال حتى يحظى بالقرب من ربه وينال رضوانه في الدار الآخرة — فأجيبوا دعوته بقوة وعزم . كما قال في آية أخرى « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته ، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذى بعثه الله به كبيان له لصفة الصلاة وعددها قولاً أو فعلاً، فقد صلى بأصحابه وقال: « صلوا كما رأيتموني أصلى » وقال « خذوا عني مناسككم » وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك ، فكل من ثبت لديه شيء منها يبحثه أو يبحث العلماء الذين يثق بهم وجب عليه الاهتداء به .

أما الإرشادات النبوية في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم ، فلم يعدها أحد من الأئمة ديناً يجب الاقتداء به فيه .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) نهينا الله في هذه الآية لأمرين لها خطرهما في سعادة الإنسان الأخروية ، وهما :

(١) أنه قد جرت سنة الله في البشر أن يحول بين المرء وقلبه ، وهو مركز الإحساس والوجدان والإدراك الذى له السلطان على الإرادة والعمل ، أى إنه تعالى يميئ القلب فتفوت الفرصة التى هو واجدها من التمكن من معالجة أدوائه وعلاجه ، ورده سليماً كما يريد الله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه إذا غفل عنها وفرط

في جنب الله ، وكذلك هو أرجى شيء يرجوه المسرف إذا لم يئأس من روح الله ، فإننا لنشاهد أن كثيراً من الناس يسرون على الهدى ويتقون الطرق التي تصل بهم إلى مهاوى الهلاك والردى فإذا بقلوبهم قد تقلبت بعواصف تميل بهم عن الصراط المستقيم كشبهة تزعزع الاعتقاد أو شهوة يغلب بها الغى الرشاد فيطيعون أهواءهم ويسرون وراء وساوس الشيطان ، وفي ذلك إيماء إلى أن الطائع المجد لا يأمن مكر الله فيغترّ بطاعته ويعجب بنفسه، والعاصي المنصرف عن الطاعة لا يئأس من روح الله فيسترسل في اتباع هواه حتى تحيط به خطاياها ، ومن لم يأمن عقاب الله ولا يئأس من روح الله كان جديراً بأن يراقب قلبه ، ويحاسب نفسه على خواطره ويعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على الصراط المستقيم .

والمخالصة — إن من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله تضعف إرادته في مقاومته فلا تؤثر فيه المواعظ القولية ولا العبر المبصرة ولا المعقولة ، روى البخارى وأصحاب السنن قال : كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم « لا ومقلب القلوب » .

(٢) أن نتذكر حشرنا إليه ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا بالعذاب أو النعيم ، فلا نألوجهداً في انتهاز الفرصة لنعمل صالح الأعمال. وبعد أن أمرنا الله بتلك الأوامر ونهانا عن تلك النواهي التي تخص أعمال الإنسان الاختيارية ، أمرنا أن نتقى الفتن الاجتماعية التي لاتخص الظالمين ، بل تتعداهم إلى غيرهم ، وتصل إلى الصالح والطالح فقال :

(واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الفتنة : البلاء والاختبار، أى اتقوا وقوع الفتن التي لاتتخص إصابتها بمن يباشرها وحده ، بل تعمه وغيره كالفتن القومية التي تقع بين الأمم في التنازع على المصالح العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة والانقسام إلى الأحزاب الدينية والأحزاب السياسية ، ونحو ذلك .

من ظهور البدع والتكاسل في الجهاد وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهرهم والمداهنة في الأمر بالمعروف ونحو ذلك من الذنوب التي جرت سنة الله بأن تعاقب عليها الأمم في الدنيا قبل الآخرة .

أخرج ابن جرير من طريق الحسن قال : لقد خُوفنا بهذه الآية ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ظننا أننا خصصنا بها ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير ، وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد حين نزلت هذه الآية أن سيكون قتن . وروى عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين ألا يقرروا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب . وقال عدى بن عميرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » وروى أحمد والبخاري وابن مردويه عن مطرف قال : قلنا للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة (عثمان) حتى قتل ثم جثم تطلبون بدمه فقال : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وعلى الجملة ففتنة عثمان كانت أول الفتن التي اختلفت فيها الآراء فاختلفت عمال أهل الحل والعقد ، وخلا الجو للمفسدين من زنادقة اليهود والمجوس وغيرهم ، ثم أعقبتها فتنة الجمل بصفين ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية ، ثم قتل الحسين بكر بلاء ، إلى نحو ذلك من الفتن التي كان لها آثارها في الإسلام ، ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر رضي الله عنه أهل الردة لما كانت فتنة تبعتها قتن كثيرة أكبرها قتن الخلافة والملك وفتن الآراء والمذاهب الدينية والسياسية .

(واعلموا أن الله شديد العقاب) أي إنه تعالى شديد عقابه للأمم والأفراد .

خالفت سنته التي لا تبديل لها ولا تحويل أو خالفت هدى دينه المزكى للأنفس المطهر للقلوب .

وهذا العقاب منه ما هو في الدنيا وهو مطرد في الأمم ، وقد أصيبت به الأمة الإسلامية في القرن الأول الذي كان أهله خير القرون بعده ، إذ قصروا في درء الفتنة الأولى فعاقبهم الله عقابا شديدا على ذلك ثم تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية على الملك والسلطان حتى دالت الخلافة التي تنازعوا وتنافسوا فيها وتقاتلوا لأجلها .

وقد يقع هذا العقاب للأفراد لكنهم ربما لا يشعرون به لأنه يقع تدريجيا فلا يكاد يحس به ، وأما العقاب الأخرى فأمره إلى الله العالم بالسر والنجوى والذي جعل العقاب آثارا طبيعية للذنوب التي تبترحها الأفراد والأمم .

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) هذا خطاب للمهاجرين يذكركم فيه سبحانه بما كان من ضعفهم وقتلهم ، وقد يكون الخطاب للمؤمنين عامة في عصر التنزيل يذكركم فيه بما كان من ضعف أمتهم العربية في الجزيرة بين الدول القوية من فارس والروم .

(تخافون أن يتخطفكم الناس) أي تخافون من مبدأ الإسلام إلى حين الهجرة أن يتخطفكم مشركو العرب من قريش وغيرها ، والمراد أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم كما كان يتخطف بعضهم بعضا في خارج الحرم وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

(فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) أي فأواكم أيها المهاجرون إلى الأنصار وأيدكم وإياهم بنصره في غزواتكم ، وسيؤيدكم على من سواكم من فارس والروم وغيرها كما وعدكم بذلك في كتابه الكريم ، ورزقكم من الطيبات

رجاء أن تشكروا هذه النعم وغيرها مما يؤتيكم من فضله كما وعد في كتابه :
« لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية .
قال كان هذا الحمى أذل الناس ذلاً وأشقاء عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعره جلوداً ،
وأبينه ضلالة ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم ، لا والله ما في بلادهم
ما يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردى في النار ،
يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله ما نعلم قبيلة من حاضر الأرض يومئذ كان أشرف منهم
منزلاً ، حتى جاء الله بالإسلام فسكن به في البلاد ووسع به في الرزق ، وجعلكم به
ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه فإن ربكم
منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عز وجل .

وفي الآية من العبرة التي يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورد من اهتدى
بهديه سعادة الدنيا و بسطة السلطان ومكن لأهله في الأرض وأنالهم ما لم يكونوا يرجونه
لولا هدى الدين وأورثهم في الآخرة فوزاً ورضواناً من ربهم وروحاً وريحاناً وجنة نعيم
هذا حين كانوا يعملون بهديه ، فلما عرضوا عنه ونأوا بجانبهم عاقبهم الله بما جرت به
سننه في الأرض فأضاعوا ملكهم وسلط عليهم أعداءهم ، فليعتبر المسلمون بما حل
بهم وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم وليستضيئوا بنورهم ويشوبوا إلى رشدهم ، لعله يعيد
إليهم تراثهم الغابر وعزهم الماضي : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ (٢٧) وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) .

شرح المفردات

الخيانة : لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن ، فقد قالوا خانته سيفه إذا نبا عن الضريبة ، وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشي ، ومنه قوله : « عَلمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ » أى تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء لأن الرجل إذا خان الرجل فقد أدخل عليه النقصان . والأمانة : كل حق مادي أو معنوي يجب عليك أدائه إلى أهله قال تعالى : « فَإِنْ أُمِنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلَئُوذُ الَّذِي أُؤْتِمِنُ أَمَانَتُهُ وَلِيَتَّقِيَ اللهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا » والفتنة : الاختبار والامتحان بما يشن على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فهى تكون فى الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء ، فيمتحن الله المؤمنين والكافرين والصادقين والمنافقين ، ويجازيهم بما يترتب على فتنهم من اتباع الحق أو الباطل وعمل الخير أو الشر .

المعنى الجملى

روى أن أبا سفيان خرج من مكة : (وكان لا يخرج إلا فى عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين) فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان : إن محمدا يريدكم نغذوا حذرکم فانزل الله (لا تخونوا الله والرسول) الآية . وروى أنها نزلت فى أبى لبابة فإنه كان حليفا لبني قريظة من اليهود ، فلما خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد إجلاء إخوانهم من بني النضير ، أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم أبو لبابة ألا تفعلوا وأشار إلى حلقه (يريد أن سعدا سيحكم بذبجهم) فنزلت الآية . قال أبو لبابة : ما زالت قدمائى عن مكانهما حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ،

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل امرأته : « أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ؟ ، فقالت إنه ليصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله » .
وقد روى أن أبا لبابة شد نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، ثم مكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك ، فقال : والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني ، فجاء فحله بيده .

الإيضاح

(يأبى الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) أى لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه أو تتعدوا حدوده وتنتهكوا محارمه التى بينها لكم فى كتابه ، ولا تخونوا الرسول فترغبوا عن بيانه لكتابه إلى بيانه بأهوائكم أو آراء مشايخكم أو آبائكم أو أوامر أمرائكم ، أو ترك سنته إلى سنة آبائكم وزعمائكم زعما منكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم .

(وتخونوا أماناتكم) أى ولا تخونوا أماناتكم فيما بين بعضكم وبعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الشئون الأدبية والاجتماعية ، إفشاء السر خيانة محرمة ويكفى فى العلم بكونه سرا قرينة قولية كقول محدثك : هل سمعنا أحد؟ أو فعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء ، وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين .
كذلك لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولى الأمر من شئون سياسية أو حرية فتطلعوا عليها عدوكم وينتفع بها فى الكيد لكم .

والخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين ، قال أنس بن مالك : قلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : « لا إيمان لمن لا عهد له » رواه الإمام أحمد .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

(وأنتم تعلمون) أى وأنتم تعلمون مفسد الخيانة وتحريم الله إياها وسوء عاقبتها فى الدنيا والآخرة ، وقد يكون المعنى - وأنتم تعلمون أن ما فعلتموه خيانة لظهوره ، فإن خفى عليكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين ضرورة أو مما يعلم بدهاهة العقل أو باستفتاء القلب كفعلة أبى لبابة التى كانت سببها الحرص على المال والولد ، ومن ثم فظن لها قبل أن يبرح موقفه .

(واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لاتخفى على ذوى الألباب ، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشتهم وتحصيل رغائبهم وشهواتهم ودفع كثير من المكارهم عنه ، من أجل ذلك يتكافى فى كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ويرغبه فى القصد والاعتدال ، ويتكافى العناء فى حفظها وتتنازعه الأهواء فى إنفاقها ، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقا معينة وغير معينة : كالزكاة ونفقات الأولاد والأزواج وغيرهم .

وأما الأولاد فخبهم مما أودع فى الفطرة فهم ثمرات الأفئدة وأفلاذ الأكباد لدى الآباء والأمهات ، ومن ثم يحملها ذلك على بذل كل ما استطاع بذله فى سبيلهم من مال وصحة وراحة ، وقد روى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم « الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة » .

فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقرار الذنوب والآثام فى سبيل تربيتهم والإنفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم ، وكل ذلك قد يؤدى إلى الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الأمة أو الدين ، وإلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة والحقوق الثابتة ؛ كما يحملهم ذلك على الحزن على من يموت منهم بالسخط على المولى والاعتراض

عليه إلى نحو ذلك من المعاصى كمنوح الأمهات وتمزيق ثيابهن ولطم وجوههن ؛ وعلى الجملة ففتنة الأولاد أكثر من فتنة الأموال ، فالرجل يكسب المال الحرام ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل الأولاد .

فيجب على المؤمن أن يتقى الفتنتين ، فيتقى الأولى بكسب المال من الحلال وإنفاقه في سبيل البر والإحسان ، ويتقى خطر الثانية من ناحية ما يتعلق منها بالمال ونحوه بما يشير إليه الحديث . ومن ناحية ما أوجبه الدين من حسن تربية الأولاد وتعويدهم الدين والفضائل وتجنبهم المعاصى والذائل .

(وأن الله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تؤثروا ما عند ربكم من الأجر العظيم بمراعاة أحكام دينه في الأموال والأولاد على ما عساه قد يفوتكم في الدنيا من التمتع بهما .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

شرح المفردات

التقوى : ترك الذنوب والآثام وفعل ما استطاع من الطاعات والواجبات الدينية ، وبعبارة أخرى : هى اتقاء ما يضر الإنسان فى نفسه وفى جنسه ، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة ، والفرقان : أصله الفرق والفصل بين الشيئين أو الأشياء ، ويراد به هنا نور البصيرة الذى به يُفرق بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعبارة ثانية : هو العلم الصحيح والحكم الرجيح ، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل والقرآن وغلب على الأخير قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » من قبل أن كلامه تعالى يفرق فى العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر والحق والباطل والعدل والجور والخير والشر .

المعنى الجملى

لما حذر الله تعالى من الفتنة بالأموال والأولاد، ففى على ذلك بطلب التقوى التى ثمرتها ترك الميل والهوى فى محبة الأموال والأولاد .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أى إن تتقوا الله فتتبعوا أوامر دينه وتسـيروا بمقتضى سننه فى نظام خلقه يجعل لكم فى نفوسكم ملكة من العلم تفرقون بها بين الحق والباطل وتفصلون بين الضار والنافع ، وهذا النور فى العلم الذى لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة التى قال الله تعالى فيها « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .

وانقاء الله يتحقق بمعرفة سننه فى الإنسان وحده، أو فيه وهو فى المجتمع الإنسانى كما ترشد إلى ذلك آيات الكتاب الحكيم فى مواضع متفرقة منه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى حصول ملكة الفرقان التى بها يفرق صاحبها بين الأشياء التى تعرض له من علم وحكمة وعمل فيفصل فيها بين ما ينبغى فعله وما يجب تركه .

وعلى الجملة فالمتقى لله يؤتبه الله فرقانا يميز به بين الرشد والغى ، ومن ثم كان الخلفاء والحكام من الصحابة والتابعين من أعدل حكام الأمم فى الأرض ، حتى لقد قال بعض المؤرخين من الإفرنج ؛ ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب .

(ويكفر عنكم سيئاتكم ويفرر لكم والله ذو الفضل العظيم) أى ويمح بسبب ذلك الفرقان وتأثيره ما كان من دنس الآثام فى النفوس فنزول منها داعية العودة إليها ، ويعطيها فيسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ، والله الذى يفعل ذلك بكم له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه .

وفى قوله (والله ذو الفضل العظيم) إيماء وتنبيه إلى أن ما وعد به المتقين من المثوبة فضل منه وإحسان تفضل به علينا بدون واسطة وبدون التماس عوض .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ (٣١) .

شرح المفردات

ليثبتوك : أى ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس حتى لا تقدر على الحركة ،
والمكر : هو التدبير الخفى لا يصلح المكروه إلى المكور به من حيث لا يحتسب ،
والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ، وإذا نسب إلى الله كان
من المشاكلة فى الكلام بتسمية خيبة السعى فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ،
والأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث وهى الأفاصيص
التي سطرت فى الكتب بدون تمحيص ولانثبت من صحتها ، وفى القاموس : الأساطير
الأحاديث لا نظام لها واحدها إسطار وإسطير وأسطور وبالهاء فى الكل ، وأصل
السطر الصف من الشئ كالكتاب والشجر اه .

المعنى الجملى

لما ذكر المؤمنين عامة بنعمه عليهم بقوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون
فى الأرض) ذكر هنا نعمه على رسوله خاصة بدفع كيد المشركين ومكر الماكرين
بنصره عليهم وخيبة مسعاهم فى إيقاع الأذى به بعد أن تأمروا عليه وقطعوا برأى
معين فيه .

الإيضاح

(وإذ يمكر بك الذين كفروا) أى واذا ذكر أيها الرسول نعمته تعالى عليك فى ذلك الزمن القريب الذى يمكر بك فيه قومك الذين كفروا بما يدبرون فى السر من وسائل الإيقاع بك ، فإن فى ذلك القصص على المؤمنين والكافرين فى عهدك ومن بعدك لأكبر الحجب على صدق دعوتك ووعد ربك بنصرتك .

(ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) أى إن كلمتهم قد اتفقت على إيقاع الأذى بك بإحدى خلال ثلاث : إما الحبس الذى يمنعك من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام ، وإما القتل بطريق لا يكون ضررها عظيما عليهم كما سيأتى ، وإما الإخراج والنفي من الوطن .

وقد روى أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يأتى بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني ، قال من حدثك بهذا ؟ قال ربي ، قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا . قال أنا أستوصى ؟ بل هو يستوصى بي فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية .

وقد تحدثوا بهذا الحديث فسمعه أبو طالب فبلغه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن إجماع الرأى عليه والشروع فى تنفيذه قد وقع بعد موت أبي طالب .

(ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) أى إن دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين تدير الأذى لسمك والله يحبظ لهم ما دبروا فقد أخرجك من بينهم إلى دار الهجرة ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله وخذلان للباطل وحزبه .

وفى الآية إيماء إلى أن هذه حالهم الدائمة فى معاملته صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من المؤمنين .

وحديث ذلك المكر الذي ترتبت عليه الهجرة إلى المدينة ، وبها ظهر الإسلام
 وخذل الشرك روى من طرق عدة أقربها رواية ابن إسحق في سيرته قال :
 إن نفرا من قریش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم
 إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت
 بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأى ونصح ، قالوا أجل فادخل
 فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم في أمرم
 بأمره ، فقال قائل : احبسوه في وثاق ثم تر بصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من
 كان قبله من الشعراء : زهير والنابعة فإنما هو كأحدهم ، فقال عدو الله الشيخ النجدى
 لا والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجن رأيد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يشبوا
 عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم
 فانظروا في غير هذا الرأى ، فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ،
 فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحم منه ، فإنه
 إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا
 لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ،
 والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من
 بلادكم ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله ، فانظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل
 والله لأشيرن عليكم برأى لا أرى غيره قالوا وما هذا ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاما
 وسطا شابا نهيدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه به ضربة رجل
 واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم
 يقدرون على حرب قریش كلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا
 وقطعنا عنا أذاه ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى ، القول ما قال الفتى
 لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فأمره ألا يبيت في مضجعه الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة . وافترض عليهم القتال فأنزل الله: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ» الآيتين فكان أول ما أنزل في الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه .
(وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآيتين .

ولما قص الله مكرهم في ذات محمد قص علينا مكرهم في دين محمد فقال :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) أى وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آيات كتاب الله الواضحة لمن شرح الله صدره لفهمه قالوا جهلا منهم وعنادا للحق وهم يعلمون أنهم كاذبون : لو نشاء لقلنا مثل هذا الذى تلى علينا ، وقد نسب هذا القول إلى النضر بن الحرث من بنى عبد الدار وكان يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رسم واسفنديار وكبار العجم ، ويمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل .

ثم عللوا هذه الدعوة الكاذبة بما هو أصرح منها في الكذب فقالوا :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى إن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله .

وقد يكون النضر أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلفة وأن محمدا هو الذى افتراها إذ لم يكونوا يتهمونهم بالكذب كما قال تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وهم ما كانوا يعتقدون صدق هذه المقالة لأنهم يعلمون أنه أمى لا يتعلم شيئا ، بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن وقد كذبهم الله فيه فما استطاعوا له إثباتا .

وقد روى أن النضر هو الذى أنزل فيه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ
 الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » فقد اشترى قيمته جميلة
 تغنى الناس بأخبار الأمم لصرفهم عن سماع القرآن ، وهذا منتهى الجحود والعناد .
 وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحرث وأبى جهل والوليد بن المغيرة يتواصون
 بالإعراض عن سماع القرآن ويمنعون الناس عنه ، ثم يختلفون أفرادا إلى بيت النبي
 صلى الله عليه وسلم ليلا يستمعون إليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على القلوب
 حتى قال الوليد بن المغيرة كلمته المشهورة : إنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه يحطم ماتحته ،
 فخافوا أن تسمعها العرب وما زالوا يلحون عليه ليقول كلمة منفرة فقال : « إِنَّ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ » .

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
 حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا
 يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ
 أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ
 صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْفُرُونَ (٣٥) .

المعنى الجملى

روى أنه لما قال النضر : إن هذا إلا أساطير الأولين ، قال له النبي صلى الله عليه
 وسلم : ويلك إنه كلام رب العالمين فقال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية .

الإيضاح

(وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) أى اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعى محمد صلى الله عليه وسلم فافعل بنا كذا وكذا .
 وفى هذا إيحاء إلى أنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله ، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرمون بها من السماء أو بعذاب أليم سوى ذلك ، كما أن فيه تهكما وإظهارا للجزم واليقين بأنه ليس من عند الله - وحاشاه - ومنه يعلم أيضا أن دعاءهم كفر وعناد ، لأن ما يدعوهم إليه قبيح وضار .

روى أن معاوية قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! فقال : أجهل من قومي قومك حين قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا : فاهدنا له .

ثم قال تعالى بيانا للموجب لإمهالهم والتوقف فى إجابة دعائهم .
 (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أى وما كان من سنة الله ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته أن يعذبهم وأنت الرسول فيهم ، لأنه إنما أرسلك رحمة ونعمة لأعدابا ونقمة - إلى أنه قد جرت سنته أيضا ألا يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم بين أظهرهم ، بل كان يخرج الرسل أولا كما حدث لهود وصالح ولوط .

(وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أى وما كان الله ليعذبهم هذا العذاب الذى عذب بمثله الأمم قبلهم فاستأصلهم ، وهم يستغفرون : أى وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون الذين بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين .

روى ابن جرير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأنزل الله :
 (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله : (وما كان الله

معذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقى فى مكة من المؤمنين يستغفرون فلما خرجوا أنزل الله : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية فأذن الله فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدم به .

(وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) أى وأى شىء يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانع منه ، وكيف لا يعذبون وهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو لأداء النسك ؟ فما كان مسلم يقدر أن يدخل المسجد الحرام ، فإن دخل مكة عذبه إذا لم يكن فيها من يجيره ، والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورءوس الكفر كأبى جهل وأسر سراتهم .

(وما كانوا أولياءه) أى وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفساد فيه كطوافهم فيه عراة رجالا ونساء ، وهذا ردّ لقولهم : نحن ولاية البيت والحرم نصد من نشاء وندخل من نشاء .

(إن أولياؤه إلا المتقون) أى إنه لا يلى أمره إلا من كان برا تقيا ، لا من كان كافرا عابدا للصنم .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنهم ليسوا أولياء الله ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين ؛ فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله فى خلقه والجديرون بولاية بيته .

وقد نسب هذا الجهل إلى الأكثر إذ كان فيهم من لا يجهد حاله فى جاهليتهم وضلالهم فى شركهم وكون الله لا يرضى عنهم ، كما كان فيهم من يكتم إيمانه خوفا من الفتنة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، وقد جرت سنة القرآن أن يدقق فى الحكم ، ولا يقول إلا الحق ولا يقول كما يقول الناس : إن القليل لاحكم له .

هذا ، وإن جماهير المسلمين الآن صاروا يجهلون ولاية الله لأوليائه ، فصارت هذه الولاية عندهم تشمل المجانين والمجازيب الذين يسيل اللعاب من أشداقهم وترتع الحشرات فى ثيابهم وأجسادهم ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات والدعاوى الباطلة للكرامات وصاروا يؤيدون دعاويهم من رؤى الأنبياء والأقطاب فى المنام .

ثم بين الله سوء حالهم في أفضل ما بنى البيت لأجله ، وهي الصلاة ، فقد كانوا يطوفون عراة فقال :

(وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) المكاء : الصغير ، والتصدية : التصفيق ، وكان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر ، قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، وروى عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وروى عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون ويصفرون فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) .

وعلى الجملة فقد كانت صلاتهم وطوافهم من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا الرسول صلى الله عليه وسلم في طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا .
(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى فذوقوا عذاب القتل لبعض كبرائكم والأسر للآخرين منهم وانهزام الباقين مدحورين مكسورين يوم بدر .
والخلاصة — فذوقوا العذاب الذى طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه إذ قلتم (أو اتنا بعذاب اليم) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ
(٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أحوال هؤلاء المشركين في الطاعات البدنية بقوله : وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية — فنى ذلك بذكر أحوالهم في الطاعات المالية .

روى عن ابن عباس ومجاهد أن الآية نزلت في أبي سفيان وما كان من إنفاقه على المشركين في بدر ومن إعادته على ذلك في أحد - ذلك أنه لما نجا بالعبير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس لقتال فجاءوا كل من كان لهم تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربته فلعلنا ندرك منه ثأرا - ففعلوا .

وقال سعيد بن جبير: إنه استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش (واحد هاجباشة: الجماعة ليسوا من قبيلة واحدة) يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية (والأوقية اثنان وأربعون مثقالا من الذهب) .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) سبيل الله دينه واتباع رسوله : أى إن مقصدهم بالإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله وإن لم يكن عندهم كذلك .

(فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) أى إنه سيقع هذا الإنفاق وتكون عاقبته الحسرة لأنه سيذهب المال ولا يصلون إلى المقصود ، بل يُغلبون كما قال تعالى : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وسينكسرون المرة بعد المرة .

(والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) أى والذين كفروا يساقون يوم القيامة إلى جهنم إذا هم أصروا على كفرهم حتى ماتوا فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما .

وقد كان للمسلمين العبرة في هذه الآية فينفقون أموالهم في سبيل الله لأن لهم بها سعادة الدارين ، وهكذا كانوا أيام قاموا بحقوق الإسلام والإيمان .

والكفار في هذا العصر ينفقون الكثير من الأموال للصد عن الإسلام وفتنة الضعفاء من العامة بالدعوة إلى دينهم وتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم ومعالجة

رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم إلى نحو ذلك من الوسائل الناجعة في نشر دينهم وفتنة المسلمين عن دينهم وهم لا يباليون ماذا يفعلون - إلا ساء ما كانوا يعملون .
 (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى إن الله كتب النصر والغلب لعباده المتقين والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقايلهم من الكفار للصد عن سبيل الله ، ليميز الكفر من الإيمان والحق والعدل من الجور والطغيان .

وهذا التمييز بين الأمرين في سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما :
 فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ « وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة ، فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة ومن ثم قال :
 (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) أى ويجعل الله الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض على حسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات واختلاف المتناكرات كما جاء في الحديث « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ثم يجعل أصحابه في جهنم إلى يوم القيامة ، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولَئِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه حال من يصر على الكفر والصد عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وعاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة - قفى على ذلك ببيان من يرجعون عنه ويدخلون في الإسلام لأن الأنفس في حاجة إلى هذا البيان فقال :

الإيضاح

(قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار : إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله ، يغفر لهم الله ما قد سلف منهم من ذلك ومن سواه من الذنوب ، فلا يعاقبهم على شيء من ذلك فى الآخرة ، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون فلا يطالبون قاتلا منهم بدم ولا سلبا أو غانما بسلب ولا غنم .

روى مسلم من حديث عمرو بن العاص قال : « فلما جعل الله الإيمان فى قلبى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت ابسط يدك أبايك ، فبسط يده فقبضت يدي ، قال مالك ، قلت أردت أن أشترط . قال ماذا تشترط ؟ قلت أن يغفر لى ، قال أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ » .

(وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) أى وإن يعودوا إلى العدا والصد والقتال تجر عليهم سننه المطردة فى أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقتلواهم ، من نصر المؤمنين وخذلانهم وهلاكهم كما حدث لهم يوم بدر كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

ثم بين ماسلف من قوله : فقد مضت سنة الأولين ، ورغب المؤمنين فى قتالهم فقال : (وقتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) أى وقتلواهم أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب وضروب الإيذاء لأجل تركه كما فعلوا ذلك حين كانت لهم القوة والبطش فى مكة إذ أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم أتوا لقتالكم فى دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله فلا يستطيع أحد أن يفتن أحدا عن دينه ويكرهه على تركه إلى دين المسكره تقية وخوفا .
وخلاصة ذلك — قاتلواهم حتى يكون الناس أحرارا فى عقائدهم لا يكره أحد

أحدا على ترك عقيدته إكراها ولا يؤذى ويعذب لأجلها كما قال تعالى : « لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم ولا يكرهون عليه أحدا من دونهم .

وروى عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك - والمعنى عليه - قاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام .

ويؤيد الرأي الأول أنه جاء رجلان في فتنة ابن الزبير إلى عبد الله بن عمر فقالا إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج؟ قال يمنعني أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا ولم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال قد قاتلنا حتى ألم تكن فتنة وكان الدين لله وأتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

(فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) أى فإن انتهوا عن الكفر وعن قتالكم فإن الله يجازيهم على ما فعلوا على حسب عمله .

(وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير) أى وإن أعرضوا عن سماع تبايغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقاتلهم لكم فأيقنوا بنصر الله ومغوثته لكم وهو متولى أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخشوا بطشهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره .

وما غلب المسلمون في العصور الأخيرة وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتمام بهدى دينهم وتركوا الاستعداد المادى والحربى الذى طلبه الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » واتكلوا على خوارق العادات وقراءة الأحاديث والدعوات ، وذلك مالم يشرعه الله ولم يعمل به رسوله - إلى أنهم تركوا العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التى انتصر بها السلف الصالح ، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم .

وعلى العكس من ذلك اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام فاستعدوا للحرب واتبعوا سنن الله في العمران فرجحت كفتهم ، والله الأمر .

وما مكن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرها من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد في الآداب ومساوى الأخلاق والعادات والانغماس في الشهوات واتباع سلطان البدع والخرافات - فجاء الإسلام وأزال كل هذا واستبدل التوحيد والفضائل بها ، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها .

ولما أضع جبهة المسلمين هذه الفضائل واتبعوا سنن من قبلهم في اتباع البدع والردائل وقد حذرهم الإسلام من ذلك ، ثم قصروا في الاستعداد المادى والحربى للنصر في الحرب عاد الغلب عليهم لغيرهم ومكن لسواهم في الأرض : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مَنْ بَعْدَ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى الصالحون لاستمرارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات .

وفق الله المسلمين إلى الهدى والرشاد وجعلهم يعيدون سيرتهم الأولى ويهتدون بهدى دينهم ويستمسكون بأدابه ويتبعون سيرة السلف الصالح فيكتب لهم العز في الدنيا والسعادة في الآخرة ، والحمد لله أولاً وآخراً .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء في ليلة العشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف بمدينة حلوان من أرباض القاهرة ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

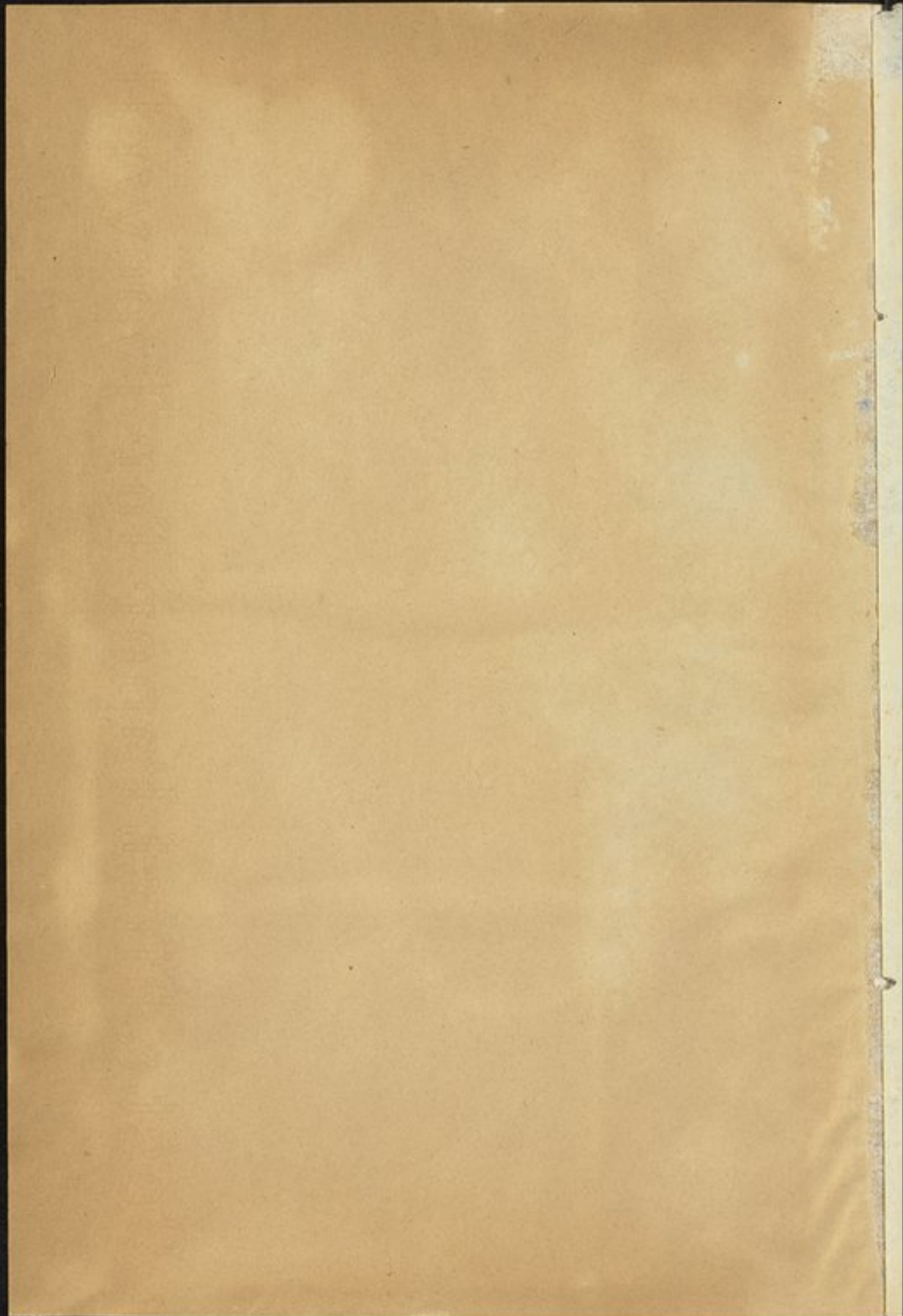
فهرس

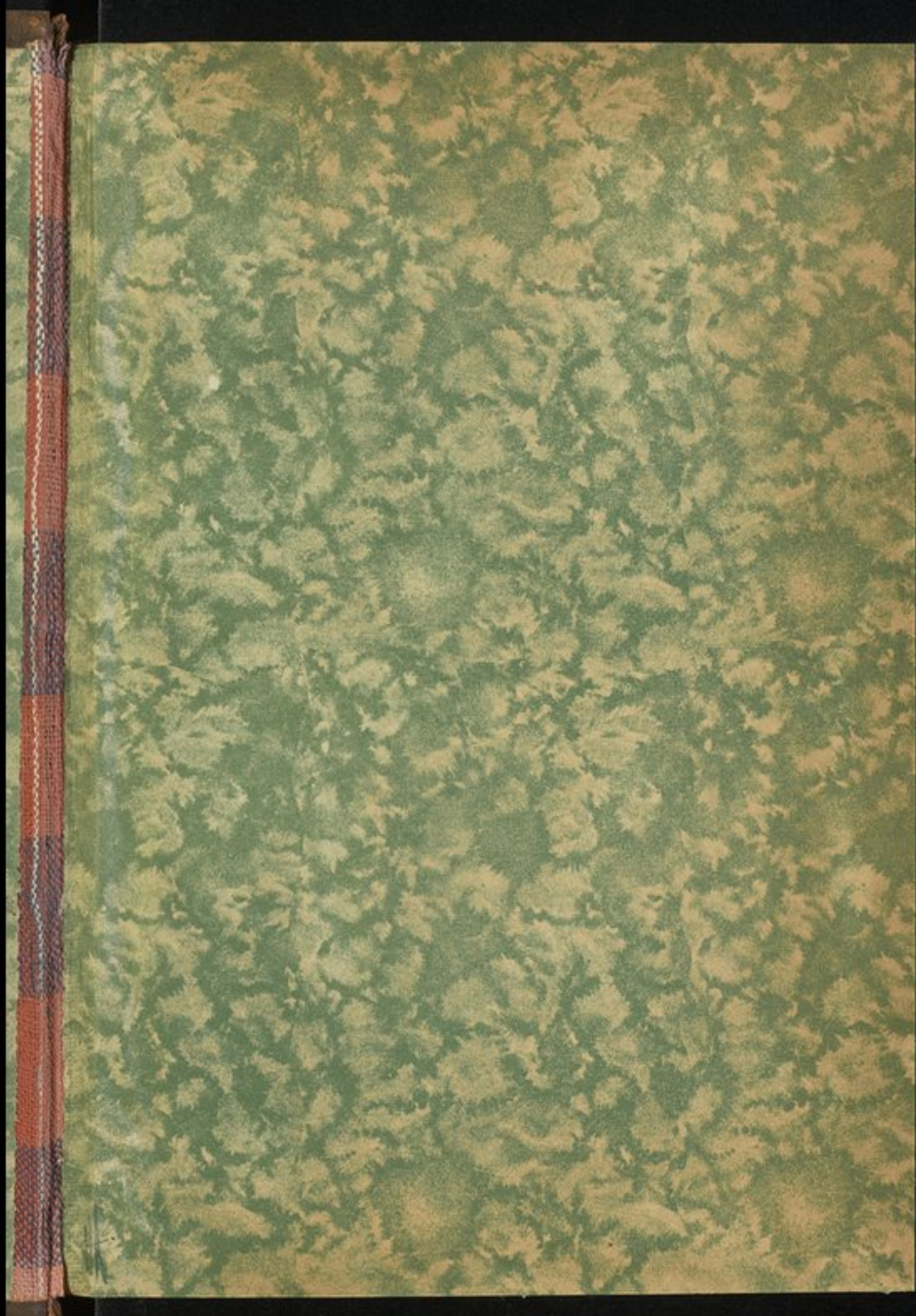
أهم المباحث لعامة التي في هذا الجزء

المبحث	الصفحة
حب الوطن لا يبلغ منزلة حب الدين .	٤
أوجب الله الهجرة على من يستضعف في وطنه فيمنع من إقامة دينه فيه .	٥
الإيمان الصحيح سبب سعادة الدنيا والآخرة .	١٥
الأمن من مكر الله خسران ومفسدة كاليأس من رحمته .	١٦
في قصص الماضين عبرة للحاضرين .	١٧
ذكر اسم موسى في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة .	٢٢
الفن السياسية والأكاذيب التي حدثت في الصدر الأول مرجعها إلى الفرس الذين كانوا يروجون الغش والتدليس لإفساد الإسلام .	٢٤
السحر وضروبه ورواجه في البلاد الممجية .	٢٦
السحر صناعة تتلقى بالتعليم .	٢٧
اتهم فرعون السحرة بالتواطؤ مع موسى	٣٥
التاريخ المصرى يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة .	٣٧
ما كتبه المفسرون عن بني إسرائيل منقول بالسمع منهم أو مأخوذ من كتب لا يوثق بصدقها .	٣٩
طلب بنو إسرائيل من موسى أن يجعل لهم آلهة يعكفون على عبادتها .	٥١
سحرة موسى كانوا من العلماء .	٥١
في القرآن وعد بزوال الوثنية من مصر .	٥٣

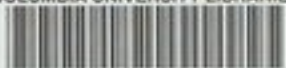
المبحث	الصفحة
الأخبار متعارضة في رؤية الله يوم القيامة .	٥٩
كثير ممن تعلم العلم في البلاد الغربية من المسلمين يحتقرون هداية الدين الروحية .	٦٦
عجل السامري وصفته وكيف كان صنعه، ورد القرآن على من اتخذوه إلهاً .	٦٨
اختار موسى من قومه سبعين رجلاً .	٧٨
صفات النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن .	٨١
ما جاء في التوراة عن عدد بني إسرائيل الذين كانوا في التيه، ورد ابن خلدون على ذلك .	٨٩
الحكمة في كون النبي محمد عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب .	٩٣
هل كان مسخ بني إسرائيل في الخلق أو في الخلق ؟	٩٦
ضرب الله المثل لمن يميل إلى الدنيا ويتبع هواه بالكلب في أقبح حالاته .	١٠٩
المؤمن تسمو نفسه بمعرفة ربه فلا يذل لغيره ولا يخاف منه .	١١٣
المسلمون أهملوا النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق .	١١٤
الإسلام يحض على استعمال الطيبات في الحياة بلا تقتير ولا إسراف .	١١٥
إن لله تسعة وتسعين اسماً .	١١٧
عقاب الأمم مبني على التواميس التي سنها الله في الخليقة .	١٢٣
الأمر بالنظر في ملكوت السموات والأرض .	١٢٥
تأتي الساعة على الناس بغتة وهم لا يشعرون .	١٢٨
الحكمة في إخفاء الآجال والأعمال .	١٣٠
عمر الدنيا وما جاء في ذلك من الآثار .	١٣١
أشراط الساعة وأماراتها .	١٣٢
المهدي المنتظر .	١٣٣

المبحث	الصفحة
الرسول لا يعلم من الغيب إلا ما أطلمه الله عليه .	١٣٦
قوى الروح بالإيمان والتقوى لا تؤثر فيه نزغات الشيطان .	١٥١
المؤمن إذا مسه طائف من الشيطان تذكر فأناوب إلى ربه .	١٥٢
أوصاف القرآن .	١٥٣
ما يفعله جماهير الناس في المحافل عند سماع القرآن .	١٥٥
ذكر الله باللسان وحده لا يجدى نفعاً .	١٥٦
قصة بدر وسببها .	١٦٨
دعاء النبي ربه قبل الغزوة .	١٧٢
إنزال الملائكة مدداً للمؤمنين	١٧٣
الفرار من الزحف من الكبائر .	١٧٩
من يتبع هواه لا تؤثر فيه النصائح .	١٨٨
عقاب الأمم على ذنوبها مطرد دون عقاب الأفراد .	١٩٠
الحيانة من صفات المناقين والأمانة من صفات المؤمنين .	١٩٣
المتقى يؤتيه الله فرقاناً يميز به بين الرشذ والعى .	١٩٦
اتفقت كلمة المشركين على إيفاع الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم بإحدى ثلاث .	١٩٨
أهل الكفر الآن ينفقون الأموال للصد عن الإسلام وفتنة الضعفاء	٢٠٥
ما غلب المسلمون وذهب أكثر ملكهم إلا لتركهم هدى الإسلام .	٢٠٨





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758590

JAN 12 1977

